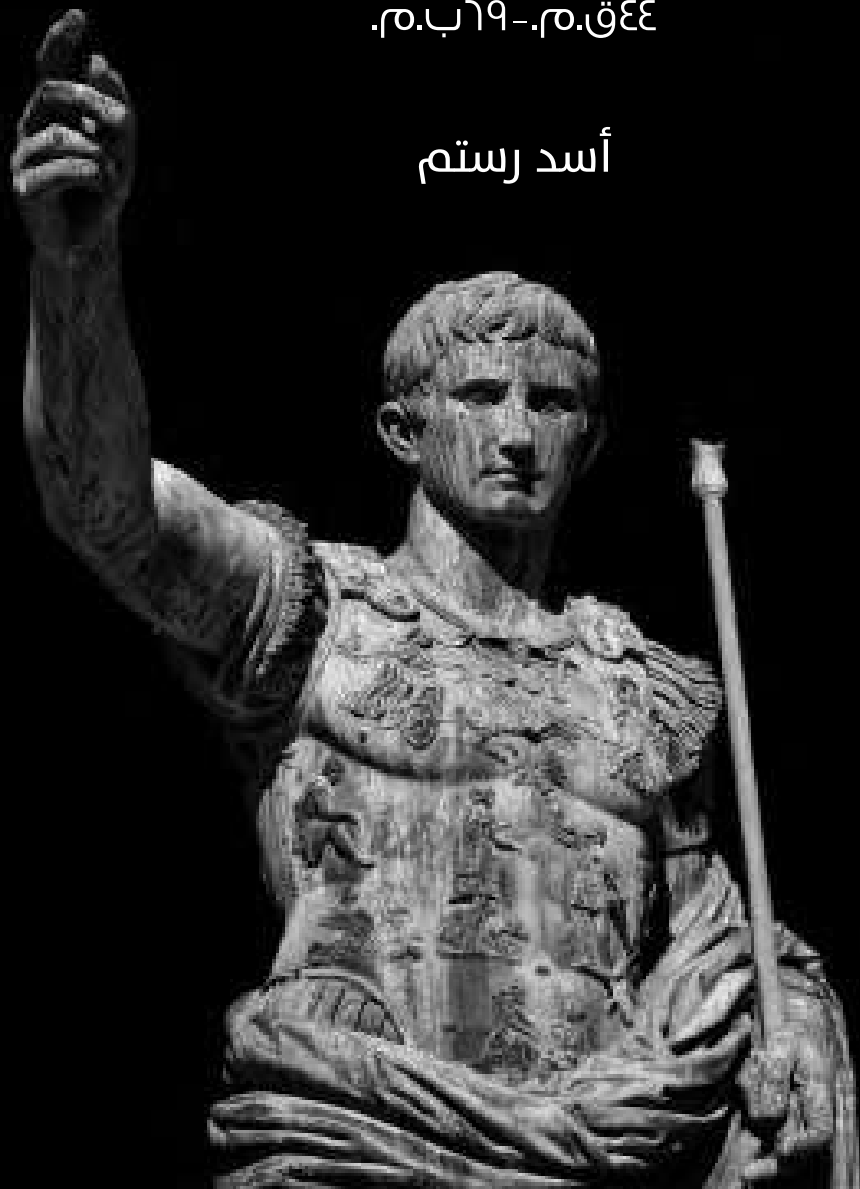


عصر أوغسطس قيصر وخلفائه

٤٤ق.م. - ١٩ب.م.

أسد رستم



عصر أوغوسطوس قيصر وخلفائه

٤٤٤ ق.م. - ٦٩ م.

تأليف
أسد رستم



عصر أوغسطس قيصر وخلفائه

أسد رستم

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلي يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٩٢ ٩

صدر هذا الكتاب عام ١٩٦٥.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُنْصَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٩	كلمة المؤلف
١١	المراجع
٢٣	الجزء الأول: المقدمات
٢٥	١- رُومَة القديمة
٦٧	٢- الثورات وظهور سُلطة الفرد
٨٩	٣- حُكم الثلاثة
١٢١	٤- عهد المواطن الأول
١٤٥	الجزء الثاني: الإدارة، السياسة، الحرب
١٤٧	٥- المواطن الأول والسناتوس والإدارة
١٦٥	٦- المواطن الأول والجيش والأسطول
١٨٧	٧- أوغوستوس والشرق
٢٠٩	٨- رومة واليهود العرب
٢٣٧	٩- خلفاء أوغوستوس الأقربون
٢٧٣	١٠- الأقربون والإمبراطورية



أوغسطسوس الإمبراطور (من آثار فيلة لبة، متحف الفاتيكان).

كلمة المؤلف

يعود الفضل في تحبيب رومة إلينا، وتدريبنا في تأريخها إلى معلمنا الدكتور كارل هوت، أستاذ تاريخ رومة في جامعة شيكاغو، فإنه جمع في شخصه الكريم تعمُّق الألمان وإحاطتهم، ومنطق الإفرنسيين وسلاستهم، واستقلال الإنكليز في الرأي بدون تطرفهم، وتزويق الأميركيين وتشويقهم. وتعود بنا الذاكرة إلى ربيع السنة ١٩٢٤م، عندما جلسنا مع أستاذينا الدكتور جايمس هنري برستد، إمام علماء عصره في تاريخ مصر والشرق في العصور القديمة، والدكتور هارولد نلسن، أستاذ التاريخ القديم في جامعة بيروت الأميركية، نبحث في حاجة الشرق العربي إلى كتاب في التاريخ القديم يسد حاجة الطلبة العرب، فلم نرَ آنئذٍ أفضل من كتاب برستد في العصور القديمة، ولكننا لفتنا نظره إلى وجوب التوسع في أخبار الشرق القديم، فأطلق يدنا في ذلك، وانبرينا نعد مع الدكتور نلسن نصًّا جديدًا لهذا الكتاب، يتفق وحاجة الطلاب العرب، وولنا أمر الترجمة إلى أستاذنا داود قربان؛ لما كان يتمتع به من مقدرة في النقل من الإنكليزية إلى العربية، وتعاوننا معه في ذلك لضبط معاني المصطلحات التاريخية الفنية، فظهر في صيف السنة ١٩٢٥م كتاب «العصور القديمة»، وهلل لظهوره رجالُ التربية في جميع الأقطار العربية.

ودخلنا في دور من الانتداب كان الاستقلال فيه هدفًا مشروعًا، فنالت اللغة العربية اهتمامًا رسميًا أكثر بكثير من ذي قبل، وتمتع رجال الفكر من العرب بحرية فكر وانطلاق قول لم يتمتعوا بمثلهما في ظل الأتراك العثمانيين. وأُرسلت البعثات العلمية إلى جامعات الغرب، وكثر عدد رجال الاختصاص، وأنشئت الجامعات الوطنية الرسمية، فدخلنا في يقظة علمية عالية مباركة، لا نزال نجني فوائدها ونوسع نطاقها، ونقلنا كثيرًا من اللغات الغربية إلى لغتنا، فأحسنَّا الاختيار أحيانًا وأسأنا أحيانًا أخرى، ثم دخلنا في دور التصنيف، وكان من الطبيعي جدًّا أن نُعنى بتاريخ العرب، فكثُر العمل في هذا الميدان، وتعددت المصنفات

الحديثة وتنوعت، وارتفع مستوى البحث والتصنيف في هذا المضمار، حتى ساوى في بعض الأحيان أرفع ما وصل إليه العمل في جامعات الغرب، وشعر زملاؤنا في الغرب بهذا الارتفاع في المستوى واعترفوا به، فأشركونا في العمل العلمي الإجماعي، كلاً في حقل اختصاصه، ومن يقلّب صفحات الموسوعة الإسلامية في طبعتها الأولى ويقارنها بطبعتها الثانية؛ يلمس لمس اليد كثرة العلماء العرب الذين يشتركون اليوم في إخراج هذه الموسوعة في طبعتها الحالية.

ولكن التاريخ سلسلة متسلسلة، فلا سبيل إلى فهم دور من أدواره دون الالتفات إلى ما سبقه من حوادث وأحداث، وحاضرنا لا يزال مديناً بنوع خصوصي إلى حضارة اليونان والرومان وفكرهم وفنهم. ومن هنا اهتمامنا بعصر أوغسطس قيصر وخلفائه الأقربين، ومع أننا نقدر جهود زملائنا في جامعاتنا العربية في هذا المضمار حق قدرها، فإنه لا يسعنا إلا أن نلفت أنظار من يعينهم الأمر بأن ما فعلناه وبذلناه في تاريخ اليونان والرومان لا يزال ضئيلاً جداً، وأنه لا بد من مضاعفة الجهود لإعطاء هذه العصور العظيمة في تاريخ الحضارة المنزلة اللاتقة بها، إن من حيث التفرغ لها في الجامعات، أو من حيث الوقت المخصص لتدريسها في الدورتين الابتدائية والثانوية وفي الكليات العالية.

أسد رستم

عن رأس بيروت

في ١٥ آب سنة ١٩٦١م

المراجع

ومراجعنا «أصول» تخلفت عن رجال عصر أوغوستوس، عن عقولهم وعن أيديهم، ومصنفات قديمة ومؤلفات حديثة. وليس لنا في هذا التمهيد الوجيز أن نذكر المؤلفات التي صُنفت في المائة السنة الأخيرة في تاريخ أوغوستوس وعصره، فهي تعد بالألوف لا بالمئات، وقد أشرنا إلى أهمها في الهامش، فلترجع في محلات ورودها.

أما الأصول، فإنها إما كتابات نُقشت نُقشاً في ذلك العهد البعيد، وإما نقود سُكت سَكّاً، وإما نصوص تاريخية، والنقوش الكتابية: إما عبارات «تذكارية tituli»، وإما قرارات أو نصوص «عمومية acta». والعبارات التذكارية: إما نقوش على أضرحة الأموات تنبئ باسم المتوفى وعمره وشهرته، وتشمل في بعض الأحيان عبارات مدح وثناء، وإما نقوش نذرية نُقرت لمناسبات دينية معينة، وهناك طائفة من النقوش التذكارية على قاعدات التماثيل وأعتاب الهياكل وقناطر جر المياه وأعمدة المسافات إلى جوانب الطرق العمومية، والقرارات «العمومية acta» المحفورة على الحجارة أو صفائح المعدن تشمل المعاهدات والقوانين وقرارات مجلس الشيوخ وبعض البيانات. وأشهر هذه، البيان الذي أعده أوغوستس نفسه بأعماله وخدماته، ووُجد محفوراً باللاتينية واليونانية على ما تبقى من جدران هيكل رومة وأوغوستوس في أنقرة. ومن هنا تسميته Monumentum Ancyranum، وهو يُدعى أيضاً Res Gestae divi Augusti، ومن هذه القرارات والبيانات العمومية: الصفيحة البرونزية التي وُجدت في ليون، تحمل خطبة كلوديوس لمناسبة السماح للمواطنين الرومانيين الغاليين بالقيام بوظائف الدولة.

وهناك كتابات حُفرت على الموازين والمكايل وعلى بطاقات معدنية لغايات مختلفة، كالسماح بكمية معينة من الحبوب، أو منح حق الدخول إلى المآدب العمومية، أو الإشعار

بأن مجالداً من المجالدين قد أُعفي من المجادلة، ومن هذا النوع أيضاً، شارات الأرقاء وعليها اسم سيد الرقيق و«شهادات العسكريين diplomata militaria»، التي تذكر مدة الخدمة التي خدموها ونوع المكافأة التي نالوها، وقد نجدُ على الأسلحة والفتُوس أسماء حاملِها، والفرق التي انتموا إليها. وقد نقرأ على سراج من المعدن العبارة: «لا تلمسني إني لِمُرقس، لا لك.» وقد نجد على قطعة من الحلي اسم صاحبِتها، وهلم جرّاً.

وقد عُني رجال الاختصاص بهذه النقوش الكتابية، فأحصوها ووصفوها وأثبتوا نصوصها. وأفضل ما ظهر من ثمار أعمالهم «مجموعة النقوش اللاتينية Corpus Inscriptionum Latinarum» في أكثر من أربعين مجلداً، منذ السنة ١٨٦٣م، ومنتخبات «ديسو Dessau» (١٨٩٢-١٩١٦م)، وفيها ٩٥٢٢ نقشاً Inscriptiones Latinae Selectae، وتسجل «المجلة الإبيغرافية L'Année Epigraphique» جميع ما يُكتشف من هذه النقوش، وهناك «مجموعة النقوش اليونانية Corpus Inscriptionum Graecarum»، التي ظهرت بين السنة ١٨٢٥م والسنة ١٨٧٧م، والمجموعة Inscriptiones Graecae للنقوش الأوروبية. وقد ساهمت بيروت مساهمة فعّالة في هذه الأعمال العلمية العظيمة، فعُني الألبان اليسوعيان جلابير وموترد بمجموعة لنقوش سورية «الجغرافية» Inscriptions Grecques et Latines de la Syrie منذ السنة ١٩٢٩م، ولا يزال علامة بيروت وشيخ مؤرخيها الأب رينيه موترد يتابع العمل في هذا الحقل المفيد، وأفضل ما يُرجع إليه في مسكوكات هذا العصر مصنفات برنهارت وكوهن وماتينغلي وسيدِينهام،^١ وليس أفضل من مصنف فروك الألماني في مسكوكات سورية.^٢

وقد حفظ رمل مصر وجفافها عدداً كبيراً من الوثائق الرسمية وغير الرسمية باللغتين اليونانية واللاتينية مكتوبة على ورق البردي. ولا تزال مجموعات شوبارت أكمل من غيرها للبرديات اليونانية،^٣ ولا يستغني المؤرخ عن الرجوع إلى تعليقات متايس وفيلكن على النصوص اليونانية التاريخية البردية،^٤ ويجدر بالباحث ألا يهمل مقدمة كلدريني ومصنفات شتاين وجوغه في البرديات اللاتينية.^٥

وعلى الرغم من كثرة النقوش الكتابية المعاصرة، وتنوع الوثائق البردية الباقية، وتعدد المسكوكات المتنوعة، تظل النصوص التاريخية القديمة أغنى المراجع لعصر أوغسطس وخلفائه. وقد عُني ملكوفاتي بجمع النصوص التي تعود إلى أوغسطس نفسه،^٦ وعُني غيره مراراً برسائل شيشرون وخطبه،^٧ وشيشرون أشهر من أن يُعرّف. وقد عاصر الحوادث المروية في هذا الكتاب، حتى سنة وفاته ٤٣ قبل الميلاد.

(١) النصوص الضائعة

وتصدى لبحث حوادث هذا العصر الذي ندرس وتدوينها عدد من أعيانه، منهم «أسينيوس بوليو Asenius Pollio» رجل الدولة ونصير العلم والفن والأدب والقائد العسكري المدرب. فإنه دون تاريخاً متسلسلاً ضمَّنه حوادث السنوات ٦٠-٤٢ ق.م.، وتوفي في السنة ٤ بعد الميلاد. وقد ضاع مصنفه، ولم يبقَ منه سوى ما نقله عنه «أبيانوس Appianos». وقد ضاع أيضاً الشيء الكثير من مصنف «ليبيوس Titus Livius»، الذي أبصر النور في السنة ٥٩ قبل الميلاد، وتوفي في السنة ١٧ بعد الميلاد، ودون مائة وأربعين فصلاً في تاريخ رومة، لم يبقَ منها سوى خمسة وثلاثين،⁸ ولا سبيل إلى معرفة موقعه من حوادث السنوات ٤٤-٩ ق.م. إلا بما نقله عنه «ديو كاسيوس Dio Cassius»، وقل الأمر نفسه عن أوفيديوس باسوس، الذي عاش حتى أيام نيرون، ودون تاريخ حروب رومة في الألمانية، كما صنف تاريخاً لعصره، فإننا لا نعلم شيئاً عن كتابه الأول، ونميل إلى الاعتقاد أنه وصل في تاريخ عصره حتى السنة ٣١ أو ٤٧ بعد الميلاد، كما يُستدل من كلام نسيبه بلينيوس عنه،⁹ وألف «سرفيليوس نونيانوس Servilius Nonianus» الخطيب المعاصر تاريخاً شاع وانتشر في عهد كلوديوس أو أوائل عهد نيرون، ولكنه فقد فيما بعد،¹⁰ ومن هذه المصنفات الضائعة؛ تاريخ الشيخ «كريموتئوس كوردئوس Cremutius Cordius»، الذي انتحر في السنة ٢٥ ق.م.؛ لميوله الجمهورية. ويلوح لنا أن تاريخه شمل الحروب الأهلية وعصر أوغسطس، وأنه كان جمهورياً معتدلاً. وقد استعان بتاريخه كل من بلينيوس الأكبر وسنكه،¹¹ ومنها أيضاً تاريخ «كلويوس روفوس Cluvius Rufus»، الذي أبصر النور في أوائل التاريخ المسيحي، ونال عطف نيرون، واشترك في الحرب الأهلية في السنتين ٦٨-٧٠ ق.م.، وكتب تاريخه بعد وصول وسباسيانوس إلى منصة الحكم. وقد استعان بتاريخه كل من تكيثوس وسوتونيوس وديو كاسيوس، وقد يكون مرجعاً أساسياً ليوسيفوس المؤرخ اليهودي، كما ارتأى العلامة الكبير تيودور مومسن الألماني،¹² ومن هذه التواريخ الرومانية الضائعة كتاب رجل سنكه الخطيب «فابيوس روستيكوس Fabius Rusticus»، الذي انتقد نيرون وأيد سنكه، ولعل مصنفه تضمن أخبار رومة والرومانين ما بين أكتيوم وسقوط نيرون، وظهر وانتشر بين السنة ٧٤ والسنة ٨٣ ق.م.

ودون «بلينيوس الأكبر Gaius Plinius Secundus» ٢٤-٧٩ ق.م.، صاحب «تاريخ الطبيعة Historia Naturalis» تاريخين، الأول في «الحروب الألمانية Bellorum Germaniae»، والثاني في «إكمال تاريخ باسوس a fine Aufidii Bassi». ويُستدل مما

تبقى من هذين التاريخين، ومما جاء في تاريخ الطبيعة أن بلينيوس الأكبر كان واقعياً معتدلاً راضياً عن أوغسطس وكلوديوس ووسباسيانوس، وأنه اعتبر طيباريوس كثيراً، وغازيوس مبدراً، ونيرون «ثمالة الجنس البشري وعدوه *Faex generis humani et hostis*». مارس المحاماة وخدم العلم الروماني، فرافق طيطس، ولعله كان بين كبار ضباطه في أثناء الحملة على اليهود في السنة ٧٠، وتولى محصليات غالية وأفريقية وإسبانية، ثم قيادة الأسطول في السنة ٧٩ في مياه نابولي، وهُرع إلى الشاطئ في أثناء فوران فيزوفوس في السنة ٧٩، فاختنق بغازاته السامة.¹³

وأشهر الهلنيين أو المتهلنين الذين دَوَّنوا حوادث هذا العصر نقولاوس الدمشقي و«تيماغينس *Timagenes*» الإسكندري، و«فليغون *Phlegon*» التري. وُلد نقولاوس في دمشق في الأرجح في حوالي السنة ٦٤ ق.م.، ونال نصيباً وافراً من العلم فأصبح مستشار هيرودوس الكبير قبل السنة ٢٠ ق.م.، ورافقه مرتين إلى رومة بين السنة ١٤ والسنة ٤ ق.م. وبعد وفاة هيرودوس عاد إلى حياة عادية، ثم مثل هيرودوس أرخيلووس مرة واحدة في رومة. تعاطى الأدب الروائي والفلسفة والعلوم الطبيعية، ودَوَّن تاريخ حياته، وكتب في حداثة أوغسطس مقرّظاً، وصنّف تاريخاً عاماً في مائة وأربعة وأربعين فصلاً منذ أقدم العصور حتى وفاة هيرودوس الكبير، وأخذ عنه يوسيفوس أشياء وأشياء،¹⁴ وفي حوالي السنة ٥٠ ق.م. أُرْسِر الخطيب المعلم تيماغينس، ونُقل إلى رومة واستقرّ فيها، وكتب في أعمال أوغسطس، ثم تسرع فتهجم على أوغسطس ولبية. وكان بديئاً فغضب عليه الإمبراطور وأهمله، فلجأ إلى صديقه أسينيوس بوليو وأحرق ما كتب. ولا نعلم شيئاً عن مؤلفاته التاريخية الأخرى، ولكننا لا نستبعد أن تكون مصدر الفضائح والثرثرات التي نقرأ في مصنّف سوتوينوس وغيره،¹⁵ وكان فليغون التري أحد عتقاء الإمبراطور أدريانوس، فصنّف في مواضيع مختلفة، منها: الأولمبيات، والعجائب والغرائب. وهو الذي يفيدنا عن تماثيل طيباريوس، التي أقيمت في مدن آسية. وهو الذي يذكر أيضاً الظلمة التي أطبقت على الأرض عندما صاح يسوع صيحته العظيمة على الصليب.¹⁶

(٢) النصوص الباقية

وأول هذه بعد مصنّفات شيشرون وبيان أوغسطس عن أعماله، تاريخ «ويليوس بتركلوس *Velleius Paterculus*» الذي وُضع خصيصاً لمناسبة قنصلية سيده «وينيكوس *Vinicius*» في السنة ٣٠ ب.م.، وقد خصص سبعين فصلاً من فصوله للحوادث التي

جرت بعد السنة ٤٤ ق.م. وُلد ويوليوس في السنة ١٩ ق.م.، وتوفي في السنة ٣١ ب.م.، رافق غايوس إلى الشرق في السنة الأولى بعد الميلاد، وتولى التربة في تراقية ومقدونية، وقاتل في ألمانيا، وتقاعد بعد ذلك فكتب مشيداً بمناقب طيباريوس العسكرية ومواهبه الإدارية والسياسية،¹⁷ وكُرِّس «واليوريوس مكسيموس Valerius Maximus» مجلداته التسعة في مُثُل الفضيلة وأنواع الرذيلة¹⁸ لعناية طيباريوس السماوية، وهي لا تخلو من بعض المعلومات عن رجال العصر وعن مصادرات السنة ٤٣-٤٢.¹⁹ وعاصر سنكه الأصغر طيباريوس وغايوس وكلوديوس ونيرون. ومع أنه لم يصنف تاريخياً بالمعنى المضبوط، فإن رسائله تتضمن معلومات تاريخية هامة في بعض الأحيان، ولكنه كان يعطي لكل ظرفٍ حقه، فتتطور أحكامه من المديح والثناء إلى النقد اللاذع والتحقير، كما يُستدل من معالجته لعهد الإمبراطور كلوديوس.²⁰

وأفضل النصوص الباقية تواريخ تكيِتوس وحولياته. وُلد «كرنيليوس تكيِتوس Cornelius Tacitus» في حوالي السنة ٥٥ بعد الميلاد، وتزوج في السنة ٧٧ من بنت «كليغيولا Caligula» القائد القنصل الشهير. وتدرج في سُلَّم الوظائف، وأصبح «مقدماً Practor» في السنة ٨٨، ثم أُنْفذ حاكمًا على إحدى الولايات أربع سنوات متتالية، وفي السنة ٩٧ وصل إلى كرسي القنصلية مع «نروة Nerva» الإمبراطور فيما بعد. ثم عُيِّن واليًا على آسيا في حوالي السنة ١١٢، وتوفي في أوائل عهد أدريانوس أو آخر عهد تريانوس سنة ١١٧ ب.م.، وكان قد تعلم البيان ومارس الخطابة، فأضاف إلى ذلك خبرة شخصية في الحكم، وصنف كتاب التواريخ، فضمَّنه حوادث السنوات ٦٩-٩٦، ثم كتاب الحوليات، فعالج فيه حوادث السنوات ١٤-٤٨. وجاء كتاب التواريخ في اثنتي عشرة رسالة، لم يبقَ منها سوى الرسائل الأربع الأولى وبعض الخامسة.²¹ أما حولياته، فإنها جاءت في ثماني عشرة رسالة، وليس لدينا منها سوى الرسائل الأربع الأولى وبعض الخامسة والسادسة ونصف الحادية عشرة، وجميع الثانية عشرة حتى الخامسة عشرة وبعض السادسة عشرة،²² ومن آثار «تكيِتوس المحاور Dialogus de oratoribus»: وفيها أسباب انحطاط الخطابة في العهد الإمبراطوري. ومن خلفاته أيضًا «سيرة حميه أغريكولا de vita Julii Agricalae».

واستعان تكيِتوس في تدوين أخباره بمصنفات باسوس وروفوس وروستيكيوس ومسلة، وأضاف إلى ذلك ما وعاه هو في صدره. وقد ينقل مقتطفات متناقضة،²³ فيبدي رأيه في ذلك متمعمًا مدققًا،²⁴ ولا قيمة لافتراض «فابية Fabia» أن تكيِتوس تقيد بالنقل

عن غيره، وأنه وقف عند هذا الحد، ولكن لا يختلف اثنان في أن تكتيوس تأثر بنزعاته الشخصية في رواية الماضي، فهو يأسف كل الأسف لضياح الحرية التي تمتعت بها رومة في عهد الجمهورية،²⁵ ويرى أن ظل الرجل الفرد المتربع في دست الحكم أفاد الولايات، ولكنه قلل شعور الحاكم الفرد بالمسؤوليات المعنوية، ودفع بالرومانيين إلى التملُّق والانصياع، ويرى أيضاً قدر الآلهة تجيش على الرومانيين وتفور، ويرى عمله التاريخي شاقاً مظلماً؛ إذ ليس له إلا أن يدوّن ظنون طيباريوس، وانقياد كلوديوس لنسائه وعُتقائه، وغرور نيرون ورذائله.²⁶

ولم يكن «سوتونيوس ترانكويلوس Suetonius Tranquillus» من أكفاء تكتيوس أو أشباهه، ولكنه حفظ لنا أشياء مفيدة؛ دخل في حلقة بلينيوس الأصغر، والتحق مدة وجيزة بمعية الإمبراطور أدريانوس، وحرر له (١١٩-١٢١). ثم انصرف للبحث والتنقيب والتدوين، وأهم ما تبقى من مصنفاته «سير القياصرة الاثني عشر De Vita Caesarum»،²⁷ وقد أحاط بأخبار القياصرة وجمعها، ولكنه أثر في غالب الأحيان الأقوال الرسمية وشبه الرسمية، وأضاف أقاويل وإشاعات بدون نقد أو تمحيص،²⁸ وُلد في رومة في حوالي السنة ٦٩ ب.م.، وتوفي في السنة ١٤١.

وأفضل النصوص اليونانية الباقية جغرافية سترابون، وأعمال فيلون، وتواريخ يوسيفوس، وسير بلوتارخوس، وتواريخ أبيانوس وديو كاسيوس. وُلد «سترابون Strabon» في «أماسية Amasia» من أعمال البونط في أسية في السنة ٦٤ ق.م.، فنشأ رواقياً متجولاً، وصنف جغرافية باليونانية في سبع عشرة رسالة، وصف فيها بلدان العالم الروماني، وأوضح تطورها التاريخي والاقتصادي، وبَيَّن عجائبها ونواديرها. وعلى الرغم من قلة تدقيقه في بعض الأحيان، فإنه حفظ للمتأخرين معلومات مفيدة، وألَّف ثلاثاً وأربعين رسالة أسماها الأبحاث التاريخية، ولكنها ضاعت. وتوفي في السنة ١٩ بعد الميلاد.²⁹

وفيلون Philo Judacus يهودي إسكندري، وُلد في الإسكندرية في حوالي السنة ٣٠ ق.م. وتوفي فيها في السنة ٤٥ ب.م.، وكان فيلسوفاً باحثاً، لجأ إلى تأويل النصوص العبرية المقدسة؛ ليظهر أسبقيتها في حقل الفلسفة اليونانية، ولا سيما نتاج أفلاطون وأرسطو. ويتضمن كتابه «أعمال الله العجيبة» رسالتين Legatio ad Caium in Flaccum، وصف فيهما وصفاً دقيقاً الكارثة التي حلت باليهود في الإسكندرية في السنة ٣٨ ب.م. والرحلة التي قام بها وفد اليهود برئاسة فيلون إلى رومة، وأطنب فيلون في مدح طيباريوس؛ ليعارض بذلك مفاسد غايوس وشروره.³⁰



أما «يوسيفوس Josephus»، فإنه أبصر النور في فلسطين في حوالي السنة ٣٧ ب.م.، وانتضى إلى أسرة اشتهرت بخدمة الكهنوت، ودرس الناموس، وزهد ثلاث سنوات في البرية متتلمذاً «لبنوس Bannos»، متخرجاً فريسياً من الفريسيين، وأمّ رومة في السنة ٦٤ ب.م.، راجياً إطلاق سراح بعض زعماء اليهود، فنال عطف بوبيه زوجة نيرون. وفي السنة ٦٦ اشترك في الحرب ضد رومة، ولكنه وقع أسيراً بعد سنة في يد القائد الروماني وسباسيانوس، فنال عطفه بأن تنبأ أن هذا القائد سيصبح إمبراطوراً في مدة قريبة، فلما وصل وسباسيانوس إلى سدة الحكم في السنة ٦٩ أطلق سراح يوسيفوس، فأخذ هذا لنفسه الاسم «فلافيوس Falavius». وفي أثناء حصار أورشليم في السنة ٧٠ ترجم يوسيفوس «لطيّس Titus» القائد، ورافقه إلى رومة، واستقر فيها مكرماً معزّزاً، وأصبح مواطناً رومانياً، وتلقى من خزينة الدولة معاشاً مكّنه من الانصراف إلى التأليف، فصنف في السنة ٧٧-٧٨ كتابه في حرب اليهود، مبتدئاً من ثورة المكابيين. ولعله وُضع بالآرامية أولاً ثم نُقل إلى اليونانية. وفي السنة ٩٤ ظهر كتابه في تاريخ اليهود القديم في عشرين رسالة، ابتدأت بأخبار الخليفة، وانتهت بانتهاء الثورة.³¹

ولا نعرف الشيء الكثير عن «بلوتارخوس Plautarchos» الفيلسوف المؤرخ (٤٦-١٢٠ ب.م.)، ولكننا نعلم أنه زار رومة مرتين محاضراً فيها في الفلسفة الأدبية، وأنه رحل إلى الإسكندرية، وتجوّل في إيطاليا وبلاد اليونان، وأنه انتضى إلى طغمة الكهنة في دلفي، وأنه تولى منصباً إدارياً في آخر حياته في «خيرونية Chaeronia» مسقط رأسه. وتحاشى فيما كتب واعتدل وزوّق وشوّق، فراجت مصنفاته رواجاً كبيراً، وأقبل عليها القراء من جميع الأوساط.

وكتب بلوتارخوس في «السير المتوازية Bioi paralleloi»، فوصف حياة رجل دولة يوناني أو عسكري، ثم أردف حياة روماني بارز مبيناً وجوه التشابه، منتهياً بمقابلة أو مقارنة بين الاثنين، فجاءت سيره المتوازية ثلاثة وعشرين زوجاً، ولما كان بلوتارخوس فيلسوفاً فإنه غني بأخلاق الرجال أكثر من أعمالهم السياسية، وكتب أيضاً في «الأخلاق Moralia» كتاباً منفرداً، عالج فيه الحياة الزوجية والدين والخرافات وما شاكل ذلك. وكان أفلاطونياً فعارض الرواقين والأبيقوريين.³²

وولد «أبيانوس Appianos» في الإسكندرية في أواخر القرن الأول بعد الميلاد، فتسنى له اختبار ثورة اليهود في السنة ١١٦، واستوظف في الإسكندرية. وبعد أن نال حقوق المواطن الروماني انتقل إلى رومة، وأصبح فارساً و«مارس المحاماة advocatus fisci»، وغني بحروب رومة منذ أوائل عهدها حتى أيام وسباسيانوس، فدوّن أربعاً وعشرين رسالة فيما أسماه Romaika، والرسائل العشر الباقية تبحث في حروب قرطاجة، والحرب الأهلية من ماريوس حتى سولة. فالسنة ٣٤ ق.م. وقد أخذ كثيراً عن أسينيوس يوليوس، فعارض شيشرون وموناتايوس بلانكوس، ولعله نقل أيضاً عن مسالة «كوروينوس Corvinus» وعن أوغسطس نفسه في سرد أخبار حروبه.³³ توفي في السنة ١٦٠ ب.م.

وكتب كاسيوس Dio Cassius Cocceianus باليونانية أيضاً. وُلد في نيقية من أعمال بيشنية في منتصف القرن الثاني بعد الميلاد، وتولى القنصلية في رومة في السنة ٢١١ وفي السنة ٢٢٩، وأدار شئون أفريقية ودماتية، وتوفي في السنة ٢٣٥. غني بتاريخ رومة منذ أقدم العصور حتى السنة ٢٢٩، فجاء في ثمانين رسالة، لم يبقَ منها سوى السادسة والثلاثين حتى الستين، والتاسعة والسبعين. وتضمنت الرسائل الأربع عشرة الأولى هذه أخبار السنوات ٦٨ ق.م.، حتى ٥٤ ب.م. وأحاط كاسيوس بما كُتب قبله ونظر فيه، ولكنه لم يدقق تدقيق تكيثوس.³⁴

هوامش

(1) Bernhardt, M., *Hardbuch zur Munzkunde des romischen Kaiserzeit*, (1926); Cohen, H. *Description hist, des monnaies frappées sous l'Empire romain*, (1880–1892); MATTINGLY, H., and E.A. SYDENHAM, *The Roman Imperial Coinage*, I, (Augustus to Vitellius), 1923.

(2) Wauck, W., *Die syrische Provinzialprägung von Augustus bis Trajan.*, (1931).

(3) SCHUBART, W., *Einfuhrug in die Papyruskunde*, 1917.

(4) MITTRIS, L., und WILCKEN, U., *Gryndzuge und Chrestomathie der Papyruskunde*, 4 vols., 1912.

(5) CALDERINI, A., *Manuale di Papirologia*, (1938); STEIN, A., *Untersuchungen zur Gesch. Und Venvaltung Argyphens unter rom. Herschaft*, (1915); JOUOURT, P., *Les Papyrus Latins d'Egypte*, Rev. Etud. Lat., 1925.

(6) MALCOVATI, H., *Caesaris Augusti Imperatoris operum fragmenta iteratis curis collegit*, (1928).

(7) PURSER, L.C., *Cicero Epist. Ad Atticum, ad M. Brutum, ad Familiares*; TYRELL and PURSER, *Corresp. of M. Tullius Cicero* (1915–1933); CLARK, A.C., *Cicero, Philippicae*, (1926).

(8) *Periochae*, 116–134; *Orosius*, 6: 18–20, 7: 6; *Florus*, 2: 14–21, 26; *Eutropius*, 7: 1–8; *Incerti, de uiri illustribus*, 79–85.

(9) PETER, H., *Hist. Rom. Reliq.*, II, 1906; FABIA, Ph., *Les Seurces de Tocite*, 185, 355.

(10) PETER, H., *op. cit.*, II, 1906.

(11) *Ibid.*

(12) FABIA, Ph., *op. cit.*, 171, 376.

(13) WEATHERED, H.N., *The Mind of the Ancient World: A Consideration of Pliny's Natural History*, (1937).

(14) WITTE, W. *De Nicolai Dam. frag. rom. fontibus*, (1900); Jacoby, F., *Fragmente der griechischen Historiker*, II, 324.

(15) MULLER, C., *Fragmente Historicorum Graccoram*, III, 317–323; Jacoby, F., *op. cit.*, II, 88.

(16) MULLER, C., *op. cit.*, 257.

(17) Text: SHIPLEY, F.W., *Vellieus Paterculus*, (Loeb Class. Lib.); Life and Work., WIGHT DUFF, J., *Lit. Hist. of Rome, Silver Age*, 83 ff; SUMMERS, W.C., *Silver Age of Latin Lit.* 139 ff.

(18) *Factorum ac dictorum memorabilium libri IX*.

(19) Text: KEMPF, C., (1854); Translation: SPEED, W..

(20) *Apocolocyntosis divi Claudii*.

(21) Text: HALM and ANDERSON, (1916); Translation: FYFFE, (1912), MOORE, (Loeb, 1925–1931).

(22) KOSTERMANN, (1932–1934); Trans.: JACKSON, (Loeb, 1931).

(23) *Hist.* 3:28; *Ann.* 13:20, 14:2.

(24) PLIN., *Epist.*, 7:33.

(25) “liberatum et consulatum”, *Ann.* 1:1, 4:63.

(26) BOISSIER, G., *Tacite*, (1923); MARCHESI, C., *Tocito*, (1924); SCHWABE, L., *Real-Encyc.*, IV, 1566; DUFF, *Lit. Hist. of Rome, Silver Age*, 559–598.

(27) Text: TRUBNER (Roth Ihm); Text and Transl.: ROLFE, J.C., (Loeb, 1914).

(28) MOMMSEN, Th., *Hermes*, III, 43 ff.; MACE, A., *Essai sur Sultone*, (1900); STUART, D.R., *Epochs of Greco-Rom. Biography*, (1928).

(29) JONES, H.L., *The Geograpy of Strabo*, (Loeb).

(30) Text: COHN, Wendland, *Reiter*, 7 vols., (1896–1930); Box, H., *In Flaccum*, (1939); GOODENOUGH, R.E., *The Politics of Phile Judacus*, (1938); DANIELOU, J., *Philon d’Alexandrie* (1957).

(31) Text: NIESSE, B., Berlin, 1887–1895; Text and Trans.: THACKERAY, H.J., (Loeb, 1926–1931); LAQUZUR, R., *Der judische Historiker Flavius Josephus*, (1920); THACKERAY, H.J., *Josephus the Man and the Historian*, (1929); ZEITLIN, S., *Josephus on Jesus*, (1931).

(32) Text: Vitae: TEUBNER, (Lindskog-Zeigler, 1914–1935); Trans.: PERRIN, B., (Loeb, 1914–1926); WEIZSACKER, A., *Untersuch. u. P.'s biog. Technik*, (1931).

(33) Text: MENDELSSOHN, L., (1879–1881); WHITE, H.E., (Loeb, 1912–1913); CARCOPINO, J., *Autour des Cracques*, (1928); KLOTZ, A., *Appians Darstellung des zueiten Punischen Krieges*, (1936).

(34) MELBER, J., (Teubner, 1890–1928); CARRY, E.W., (Loeb, 1914–1927); SCHWARTZ, E., *Real-Encye.*, III, 1684.

الجزء الأول

المقدمات

الفصل الأول

رُومَة القديمة

كانت إيطاليا قديماً أهم بلدان غرب المتوسط، وبما أن أرضها تنحدر إلى الغرب، فهي منه وإليه تنتمي. وتمتد شبه جزيرة إيطالية في البحر إلى مدى بعيد، ويبلغ طولها ٩٦٠ كيلومتراً، ومساحتها أربعة أمثال مساحة اليونان، ولا تقطعها الجبال إلى أودية متمعة وسهول مقتضبة، فسلسلة الأبنين الرئيسة، وإن كانت تخترق شبه الجزيرة بانحراف من جهة الشمال، فهي موازية للسواحل، وليس من مثيل لسهول إيطالية الكبيرة الزراعية في كل بلاد اليونان، وفي أنجادهما وهضابها مراعى خصيبة للأنعام والمواشي، لا تضاهيها مراعي بلاد اليونان، لا في رحابتها ولا في نضارتها، وسواحلها غير مفللة أو مشرشرة كسواحل بلاد اليونان، وبالتالي، فموانئها الصالحة لرُسُو السفن أقل؛ ولهذا أتقن أهلها الزراعة وتربية المواشي قبل أن يتقنوا التجارة.

(١) الهجرات الأولى

وجذبت سهول إيطالية ومنحدرات جبالها، التي تكسوها الغابات الغضة شعوب البلدان الشمالية الشديدة الزمهرير، ففي حوالي السنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، انحدر نحو الجنوب الدافئ سكان بحيرات سويسرة، واستولوا على بحيرات شمال إيطالية. وقد وجد العلماء المنقبون آثار مائة جالية من هؤلاء أو أكثر في وادي البو. وكان هذا الوادي مستنقعات فسيحة جداً، فتملكوها وبنوا فيها منازلهم الخشبية على عمد مغروزة في الماء والوحل، ولا تزال منازل البندقية قائمة على عمد، وإن كان جزء كبير منها مبنياً بالحجر. وفيما كان سكان هذه القرى يهبطون وادي البو، كانت القبائل الهندية الأوروبية قد أخذت تشعر بجاذبية آكام إيطالية وهضابها الخضراء الدافئة، ويرجح أنه بعد وصول اليونان «الهنديين الأوروبيين» إلى بلاد اليونان بزمان غير طويل كانت قبائل أخرى من

نوعهم قد دخلت إيطاليا. وكانت أهم هذه القبائل تلك التي احتلت الأقسام الوسطى والجنوبية من شبه الجزيرة، وعُرفت هذه القبائل بالإيطالية، فأطلق اليونانيون اسمهم على القسم الجنوبي من شبه الجزيرة، ثم عليها كلها.

وبينما كان الإيطاليون يتحاربون بعضهم مع بعض، أبصروا جماعة من لصوص البحر البسلاء ينزلون في ساحل إيطاليا الغربي، ويُعرفون بالأترسكيين، ويُرجَّح أن هؤلاء الأترسكيين كانوا يستوطنون آسية الصغرى الغربية، والآثار المصرية تُنبئنا بما قاموا به من الغارات البحرية على شاطئ الدلتة منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد. فلا يُستبعد، والحالة هذه، أنهم وصلوا إلى إيطاليا بالظروف نفسها، وفي حوالي السنة ١٠٠٠ قبل الميلاد، فصدوا قبائلها الهندية الأوروبية إلى الورا، واستولوا على ساحل إيطاليا الغربي من نابولي حتى جنوا.

وكان القرطاجيون ثاني المزامين الثلاثة، الذين تصدوا للقبائل الإيطالية في أثناء العصر الذي بلغ فيه الفينيقيون أوج نجاحهم التجاري، أي في حوالي بداية الألف الأول قبل الميلاد. خرج الفينيقيون بتجارتهن إلى غرب المتوسط، وشيدوا على الساحل الأفريقي مقابل جزيرة صقلية مدينة تجارية أسموها قرطاجة «قرت خودش» القرية الحديثة، ولم يَمْضِ عليها ربح من الزمن حتى صارت أهم مرفأً تجاري في غرب المتوسط. وبعد أمدٍ قصير دخل في حوزة الفينيقيين ساحل أفريقية الشمالي حتى المحيط الأطلسي، وفضلاً عن استيلائهم على جنوب إسبانية طمحت أبصارهم إلى ابتلاع جزر غرب المتوسط، ولا سيما صقلية القريبة من إيطاليا.

ورأى الإيطاليون خصمهم الثالث يهاجم الغرب، فيما كان القرطاجيون يسيطون سلطانهم عليه، فالإيونانيون بدءوا يتوسعون غرباً، وينشئون المستعمرات في صقلية وجنوب إيطاليا في القرن الثامن قبل الميلاد، ولكن مستعمراتهم هذه لم تستطع أن تتحد فتكوّن حكومة كبيرة. وكانت سرقوسة أشد المدن اليونانية الغربية حولاً، فتولت الزعامة عليها غير مرة، ولا يغيب عن البال أن أثينة حاولت فتح الغرب بمجرد الاستيلاء على سرقوسة.

(٢) النزاع بين أخصام الإيطاليين

ولم تكن القبائل الإيطالية في بادئ أمرها شيئاً يُعتد به، فانحصرت المزاخمة بين أخصامها الثلاثة، فكان اليونانيون في صقلية وجنوب إيطاليا ضد الأترسكيين والقرطاجيين. ولا

يبرح من البال كيف فاز اليونانيون في سرقوسة سنة حرب سلاميس الشهيرة فورًا مبيّنًا على القرطاجيين، وكيف خلصوا صقلية من الدخول في حوزة القرطاجيين، وذلك في السنة ٤٨٠ ق.م.، وبعد ذلك ببضع سنين، في السنة ٤٧٤ ق.م.، قامت سرقوسة أيضًا، وهاجمت الأترسكيين فعقد النصر لها، وحطمت مراكبهم في مياه «كومي Cumae»، واستولى «هيرون Hieron» طاغية سرقوسة على خوذة أترسكية فكرّسها في أوليمبية كجزء من الغنيمة، التي غنمها من الأترسكيين في كومي، وهي الآن في المتحف البريطاني. ولا تزال الكتابة التكريسية التي أمر بنقشها طاغية سرقوسة بادية عليها.



الخوذة الأترسكية.

(٣) اللاتينيون

وأقام فريق من القبائل الإيطالية، عُرفوا باللاتين، على الضفة الجنوبية الشرقية من نهر التير. ولما جاء الغزاة الأترسكيون واحتلوا السواحل، كانت هذه القبائل اللاتينية قد احتلت سهلًا أقل من ٦٤ كيلومترًا طولًا في ٤٨ عرضًا، ودعته «لاتيوم Latium»، وعاش اللاتين كجيرانهم الإيطاليين جوالي صغيرة متفرقة، يزرعون الحبوب ويرعون القطعان على الأنجاد والهضاب. ولما لم تكن أرضهم شديدة الخصب اضطررتهم الحال إلى الجد والاجتهاد. وكان مركزهم بلدة اسمها «ألبا لونغا Alba Longa» «الطويلة البيضاء»، كانوا ينضوون تحت لوائها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وكانوا يرقبون نمو المدن الأترسكية الزاهرة على

الجانب الشمالي من نهر التير فيوجسون منها شرًا، وقد كشف المنقبون عن آثار «كرايه Carac» أقرب المدن الأترسكية الهامة إلى لاتيوم واللاتين، ويشاهد في الرسم قبور هذه البلدة، وقد حوت من المصوغات والآلات والأسلحة ما ينبئ بازدهارها في ذلك العهد.



قبور كرايه الأترسكية.

(٤) ظهور رومة

وحين كان اللاتينيون يرون أنفسهم في حاجة إلى شراء أسلحة أو بعض الأدوات الأخرى، كانوا يضطرون أن يحملوا كمية من الحنطة، أو يأخذوا ثورًا إلى سوق كانت تُقام في الجانب الجنوبي من نهر التير فوق المستنقعات المجاورة للساحل الممتدة إلى الداخل مسافة تتراوح بين ١٥ و ١٨ كيلومترًا، وسهّل عليهم عبور النهر رقة الماء ووجود جزيرة صغيرة عند هذه النقطة. وكان هناك فوق النهر جسر متين، بنوه بما كان لديهم من الآلات. وكان يشرف على الجسر رابية شاهقة تُعرف بالبلاطينية، كانت على قممتها قلعة مربعة الشكل لحراسة مخاضة الجسر. وكان في جوارها تلال أخرى مبنوث عليها بعض القرى، ولكن أهمها التل الذي شُيدت عليه القلعة، وكان التير وحده صالحًا للملاحة، ولكن المراكب الصاعدة في مجراه كانت تضطر للوقوف عند اقترابها من الرقارق والجسر، وهناك في العراء، على المنخفضات الغمقة التي تحديق بها الآكام، كانت تقام سوق لأهل

القرى، وفيها كانت يجتمع الفلاح اللاتيني بالتجار الأترسكيين، ويستبدل بقمحه أو ثوره الآلات المعدنية أو الأسلحة التي كان يحتاج إليها. هكذا كانت — على الأرجح — حالة مجموع القرى، التي كانت تُدعى رومة في حوالي السنة ١٠٠٠ ق.م.



التيبر وجزيرته.

(٥) عهد الملوك

ثم تحققت مخاوف اللاتين من الأترسكيين، فإن أحد أمراء هؤلاء عبّر التيبر في حوالي السنة ٧٥٠ ق.م، وطرد آخر زعيم لاتيني، واستولى على القلعة القائمة على الرابية البلاتينية. ومن هذا المكان حيث كان قصره وقلعته ضبط شئون القرى القائمة على التلال الأخرى، التي امتزجت فأظهرت رومة، ولا صحة في التقليد الروماني أن «رومولوس Romulus» و«ريموس Remus»، اللذين أرضعتهم الذئبة قضيا على ملك ألبا لونغا وأسسوا رومة، فهذه أسطورة لا تعود إلى ما قبل القرن الرابع ق.م.^١ وبسط الملوك الأترسكيون سلطانهم على القبائل اللاتينية، وتوارث مدينة ألبا لونغا، وأصبحت رومة مملكة مؤلفة من رومة وأرباضها، وعليها ملك أترسكي كباقي المدن الأترسكية. ومع أن رومة بقيت قرنين من الزمان تحت تسلط الملوك الأترسكيين، فإن سكانها وسكان لاتيوم ظلوا لاتينيين، يتكلمون باللغة اللاتينية.

وكانت السفن الأترسكية قد عرفت المياه اليونانية منذ العصر الميكاني، وكان الأترسكيون يزاولون التجارة في الموانئ اليونانية، فتعلموا فيها كتابة لغتهم بحروف يونانية. وكان من نتائج اختلاطهم باليونان دخول الأواني الخزفية إلى بلادهم. وهذه



كأس أثينية من أوائل القرن السادس قبل الميلاد.

الكأس الأثينية النفيسة، التي صنعها الفنان اليوناني أرغوثيرموس في زمان صولون، وزخرفها كلينياس المصور الأثيني، وُجدت في قبر أترسكي في إيطاليا. وتعلم الأترسكيون كيف يصنعون صوراً مزخرفة مثلها، ولا يزال كثير من مثل هذه الصور يغشى جدران الضرائح الأترسكية. وبما أنهم تعلموا طريقة استخراج النحاس من معدنه، فإنهم استطاعوا منذ أول عهدهم أن يجيدوا صنع الأدوات البرونزية، حتى إنهم فاقوا اليونان بدقة الشغل أمداً يسيراً، فازدهرت تجارتهم بنتاج هذه الصناعة. ومن آثارهم التي تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، هذه المركبة البرونزية، التي وُجدت في ضريح أترسكي في إيطاليا، وحُفظت في متحف مدينة نيويورك.

(٦) الجمهورية الأولى

وأدخل الملوك الأترسكيون تحسينات وإصلاحات جمة، ولكن عسف الحكام حمل الناس أخيراً على رفع لواء ثورة، قادهم فيها نبلاء الأترسكيين أنفسهم، فسقطت الملكية في حوالي السنة ٥٠٠ ق.م.، وحلت محلها الجمهورية الأولى برئاسة المقدمين والقناصل.

وكان تأثير العوامل اليونانية في غضون العصر الأترسكي في لانيوم كتأثير العوامل الأترسكية. وكانت السفن القادمة من مدن جنوب إيطاليا اليونانية إلى المرفأ الواقع تحت مخاضة التيار تزيد عدداً حيناً بعد حين، وقبل طرد الملوك بأمد طويل كان التاجر الروماني قد تعلم أسماء بعض السلع التجارية من القوائم، التي كان يسلمه إياها التجار اليونان. وبعد أمد قصير صار التجار الرومانيون يقيدون مذكرات بسلعهم التجارية



مركبة أترسكية من البرونز.

بالحروف اليونانية، وبعد تغيير طفيف في هذه الحروف اقتضته اللغة اللاتينية ظهرت حروف رومانية أيضًا، وهكذا تقدمت حروف الهجاء الفينيقية مرحلة أخرى في سفرها نحو الغرب.

ولم تكن أولًا سفن رومانية في أحواض التiber، ولكن مع مرور الزمن تعلم بعض الصناع الرومانيين بناء سفن مثل السفن اليونانية الراسية في مياههم. ولما اتسع نطاق التجارة الرومانية وجد الرومان أن تأدية الحسابات المطلوبة حنطة وثيرانًا مشقة كبيرة، في حين كان اليونان يؤدون أثمان السلع التي يبتاعونها قطعًا من النقود النحاسية، فصبوا النحاس قطعًا، كالتي ترى في الشكل وعليها صورة ثور للدلالة على قيمتها، ثم وجدوا أن هذه القطع ضخمة، فحذوا حذو اليونان، وصبوا قطعًا صغيرة مستديرة أسموها «أسًا as»، وجعلوا على وجهها رأس الإله «يانوس Janus»، وعلى ظهرها مقدمة مركب روماني، وكانت هذه ثقيلة أيضًا، لا يقل وزنها عن ثلث الكيلو، فقسّمت إلى اثنتي عشرة قطعة، دعوا كلّ منها «أونقية uncia». وصار لديهم قطع من النقود أوقية وأوقيتان وثلاث أواق وأربع أواق وست أواق. وأخذ الرومان عن اليونان مقاييس الطول والحجم والكيل.



نقود رومانية نحاسية قديمة.



كبد العرافة.

وسمع الفلاح الروماني عن آلهة غريبة عند اليونان، فقليل له: إنها قسيمة لآلهته. أما هو، فكان يعتقد أن لكل قسم من الطبيعة إلهًا متسلطًا عليه، وكذلك كان لكل إله شأن من شئون الحياة البشرية، ف «المشتري Jupiter» كان إله الجَلَد العظيم وملك جميع الآلهة، و«المريخ Mars» ولي أبطال الحرب، و«الزهرة Venus» ملكة الحب، و«يونة Juno» إلهة قديمة للجَلَد وحامية النساء في الولادة والزواج، و«وستة Vesta» حارسة الحياة العائلية، وكانت نار موقدها دائمة الاضطرام منذ أيام بداوة الآباء في براري آسية. و«كيريس Ceres» إلهة خصب الأرض وإنتاجها، وخصوصًا حقول الحنطة.

ووقعت تكهنات «سبَلَّات sibillae» أبولون الدلفي اليوناني موقعًا ساميًا لدى الإيطاليين، وعد الرومان الكتب السبلية بيانات مدهشة عن أحوال المستقبل، وجاءهم

الأترسكيون بطريقة أخرى من آسية الصغرى لمعرفة الغيب والكشف عن المستقبل. فادعى الأترسكيون نقلًا عن البابليين: أن في كبد الشاة الذبيحة علامات ورموزًا تميّط لهم الحجاب عن أحوال المستقبل.

(٧) تبسط الجمهورية وفتح إيطاليا

وكانت الدولة الرومانية عند طرد الملوك الأترسكيين صغيرة جدًا لا يُعبأ بها؛ فإنها لم تشمل سوى مدينة رومة والحقول المجاورة لها إلى مدى بضعة كيلومترات حولها، وكان لا يزال يقيم على الجانب الواحد من التiber الأترسكيون، الذين يُخشى بأسهم، وعلى الجانب الآخر، حول الجمهورية الصغيرة، القبائل اللاتينية، التي كانت قد اتحدت معًا، وألفت ما دعتة حينئذٍ بالتحالف اللاتيني.

وبقيت الجمهورية الجديدة جيلين تُجاهد للمحافظة على كيائها، ولحسن حظها دمر أسطول سرقوسة أسطول الأترسكيين تدميرًا تامًا في السنة ٤٧٤ ق.م.، كما سبق وأشرنا. ثم هاجم الغاليُّون الذين تدفقوا من مضائق الألب ساقّة الأترسكيين، فعاثوا في مدن هؤلاء الشمالية فسادًا، وخربوا ما وصل إلى أيديهم، فنجت رومة من حرب ثار طاحنة، وتمكن أبناؤها من افتتاح الأراضي المحدقة، فكانت هذه جمى لهم ولبلادهم، ثم بلغ الغاليون البرابرة التiber، وكسروا الجيش الروماني، ودخلوا المدينة في السنة ٣٨٢ ق.م.، وأعملوا فيها النهب والنار. ولما لم يستطيعوا الاستيلاء على حصن الكابيتول رضوا أن يأخذوا فدية من الذهب، وأن يرددوا إلى الشمال، وينزلوا في وادي البو، ولما استعادت رومة قوتها بعد هذه الكارثة رأت أن لا بد من تحصين المدينة بكاملها، فطوّقتها بسور من حجر، وجعلتها على جانب عظيم من المناعة، فراع ذلك جماعات اللاتين وأوجسوا خيفة، فحاولوا أن يتملصوا من نفوذ المدينة المسوّرة، فنشبت حرب بين الفريقين دامت سنتين، وانتهت بتثبيت زعامة رومة على اللاتين (٣٣٨ ق.م.).

ثم بدا لرومة عدو مخيف من القبائل الإيطالية، قوم يُعرفون بالسمنيّين، وكان هؤلاء على جانب من المدنية اقتبسوه عن المدن اليونانية في جنوب إيطاليا، وكان بإمكانهم أن يعبئوا جيشًا من الفلاحين الأشداء، فاستولوا على جبال الداخلية من أملاك رومة، ودخلوا في السنة ٣٢٥ ق.م.، في حرب عوان مع الرومانيين، استمرت جيلًا كاملاً، وخسر الرومان في أثناءها بعض المعارك. وحاول السمنيّون أن يوحدوا أعداء رومة، فنقلوا جيشهم إلى الشمال؛ لكي ينضموا إلى الأترسكيين والغاليين، واشترك في هذه الحرب جميع الجزء



الأوسط من إيطالية ومعظم شمالها، والتقى جيش الرومان جيوش الحلفاء بين الجبال في منتصف المسافة بين التiber الأعلى والساحل الشرقي من إيطالية، فشبت في «سنتينوم Sentinum» في السنة ٢٩٥ ق.م. معركة شديدة دامية، دارت فيه الدائرة على الحلفاء، فتحطمت قواتهم تحطيمًا. وتقرر في هذه المعركة مستقبل إيطالية مدة ألفي سنة. ولم يغنم الرومان بهذه المعركة أواسط إيطالية فقط، بل أصبحوا القوة العظمى في شبه الجزيرة كلها، ولم يعد في طاقة الأترسكيين أن يحتفظوا بما كان لهم من الزعامة، فانتزع منهم الرومان مدنها الواحدة تلو الأخرى، وغلب الغاليون على أمرهم، فتحول

رُومَة القديمة



الملك بيروس (٣١٩-٢٧٢ ق.م.).



درهم فضي روماني.

تيار غزواتهم إلى شبه جزيرة البلقان، ومن كان قد استقر منهم ظل مقيماً في وادي البو، وأمسى تخم رومة الشمالي مجرى نهر أرنوس، فامتدت سيادتهم من هذا النهر في الشمال إلى المدن اليونانية في جنوب إيطاليا.

وظلت المستعمرات اليونانية الغربية في جنوب إيطالية وصقلية مقطعة الأوصال، ولكن تبسط رومة راعهم، فحاولوا أن يتحدوا معاً، ودعوا لنجدتهم البطل المغوار «بروس Pyrrhus» ملك أبيروس عبر الأدریاتيك، وكان بروس عدواً مخيفاً؛ لأن جيشه كان مدرّباً، ولأنه هو كان جندياً ماهراً، وقد عزم على أن يؤلف أمة من اليونان الغربيين. وكسر بروس الرومان وهزمهم شر هزيمة، واستولى على جزيرة صقلية كلها، وكاد مسعاه في تأليف مملكة يونانية غربية ينجح لو لم يفاجئه القرطاجيون بأسطول قوي ظاهره به رومة، فإنهم أوجسوا شراً من قيام خصم مخيف على بُعد بضع ساعات من قرطاجة. فلما رأى بروس ذلك فاوض رومة في أمر الصلح، فأبى السناتوس أن يعقد صلحاً معه ما دام جيشه محتلاً لأرض إيطالية، فاختصم اليونان بعضهم مع بعض، فارتد بروس عن صقلية، وعاد إلى أبيروس، وسُلمت المدن اليونانية إلى الجيش الروماني الواحدة تلو الأخرى بلا شرط، واتحدت مع الرومانيين، فبسطت رومة في قرنين وربع قرن من الزمن (٥٠٠-٢٧٥ ق.م.) سيادتها على شبه جزيرة إيطالية كلها جنوبي البو، ولم يبق في الغرب إلا خصمان: رومة وقرطاجة.

وبعد الاستيلاء على المدن اليونانية في جنوب إيطالية، أخذ الرومان يسكّنون نقوداً فضية (٢٦٨ ق.م.)، ولم تعد القطع التي كانوا يتعاملون بها قبلاً ضرورية للدفعات الكبيرة، فصغرت فيما بعد إلى سدس حجمها الأصلي. وأصبح النقد الفضي قوام جميع المعاملات التجارية الكبرى.

(٨) رومة وقرطاجة

ولا مرأى في أن المنافس الذي وقف الآن مقابل رومة كان يُخشى جانبه؛ فقد كان يجري في عروق القرطاجيين دم رجالٍ بادية العرب الأشداء أصحاب القوافل السامية القديمة، الذين جعلوا أسواق بابل مركزاً لتجارته الشرقية القديمة قبل أن اقتنت رومة أول سفنها بألفي سنة. وسفن هؤلاء الفينيقيين كانت قد شقّت لجج البحر المتوسط يوم كان الإيطالي لا يزال همجياً، يتوقع بفارغ الصبر قدوم التاجر الفينيقي إليه ومعه الأدوات المعدنية لبيعها منه، ويوم كانت رومة لا تزال قرية حقيرة، يومئذ رأى أبناء صور بعين فراستهم أهمية الرأس الناتئ إلى البحر تجاه صقلية، فأسسوا عند الطرف الغربي من المكان المعروف الآن بتونس المدينة التي صارت مليكة التجارة في غرب المتوسط وأشد منافس لرومة. وكان لقرطاجة من موقعها الممتاز مندوحة للتجار لا يباريها فيها مُبارٍ، فامتدت تجارتها

تدريجًا إلى تخوم قيرونة شرقًا، وإلى المحيط الأطلسي غربًا، واستولى تجارها على جنوب إسبانية وما فيه من معادن الفضة الثمينة، واحتكروا الصفيح البريطاني عن طريق بوغاز جبل طارق. وانتشرت مستعمراتهم خارج هذا البوغاز على ساحل إسبانية شمالًا، وعلى الساحل الأفريقي الأطلسي جنوبًا حتى حدود الصحراء الكبرى، وتمكن «هنو» حنا، أحد ربابنتهم الجريء من رودان ساحل أفريقية إلى حدود غينية. واستولى القرطاجيون على قسم كبير من صقلية، وأنشؤوا لهم مستعمرات في سردينية وكورسكة، وسدوا بوغاز جبل طارق وموانئ الجزر في وجه السفن القادمة من المدن الأخرى، وكانت بوارجهم تهاجم السفن الأجنبية، التي كانت تدخل هذه المياه وتضربها بالمجانيق فتغرقها إلى أعماق اليم. ولم تكن قرطاجة الدولة الحربية كرومة؛ لأنها كانت تعتمد في نفقاتها الحربية على أرباح تجارتها، فكان المال عندها أساس القوة، فما دامت تجارتها رابحة وأرباحها طائلة كانت تستطيع أن تستأجر جنودًا للقيام بالخدمة العسكرية اللازمة لها. ولم يكن لديها فلاحون قائمون على حراثة أراضيهم، تستطيع أن تجند منهم جيشًا وطنيًا مؤمنًا برسالة دولته كما كانت تفعل رومة. كان في أرض تونس المخصبة الغنية فلاحون وطنيون يحرقون أراضيهم ويعيشون من غلالها، ولكن القرطاجيين اغتصبوهم إياها، وأنشؤوا فيها مزارع فسيحة، وعينوا لها أرقاء يقومون بأعمال الفلاحة والزراعة، ولكن لم تكن هذه المزارع تقدم جنودًا قرطاجيين للحكومة؛ لأنه لم يكن فيها جماعة من صغار الفلاحين يعيشون على نتائجها كما كان في سهول إيطالية. ولم يكن لحكام المدينة ثقة بالجيش المؤلف من أجنب، ولا كان لهم ثقة في القادة المولودين قرطاجيين؛ لأنهم خشوا استئثارهم بالسلطة. ومع أنه كان على رأس الحكومة حاكمان منتخبان يلقبان بقاضيين، فإن قرطاجة خضعت في الواقع إلى فريق من كبار التجار الأشراف، تألف منهم مجلس قبض على زمام السلطة. وكان اليونان يدعون حكومة كهذه أوليغارخية، أي حكم الأقلية، ولكنهم، على قلتهم، كانوا ذوي نشاط وحنكة في الأمور السياسية، وظلوا قرونًا يسبرون بالشعب والبلاد في مناهج الحكمة والسداد، حتى جعلوا قرطاجة دولة عظيمة تفوق أية دولة من دول اليونان، بما في ذلك أثينة نفسها.

وظلَّت قرطاجة شرقية في مدنيّتها، فحينما كشف المنقبون عن آثارها رأوا فيها التقصير، الذي بدا على الفن الشرقي في أول عهده، ولم يروا فيها من التأثير اليوناني إلا قليلًا. وحافظ القرطاجيون على استعمال سبائك المعدن، ولم يسكوا النقود إلا في صقلية، ولكن لما اتسع نطاق تجارتهم أصدروا نقودًا من جلد هي أقدم سلف للنقد الورقي،

وكانت تُختم بخاتم الدولة ضماناً لقيمتها، ودوّن هنو — رحالتهم الشهير — أخبار رحلته حوالي أفريقيا، كما كتب ماغو، أحد رجال السياسة عندهم، رسالة في الزراعة، نقلها الرومان إلى اللاتينية، وعولوا عليها في الشئون الزراعية في جميع إيطاليا. وفي أثناء الحرب اللاتينية، أو قبل نهايتها (٣٣٨ ق.م.) بقليل، رغب تجار رومة إلى مجلس شيوخهم أن يعقد معاهدة مع قرطاجة، يرسم بموجبها حدوداً في البحر، لا يسوغ لسفن الفريقين أن تتعداها، وفي حوالي السنة ٣٠٦ ق.م. في أثناء الحرب السمنية، عقدت رومة مع قرطاجة معاهدة ثانية، قضت شروطها ألا تدخل السفن القرطاجية مرافئ إيطاليا، ولا تدخل السفن الرومانية مرافئ صقلية. فلما استولى الرومان على المدن اليونانية في جنوب إيطاليا أمسى يونان صقلية تحت رحمة قرطاجة والقرطاجيين، فتقدم هؤلاء شرقاً تقدماً مستمراً، حتى ابتلعوا صقلية، فهددوا بذلك مواصلات رومة مع موانئها في ساحل الأديراتيك. وأمست صقلية نفسها رقبة جسر تستعمله قرطاجة في الحرب التي شاءت، وكان السناتوس الروماني يُوجس، بلا ريب، خيفة من الأمر، الذي رُوّع قلوب التجار الإيطاليين. ولا بد أن كثيرين من الشيوخ سأل نفسه: تُرى إذا نشبت حرب بيننا وبين قرطاجة، فلمن يكون الفوز فيها؟ وأي أمل لنا بالنجاح؟ ومع أنه لم تكن لرومة قوة بحرية، فإنها كانت تستطيع أن ترسل إلى ساحة القتال ثلاثمائة ألف مقاتل، فكان الجيش الروماني أكبر جيش تنظم في حوض المتوسط. وجيوش قرطاجة لم تكن وطنية، تضطرم قلوبها بمحبة الوطن كجنود رومة، بل من المرتزقة، الذين خلت أفئدتهم من الإيمان بالوطن والحماس له. وفي الرسم الأسلحة التي كان يقاتل بها الجندي الروماني آنئذ، وهي رمحه المشرع القابض عليه بيمينه الممدودة، ورأسه متجه إلى فوق، وسيفه القصير الذي تقلده على جنبه الأيمن. أما السلاح الواقى، فكان خوذة ودرعاً من جلد وترساً.

(٩) الحروب القرطاجية

ولم يلبث الرومان أن اقتنعوا أن لا مناص من الحرب؛ فإنه فيما كان جنود سرقوسة يحاصرون «ميسانة» (Messana) هب فريق من المحاصرين واستنجد الرومان، وفريق آخر استنجد القرطاجيين، فبعث هؤلاء للحال حامية احتلت القلعة، فأصبح بوغاز ميسانة تحت إمرتهم. أما الرومان، فبعد تردد طال أمده لبوا نداء الذين استغاثوا بهم، وأرسلوا إليهم جيشاً رومانياً من إيطاليا بطريق البحر، فابتدأ العراك مع قرطاجة في السنة ٢٦٤ ق.م. وحالفت رومة سرقوسة، وسيطرت على القسم الشرقي من جزيرة صقلية، ولكن إعوازاها إلى أسطول حربي عاقها كثيراً، وفي السنة الخامسة من الحرب أنجز بمسامي



رسم جندي روماني منقوش على الضريح الذي شيده أخوه تذكراً له.

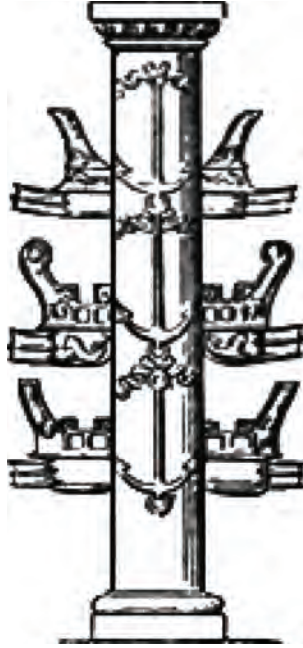
السنواتوس بناء أسطول حربي روماني، وأنزل إلى البحر، وكان عدد سفنه الحربية مائة وعشرين. والتقى هذا الأسطول بأسطول قرطاجة في مياه صقلية الشمالية عند «ميلاية Mylae». فاستخف القرطاجيون بالرومان ومراكبهم، وانقضوا عليها بدون روية. وكان الرومان بقيادة «غايوس دويليوس Gaius Duilius» قد صنعوا لكل سفينة من سفنهم جائراً من الخشب، وناطوه بالدقل بحلقة من حديد عند أسفله، وبحبل وبكرة من أعلاه، ورزوا في طرف الجائز الأعلى «شصاً corvus»، فكانوا إذا اقتربت سفن قرطاجة ينزلون الجوائز فترتز شصوصها في ظهور تلك السفن، فتكون جسوراً إليها فيعبر الرومانيون، ويقاتلون القرطاجيين عن كثب بالسلح الأبيض. ففاجأوا القرطاجيين بهذا الاختراع الجديد، وريح غايوس دويليوس المعركة مكبداً القرطاجيين خسارة قُدرت بنصف عدد بوارجهم، ومما تجدر ملاحظته في الرسم البومبايي، أن الدفة لم تكن قد نشأت، وأن مجاذيف كانت تقوم مقامها على كل جانب من مؤخر البارجة.



سفينة حربية رومانية قديمة على جدار في بومباي.

وعاد دويليوس إلى رومة منتصرًا، وشيد من غنائم المعركة التي فاز بها معبدًا للإله «يانوس Janus»، وأكرمه المواطنون، فكانوا يواكبونه في الليل حاملين المشاعل على الطريقة اليونانية، وأقاموا في «الساحة العمومية Fourm» نصبًا تذكاريًا له، عمودًا مزينًا بمؤخرات بعض البوارج التي حطم في ميلادية، مكتوبًا عليه اعترافًا صريحًا بما تم على يده،² ودعوا هذا النصب التذكاري «عمود مؤخرات البوارج Columna rosrata».

ولكن لسوء حظ الرومان، قام لهم بعد ذلك من البحر نفسه عدو، فحطم أساطيلهم الواحد تلو الآخر، وكسر أحدها القرطاجيون شر كسرة في مياه صقلية الجنوبية عند «إكنوموس Ecnomus»، ففقد الرومان سيادتهم البحرية التي لم يطل عليها الأمد، وأمسوا عاجزين عن الثبات على الحرب زمنًا مديدًا، وكان أمير البحر القرطاجيان «أذربعل Adherbal» و«قرثالو Carthalo» يخربان بأساطيلهما سواحل إيطاليا. وجاء صقلية في السنة ٢٤٧ ق.م. هملقار برقه القائد القرطاجي الشاب، فشنها حرب عصابات أقضت مضجع رومة، وجرت الحرب وثيْدًا سنة بعد سنة، حتى نضب معين الخزينة الرومانية. ولكن الأريحية هُزّت أفرادًا من الرومانيين، فجادوا بالمال، فتمكنت رومة من بناء أسطول جديد أنزلته إلى البحر في السنة ٢٤٢ ق.م.، وكانت باكورة أعمال هذا الأسطول، الذي قاده «لوتاتيوس كاتولوس Lutatius Catulus» أنه هزم في السنة ٢٤١ ق.م. قوّة قرطاجية، جُهزت على عَجَل في مياه «ذريبانة Drepana» عند زاوية صقلية الشمالية الغربية، فلم يبقَ في طاقة القرطاجيين أن يرسلوا مددًا بطريق البحر إلى جيشهم في صقلية، فاضطروا أن يقبلوا شروط صلح ثقيلة، تخلّوا بمقتضاها عن صقلية والجزر المجاورة لها، وأدوا في غضون عشر سنين غرامة حربية قدرها ثلاثة آلاف ومائتا وزنة.³ وانصرف الخصمان بعد ذلك إلى زيادة قواتهما، ولم تتردد رومة في أن تفعل ذلك على حساب قرطاجة، فإنها بعد إقرار الصلح بثلاث سنين فقط استولت على سردينية



Columna Rostrata.

وكورسيكة، فصار لديها ثلاث نقط انطلاق حربية خارج بلادها تناوئ قرطاجة منها. وبعد ذلك ببضع سنين، اشتبك الرومان في حرب جديدة مع الغالين، الذين انقضوا عليهم من وادي البو، فانكسر الغاليون انكسارًا عظيمًا، واستولى الرومان على أراضيهم، ولم يمنحهم الحقوق الرعوية، فامتدت سلطة رومة حتى سفح جبال الألب.

وحفظًا لتوازن القوات، وجه القرطاجيون أنظارهم إلى إسبانية، فامتدت سلطتهم فيها بهمة هنيبل بن هملقار إلى حدود نهر الإبرو، ومع أنه لم يكن لهنيبل سوى أربع وعشرين سنة من العمر، فإنه رسم الخطط الخطيرة لمفاجأة رومة في عقر دارها وسحق قوتها في إيطالية نفسها.

ولكن قبل أن يعبر هنيبل بجيشه إلى إيطالية نشب بينه وبين رومة قتال على تخوم إسبانية؛ لأنه نكث العهد الذي كانت قرطاجة قد قطعتة؛ بأنها لا تتخطى إلى ما وراء نهر الإبرو، ثم زحف بجيشه أربعين ألفًا، متبعًا ساحل إسبانية الشرقي؛ ليقطع جنوب غالية ويهاجم إيطالية، والذي حداه على اتخاذ هذه الخطة في زحفه هذا، هو إيقانه أن أسطول



هنييعل.

قرطاجة الذي انكسر في حرب صقلية لا يستطيع أن يحميه وجيشه إذا حاول أن يذهب به رأساً من قرطاجة إلى جنوب إيطالية. وفضلاً عن ذلك كان معه ستة آلاف فارس، ونقل مثل هذا العدد بحرًا لم يكن بالأمر الذي يُستخف به. زد على ذلك، أنه لو نزل في جنوب إيطاليا للقي من السكان هناك مقاومة عنيفة من أول الأمر؛ لأنهم كانوا مقيمين على ولاء رومة. وأما في الشمال، فلم تكن الحال كذلك؛ لأنّ مراجل حقد الغالين كانت لا تزال تغلي في صدورهم على الرومانيين، ولأنّ جماعات منهم كانوا قد التحقوا مرارًا بجيوش قرطاجة جنودًا مرتزقة. وفيما كان أعضاء السناتوس يرسمون خطتهم لغزو إسبانيا وأفريقية فاجأهم هنييعل من الشمال غازيًا مفتتحًا.

وبلغ هنييعل جبال الألب في خريف السنة ٢١٨ ق.م.، فكابد ما لا يوصف من المشاق والأخطار لوعورة المسالك وتراكم الثلوج، وكانت المسالك في بعض الأماكن ضيقة؛ بحيث لم تتمكن الأفيال من المرور بها، فكان لا بد من توسيعها، ومما زاد في الطين بلّة الحجارة الهائلة التي كانت تنهال عليه وعلى جيشه من الشواهد، يدرجها الوطنيون من أعدائهم، هذا فضلًا عما كانوا يقاسونه من التعب والجوع والزمهرير، ولكن قائدهم الشاب لم يألُ

جهداً عن تشجيعهم، ونفخ روح النخوة والرجولة في صدورهم ومساعدة من كان منهم خائراً القوى، ولما بلغوا وادي البو كانوا قد تجشموا خسائر جمة في النفوس حتى انحط عددهم إلى أربعة وثلاثين ألف رجل.

بهذا الجيش الصغير دخل الشاب القرطاجي، غير هيَّاب ولا وجل، أرض أقوى دولة حربية في عصرها، كان باستطاعتها أن تستدعي إلى نجدها سبعمائة ألف مقاتل. أما هنيبعل، فلم يكن في وسعه أن يستقدم النجدة؛ لأنه لم يكن لقرطاجة تسلط على البحر، فكان لا بدَّ له من فوز معجل؛ ليحيي الرجاء في صدور الغالين، ويستفزهم إلى مناصرته بالتطوع في جيشه. وكان هنيبعل على صلة بكثيرين من اليونان، فوقف على أرقى الخطط الحربية وعلى الأعمال الباهرة التي قام بها الإسكندر وخلفاؤه. وكان القناصل قواد الرومانيين منتخبين لإدارة الأحكام، فلم يكن لهم، في غالب الأحيان، اختبار في الأمور الحربية. ولما كان هنيبعل ماهراً في المناورة بالفرسان عُقد له الفوز العاجل في معركتين شبتا في وادي البو، فهبَّ غاليو هذه المنطقة وانضوا تحت أعلامه. وفي أوائل ربيع السنة ٢١٧ ق.م. اجتاز هنيبعل سلسلة القلاع الرومانية، التي حمت مسالك الأبنين، وباغت جيش القنصل فلامينيوس Gaius Flaminius الآمن من شر مفاجئ. وكان القرطاجيون قد كمنوا له عند بحيرة «تراسيميني Trasimene»، فانقضوا على طليعته وساقته ومزقوهما كل ممزق. ووقع القنصل بين أيديهم، وأصبح هنيبعل قريباً من رومة، لا يبعد عنها أكثر من مسافة بضعة أيام،⁴ وكان في طاقته أن يستأنف الزحف عليها تَوًّا، ولكنه امتنع عن ذلك؛ لأنه لم يكن لديه الآلات اللازمة لدك حصونها، فبات يعطل النفس بنصرة أخرى يوم يهبُّ حلفاء رومة، ويقلبون لها ظهر المجن.

وفي إبان هذه الأزمة الشديدة عيَّن الرومان فابيوس Fabius Maximus Verrucosus دكتاتوراً، وكان هذا الرجل وقوراً رزيناً، فارتأى ألا يواقف هنيبعل، بل يبذل الجهد في نهك قواته بالمطل دون مواجهة فعلية، وأن يغتنم كل فرصة لمضايقة القرطاجيين وإزعاجهم، فلم تلقَ سياسته هذه استحساناً لدى الرأي العام، فسُمي صاحبها فابيوس «المماطل Cunctator» ولبسه هذا الاسم عمره. ثم شرع القنصلان اللذان انتُخبا سنة ٢١٦ ق.م. في تعبئة جيش مؤلف من سبعين ألف جندي، وزحفاً به إلى الجنوب لملاقاة هنيبعل، والتقى الخصمان في «كانة Cannae»، فهزم فرسان هنيبعل الذين ألفوا ميمنة هنيبعل وميسرته فرسان رومة في الميمنة والميسرة، ثم قام الجناحان القرطاجيان بحركة التفاف سريعة، فأطبق القرطاجيون على قلب الجيش الروماني من كل جانب، ودارت رحى معركة شديدة



مصرع أرخميدس.

عقبته مجزرة هائلة، دامت بقية النهار. ولم يكد الليل يرخي سدوله حتى كان الجيش الروماني قد اضمحلّ على بكرة أبيه، وأمسّت كل أسرة في رومة مرتدية ثياب الحداد على من فقدت من أحبائها. وقيل: إن هنيبعل أرسل إلى قرطاجة ملء مدين من خواتم الذهب، التي انتزعها جنوده من أصابع فرسان الرومان وأشرافهم.⁵ ثم هبّت بلدان جنوب إيطالية والمدن اليونانية، ومن جملتها سرقوسة، وقلبت لرومة ظهر المجن، وانحازت إلى هنيبعل، ولم يبقَ أحد في الجنوب مناوئاً له إلا بعض المستعمرات اللاتينية. وأرسل هنيبعل سفراء من قبله إلى مقدونية، فوعدهم فيليبوس ملكها بإرسال النجدة. ولو أدرك خلفاء الإسكندر في مصر وسورية وآسية حقيقة هذا العراك العظيم في إيطالية، وكان في استطاعتهم أن يتحدوا على رومة، فلربما كانوا سحقوها إلى الأبد، ولكن السناتوس الروماني عقد بحنكته السياسية محالفة مع اليونانيين، وأوقد نار ثورة بلادهم على المقدونيين، فمنع هؤلاء من إرسال النجدة إلى هنيبعل، فتمكنت رومة بثباتها وحكمتها من المحافظة على ولاء الإيطاليين في وسط إيطالية. واضطرتها الحال أخيراً إلى تسليح الأرقاء وصغار الصبيان، وتقدمت بهذا النوع من الجيوش لمحاصرة المدن الثائرة، التي كانت قبلاً موالية لها، فاستولت عليها الواحدة تلو الأخرى، حتى سرقوسة، مع كل ما ابتكرته فكرة أرخميدس من الحيل لإنقاذها من الحصار الشديد، لم تنج من الوقوع في السنة ٢١٢ ق.م. بين أيدي الرومانيين.



القتال في زامة.

ولم يبقَ، بعد هذا كله، لهنيبعل إلا أمل واحد، وهو الزحف على رومة نفسها، فزحف عليها في السنة ٢١١ ق.م.، يحف به رجال حرسه الخاص، حتى بلغوا إلى أحد أبواب المدينة العظيمة، التي كانت لا تزال كأنها في إبان قوتها، وربما أطل كثيرون من البطارقة من فوق الأسوار يتفرسون في طلعة ذلك الشاب القرطاجي، الذي ألقى الرعب في قلوبهم، وهزَّ إيطالية من أقصاها إلى أقصاها هزَّ الزلازل، ولكنهم لم يبلغوا درجة من الرعب تدفعهم إلى التماس الصلح، ولم يرأسلوه في شيء على الإطلاق، ولما لم يكن جيش هنيبعل كافياً لمحاصرة أعظم مدن إيطالية، ولا كان في طاقته أن يستقدم آلات الحصار، اضطر هو وجيشه إلى النكوص على الأعقاب دون أن يقوموا بعمل حربي.

وبعد أن أقام هنيبعل في إيطالية سبع سنين، تحقق له أن مساعيه ستخفق إن لم تتداركها نجدة قوية. وكان أخوه هسدروبعل قد جمع جيشاً، وشرع يزحف به إلى إيطالية، فعبر جبال البيرين (٢٠٨ ق.م.)، وسلك الطريق الذي سلكه أخوه هنيبعل، فقطع جبال الألب، ووصل وادي البو على رأس ثلاثين ألفاً، وحاول الزحف على إيطالية الوسطى عن طريق الساحل، فصدّه جيش روماني قوي كان بين قادته كلوديوس نيرون، فسلك وادي «المتورس Metaurus»؛ إما ليعود إلى الشمال، وإما ليتصل بأخيه عن طريق آخر، فأدركه الرومان وسقط مقاتلاً (٢٠٧ ق.م.)، وقذف رسول روماني برأس هسدروبعل إلى معسكر هنيبعل؛ ليعلن له نبأ الكارثة التي قضت على آماله.

وبقي هنيبعل بعد ذلك بضع سنين يجاهد في أقصى جنوب إيطاليا، وأظهرت محن الحرب مواهب شاب روماني من أسرة «سكيبو Scipio»، كان يُدعى «ببليوس كرنيليوس Publius Cornelius»، فإنه بعد أن خَلَص حياة والده في موقعة «تيكينوس Ticinus» في السنة ٢١٨ ق.م. وجمع أشتات الجيش الروماني بعد موقعة كانه، تسلم قيادة الجيش، الذي أنفذ إلى إسبانية للقضاء على استعدادات هسدروبعل فيها، فأظهر تفوقاً ملموساً في التعبئة والمناورة. فلما حصر هنيبعل أعماله في أقصى جنوب إيطاليا أرسله السناتوس بناء على طلبه إلى أفريقية؛ ليغزو أملاك قرطاجة فيها كما غزا هنيبعل أملاك رومة في إيطاليا.

ولما جاءت السنة ٢٠٣ ق.م.، كان سكيبو قد قهر جنود قرطاجة مرتين في أفريقية، فاستدعت قرطاجة هنيبعل إليها، فنشبت في زامة في داخلية البلاد المعركة الفاصلة، ورأى هنيبعل بصدق فراسته أن لا مناص من انكسار جناحي جيشه أمام جحافل سكيبو المتراصة؛ لأنه لم يكن لديه عدد كافٍ من الفرسان؛ ليعزز جناحي جيشه الضعيفين مقابل جناحي سكيبو القويين. ولما وقع ما كانت ينتظره وتوارى جناحا كل من الجيشين الروماني والقرطاجي، عمد هنيبعل إلى حيلة سنحت له، وهي نفس الحيلة التي أُلْفَ بها الجيش الروماني في كانه، فسار من وراء صفه فرقتين إلى جهتين متقابلتين، بحيث صار طرفا صف جنوده أبعد مدى إلى اليمين واليسار من طرفي صف الجنود الرومانية. وقد قصد بذلك أن يطبق على جنود عدوه من كل جانب، فرأى سكيبو بريق الفولاذ الذي تحرك وراء صفوف القرطاجيين، وأدرك الخطر المداهم، فأمر الفرقة الأمامية من الصف أن تقوم بالمحاربة وحدها، دون أن تتوقع إسعافاً من الفرق التي وراءها، وقسم الجنود الذين في مؤخرة جيشه، فذهبوا إلى الميمنة والميسرة، فلما تقدم جنود هنيبعل؛ ليقوموا بحركة الالتفاف وجدوا أمامهم سوراً رومانياً من الفولاذ، واستمرت المعركة في صفين متوازيين إلى أن عاد الفرسان الرومان من مطاردة القرطاجيين، وهجموا على جناحي هنيبعل، فلما رأى هنيبعل صفوف جيشه آخذة بالتساقط والانزهاض أمام العدو لا تلوي على شيء، راضية بالفرار حبطت آماله ونجا بنفسه. وفي المعاهدة التي عقبت معركة زامة أجبر الرومانيون قرطاجة أن تؤدي لهم في غضون خمسين سنة عشرة آلاف وزنة، وأن تتخلى لهم عن سفنها الحربية ما خلا عشر سفن، ولم يعد في طوق قرطاجة أن تثير حرباً على أحد دون رضى الرومانيين.⁶

(١٠) حكومة الجمهورية

وكانت حكومة المملكة الرومانية مؤلفة من «ملك rex»، و«مجلس شيوخ senatus» يمثل عقلاء الدولة. وكان هناك «شعب populus» مقسّم إلى عشائر ومئات، فلما قامت الجمهورية اتخذت شكلًا أرستوقراطيًا، فتألفت من طبقة ممتازة ومن جمهور الشعب، وحل محل الملك «مقدمون praetores» ثلاثة متساوون في الرتبة والمقام، منتخبون لمدة سنة واحدة بأيديهم «سلطة الحكم imperium». وبما أن حق الانتخاب للمقدمية كان محصورًا في طبقة الأشراف الأغنياء كان الحكم جائرًا، فأبى جمهور الشعب أن يقيموا على الضيم.

(١٠-١) الأشراف والعوام



بطريق من البطارقة.

وعرف الأشراف عند الرومان بـ «البطارقة patricii»، بأولئك الذين تحدروا من الـ patres من الآباء المؤسسين، وتميزوا عن سائر الشعب باللباس والحذاء، فـ «قميصهم tunica» حمل قلماً «أرجوانياً عريضاً laticlava»، امتد من الرقبة إلى الطرف الأدنى، و«حذاءهم calceus» كان أحمر اللون، يحمل هلالاً من العاج، واحتفظوا بجميع الوظائف الدينية وبمعظم الزمنية، فجعلوا من أنفسهم طبقة ممتازة مغلقة، ولم يدخل في صفوفهم من أفراد الشعب إلا نزر يسير لمع في خدمات عمومية معينة.⁷



شيشرون يؤنب كتيلينة أمام السناطوس.

و«العوام plebs» كانوا خلاف الخاصة، أي خلاف البطارقة. ولا يجوز القول مع بعض المحدثين أنهم انتسبوا إلى أصل غير الأصل الذي انتسب إليه البطارقة، وجل ما هنالك أنهم لم يشتركوا في الحكم اشترك البطارقة، وأنه لم يُسمح لهم بالتزاوج مع هؤلاء، ويرى بعض رجال الاختصاص أن هذا التفريق بين الطبقتين لم يكن واضحاً في عهد الملوك، وإنما نشأ بعد قيام الجمهورية.⁸

و«الأجناس gens gentis» الرومانية هي الأسر الكبيرة التي تألفت من عائلات متعددة، وألفت في مجموعها طبقة البطارقة، وكان كل جنس يعتبر نفسه متحدرًا

من أب واحد. وأقدم الأجناس أولئك الذين انتموا إلى قبيلتي «الرمنس Ramnes» و«التيتيس Tities». واعترف الرومان بالأجناس الألبية أيضًا، التي تفرّعت عن قبيلة «اللوكيرس Luceres». وفَرَّقَ الرومان بين «الأجناس الكبيرة gentes maiores» و«الأجناس الصغيرة gentes minores»، وكان بين هؤلاء عائلات شريفة وعائلات من العوام. ونظر أبناء الجنس الواحد مجتمعين في الوصيات والتركات، وتقاسموا هذه في حال الوفاة بدون عقب ولا وصية، ونظروا أيضًا في اتحاد العائلات وانضمامها وفي عتق الرقيق. ورفعوا قراراتهم مرتين في كل سنة إلى «مجلس خصوصي Comitia Calata» للبت فيها وإبرامها، وصلوا «مجتمعين أجناسًا sacra gentilia» كما صلوا عائلات للآباء المؤسسين، وأشركوا معهم في هذه الصلوات الموالي cliens, clientes والخدم والحشم، وسمحو بدفنهم في قبور العائلات السائدة.⁹

(١٠-٢) السنااتوس

وعزا الرومان إنشاء «مجلس الشيوخ Senatus» إلى الملك روميولوس، فقالوا: إنه انتقى مائة «شيخ senex» من شيوخ رومة واستشارهم في أمور الدولة، فأسس بذلك السنااتوس. وقالوا أيضًا: إنه بعد سقوط النظام الملكي، وخروج الملوك في حوالي السنة ٥٠٠ قبل الميلاد، أصبح عدد الشيوخ في هذا المجلس ثلاثمائة، وظل كذلك زمنًا طويلًا حتى أيام «سولة Sulla». وقالوا كذلك: إن عضوية السنااتوس انحصرت في بادئ الأمر بالبطارقة، وأنها دامت ما دام العضو المنتخب حيًا. ويرى رجال البحث أن أعضاء السنااتوس كانوا، منذ النصف الثاني من القرن الخامس، من البطارقة والبلابية أيضًا، وأن الأعضاء البطارقة عُرفوا بالأعضاء الـ patres، والبلابية بالأعضاء الـ conscripti، وأنه من هنا القول عن جميع الأعضاء patres et conscripti. ولم يُنتخب الأعضاء انتخابًا، وإنما عُينوا تعيينًا من قبل السلطة التنفيذية.

ودعت السلطة التنفيذية المجلس إلى الانعقاد، وعقدت الجلسات في ضوء النهار بين الشروق والمغيب، وفي أماكن عمومية مكرّسة مقدسة، إما في داخل رومة أو في ضواحيها القريبة. وكان لا بد من انعقاد الجلسة الأولى في السنة في هيكَل «يوبيتر الكيبتولي Jupiter Capitolinus». وعلى الرغم من إبقاء الأبواب مفتوحة في أثناء الاجتماع، فإن الدخول إلى قاعات الجلسات لم يكن مباحًا للجمهور، ولم يُحدد العرف عددًا معينًا لاكمال «النصاب quorum»، ولكنه قضى بعدم تغيب الأعضاء وعدم ابتعادهم عن رومة. وإذا ما حان

وقت افتتاح الجلسة قدم الداعي إليها ذبيحة لإله الهيكل الذي انعقدت فيه، ثم عرض القضية موضوع البحث بـ «التلاوة (relatio)»، وأباح المناقشة بتوجيه «الأسئلة (rogatio)»، داعيًا كل عضو باسمه متبوعًا في ذلك أهمية الرتبة والمقام، ثم استخلص الآراء المختلفة، وعرضها بإيجاز وطرحها للتصويت، وكان التصويت يتم بتجمع أصحاب الرأي الواحد في مكان واحد discessio. فإذا ما حاز رأي معين أكثرية مطلقة أرفض الأعضاء؛ ليفسحوا المجال للجنة تصوغ «القرار المشيخي (Senatus Consultum)». وكان هذا الرأي الرسمي يصدر بذكر أسماء أصحاب السلطة التنفيذية، فتاريخ الجلسة ومحل انعقادها، وأسماء المقترحين وأسماء لجنة الصياغة، ثم يأتي نص القرار نفسه، وكان القرار يُعلن إما شفهيًا وإما كتابة، وكان يعمم في المجالس الشعبية إذا كان ذا صبغة عمومية، ويكتب على لوحات خشبية أو برونزية في نسختين، تُقام إحداها في هيكل «فيدس (Fides)» إلهة الشرف وحفظ العهود في رومة، والأخرى في هيكل الأمة أو الجماعة صاحبة العلاقة.

وكان السناتوس يبدى رأيه في كثير من الشؤون الداخلية والإدارية والتشريعية والمالية. فكان يحدد واجبات الحكام، و«يمدد سلطتهم (prorogation imperii)»، ويرشح من يراه لائقًا بالدكتاتورية، وينقض القوانين إذا بان عيبها، ويحدد الضرائب، ويُشرف على الدخل والخرج، وعلى سك النقود، ويعدل الالتزامات الحكومية أو يلغيها. وكان يوجه السياسة الخارجية ويبرم المعاهدات، ويحدد الحشد ويراقب سير العمليات الحربية، وكان له القول الفصل في الأمور الدينية، وله حق تعليق القانون بـ «قرار فوق العادة (Senatus Consultum Ultimum)».¹⁰

(١٠-٣) الكوميتيات

ولم يكن للرومان في أي دور من أدوار تاريخهم مجلس عمومي على شكل مجالس اليونان يمثل الشعب بكامله سيدًا مطاعًا، وجل ما توصل إليه الرومان في هذه الحلقة هو تنظيم مجالس ثلاثة، عُرفت بالـ «كوميتيات (Comitia)»، ومثلت هيئات من الشعب معينة للنظر في أمور معينة أيضًا. فـ «مجلس العشائر (Comitia Curiata)»، ضم عشائر البطارقة الثلاثين، ومارس صلاحيات معينة؛ أهمها منح «السلطة (imperium)» إلى المتقدمين، فالقنصلين لدى انتخابهم، وتشبيت قرارات السناتوس في تعديل القوانين العامة. والتأم البطارقة في مجلس آخر دُعي Comitia Calata؛ لأن الدعوة إليه كانت «علنية (calare)»، ولكن صلاحياته كادت تنحصر في أمور التركات والوصيات وما إلى ذلك.

و«مجلس المئات Comitia Centuriata»، ضم البطارقة والبلابية، ولكن صلاحياته ظلت محدودة أيضاً، فإنه انتخب المقدمين والقناصل ورجال «الإحصاء Censores» والقضاة، ونظر في الأحكام بالإعدام عند استغاثة المتهم، وفي إعلان حروب الهجوم بعد اقتراح السناتوس، وفي إقرار قانونية بعض الشرائع، ولكنه ظل أرستقراطياً في كيفية تنظيم المئات وتصويتها، فالرومان انتظموا مئات على أساس الثروة، وعدد الأصوات المخصصة للمئات تفاوتت بتفاوت الثروة. ف «الفرسان Equites»، صوّتوا أولاً وسجلوا ثمانية عشر صوتاً من مجموع مائة وثلاثة وتسعين، ثم جاء المشاة بصوفهم الخمسة، فتمتع الصف الأول منهم بثمانين صوتاً من مائة وخمسة وسبعين، فإذا ما تفاهم الفرسان والصف الأول من المشاة، وجميعهم من الأغنياء، ضمنت أكثرية الأصوات، وأمسى رأي الجمهور لا قيمة له.¹¹

وكان هنالك مجلس ثالث هو «مجلس القبائل Comitia Tributa»، الذي نظر في الغرامات، وشرح الأخبار الكهنة لدخول كليات الأخبار. ولم تكن «القبيلة tribus» عند الرومان مجموعة من أبناء أب واحد، وإنما كانت مجموعة من المواطنين يقطنون محلاً معيناً محدوداً، فالملك «سرويس Servius» قسم الدولة الرومانية إلى ثلاثين قبيلة، «أربع مدنية Tribus Urbanae» وست وعشرين «قبيلة ريفية Tribus Rusticae»؛ وذلك لتسهيل أعمال الإحصاء وحماية الضرائب وجمع الجنود، وتخلفت القبائل الريفية عن حضور الجلسات؛ لبعد المسافات، فلم تشارك في غالب الأحيان في أعمال مجلس القبائل سوى قبائل المدينة.¹²

(١٠-٤) المقدمون والقناصل

ولدى قيام الجمهورية في حوالي السنة ٥٠٠ قبل الميلاد، قبض السناتوس على أزمّة الحكم، وأحلّ مقدمي «القبائل الثلاثة Praetores» محلّ الملوك، فتولى اثنان منهم قيادة الجيش، وعني الثالث بالأمر المدنية، ولم يطلق اللقب القنصل على المقدمين إلا بعد السنة ٣٦٧، وعندئذٍ أصبح قائداً الجيش قنصلين، و«الحاكم المدني Praetor Urbanus»، وفي هذه السنة عينها أجازت القوانين الليكينية انتخاب القناصل من البطارقة والبلابية. وفي السنة ١٧٢ ق.م. أصبح القناصل من البلابية فقط، وذلك لأول مرة في تاريخ رومة.¹³

وكان السناتوس يرشح لهذه المناصب الخطيرة من يرى فيهم اللياقة، فيلتئم مجلس المئات، وينظر في الأمر وينتخب، ولم يحدد العرف يوماً معيناً للانتخاب، ففي



قنصل روماني.

السنة ٢٢٢ ق.م. جرى هذا الانتخاب في الخامس عشر من آذار، وفي السنة ١٥٣ في أول كانون الثاني، وقضى العرف بمواكبة القناصل يوم وصولهم إلى الكرسي، فمشى الشيوخ والفرسان والوجوه والأعيان مع المنتخبين إلى الكبيتول، واشتركوا في تقديمه الثيران البيض إلى الإله يوبيتر. واعتبرت السلطة القنصلية مشتركة بين القنصلين، فإذا توفي أحدهما في أثناء مدة القنصلية انتُخب غيره Consul suffectus ليحل محله، واعتزل هذا الوظيفة مع زميله عند انتهاء مدتها القانونية، واعتُبر الاثنان متساويين، فاقسما الأعمال بينهما وتبادلا، وقاد كل منهما فرقتين، أي ما قارب ستمائة فارس وستة آلاف ماش، فإذا وجدا في جبهة واحدة تناوبا القيادة يوماً بعد يوم، وتبادلا الرأي في شئون الولايات، فإذا لم يتفقا اقترعا!

ومثّل القناصل السلطة العليا في المدينة، فانصاع المواطنون لأوامرهم، وأظهروا لهم كل إكرام واحترام، ولبسوا الطوغة بـ «الملقمة الأرجوان toga praxtexta»، وجلسوا على «كراسي العاج sella curulis»، ومشى أمامهم اثنا عشر «حاجبًا lictor»، بيد كل منهم حزمة «عصي fasces»، تنبأ من بينها فأس، ترمز إلى السلطة والقوة.¹⁴

(١٠-٥) النزاع بين الأشراف والعوام

وغضب العوام منذ بدء الجمهورية لكرامتهم وحرمتهم، فجاهدوا في سبيل العزة والمنعة، وأقسموا ألا يقفوا موقف التذلل، فأقاموا لأنفسهم بين السنة ٥٠٠ والسنة ٤٥٠ عدداً من حماة الذمار، تراوح بين الاثنين والعشرة، وأعلنوا أنه بإمكان هؤلاء أن يكسروا حكم أي كان من موظفي الحكومة حتى حكم القناصل أنفسهم. فعُرف حق الاعتراض بال intercessio، وحق الإلغاء بال veto، وعُرف «الحماة بالترابنة tribunus, tribuni»، وعجز الأشراف عن القيام بأعباء الدولة وحدهم، فلم يجادلوا ولم يعترضوا.

ثم ألحَّ العوام والترابنة بكتابة الشرائع؛ لكي يعلموا متى حوكموا بأية شريعة يحاكمون، فكان لهم ما ابتغوه، فكتبت الشرائع في حوالي السنة ٤٥٠ ق.م.، ثم حُفرت على اثني عشر لوحاً من البرونز، وعُلقت في ساحة الفوروم،¹⁵ ولم يكتفِ العوام بذلك، بل طلبوا أن يكون لهم نصيب في سن الشرائع، وهددوا بالانسحاب من رومة والتخلي عنها، ثم خرجوا إلى سهل «الأفنتينة Aventine»، الذي يطل على نهر التيبر، فوافق الأشراف على قيام «مجلس شعبي قبيلي Concilium Plebis Tributum»، ينتخب الترابنة العشرة و«مراقبين aediles» شرطين يشرفان على سير الأمور وحفظ الحقوق في الشوارع والأسواق. ويقول «ليبيوس Livius»: إن مجلس الشعب القبيلي أجاز في السنة ٤٤٥ في عهد التريبون «كنوليوس Canuleous» زواج العوام من الأشراف، وفي السنة ٤٣٣ أنشئت وظيفة تريبون عسكري، «يتمتع بصلاحيات قنصل Tribuni Militares Con- sulari Potestate»، وأبى الوصول إليها للعوام، ثم طالب التريبونان ليكنيوس وسكستوس في السنة ٣٧٦ بانتقاء أحد القنصلين من العوام، فرد السناتوس الطلب، ثم وافق عليه في السنة ٣٦٦. وفتحت الأبواب في الوقت نفسه للعوام لولوج وظائف أخرى، كانت موصودة في وجوههم، فصار يُنتخب منهم «مديرو المال quaestores»، ومأمورو النفوس «المراقبون censores»، و«القضاة praetores»، وفي السنة ٣٥٦ ق.م. انتُخب العامي «مركيوس روتيلوس Marcius Rutulus» دكتاتوراً. فتم بذلك تحويل الجمهورية



التريبون المحامي.

من منظمة أرسطوقراطية إلى منظمة أوليغارخية، تولى السلطة فيها الأغنياء من الأشراف والعوام.¹⁶

(١١) تبسط الجمهورية وأثره

وأدت الحروب الإيطالية المتتالية إلى تغييب الفلاحين مدات طويلة عن مزارعهم وإلى إهمال العمل فيها، كما أدت إلى خسارة في الأرواح، ونقص في اليد العاملة وفقر ودين، وأدى الفقر والدين بدورهما إلى بيع هذه المزارع لكبار المزارعين المجاورين، وإلى اتساع هذه المزارع الكبيرة اتساعاً لم تعرفه إيطاليا من قبل. وتمكن كبار المزارعين أيضاً من شراء الرقيق وتشغيله، ومن استثمار رقايع كبيرة من أراضي الدولة الجديدة، فزادت الحروب الغني غنى، والفقير فقراً، وأثارت مشكلة اقتصادية اجتماعية سياسية داخلية كان لها أثرها، فيما بعد، في تمهيد الطريق لزعامة الفرد ووصوله إلى السلطة المطلقة في الدولة.

واشتد تدمير الفلاحين في النصف الأول من القرن الرابع، فانبرى التريبونان ليكينيوس وسكستوس يطالبان منذ السنة ٣٧٦ ق.م. بإعانة الفلاح وتشجيعه، وأعدّا مشروعًا لهذه الغاية حمل فيما بعد اسم «ليكينيوس Licinius Rogationes»، وأقر قانونًا في السنة ٣٦٦ ق.م.، وقضى مشروع ليكينيوس بحسم ما دفع من الفوائد من أصل الدين، وبتقسيط الباقي من الدين وتوزيعه على سنوات ثلاث. وحدد المشروع مساحة الأراضي التي يجوز اقتطاعها من أراضي الدولة بخمسائة «يوغرمة jugerum»، أو ما يعادل مائة وخمسين هكتارًا، واتخذت إجراءات للحد من قساوة القانون، الذي قضى باسترقاق المديون في حال عجزه عن دفع الدين.¹⁷

(١٢) السيطرة على العالم والانحطاط

وكان خلفاء الإسكندر لا يزالون مثابرين على إثارة الفتن والمكايد والحروب. وكان هنيبعل قد أغرى مقدونية بالاتحاد معه على رومة، فلم تستطع هذه أن تغض النظر عن أية خطة عدائية. وكان على مقدونية ملك على جانب كبير من الذكاء والمقدرة الحربية اسمه فيليبوس الخامس. فاتفق فيليبوس مع أنطيوخوس الثالث على اقتسام أملاك مصر بينهما، فرأى الرومان أن الحال تضطرهم إلى توجيه قواتهم شرقًا لسحق فيليبوس قبل استفحال أمره، وكانت حرب مقدونية أولى (٢١٤-٢٠٥)، أدت إلى انسحاب فيليبوس، وإلى توقيع معاهدة «فونيكية Phoenice». واتجه فيليبوس شرقًا وجنوبًا متوسّعًا، فاستنجدت «برغامة Pergamum» ورودوس برومة، فكانت الحرب المقدونية الثانية (٢٠٠-١٩٦). ولم يكن لحكومات اليونان من باعثٍ يستفزها إلى تأييد تسلط مقدونية عليها، وكان أنطيوخوس الثالث منهمكًا في الاستيلاء على أملاك مصر في آسيا، فلم يسمح له الوقت بإرسال أقل مساعدة إلى مقدونية، فوجد فيليبوس نفسه وجّهًا لوجه مقابل جيش روماني، دون أن يكون بجانبه حلفاء أقوياء يعتمد عليهم. ثم جاءت الساعة الرهيبة التي اضطرت الوحدات المقدونية الكثيفة المسلحة بالرمح الطويلة أن تقف أمام الكتائب الرومانية المسلحة بالسيوف القصيرة المنظمة تنظيمًا مكّن الساقة منها من تغيير مراكزها بحسب الاقتضاء، الأمر الذي ربك الجنود المقدونيين وحيرهم؛ لأن تنظيمهم لم يكن على شيء من اللدونة يمكنهم من مقابلة حركات العدو، ولما نشبت معركة «كينوسكيفالوس Cynoscephalos» رأس الكلب في السنة ١٩٧ في تلال ثسالية، انكسر جيش فيليبوس،

ودخلت مقدونية في حوزة رومة، وأنعم الرومان على الحكومات اليونانية بالحرية؛ لأنها كانت موالية لهم.¹⁸

وحاول أنطيوخوس الثالث أن يغتنم فرصة اندحار فيليبوس ويستولي على بعض أملاكه، التي كان الرومان قد صرحوا بأنها حرة، وكان هنيبل قد لجأ إلى صور بعد موقعة زامة، ثم التحق بأنطيوخوس مستشاراً. وكان القائد الروماني الذي قهره سكيبيو أفريكانوس مرافقاً للجيش الروماني بصفة مستشار لأخيه قائد الجيش الروماني في مقدونية «لوكيوس سكيبيو Lucius Scipio»، فكان لا بد من متابعة الحرب، ولم يكن لجنود أنطيوخوس غير المدربة أقل رجاء بالفوز على كتائب رومة، ففي مغنيسية في آسيا الصغرى في السنة ١٩٠ غلبت رومة أنطيوخوس، وأملت عليه شروطاً، أهمها ألا يقطع نهر هاليس غرباً، وألا يرسل سفينة ما حربية إلى أي مكان يقع إلى غرب خط الطول الذي يمر في هذا المكان، وهكذا في غضون اثنتي عشرة سنة (٢٠٠-١٨٩) أخضعت رومة اثنتين من الممالك الثلاث العظيمة، التي انقسمت إليها إمبراطورية الإسكندر، وأما مصر المملكة الثالثة، فكانت صداقتها لرومة من أول عهدها متينة العرى، وبعد أن ظهرت في العالم الهليني طلائع الجيش الروماني بثلاثين سنة أو أكثر قليلاً صرحت مصر بولائها وتبعيتها لرومة (١٦٨ ق.م).¹⁹

ولم يكن للرومان في بدء أمرهم خبرة في إدارة أحكام البلدان التي افتتحوها، فقسموها إلى ولايات، وجعلوا على كل ولاية والياً رومانياً مطلق الصلاحية، وفوضوا إليه جباية الضرائب على اختلاف أنواعها، فكان في طاقته أن يجبي من الأهليين ما يقوم بنفقات الجنود تحت إمرته، وبسائر النفقات التي اقتضتها مصالح الحكومة، وكانت مدة ولايته سنة واحدة، فغدا شديد الجشع في جمع المال؛ لكي يحشد ثروة قبل انصرام المدة، وأمسى منصبه ذريعة للسلب والنهب،²⁰ فضاع بذلك احترام الشعوب لأمانة الرومان واستقامتهم، ولم يبقَ أي أثر لتقدير بساطتهم وزدهم، وكان الناس قد خاضوا بخبر استقامة الوفد الروماني، الذي جاء إلى الإسكندرية في السنة ٢٧٣، فحمى بطليموس فيلادلفوس من مطامع أنطيوخوس الثاني، وقدم إلى خزينة رومة جميع الهدايا التي تسلمها أعضاؤه من بطليموس، وكان الرواة قد تداولوا وتحديثوا عن فبريكيوس القائد الروماني، الذي أُنذر بروس خصمه بأن طبيبه يستعد لدس السم له، ورووا كيف أن بابيريوس اكتفى بأن تكون حصته من غنائم ترنتوم كأساً خشبية. وسن السناتوس القوانين للضرب على أيدي العابثين بالنظام، ووضع حد لتماديهم في الإسراف والمنكرات، ولكن هذه القوانين لم تصلح الفاسد، ولا حسنت الأحوال.

وزاد دخل الحكومة الرومانية زيادة فاحشة، حتى لم يبق حاجة لجباية شيء من الضرائب من المواطنين الرومانيين، ولم ينحصر الإثراء في الدولة فقط، بل كان للظافرين من القواد وجنودهم قسط وافر من الغنائم والأسلاب. وفي الوقت نفسه كان أرباب التجارة من الرومان يغشون الولايات على رحبها. وكان فيهم «جماعة من العشارين *ordo publicanorum*»، الذين كانوا يعقدون مع الحكومة مقاولات على جباية الجزى والضرائب، فيربحون من مقاولاتهم أرباحاً كبيرة، وكانوا أحياناً يستأجرون أراضي الدولة، ويعملون فيها لحسابهم الخاص، وتبع العشارين إلى الولايات الرومانية «المرابون *feneratoris*»، الذين كانوا يقرضون سكان الولايات دراهم برباء فاحش. وكان هؤلاء مضطرين إلى اقتراض المال؛ لكي يؤدوا الضرائب الباهظة التي كان يفرضها عليهم الولاة الرومانيون. فأمست ضريبة هؤلاء المرابين أشد كثيراً من ضربة الحكام الطامعين.²¹

وحين رجع هؤلاء من الولايات إلى إيطاليا، تألفت منهم طبقة تقلبت في مهاد الغنى والسعة لم يُشاهد مثلها في البلاد من قبل *ordo equestro*، أو *equites* في بعض الأحيان. ودفعتهم مهارتهم التجارية إلى استيراد الكثير من البضائع سداً لحاجة البلاد، فكانت السفن الشراعية الرومانية تملأ البحر من خليج نابولي حتى مصب التيبر، وتغشى مواني رومة، فالذين كانت بأيديهم أزمّة هذه التجارة أصبحوا من أرباب الثروة، واقتضت إدارة هذه الأموال الطائلة إنشاء مصارف وبنوك. وقد كانت المصارف الأولى في رومة في غضون الحرب القرطاجية عبارة عن صف من الخيام المبنية بغصون الأشجار على جانبي ساحة الفوروم. وبعد السنة ٢٠٠ ق.م. قُضي على هذه الخيام بالهدم، وقام مقامها بناء الباسيلقة الجميلة الشبيهة بالأبنية التي شاع أمرها في المدن الهلينية. وفي الباسيلقة كانت تلتئم طبقة «الأغنياء الجديدة *ordo equestro*»؛ لتعقد الصفقات المالية، وتؤلف الشركات الكبيرة لجباية الجزى والضرائب، وعقد الاتفاقات مع الحكومة لبناء الطرق والجسور، وتشديد المباني العمومية.²²

(١٣) أثر اليونان وحضارتهم

وحين كان يعود أحد الولاة من أفريقية، ويشيد منزلاً جميلاً كان جاره الساكن في بيت أبيه العتيق يغار منه، ويستنكف أن يظل ساكناً في ذلك البيت الرث القديم المبني باللبن. وكان روماني العصر الجديد قد شاهد في جنوب إيطاليا منازل اليونانيين، وخبر ما يتمتع بها أصحابها من الراحة والهناء، فضلاً عن ابتهاجهم بجمال منظرها الخارجي، فلم يلبث

أن أضاف إلى بيته رواقاً معمداً، تنفتح منه أبواب تؤدي إلى غرف النوم والطعام والمكتبة والاستراحة، وكان في مؤخره المطبخ، وربما كانت هنا غرفة الأكل أيضاً. وصارت الدار الوسطى التي تحديق بها سائر غرف المنزل، الذي كان يظهر فيه رب البيت ما لديه من التماثيل والتصاوير وثمار الفنون ونفائس غنائم الحرب، التي جيء بها من الشرق.

ولم يكن في المنازل الرومانية القديمة شيء من الأثاث الفاخر. وكان المعتمدون السياسيون من القرطاجيين يضحكون حين كانوا يرون في المآدب المتتابعة التي كانوا يُدعون إليها آنية المائدة الفضية تنتقل من بيت إلى بيت بطريق العارية. وقبل الحرب القرطاجية بأمد يسير عُرم أحد القناصل المعزولين؛ لأنه وُجد لديه من الآنية الفضية ما زنته أربعة كيلوغرامات ونصف كيلو. وبعد ذلك بجيل واحد كان لدى أحد أغنياء الرومان من الآنية الفضية ما زنته أربعة آلاف وخمسمائة كيلوغرام. وروي أن أحد القواد الذين فتحوا مقدونية دخل رومة ومعه مائتان وخمسون مركبة مشحونة تماثيل وتصاوير يونانية. والقائد الذي أخضع اليونان غنم خمسمائة تمثال، بعضها من البرونز والبعض الآخر من الرخام، والذي دمر قرطاجة ملأ رومة بالمنحوتات اليونانية، وبلط أحد أغنياء بومباي البلدة الصغيرة غرفة الطعام في منزله بفسيقياء هيلينية، تمثل الإسكندر في موقعة إيسوس. وكانت هذه الصورة قبل أن وصلت إلى بومباي، تزين أرض أحد المنازل الفخمة في الإسكندرية في العصر الهليني.

وأدخل الرومانيون إلى منازلهم كثيراً من أسباب الراحة، التي كانت في منازل الهلنيين كالأنابيب لجر المياه والحمامات وأشياء أخرى، وكانت البيوت المتقنة تحوي أنابيب فخار لنقل الهواء الحار إلى الغرف المهمة في المنزل. وكان في المطبخ كثير من أواني البرونز أنفَس مما نشاهد في مطابخ اليوم.

واستدعت عيشة الرفاهية والرخاء وجود عدد كبير من الخدم، فكان لكل عمل في البيت خادم خصوصي، حتى فَرَكُ جسم رب البيت بعد الحمام كان له خادم خصوصي أيضاً، ولكن وجود الطهارة لم يكن أمراً سهلاً، وكان الروماني الغني يؤدي خمسة وعشرين ألف فرنك ذهباً أجرة طاهٍ يجيد الطبخ.²³

وإذا كان لعيشة الرفاهية والترف التي دخلت من الشرق تأثير سيئ في أخلاق بعض الرومانيين، فإنها أيقظت البعض الآخر، ونقلتهم إلى حياة جديدة أرقى جداً من حياتهم الأولى بتأثير العبقورية اليونانية في الفن والأدب والعلم والفلسفة. فقد كان في رومة عند ختام الحرب الصقلية (٢٤١ ق.م.) رقيق يوناني اسمه أندرونيكوس، أعتقه سيده فأصبح

حرًا. فهذا إذ رأى شغف الرومان بالآداب اليونانية، شرع في نقل الأوديسي إلى اللاتينية؛ لتكون ترجمته كتابًا مدرسيًا لأولاد الرومان، ثم ترجم للكبار المآسي اليونانية وكثيرًا من الروايات الهزلية، فكان أول أديب في التاريخ توخى ترجمات فنية، صقلها الأدب، وجلاها حسن الذوق.²⁴

وبعد استيلاء رومة على بلاد اليونان، زاد امتزاج اليونانيين بالرومانيين، وتوثقت بينهم عُرى الألفة والوئام، وكان بين الألف يوناني الذين أتى بهم رهاًن (١٦٨) إلى رومة، وكلهم من الأكابر والأعيان، رجل فذ على جانب كبير من العلم والفضل ودمائة الأخلاق يُدعى بوليبيوس. واتفق حين وصوله أن حلَّ ضيفًا في بيت سكيبيو وأخيه، اللذين حظي عندهما ورافقهما في حملتهما الحربية، وكان عزيزًا مكرمًا. وقد شاهد بأم عينه خراب قرطاجة وكورنثوس، وكتب تاريخًا خالداً للحروب الرومانية باللغة اليونانية،²⁵ وفي السنة ١٥٥ ق.م. تزعم فلاسفة ثلاثة وفد أثينة إلى رومة، فاستقروا فيها وأدخلوا إليها درس الفلسفة اليونانية. وهؤلاء الثلاثة هم: «كرنيدس Carneades»،²⁶ و«ذيوجانس Diogenes» الرواقي البابلي،²⁷ و«كريتولوس Critolaus»،²⁸ وأم رومة غيرهم بين حين وآخر لإلقاء محاضرات على مسامع الجمهور، فأقبل عليها الراغبون في التهذيب إقبال الظماء إلى الماء، وقصد أثينة شبان رومانيون لإتمام دروسهم فيها. وشغف «أميليوس بولوس Ameilius Paullus» الفاتح الروماني بالمخطوطات اليونانية، فاستولى في أثناء الحرب المقدونية على مكتبة برسفس، وأحضرها معه إلى رومة، وأسس أول مكتبة خصوصية فيها،²⁹ وأصبح أغنياء الرومانيين بعد ذلك حين تشييد منازل جديدة يحسبون للمكاتب حسابًا، فيعينون لها غرفًا مخصصة، ونشأت طبقة من أهل الأدب كان من ضمنها أفضل القواد الرومانيين.

ولم يكن يسوغ لأحد أن ينتمي إلى هذه الطبقة الراقية ما لم يكن لديه مكتبة مملوءة بأنفس الدروج اللاتينية واليونانية. وكانت هذه الطبقة المهذبة تحسن استعمال اللغة اليونانية كما تجيد اللاتينية، وتكون بين هذه الطبقة الراقية والطبقة الجاهلة هوة عظيمة، لم يكن لها وجود في أول عصر الجمهورية أيام كانت البلاد في طور الزراعة وسكانها من طبقة الفلاحين.³⁰

(١٤) الانحطاط في المدن والريف

وصحب حياة الترف الجديدة شرور وشرور، فانبرى روماني من الطراز القديم وجماعة من أضرابه إلى التضافر على سن قوانين لمقاومة الإسراف على اختلاف أشكاله، والمحافظة

على بساطة الحياة الرومانية القديمة وفضائلها. والإشارة هنا إلى «مرقس بوركيوس كاتو Marcus Porcius Cato» الزعيم الروماني الكبير، الذي وُلد في «تسكولوم Tusculum» في الريف في السنة ٢٤٦ ق.م.، ورافق تطورات رومة حتى السنة ١٤٩ التي توفي فيها. وُلد فلاحًا، فالتحق بالجيش في السابعة عشرة من عمره، وحارب في حروب قرطاجة وغيرها، فأظهر نبوغه فتدرج في سلم الوظائف حتى أصبح قنصلًا في السنة ١٢٥، و«مراقبًا Censor» في السنة ١٨٤، بعد أن ضرب أنطيوخوس الثالث ضربة مؤلمة عند ثرموبولي في السنة ١٩١، ولم يرضَ عن تطور الحياة في رومة وإيطالية، فقاوم كل جديد ولا سيما تيار التهلن، بحزم وعزم غير مكترث بنقد النقاد ولوم اللائمين. فمنع السيدات عن التنافس في اقتناء الحلي والجواهر الثمينة، وعن ركوب المركبات إلى الأماكن التي كُنَّ يذهبن إليها سعيًا على الإقدام، ولم يكثر لندعهن في النوادي والمجتمعات، ولام الأخوين سكيبيو وهاجمهما لإيقاف التهلن، وصنّف كتابًا في تاريخ رومة لهذه الغاية دعاه «الأصول Origines»، ووصل به إلى السنة ١٥٠ ق.م. وضمنه خطبه، وأعد كتابًا ووجهه لابنه، وأسماه «الوصايا Praecepta ad Filium»، ذكر فيه كل ما يجب أن يفعله ابنه؛ ليكون «رجلاً محمودًا vir bonus»، وخلف أيضًا الوصايا اليومية دعاه Carmen de Moribus، وكتابًا في «الزراعة De Re Rustica»، ولكنه لم يفلح في مقاومة التهلن، وأقدم هو بذاته في أيامه الأخيرة على تعلم اليونانية.³¹

وظلت قوة رومة تزيد مع مرور الزمن، ولكن دون أن يرافقها من جانب الفضيلة الرومانية القديمة وازع يرد الناس عن ارتكاب الرذيلة ويكبح جماحها. وكان هذا الأمر بادياً بنوع خصوصي في حياة الطبعة الأمية، والصعاليك الذين مالوا إلى الحضارة اليونانية كما مالت الأكثرية الساحقة من سائر الطبقات الأخرى إلى ما في تلك الحضارة من دواعي الترف ورغد العيش، فلم يفقهوا المعنى الحقيقي لها، وفي أوائل الحرب الصقلية بين رومة وقرطاجة أدخلت عادة أتروسكية قديمة، هي المجادة الفردية بين المجرمين المحكوم عليهم أو بين الأرقاء الذين كانوا يتضاربون بالسيوف؛ احتفاء بمآثم وجيه من الوجهاء، ودعي هؤلاء «مجالدين gladiatores»،³² وكان بعض الموظفين الذين يقومون بتدبير حفلات الأعياد العمومية ينظمون لوائح مطولة يعينون فيها جماعات من هؤلاء المجالدين؛ ليقوموا بالمجالات تسلية للجماهير المتألمين، ورغبة في نيل أصواتهم وقت الانتخاب للوظائف العليا. وكانت هذه الألعاب الدموية البربرية تجري أولاً في أماكن مؤقتة، توضع فيها بعض مقاعد للجلوس، ولكنهم بنوا لها بعد ذلك مباني حجرية مخصصة مدرجة

سموها امفتياترات.³³ ثم أنشأ الرومان ميادين عظيمة لسباق المركبات، تحيط بها مقاعد جمة يجلس عليها المتفرجون، دعوا الواحد منها circus مضمارًا.

وعظمت نفقات الخطط السياسية، فكان الشاب الروماني الذي يهوى الانخراط فيها يضطر إلى اقتراض الدراهم؛ ليؤدي نفقات المجالدات الكثيرة، فضلًا عما كان يؤديه رشوة للمنتخبين، وحين كان يُنتخب للمنصب الذي يطمح إليه لم يكن يقبض راتبًا بدل خدمته، بل كان مضطرًا أن يقوم بنفقات الكُتَّاب، الذين يقومون بالعمل الملقى على عاتقه في منصبه الجديد. وكان رجل السياسة الروماني يطلب الوظيفة الآن؛ ليتمكن بها من الحصول على النفوذ الذي يبوّئه حاكمية ولاية غنية، وحين رجوع أحد هؤلاء الولاة إلى وطنه بعد انتهاء مدة ولايته لم يعيش عيشة ذلك الروماني الساذج في الأيام القديمة. بل كان يعيش عيشًا ملكيًا محفوفًا بجميع ضروب التمتع والترف. وقد كان هؤلاء النفعيون الذين كان بأيديهم زمام القوة العليا في ولاياتهم خطرًا على الجمهورية؛ لأنهم كانوا قد ذاقوا لذة سلطة الملوك بلا وازع الشريعة الرومانية، ولا قيود نُظُم الجمهورية.³⁴

ولم تكن هذه الشرور أقل ظهورًا خارج رومة مما كانت داخلها. وبما أنه لم يكن لائقًا في نظر الرومانيين أن يتعاطى شيوخهم ونبلاؤهم التجارة ولا الأشغال الأخرى، أخذ هؤلاء يشترون المزارع الصغيرة، ويضمونها بعضها إلى بعض، فتتكوّن منها مزرعة كبيرة جدًا شاسعة الأطراف. ولم يبقَ من تلك المزارع الصغيرة القديمة إلا نزر مبعوث هنا وهناك. وكان يستحيل على أرباب الأملاك الأغنياء أن يديروا العمل في عقاراتهم الواسعة باستئجار عملة أحرار. ولم يكونوا مجبرين على ذلك؛ فالفتوحات الرومانية كانت يبايع تتدفق منها أسارى الحرب فيباعون أرقاء. ولم تكن حياة هؤلاء في العقارات التي أخذوا إليها بأرقى من حياة البهائم، فكانوا يُكوّن بالمياسم ويُساقون إلى الحقول، ولما نقص عدد أسرى الحرب غضت رومة النظر عن أعمال النخاسين، الذين كانوا يخطفون الأولاد من شرق البحر المتوسط، ويبيعونهم عبيدًا، فداوموا على هذا العمل الشرير سنين عديدة.³⁵

وامتلاّت إيطالية وصقلية من الأرقاء، فقاموا بثورات ألقوا البلاد بها، وفي صقلية تجمع نحو ستين ألفًا منهم، وقاموا على سادتهم بقيادة أفنوس السوري، وقتلوه واستولوا على المدن والقرى وأسسوا مملكة، فاقتضى إخضاعهم جيشًا رومانيًا بقيادة القنصل «بيسو PISO» في السنة ١٣٣ ق.م. وحربًا دامت بضع سنين،³⁶ وفي غضون ثورة العبيد في صقلية، قام أصحاب الحقول الأحرار من صغار المزارعين، وأخذوا يحرقون المزارع الكبيرة، التي أنشأها كبار الملاكين في إيطالية. فالفتوحات العظيمة كانت قد جعلت

الغني أغنى جدًا مما كان، والفقير أشد فقرًا، فحروب هنيبعل غادرت جنوب إيطاليا قاعًا صفصفاً، وكثيرًا من أواسطها في حالة أحسن قليلًا من حالة الجنوب، وأُهملت هذه المناطق المخربة وصارت مسرحًا للمشاة ومرعى للبهائم، وفي المناطق التي لم تمسها يد الحرب غاب الفلاحون وأبنائهم سنين عديدة عن بيوتهم يخوضون معارك الفتاح. وحين كان يعود الواحد منهم إلى بيته الريفي لم ترقه أشغال الحقول، وكثيرًا ما كان يتفق للجندي حين عودته إلى أرض ميلاده أن لا يرى للمنزل الذي آواه في ولوديته عينًا ولا أثرًا، ويجد عائلته قد تشتت شملها، ومزرعته الصغيرة بيعت من أحد الأغنياء؛ إيفاء للدين وُضمت إلى مزارعه الكبيرة، فيلعلن إذ ذاك الغني، ويؤم المدينة العظيمة حيث تُقدم له الحنطة مجانًا من لدن الحكومة، ويحضر الألعاب والمسابقات، ويزيد في عدد الفقراء. وإذا والاه الحظ، واتفق أن وجد بيته وحقله لم تُصب بضرر فلا يلبث أن يرى جماعات العبيد القائمين بزراعة المزارع الكبرى ينتجون الحنطة بنفقة أقل من التي يبذلها هو، فإذا ما باع غلات أرضه وجد أن مجموع ثمنها غير كافٍ للقيام بنفقات عائلته. وفي الوقت نفسه، كانت أسواق إيطاليا تكتظ بكميات الحنطة الرخيصة الثمن، الواردة إليها من صقلية وأفريقية ومصر، فتضطره الحال إلى بيع مزرعته الصغيرة، ومغادرة وطنه واللياذ برومة، حيث كان يجد ألوفًا وألوفًا من أضرابه بلا مأوى، يقاسون مَضض الفاقة ومرارة العيش، معتمدين في تحصيل القوت الضروري على الحكومة. هؤلاء هم الذين كانوا فيما مضى أصحاب الأراضي الزراعية وعماد الأمة الرومانية، الذين كانت تنظم منهم أعظم جيوشها وأفخرها. هؤلاء هم الذين كانوا قوام تلك القوة التي أسس عليها السناطوس الدولة الشاسعة الأطراف البعيدة الأكناف، هؤلاء الذين كانوا لرومة كل ما ذكرنا، أمسوا صائرين إلى البوار والاضمحلال.³⁷

وهكذا، فإنه كان للقوة والثروة اللتين بلغتهما رومة بتسلطها على حوض المتوسط أسوأ تأثير؛ لأنهما جرّاهما إلى شَفَا جُرف الهلاك. ولم تكن الحال في معظم مناطق الدولة الرومانية خارج إيطاليا، حتى في أرقاها مدنية، ولا سيما في بلاد اليونان، أحسن مما كانت في إيطاليا، فإن فلاحها، تحت نظام المزارع الكبرى الذي دخلها من آسية؛ حيث نشأ في أيام الفرس، كانوا قد تلاشوا كما كان فلاحو إيطاليا آخذين في التلاشي. أضف إلى ذلك الغصب والاختلاس، اللذين كان يرتكبهما الحكام وجُباة الجزي والضرائب وغزوات النخاسين، الذين لم تستطع رومة أن تضرب على أيديهم وتحول التجارة اليونانية شرقًا، أضف كل ذلك تجد الأسباب الكافية لقتل الأعمال التجارية والزراعية، والقضاء المبرم على آمال العالم اليوناني وتقدمه.³⁸

وبان العيب وتبين أن حكومة رومة المدنية الضيقة النطاق لم تعد كافيةً لتنظيم دولة كبيرة وإدارتها. ولكن، هل كان في الإمكان تحويل هذا النوع من الحكومة إلى حكومة إمبراطورية، تصلح لإدارة شئون العالم المتمدن آنئذٍ؟ هذا هو العمل الخطير الذي قامت به رومة، فوقت التمدن، الذي أصبح فيما بعد أساس المدنية الحديثة.

هوامش

- (1) CARCOPINO, J., *La Louve du Capitole*.
- (2) DESSAU, *ILS*, I, 65.
- (3) Polybius, 1; TARN, W.W., *The Fleets of the First Punic War*, Journ. Hell. Studies, 1907; THIEL, J.H., *Studies on the History of Roman Sea Power*, (1946), ch. ii.
- (4) JACOBS, K., *Gaius Flaminius*, (1938).
- (5) Polybius, 3:107–118.
- (6) POLYBIUS, bks. 1 and 3; LIVY, bks. 21–30; APPIAN, *Lybica*, 67–135; GSELL, S., *Hist. anc. de l'Afrique du Nord*, I–IV; DE SANGTIS, G., *Stor. Rom.*, III; GROAG, E., *Hannibal als Politikes* (1929); SCULLARD, H.H., *Scipio Africanus in the Second Punic War*, (1930); Scullard, *A Hist. of the Roman World*, (1935).
- (7) MOMMSEN, Th., *Rom. Forsch.*, I, 69; *Rom. Staatsr.*, III, 3; WILLEMS, P., *Le Sénat de la République Romaine*.
- (8) MOMMSEN, Th., *Rom. Staatsr.*, III; BINDER, J., *Die Plebs*.
- (9) GREENIDGE, A.H.J., *Roman Public Life*, 9 ff.; DE SANCTES, G., *Star. Rom.* I, 299 ff.
- (10) MOMMSEN, Th., *Rom. Staatsr.*, III, 2; WILLEMS, P., *Le Senat de la République Romaine*; O'Brien MOORE, *Real-Encyclopadie*, Suppl. VI, (1935); BLOCH et CARCOPINO, *La Répub. Rom.* (1940), 1–18.
- (11) BLOCH et CARCOPINO, *op. cit.*, 18–22; BOTSFORD, G., *The Roman Assemblies*, (1909).

(12) NICCOLINI, *Le Tribu Locale Romani*, (Studi in onore Bonfante), 1929, II, 237–251.

(13) DE SANCTIS, G., *Star. d. Rom.*, I, 403 ff.

(14) MOMMSEN, Th., *Rom. Steatsr.*, II, 74 ff.; DZ SANCTIS, G., *op. cit.*, I, 403 ff.; KUBLER B., *Real-Encyc.*

(15) NICCOLINI, G., *II Tribunato della Plebi*, (1932); MYRES, J.L., *Essays Presented to C.G. Seligman*, (1934); ALTHEIM, F., *Die Anfänge der Plebischen Organisation*, (1940).

(16) BLOCH et CARCOPINO, *op. cit.*, 18–31.

(17) JONES and LAST, *The Making of a United State*, Cam. Anc. Hist., VII, 538–541; CARCOPINO, J., *Rép. Rom.*, I, 153 f., 167 f.; SCULLARD, H.H., *Hist. of Rom. World*, 99 ff.

(18) HOLLEAUX, M., *Rome and Macedon*, Cam. Anc. Hist., VIII, 138–198; HOMO, L., *Flaminius et la Politique Romaine en Grèce*, Rev. Hist., 1916; DELBRUCK, H., *Gesch. der Kiegskunst*, I, 424 ff.

(19) HOLLEAUX, M., *Rome and Antiochus III*, Cam. Anc. Hist., VIII, 199–239; FRANK, T., *Roman Imperialism*, 163 ff.; TAUBLER, E., *Imperium Romanum*, I, 15 f., 88 f., 101 f., 442 f.; MOMMSEN, Th., *Der Friede mit Antiochos*, Rom. FORSCH., II, 511 ff.

(20) ABBOTT and JOHNSON, *Municipal Adm. in Rom. Emp.*, (1926); CHAPOT, V., *Le Monde Romain*, (1928); STEVENSON, G.H., *Rom. Prov. Adm.* (1939).

(21) ROSTOVIZEFF, M., *Gesch. der Staatspacht*, 329 ff.; STEVENSEN, G.H., *Comp. Lat. Stud.*, 342 ff.

(22) STEIN, A., *Der Romische Ritterstand*, (1927); KEYES, C.W., *The Rise of the Equites in the Third Century of the Roman Empire*, (1915).

(23) CARRINGTON, C., *Some Anc. Italian Country Houses*, Antiquity, 1934, 261 ff.; BOETHIUS, A., *Develop of Domestic Arch. in Rome*, AJ Arch., 1934, 158 ff.

(24) WARMINGTON, E.H., *Remains of Old Latin* (Loeb) II; MIRMONT, H. de la Ville, *Etudes s. l'Ancienne Poks. Lat.*, (1903), 5–201.

(25) CUNTZ, O., *Polybius und sein Werk*, (1902); LAQUEUR, R., *Polybius*, (1913); WUNDERER, C., *Polybius*, (1927); WALBANK, F.W., *JHS*, 1938, *Class. Quart.*, 1943, 1945.

(26) ARNIM, H. von, *Real-Encyc.*, X, 1954.

(27) ARNIM, H. von, *Stoicorum Veterum Fragmenta*, III, 210–243.

(28) SUSEMIHL, *Gesch. Gr. Lit. Alex.*, I, 153.

(29) POLYBIUS, XVIII, 35; PLUTARCH, *Aemilius Paullus*; De SANCTIS, *Star. Rom.*, IV, 315, 419, 457, 613.

(30) KENYON, F.G., *Books and Readers in Ancient Greece and Rome*, (1935); JONES, H.S., *Companion to Roman History*, (1912), 138–141.

(31) LIVY, 29:25, 32:27; Bks. 34, 36, 38–39; CICERO, *De Senectute*; PLUTARCH, *Cato Maior*; SMITH, R.E., *Class. Quart.*, 1940.

(32) FRIEDLANDER, L., *Roman Life and Manners*, II, 41–60.

(33) ASHBY-ANDERSON-SPEARS, *Architecture of Ancient Rome*; WRIGHT, J.A., *Archatologiae* 78:215.

(34) BLOCH et CARCOPINO, *Rep. Rom.*, 63–75.

(35) BARROW, R.H., *Slavery in the Rom. Emp.*, (1928); WARDE FOWLER, W., *Social Life at Rome in the Age of Cicero*, (1910), 204–236.

(36) LAST, H., *Tiberius Gracchus*, *Cam. Anc. Hist.*, IX, 11–16.

(37) CLAUSING, R., *The Roman Colonate*, (1925); ROSTOVITZEFF, M., *Studien zur Gesch. des Romischen Kolonates*, (*Arch. Pap.* 1910); GRANT, M., *From Imperialism to Auctoritas*, (1946); BLOCH et CARCOPINO, *Rép. Rom.*, 89–98.

(38) HERTZBERG, G.F., *Gesch. Griechenlands unter der Herrschaft der Romer*, (1868); FINLAY, G., *Hist. of Greece*, (1877), I; ACCAME, S., *Il dominio Romano in Grecia della guerra Achaica ad Augusto*, (1946).

الفصل الثاني

الثورات وظهور سلطة الفرد

(١) طيباريوس غراكوس

ولم يؤثر صراخ المزارعين الصغار في مسامح الأغنياء الوجهاء، الذين أعماهم حب الذات وأصم آذانهم، ولم يكثرثوا لتبرُّم الحلفاء في إيطالية الذين لم يكونوا قد مُنحوا حق التصويت، ولم تكن المسائل خارج إيطالية أقلَّ خطورة من هذه. ويجوز حصرها في اثنتين: أولاهما: إصلاح حكومة الأقاليم إصلاحًا تامًّا، وإيجاد نظام لإدارة أحكام الدولة على أسلوب موافق يؤدي إلى فلاحها وخيرها. والثانية: تقرير حدود الدولة، وصد البرابرة الغزاة عنها، فإنهم كانوا قد بدءوا يهددون حوض المتوسط وعمرانه بالدمار والاضمحلال.

ولكنه قدَّر لرومة في هذه الآونة أنْ نَبَغَ من طبقة الأشراف فيها رجل، اشتهر بحب الوطن والتجرد عن المصلحة الذاتية، فعقد النية على أن يكون زعيمًا للعامة، ومنقذًا لإيطالية بإعادته إليها جماعة المزارعين والفلاحين، هو «طيباريوس غراكوس Tiberius Gracchus» ابن القنصل طيباريوس غراكوس، قاهر سردينية وإسبانية من زوجته كورنيلية. تهذب وأخوه غايوس على أيدي فلاسفة من المثهلنين، فقال بالديمقراطية اليونانية، وأحب تطبيق بعض مبادئها وأساليبها، ودخل في «خدمة صهره Scipio Aemilianus» في قرطاجة في السنة ١٤٦ ق.م. برتبة «مرافق contubernalis» ليتدرب في فنون الحرب. ثم نهض إلى إسبانية أكوستريا لمناسبة الحرب النومنتية، فمر في أترورية (١٣٧)، وشاهد بأم عينه مساوئ المزارع الكبيرة، فغضب لكرامة رومة وإيطالية، ورأى ألا بد من الإصلاح. فلما عاد إلى رومة بعد إنهاء مهمته في إسبانية اندفع في سبيل الإصلاح المنشود، يذل العقاب ويروّض الصعاب. ومما قاله في خطبه في هذا الموضوع: «إن للوحوش التي تجول حول إيطالية أوجرة ومكانن تأوي إليها وتنام فيها، وأنتم الذين

تحاربون حروب رومة، وتموتون من أجلها ليس لكم ما تتمتعون به سوى بركات الهواء ونور الشمس. هاتان البركتان فقط هما نصيبكم من الميراث! لا مأوى لكم ولا مستقر؛ ولذلك أنتم مضطرون بحكم الضرورة، أن تنتقلوا بنسائكم وأولادكم من مكان إلى مكان، تحاربون وتموتون، وغيركم يتنعم بالثروات الطائلة ورغد العيش، تُدعون سادة العالم، ولكن ليس لكم مدرة تستطيعون أن تدعوا أنها ملك لكم.»

ولما انتُخب طيباريوس تريبوناً في السنة ١٣٣ ق.م. أعد قانوناً قضى بإعادة النظر في توزيع «أرض الدولة *ager publicus*»، تلك التي دخلت في ملكها في أثناء التوسع في إيطالية، وجعلها صالحة لإسكان المنشردين وإعالتهم. وأوجب هذا القانون استرجاع ما كان قد وقع من هذه الأراضي تحت تصرف الأغنياء، وإبقاء خمسمائة يوغرة لكل منهم، وخمسمائة أخرى لولدين من أولادهم، وتوزيع الباقي على الفقراء مقابل أموال محددة يدفعونها في كل سنة إلى صندوق الدولة. وأوجب هذا القانون أيضاً إنفاق المال، الذي أوصى به أتلوس الثالث ملك برغامة إلى رومة في سبيل تعمير هذه الأراضي، وجعلها في متناول الفقراء. فعارضه في ذلك زميله التريبون الآخر ماركوس أوكتافيوس، وهدد بحق «النقض *veto*». فلجأ طيباريوس إلى المبادئ اليونانية في الحكم وطالب بعزل زميله، ثم أقر «مجلس البلابية *Concilium Plebis*» القانون وأوصى بتطبيقه، وانتهت مدة تريبونة طيباريوس، فخالف العرف وسعى للتجديد، وبينما كان يجاهد لإعادة انتخابه؛ لكي يتمكن من تنفيذ قانونه هذا *Lex Agraria* أو *Lex Sempronia*، هجم عليه نسيبه Scipio Nasica واغتاله في بناية المجلس في أواخر السنة ١٣٣ قبل الميلاد.¹

(٢) غايوس غراكوس

وتابعت «اللجنة الثلاثية *III viri*»، التي كانت قد انتُخبت للإشراف على الإصلاح الزراعي أعمالها، ولم يحاول السناتوس إلغائها. وكان أبرز أعضائها غايوس غراكوس أخو طيباريوس، وما فتئت هذه اللجنة تداور الأمور، وتطلب مآثاتها حتى أقضت مضجع جماعات من اللاتين والإيطاليين غير الرومانيين؛ فإن هؤلاء كانوا قد احتلوا مساحات من أرض الدولة، وبدءوا باستثمارها، فخشوا أن ينالهم القانون الجديد، ويقضي على مصالحهم. وحاول السناتوس استغلال قلقهم وتبنى مطالبهم، ولكنهم لم يركنوا إليه، وإنما عاهدوا سكيبيو اميليانوس لما عهدوا فيه من تفهم لقضيتهم، وعطف على مطالبهم،

وتقدير لخدماتهم في ميادين القتال. وكان سكيبيو أميليانوس جليلاً محترماً لما قام به من خدمات عمومية، فأعاق بتدخله سير أعمال اللجنة الثلاثية وشلَّ حركتها. ثم توفي فجأة في السنة ١٢٩ ق.م.، فعدت اللجنة إلى سابق نشاطها ونتاجها. وأهم ما فعله غايوس غراكوس في السنوات القليلة التالية كان تنظيم صفوف المؤيدين، وتوحيد جهودهم واجتذاب بعض كبار الشخصيات لتأييد برنامجه.

وبعد وفاة طيباريوس بعشر سنين انتُخب أخوه غايوس مكانه للمنصب نفسه (١٢٣ ق.م.)، ولكنه لم يكتفِ باستئناف النزاع الذي كان قد شرع أخوه فيه لحماية الفلاحين الذين لا أراضي لهم، بل جعل نصب عينيه غاية محدودة سعى إلى بلوغها، وهي مناصبة السناتوس العداء، والفت في سواعده، فألغى في السنة ١٢٣ «القانون الكالبورني Lex Calpurnia»، الذي كان قد أوجب منذ السنة ١٤٩ تأليف مجلس من رجال السناتوس فقط؛ للنظر في تظلم حكام الولايات، وسنَّ «قانوناً جديداً Lex Acilia» قضى بانتقاء أعضاء هذا المجلس العدلي من طبقة الأغنياء «خارج السناتوس Ordo Equester». وقضى قانون آخر بتلزيـم ضرائب ولاية آسية في رومة لا في آسية Lex de Provincia Asia لإرضاء هذه الطبقة نفسها، وأفسح مجالاً آخر لهؤلاء أيضاً بعقد الاتفاقات الكبيرة معهم لإنشاء الطرق في إيطاليا، وتشجيع المستودعات الحكومية والأرصـفة، وسائر الجماهير، فمنع تجنيد الرومانيين قبل السابعة عشرة، وحدد «أسعار الحبوب Lex Frumentaria»، وأعاد مفعول القانون الزراعي الذي سنه أخوه من قبل، وشرع في إنشاء المستعمرات الرومانية، ونهض إلى أفريقية، فأسس المستعمرة «يونونية Junonia» محل قرطاجة. واستغل «ليوس دروسوس Livius Drusus» غياب غايوس، فأسس اثنتي عشرة مستعمرة في إيطاليا؛ ليضرب بين الجماهير وبين غايوس، فلما عاد غايوس من أفريقية اقترح بدوره أن يُمنَح اللاتينيون ما طالما طمحت نفوسهم إليه ومَنَوا به، وهو حق المواطن الكامل، فأثار هذا الاقتراح غضب السناتوس، ونجح هذا المجلس في إغراء الجماهير وتحريضهم. فكانت عاقبة سعيه شغباً عظيماً، قُتل في أثناءه غايوس في السنة ١٢١، كما قُتل أخوه من قبله. وألغى القانون الزراعي (١٢٠ ق.م.)، واعتبرت أراضي الدولة في إيطاليا ملك القائمين عليها (١١١ ق.م.)².

ويلاحظ أن السبب الرئيسي لإخفاق طيباريوس وغايوس كان وجوب اعتمادهما على التصويت، أي على مساعدة الشعب لهما حين الانتخابات، وأن الجماهير كانت معرضة دائماً لدس الدسائس وعقارب المضللين. ولكن أعمال هذين الرجلين علّمت العامة أن يثابروا على التفتيش عن زعيم حتى يجده، فكان هذا العمل بدء السلطة الفردية.

(٣) القائد ماريوس

وفي السنة ١١١ ق.م.، نشب خلاف في نوميديا في أفريقية بين الملكين «يوغورثا Jugurtha» و«أذربعل Adherbal». فاستغاث أذربعل برومة، فأنفذ السناتوس لجنة من أعضائه، قسمت نوميديا بين الملكين، فلم يعبأ يوغورثا بالتقسيم، بل حاصر منافسه في عاصمته، ثم استولى عليها وقتله قتلًا. فأعلنت روما الحرب على يوغورثا، وأنفذت قوة إلى أفريقية لإخضاع نوميديا وملكها. وتولى قيادة الحملة القنصل «كلبورنيوس Calpurnius»، ولدى وصوله إلى أفريقية صالح خصمه بدلًا من إخضاعه (١١٠)، وشاع في رومة أن هذا القنصل الشريف القائد قبل رشوة كبيرة، ففاوض وصالح بدلًا من الحرب والإخضاع. وسار هذا الخبر على الأفواه وملأ الأسماع، فطالب ممثل الشعب التريبون «مميليوس Mamilius» التحقيق وإنزال العقاب عند ثبوت الجرم. ومما زاد في الطين بلة أنه لما رفض السناتوس المصالحة، وأوجب خوض غمار الحرب، أخفق الجيش الروماني في جولاته الأولى، واستسلم القائد «البيينوس Ablinus» مع جيشه (١١٠). وعلى الرغم من نجاح الجيش الروماني بعد ذلك بقيادة «متلوس Metellus»، فإن الشعب طالب في السنة ١٠٨ بقنصل من أفراده يتولى قيادة القوات في أفريقية. فانتُخب «غايوس ماريوس Gaius Marius» بأكثرية ساحقة، وسُلم القيادة في أفريقية رغم تردد السناتوس.

وكان ماريوس في صبوته حارثًا في الأرض، ولم يولد في رومة، بل في «أربينوم Arpinum»، ولم يكن مثقفًا مهذبًا، ولم يصل إلى التريبونة في السنة ١١٩ قبل الميلاد إلا بمساعدة الأسرة الرومانية «الكريمة Metelli»، ولكنه كان جنديًا قديرًا. وكان قد أصبح في السنة ١٠٨ «معاونًا legatus» لقائد الحملة على أفريقية Metellus، ولم يلمع في أفريقية؛ فإن القائد الذي قبض على يوغورثا في السنة ١٠٦ كان Sulla مناظره فيما بعد، ولكنه وُفق توفيقًا باهرًا في محاربة قبائل «الكيمبري Cimbri» و«التوتون Teuton» في السنتين ١٠٢ و ١٠١، وأعمل في رقابهم سيفه وسيوف جنوده، وأفناهم بعد أن هزموهم رومة هزمت متتالية، وعبروا حدودها الشمالية، وهددوا كيائها تهديدًا.

وعُني ماريوس بالجيش، فألغى العادة القديمة التي كانت تحظر الخدمة العسكرية على من لم يكن من ذوي الأملاك، وتحصرها في الملاكين. وأدخل في الجندية الفقراء، فلم يلبث جماعة كهؤلاء ليس لهم من حطام الدنيا شيء أن اتخذوا الجندية مهنة لهم، وبرعوا في الحركات العسكرية، وأصبحوا قادرين أن يقوموا بمناورات يستحيل على المواطنين الذين يخدمون في الجندية أمداً قصيرًا أن يقوموا بمثلها. وعاد ماريوس فنظم



غايوس ماريوس.

«الليجيو legio» الفرقة الرومانية من جديد، فرفع عدد رجالها من أربعة آلاف وخمسمائة إلى ستة آلاف، وقسّمها إلى عشرة «أفواج cohortes»، وجعل الفوج الوحدة الحربية المناورة، فأكسب صفوفه الأمامية ترصصًا لم تعرفه قبليذ، وأطال مدة الخدمة فجعلها عشرين سنة، فأبعد بذلك طبقة الأشراف والأغنياء، واعتمد طبقات الشعب السفلى، فزاد العامة قوة في السياسة وأضعف الخاصة. وأمست الخدمة العسكرية مهنة يمتهنها الجنود والضباط متضامنين متكافلين، مرتبطين بقائد فرد يحافظ على مصالحهم، ويقودهم إلى النصر والعزة.

ولكن مع ما كان عليه ماريوس من المقدرة العسكرية في التنظيم والمناورة، فإنه لم يكن سياسيًا محنّكًا، وعلى الرغم من انتخابه لمركز القنصلية ست مرات بين السنة ١٠٤ والسنة ١٠٠، اضطر أن يتنحى في النهاية عن منصبه، وأن يرى السيادة والكلمة العليا تعودان إلى السناتوس، لكن زعامته علّمت العامة كيف يفوزون على السناتوس والأشراف

بإجماعهم على اختيار قائد حربي، لا تقوم سلطته بالطرق السلمية، بل باستعمال القوة العسكرية، أي بالطرق غير المشروعة.³

(٤) شقاق في إيطالية

ومما زاد النزاع بين الخاصة والعامة تعقيداً، تبرم الحلفاء الإيطاليين الذي كان يزيد مع الأيام؛ لأن هؤلاء قدموا جنوداً للجيش الذي افتتح البلدان مثلما قدمت رومة، ولكنهم حرّموا حق التصويت، ولم يُعطوا نصيباً من الثروة، التي كانت تتدفق على الرومانيين من الولايات عبر البحر.

وبقي لحسن الحظ جماعة من قادة الفكر بين الرومان، ارتأوا أن يُعطى الإيطاليون حقوق المواطن الروماني. وكان في عداد هؤلاء رجل من النبلاء الأغنياء اسمه «دروسوس Drusus»، فانتخبه الشعب تريبوناً (٩١ ق.م.)، فلم يلبث بعد انتخابه أن شرع في اتخاذ التدابير اللازمة لمنح حلفاء رومة الإيطاليين حقوق المواطن الروماني، ولكنه لقي من مناوئيه مقاومة شديدة وحشية، إذ هجم عليه أحد الرعا في السوق وطعنه بسكين أودت بحياته، فحدا هذا الفعل البربري بقبائل الشعوب الإيطالية في أواسط إيطالية وجنوبها إلى رفع لواء الثورة، وتأليف دولة جديدة وتنظيم حكومة خاصة بهم، واتخذوا عاصمة لهم مدينة متوسطة «كورفينيوم Corfinium»، ودعوها «إيتاليكة Italica».⁴

(٥) الحروب الأهلية

ولس الرومان حراجة الموقف، فمنحوا بقانون يوليوس في النصف الثاني من السنة ٩٠ كل من لم يشترك في الأعمال الحربية من الإيطاليين حقوق المواطن الروماني، ثم منحوا هذه الحقوق نفسها في أواخر السنة ٩٠ لكل إيطالي مقيم في إيطالية يرغب في ذلك، ويطلبه في خلال شهرين فقط Lev Plautia-Papiria. وفي السنة ٨٩، صدر «القانون الكلبورني Lex Calpurnia»، وخوّل كل قائد روماني عامل في ميدان الحرب صلاحية منح حقوق المواطن لكل من رغب فيها، فعاد معظم الإيطاليين إلى حظيرة الدولة الرومانية.

وكان «ميتراداتس Mithradates» السادس ملك البونط، قد بدأ يوسّع رقعة ملكه في آسية الصغرى وحوض البحر الأسود، مهدداً بذلك سلطة رومة في آسية وأوروبة اليونانية، فاقتراح التريبون «سولبيكيوس روفوس Sulpicius Rufus» أن يتولى ماريوس قاهر البرابرة قيادة الجيش في الشرق، وأن يسمح للإيطاليين «المواطنين» تسجيل أسمائهم في

أية قبيلة من القبائل الرومانية الخمس والثلاثين، لا في قبائل ثمانٍ معينة. وكان السناتوس قد وجد في شخص القائد «لوكيوس كورنيليوس سولا Lucius Cornelius Sulla» زعيمًا أريستوقراطيًا عسكريًا، فانتخبه قنصلًا في السنة ٨٨، وأناط به قيادة الجيوش الرومانية في الشرق؛ لتأديب ميثراداتس، ودفع خطر توسعه. فلما اقترح التريبون روفوس عقد اللواء في الشرق لماريوس، غضب سولًا لكرامته ولمصلحة الأريستوقراطية، وقام على رأس الفرق الست، التي كان قد حشدها في كابوة للإبحار بها إلى الشرق، واتجه نحو رومة نفسها، فسجل بعمله هذا أول لجوء إلى القوة العسكرية داخل العاصمة. وفرَّ ماريوس ومن شدَّ أزره، وتربّع سولًا في دست الحكم، ودبر الأمور قدر المستطاع. وبعد أن ضمن انتخابه قنصلًا للسنة ٨٧، قام بجيشه إلى الشرق، فعاد ماريوس إلى رومة مصحوبًا بجنوده، وشرع في مذبحة هائلة قُتل فيها كثيرون من زعماء السناتوس، وانتُخب ماريوس للقنصلية مرة سابعة، ولكنه مات بعد انتخابه بأيام قليلة (٨٧). فقبض العامة على زمام الأمور حتى يوم الحساب، الذي كان لا بد من حله عند رجوع سولًا.



ميتراداتس السادس.

(٦) ديكتاتورية سولًا

وأبل سولًا بلاء حسنًا في أسية الصغرى، وأدب ميتراداتس، وأكرهه على دفع غرامة كبيرة قُدرت بألفي وزنة، وعاد إلى رومة في السنة ٨٣ تخفق فوق رأسه أعلام النصر، وكافح

جنوده في طريقهم إلى رومة جنود العامة الرومانية فكسروها كلها، الواحد تلو الآخر. ودخل سولاً رومة رئيساً مطاعاً دون أن يكون له سلطان شرعي لتولي الرئاسة، ولكنه بقوة جيشه أجبر الناس على الاعتراف به، في أواخر السنة ٩٢، دكتاتوراً لأول مرة بعد مائة وعشرين سنة.

وبعد أن ذبح من ذبح من وجوه العامة والإيطاليين، وصادر ما صادر، ووَزَع ما وزع على جنوده، جلس يشترع، فاعتبر التريبونة منشأ الشرور والفساد، فانترع منها صلاحياتها المكتسبة، وأعادها إلى ما كانت عليه قبل النزاع بين العامة والخاصة، فأوجب موافقة السناتوس على كل قانون يقترحه الترابنة، وحصر صلاحية هؤلاء في التدخل بحماية أفراد العامة، كما نص بذلك «قانون الحماية jus auxilii» القديم، ومنع الترابنة من تبوؤ الوظائف التي كانت تختص بالبطارقة.

ولم يترك سولاً أثراً دائماً في التشريع إلا في حقل القضاء، فإنه أنشأ في عهده الديكتاتوري «المحاكم الدائمة quaestiones perpetuae»، التي نظرت في جميع أنواع المخالفات الجزائية والجنائية، فجعلها سبعة وحدد صلاحياتها، ثم اعتزل العمل في السنة ٧٩؛ ليعيش عيشة هادئة، ولكنه توفي في السنة التالية.⁵

(٧) قنصلية بومبايوس

وعلى إثر وفاة سولاً، عاد الشعب الروماني إلى المطالبة بحقوقه المسلوبة، وكان قد تعلم أن يستفيد من الزعيم العسكري، فوجد ضالته هذه المرة في شخص «بومبايوس Gnaeus Pompeius»، أحد ضباط سولاً الذي كان منذ عهد قريب قد امتاز في العمليات الحربية في إسبانية. فانتخبه الشعب قنصلاً في السنة ٧٠ ق.م؛ لأنه وعد بإلغاء قوانين سولاً المكروهة. وبر بومبايوس بوعده، فضمنت له خدمته هذه إمرة حربية من الدرجة الأولى في الخطورة.

(٧-١) بومبايوس والقرصنة والشرق

وبلغ من إهمال السناتوس أن ترك سفن التجارة تحت رحمة لصوص البحر، الذين غشوا البحر المتوسط، وبلغت بهم القحة أن ظهروا عند مصب التiber ينهبون ويحرقون، وخطفوا بعض موظفي الحكومة في الطريق على مسافة بضعة كيلومترات من رومة، واستولوا على ذخيرة الحنطة المرسلة من مصر وأفريقية إلى العاصمة الرومانية. فاقترح التريبون غابينيوس قانونه الشهير Lex Gabinia، الذي قضى بتقليد قائد تقدير صلاحيات واسعة،



الشعب الروماني يلح على بومبايوس بوجوب مساعدة متلرس ضد سرتوريوس في إسبانية.



اغتيال سرتوريوس في إسبانية في السنة ٧٢ ق.م.

تشمل البحر المتوسط بكامله، والأراضي المتاخمة لمسافة خمسة وسبعين كيلومترًا من الشاطئ (٦٧ ق.م.)، فاعترض السناتوس، واحتج أعضاؤه، ولكن دون جدوى. وأسندت



غنايوس بومبايوس.

القيادة إلى بومبايوس، فجرد مائة وعشرين ألف مقاتل ومائتين وسبعين سفينة حربية، ولم تمرّ أربعون يومًا على تعيينه لهذه القيادة، حتى كان قد طهرّ غرب البحر المتوسط، ثم أبحر شرقًا، ولم يمضِ على وصوله إلى بحر إيجه سبعة أسابيع، حتى كان قد استأصل شأفة لصوصه، وخرب حياض سفنهم وحصونهم. وفي السنة التالية اتسع نطاق إمرته حتى شمل قيادة الحرب ضد مثراداتس ملك البونط في شمال آسية الصغرى وشرقها. وكانت قيادة هذه الحرب قبلًا بإمرة «لوكولوس Lucullus»، القائد الروماني القدير الذي كسر شوكة مثراداتس، وقهر مملكة أرمينية المترامية الأطراف يوم كان تغرانس ملكًا عليها. ولذلك لم يجد بومبايوس صعوبة في إخضاع مثراداتس، ولم يكن عليه إلا أن يقبل خضوع تغرانس، الذي قدّمه طوعًا من تلقاء ذاته، ثم سحق بومبايوس البقية المتخلفة من مملكة السلوقيين (٦٤-٦٣ ق.م.)، وجعل سورية ولاية رومانية، وأدخل اليهود في حكم رومة، وقبل رجوعه كانت الفرق الرومانية التي تحت قيادته قد زحفت على أراضي الفرات، وأشرفت على بحر قزوين. ولم يشهد الشرق فتوحات كهذه منذ الحملات المقدونية، فخيّل للعموم أن إسكندرًا جديدًا ظهر في العالم بشخص بومبايوس، زاحفًا على الشرق تحت أعلام النصر.⁶

(٢-٧) مؤامرة كتيلينة

وعاد في السنة ٦٦ إلى رومة «لوكيوس كتيلينة Catilina» حاكم أفريقية طامعاً في القنصلية، ولكنه ما كاد يصل إلى العاصمة حتى علم أنه متهم بالتظلم وابتزاز المال، وأنه، والحالة هذه، لا يجوز له أن يرشح نفسه لمثل هذا المنصب الخطير. وجرى مثل هذا تقريباً لكل من «أوترونيوس Autronius» وسولاً نسيب الدكتاتور، فإنهما اتُّهما بالرشوة، فتآمر الثلاثة على اغتيال القنصلين الجديدين في السنة ٦٥، ثم افتضح أمرهم فباءوا بالفشل. وفي السنة ٦٥ مثل كتيلينة أمام القضاء بدعوى التظلم وأعلنت براءته، فرشح نفسه لمنصب القنصلية مع أنطونيوس، فأخفق لتفوق شيشرون، فحز ذلك في صدره، ودفعه إلى استمالة المتذمرين، فطالب بإلغاء الديون، ولما لم يجده هذا نفعا جمع حوله جماعة كبيرة من أهل البغي والشر، وحاول بواسطتهم أن يغتصب السلطة، ويقبض على أزمة الحكم، ولكنه لم يَفُزْ بالمرام؛ لأن شيشرون كان له بالمرصاد فأحبط مساعيه، فزينت له نفسه أن يعتمد على القتال، فقاتل هو ورجاله مستبسلين في أتروورية، وما فتنوا حتى هلكوا عن آخرهم.⁷

(٣-٧) التحالف الثلاثي

ولما عاد بومبايوس إلى إيطالية يجر أذيال الفخار كفاتح الشرق العظيم تسرّع فسرح جنوده، فلما طلب إقرار إجراءاته في آسية الصغرى وإقطاع جنوده بعض الأراضي امتنع السناتوس عن الموافقة، فانبرى لمعارضته بطل جديد هو يوليوس قيصر، ثم تمكنا من استمالة رجل من نبلاء الرومانيين وأغنيائهم اسمه «كراسوس Crassus»، وذلك في السنة ٦٠ ق.م.، فآل هذا الاتفاق الشخصي بين هؤلاء الثلاثة إلى القبض على أزمة الحكم. وكانت النتيجة انتخاب قيصر للقنصلية في السنة ٥٩، ويتوسع المؤرخون المحدثون فيطلقون على هذا التحالف الثلاثي الشخصي اللفظ اللاتيني triumviri لجنة الثلاثة، أو حكم الثلاثة. والواقع أن هذا الاصطلاح لم يُطْلَقَ رسمياً على هؤلاء الثلاثة، بل على حكم أنطونيوس وليبيدوس وأوكتافيانوس، وذلك في السنة ٤٣ ق.م.

(٨) يوليوس قيصر

هو «غايوس يوليوس قيصر Gaius Julius Caesar» ابن غايوس يوليوس قيصر وحفيد ملوك رومة المؤلهين، وهو ابن أخي سكستوس القنصل (٩١). ولكنه على الرغم من صعود

شرفه ورفعته مجده، نزع إلى عمته يولية ووزجها ماريوس الشهير، وفاخر هو بانتسابه إليهما.

وُلد في رومة في السنة ١٠٢ ق.م.، وتزوَّج وهو لا يزال في السابعة عشرة من كورنيلية بنت «Cinna»، معلناً بذلك استمساكه بأهداف العامة لا الخاصة، فأوعز إليه سولاً بالطلاق فامتنع، فأزبد سولاً وهدد، ففرَّ يوليوس إلى بيثينية في الشرق، واستبسل في حصار «متيلينة Mytilene»، وأنقذ مواطناً من الموت، فاستحق الإكليل المدني. ولدى وفاة سولاً (٧٨) عاد إلى رومة، وتعاطى السياسة فلفت الأنظار بفصاحته وقوة حجته عندما اتهم «دولابلا Dolabella» بابتزاز المال في مقدونية. ثم أمَّ رودوس ليدرس البيان على «مولو Molo»، كما فعل شيشرون فاخطفه قرصان من قيليقية وهو في طريقه إلى الجزيرة، فاقتدى نفسه وأفلت، ثم عاد إلى هؤلاء على رأس قوة صغيرة فقبض عليهم وصلبهم صلباً في مدينة برغامة. وعُلم في حوالي السنة ٧٤، أنه انتُخب عضواً في طغمة الكهنة، فعاد إلى رومة وقضى بضع سنوات عائشاً عيشة سرور وحبور غير متدخل في السياسة، فعرفه الشعب وتعلقوا به لدمائة خلقه وسخاء يده، ثم تولى القضاء في السنة ٦٧، وأمانة الأبنية العمومية في السنة ٦٤.⁸

وكان ما كان من أمر بومبايوس بعد عودته من الشرق ومن تحالف الثلاثة، فانتُخب يوليوس قنصلاً في السنة ٥٩. ولم تكن القنصلية إلاَّ يسيراً من كثير من مقاصد يوليوس، فإنه بعد أن أنفذ مآراب بومبايوس وأزوجه من بنته يولية، وبعد أن سنَّ شرائع جديدة للأراضي لـ «منفعة العامة Leges Agrariae» تأهب لخطته المستقبلية. وكان على يقين من أنه لا بدَّ له من إمرة حربية واسعة؛ ليستطيع أن يعبئ جيشاً، وكان قد طلب أولاً السماح له بإخضاع مصر، وتحويل دخلها السنوي الذي كان يبلغ ١٤٨٠٠ وزنة إلى خزينة رومة، ولم يرَضَ السناتوس. فرأى في السنة ٥٩ الفرصة سانحة في الغرب في بلاد غالية، فطلب أن تقرّر ولاية غالية الإيطالية له، فلم يلقَ صعوبة في سن قانون Lex Vatina عُيِّن بموجبه والياً على غالية الإيطالية واليرية.

(٨-١) فتح غالية وأثره

وتسلم يوليوس إدارة ولايته الجديدة في السنة ٥٨، فبرهن عن مقدرة عظيمة ومهارة فائقة في القيادة الحربية؛ فإنه تمكن في غضون ثماني سنوات قضائها في الزحف على الغالين والبرابرة من إخضاع غالية وراء الألب، وفتحها من حدود المحيط وبحر المانش

حتى نهر الرين. ثم صد القبائل الجرمانية عن غالية، فعادوا إلى بلادهم بعد أن تجشّموا خسائر جمة، وقد أذهلتهم الحداقة والسرعة اللتان بنى بهما جسراً فوق الرين، حتى تمكن من مهاجمتهم في عقر دارهم، وجعل يوليوس الرين حذاً لولايته الجديدة، ثم قطع بحر المانش، وغزا بريطانيا حتى نهر التايمس. فأضاف إلى الإمبراطورية الرومانية مملكة واسعة شملت كل فرنسا الحديثة وبلجيكة.⁹

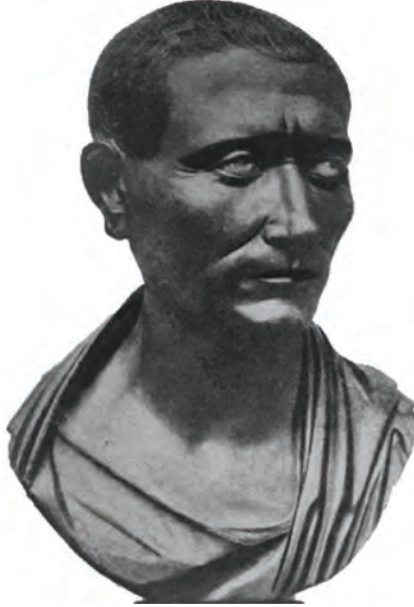
وصنّف يوليوس كتاباً في حروبه في غالية، وعني به عناية شديدة، فجاء من أنفاس ما كتب باللغة اللاتينية نثرًا، وهو يحسب الآن أفضل كتاب لتعليم القراءة للمبتدئين باللاتينية. ونشره يوليوس رسالةً سياسية طبع بها على عقول الشعب الروماني أثرًا عميقًا عن فتوحاته العظيمة وخدماته الجسيمة التي قام بها، واستوجب الشكر من أجلها.¹⁰

وكان «القانون الواتيني Lex Vatina»، الذي أصدره التريبون بوبليوس «واتينيوس Vatinius» في السنة ٥٩، قد جعل مدة ولاية يوليوس على غالية والبرية خمس سنوات، وفي السنة ٥٥ تولى القنصلية بومبايوس وكراسوس حليفًا يوليوس، فمدّداً ولايته خمس سنوات أخرى، ثم توفيت يولية بنت يوليوس وزوجة بومبايوس في السنة ٥٤، وقُتل كراسوس في السنة التالية في حرب البرت في الشرق، فانفرط عقد التحالف الثلاثي، وأصبح بومبايوس حرّاً طليقاً، ولكنه لم يقاطع، ولم يقلب ظهر المجن، ففي السنة ٥٢ في أثناء قنصليته، عندما صدر القانون Lex de Iure Magistratum، وقضى بوجوب حضور المرشح بنفسه إلى رومة؛ لتقديم ترشيحه لوظيفة كبيرة تدخل بومبايوس، وأضاف استثناءً خصوصياً لصالح يوليوس.

ثم أوشكت المدة الثانية لولاية يوليوس في غالية أن تنصرم، وقام مناصروه في رومة يستعدون بإيعازٍ منه إلى انتخابه للقنصلية، فخشي السناتوس عاقبة رجوعه إلى إيطاليا، وبث العيون والأرصاد ليجد شخصية حربية قديرة تصمد في وجهه، فعرض أشياء وأشياء على بومبايوس نفسه، وبما أن هذا لم يكن إدارياً محنكاً رغب في القيادة العسكرية، ومال إلى السناتوس، وشرع يعضد مبادئه، فنشِب نزاعٌ بين قيصر وبومبايوس، كما قام قبل ذلك بنصف قرن بين ماريوس وسولاً.¹¹

(٢-٨) الزحف على رومة

وحاول يوليوس أن يراضي السناتوس وانتظر الجواب، فإذا به يتضمن أمراً بتسريح الجيش. فلم يتردد في البت بما كان ناوياً أن يقوم به في المستقبل، ولم يجنح جنوده إلى



يوليوس قيصر (متحف برلين).

الشئون السياسية، ولكنهم كانوا شديدي التعلق بقائدهم مستعدين للتضحية في سبيله، فلم تكذب من شفته كلمة الأمر بالزحف على رومة، حتى بادروا إلى قطع الروبيكون النهر الصغير، الذي حدَّ ولايته من جهة رومة. ولم يكن لقيصر حق شرعي أن يتخطى بجنوده هذا الحد، فعُدَّ فعله هذا ثورة على النظم القائمة المرعية الإجراء.

وكان من أعظم أسباب نجاح يوليوس سرعته البرقية في تنفيذ ما يروم إجراءه، فقبل أن تمرَّ ساعة من الزمن على وصول رد السناتوس إلى يده، كانت فرقة قد شرعت في الزحف من وادي البو على رومة (٤٩ ق.م.)، ولما لم يكن السناتوس على استعداد لهذا الجواب السريع ألجأته الضرورة إلى مفاوضة بومبايوس في الأمر الواقع، فأجابهم أن القوات الحربية التي تحت إمرة ليست كافية لصد قيصر عن رومة. والواقع أنه لم يكن في تلك الفترة جيش في الجمهورية كلها يستطيع أن يواقف قوات قيصر وفي صدره أقل أمل بالفوز، فتأخر بومبايوس. ولما دنا قيصر من رومة فرَّ بومبايوس وجيشه منها مع معظم الشيوخ أعضاء السناتوس وعدد كبير من الوجوه والأعيان، واحتال قيصر على

بومبايوس وجماعته، وزَّينَ لهم مغادرة إيطاليا، فلما خلا له الجو، وأضحت رومة في قبضة يده أمسى انتخابه للconsul من الهنات الهينات، وغدا المدافع الشرعي عن رومة وحامي ذمارها من السناتوس وجيش بومبايوس.¹²

(٨-٣) استسلام الجيش في إسبانية

ومع هذا كله، فإن مركز قيصر لم يكن بعد حريزاً؛ لأن بومبايوس كان في عيون الشرق أعظم رجل في رومة، وكان بوسعه أن يؤلَّب على قيصر جميع شعوب الشرق ودويلاته، فضلاً عن أنه كان تحت سلطانه الأسطول الضخم، الذي تمكن به من قطع دابر القرصان، وجعل نفسه سيد البحر، ولما كان الشرق بأسره ظهيراً له كانت أحواله تتحسن من يوم إلى يوم، فشرع يعبئ جيشاً، ويدربه على القتال على أمل أن يبطش بقيصر، ويسحقه سحقاً تاماً. وكان الجيش في إسبانية لا يزال موالياً لبومبايوس، والسناتوس مستولياً على إسبانية كلها، فكان يوليوس مضطراً أن يحارب في الشرق والغرب، فعقد النية على تنظيف الغرب قبل القيام إلى الشرق، فبلغ إسبانية بسرعه المدهشة في حزيران السنة ٤٩، ولدى وصوله إليها لجأ إلى الحيلة والدهاء، فتمكن بعد بضعة أسابيع من أن يقطع عن الجيش فيها الميرة والذخيرة، وأحرق بهم من كل جانب، وأكرههم على التسليم دون أن ينشب بينه وبينهم معركة واحدة.¹³

(٨-٤) مفاجأة السناتوس

ولما بلغ مسامع بومبايوس وأعوانه أن قيصر توجه إلى إسبانية، شرعوا في الاستعداد؛ ليعبروا إلى إيطاليا. ولكن قبل أن يتمكنوا من ذلك كان قيصر قد عاد مظفراً وركب البحر من برنديزي، ونزل في أبيروس مع أن السيادة البحرية كانت لا تزال بيد السناتوس وبومبايوس، فأثارت هذه المباغته نفوس أخصام قيصر، وتولتهم الحيرة لتخلصه من مراكبهم الحربية، وبعد انكسارات عديدة رضي يوليوس أن يواقع أخصامه، مع أن عدد جنوده كان أقل من جنودهم، فنشبت بين الطرفين معركة في فرسالية من أعمال ثسالية في السنة ٤٨، أسفرت عن انكسار بومبايوس والسناتوس شر كسرة، فلجأ جيش هؤلاء إلى الاستئمان.¹⁴

(٥-٨) يوليوس وكليوبترة

ونجا بومبايوس بنفسه إلى مصر، فقتل فيها قتلاً شائناً، وتبعه قيصر إلى مصر بقوة صغيرة، فوجد فيها كليوبترة السابعة وأخاها بطلميوس الثالث عشر يتنازعان السلطة والزعامة، كما وجد الفوضى ضاربة أطنابها من جراء هذا النزاع. ولم تكن كليوبترة فتانة بجمالها بل بشخصيتها، فأنفها الضخم الأقرنى الذي لا يزال بارزاً على مسكوكاتها، وفمها الواسع الكبير، وذقنها النائثة إلى فوق، وجبهتها الناطحة ليست من ملامح الجمال أو مياسم الحسن. ولم يكن يوليوس ذلك الغلام الشاب الطائش المتشعب، فإنه كان قد طوى السنة الرابعة والخمسين من عمره، ولكنه كان ذا حاجة سياسية يريد قضاءها بسرعة؛ ليتسنى له النظر في أمور أهم وأكبر. وكان قد وصل إلى مصر بفرقتين وثمانمائة فارس، فأراد أن يأخذ مصر، ودخلها العظيم بالسياسة والدهاء لا بالعنف والقوة.¹⁵ والواقع أن فتنة مخيفة نشبت ضده في الإسكندرية، وأن الشعب هجم عليه وضايقه، وحصره في مصر، وأنه هو أضرَم النار بسفن المصريين؛ كي لا يسدوا عليه الميناء، وظل محصوراً إلى أن أتاه المدد من سورية، فخرج من الحصار، وبدد شمل المصريين، وأقر كليوبترة على الملك، على أن تتزوج أخاها الأصغر إذ كان الأكبر قد هلك.¹⁶

(٦-٨) أتيت، ورأيت، وغلبت

ورغب ابن مثراداتس الكبير «فرناكس Pharnaces» في استغلال الظرف؛ لتوسيع رقعة ملكه وإعادة مجد آبائه في شمال آسية الصغرى وشرقها، وكان «أريوبزانس Ariobazanes» ملك قبذوقية و«ديوتاروس Deiotarus» ملك غلاطية وأرمينية الصغرى قد تعاونوا مع السناتوس وبومبايوس، فلما انتصر قيصر أسرعاً للتكفير عما فعله، فاحتلَّ فرناكس أملاكهما، فحاول القائد الروماني «دوميتيوس كلوينوس Domitius Calvinus» بجيشه المحدود إعادة الوضع إلى ما كان عليه، فخرج فرناكس من قبذوقية، ولكنه أبى أن يتراجع عن أرمينية الصغرى. فجرد كلوينوس حملة عليه، وواقعه عند «نيكوبوليس Nicopolis»، فأخفق وتراجع نحو الغرب. فانطلقت يد فرناكس في الشرق، ونهب وسلب وأحرق، وخصى الشباب الروماني وفعل بهم ما لم يُفعل، فغضب قيصر، وكان قد دبر شئون مصر، فقام إلى «عكة Ptolemais» على رأس ألف مقاتل، ودبر شئون اليهودية وأرض أحبارها، ثم نهض إلى أنطاكية ونظر في أمورها، وأبقى عليها «سكستوس قيصر Sextus Caesar»، وانتقل من مرفئها سلفكية عند مصب العاصي إلى



مركوس أنطونيوس أحد الثلاثة.

قيليقية، وجمع من جمع من الجنود، واتجه شطر البونط معقل مثراداتس وابنه فرناكس فواقعه في «زيلة Zela»، وأوقع به، وفَرَّ هائِماً (٤٧ ق.م.)، فقال قيصر قوله الخالد: «أتيت، ورأيت، وغلبت Veni, Vici, Vidi».¹⁷

(٧-٨) أفريقية وإسبانية

وعاد يوليوس إلى رومة، وأعاد الثقة والطمأنينة إلى بعض صفوف الجيش، وفي مطلع السنة ٤٦ اتجهت أنظاره شطر أفريقية، فإن صديقه الأمين «غايوس كوريو Gaius Curio»، الذي أنفذه إلى أفريقية في صيف السنة ٤٩، كان قد سقط في ميدان القتال، وكانت أفريقية لا تزال مناوئة بيد سكيبيو، وكان يوتة ملك نوميدية لا يزال يهزأ بيوليوس وروسة، ويفاخر بفرسانه وفيلته وجنوده الجدد المدربين على الطريقة الرومانية. وكان يوليوس قد اكتفى بأن أعلن يوتة عدواً لرومة، واعتبر بوغود وبوخوس ملكي موريتانية صديقين حليفين، فلما عاد إلى رومة، وأعاد الثقة إلى صدور الجنود والشعب، نهض إلى أفريقية، وضرب سكيبيو وجنوده ضربة قاضية عند «ثبسوس Thapsus»، وعاد بعد أربعة أشهر إلى إيطاليا، وفي السنة ٤٥ أسرع إلى إسبانية؛ ليحارب من تبقى من اتباع بومبايوس و«لابيانوس Labienus»، فانتصر عليهم في «موندة Munda»، ورجع إلى إيطاليا.¹⁸

(٨-٨) يوليوس الدكتاتور

ولدى عودة يوليوس من «أيلردة Ilorda» عُيِّن دكتاتورًا ليجري الانتخابات في خريف السنة ٤٨، ثم جُعِل في السنة ٤٦ دكتاتورًا لمدة عشر سنوات، وفي السنة ٤٤، نودي به دكتاتورًا مدى الحياة، وكان قد أصبح منذ السنة ٤٦ ناظر «السلوك والأخلاق Praefectus Morum»، فنودي به في السنة ٤٤ تريبونًا «لا تُخَرَّق حرمة Sacrosanctus»، وتردى الأرجوان وأقيمت له التماثيل، وشيد هيكل لرافته، وظهر رسمه على المسكوكات (٤٥-٤٤). ولكنه لم يؤلَّه إلا بعد وفاته، وكانت نفسه تنزع إلى الحصول على مقام ملك تشبهاً بالإسكندر، ولكنه كسياسي محنك كان أحكم من أن يُقدم على نسخ شكل الحكومة الجمهوري، فرفض لقب ملك عندما قدم له في السنة ٤٤.

ولم ينتهج يوليوس خطة سولاً في معاملة الناس، فلم ينتقم من أعدائه، ولم يقتل أحداً لمجرد عداوته له، بل عامل الجميع بالرفق والإنسانية، وحقق دم شيشرون الخطيب مع شدة عداوة هذا له، وأعاد «مركيلوس Marcellus» فحاز بذلك رضا الطبقة الأرستقراطية، ولكن سلطته الواسعة المطلقة وسيطرته في الانتخابات والتعيينات وعظمة ألقابه النادرة أثارت الهواجس والمخاوف وأقضت مضجع جماعات من حزبه، فكان يوم الخامس عشر من آذار سنة ٤٤ حين خرَّ هذا الرجل الفذ صريعاً عند قاعدة تمثال بومبايوس، وعلى أيدي بروتوس وكاسيوس.

هكذا، فإنه لم يبقَ لقيصر إلا وقت قصير بعد فتح رومة في السنة ٤٩ للقيام بالإصلاح الداخلي المنشود، فإنه قضى أربعاً من السنوات الخمس بين التاسعة والأربعين والرابعة والأربعين قبل الميلاد في الحروب وخوض المعارك، ولم يبلغ قيصر السناتوس، بل زاد عدد أعضائه فجعلهم تسعمائة، وانتقامهم من أصحابه وأخصائه، فأمسوا رهن أمره وإشارته. وقبض على إدارة الولايات فأسمى القائمون بسياستها مسئولين له رأساً، وأنقص عدد المنتفعين من توزيع الحبوب، ولكنه أقطع الجنود الذين خاضوا غمار حروبه أراضي في إيطاليا وخارجها، فأنشأ عدداً غير قليل من المستعمرات، ولا سيما التجارية منها، كتلك التي قامت في قرطاجة وكورنثوس وغيرهما. وحدد الهجرة من إيطاليا، وأوجب بقاء ثلث الرعاة الإيطاليين أحراراً، ومنح حقوق المواطن الروماني بسخاء ولا سيما في غالية، وأجرى ما سمحت به الظروف من ضروب الإصلاح في إدارة المدن، ورسم خريطة هندسية لرومة، ونوى تجديد بنائها، وخطط طرقاً جديدة؛ تسهياً للمواصلات، وعزم على إحداث ترعة بشق برزخ كورنثوس. وفي جملة ما فعله لمنفعة العالم عموماً إلغاؤه التقويم القمري القديم، وإدخاله التقويم الذي كان شائعاً في مصر الذي حمل اسمه فيما بعد.¹⁹

هوامش

(1) GREENIDGE, A.H.J., *Sources*, 1–10, *Hist. of Rome*, chs. 1–5; LAST, H., *Tiberius Gracchus*, *Cam. Anc. Hist.*, IX, 1–38; CARCOPINO, J., *Autour des Gracques*, (1928).

(2) GREENIDGE and CLAY, *Sources*, 19–36; GARDINALI, Q., *Studie Graccani*, (1912); CARCOPINO, J., *Autour des Gracques*, (1928); LAST, H., *Gaius Gracchus*, *Cam. Anc. Hist.*, IX, 40–100.

(3) *Sources*: GREENIDGE, and CLAY; PASSERINI, A., *Athenarum*, 1939; Last, H., *The Wars of the Age of Marius*, *Cam. Anc. Hist.*, IX, 102–156; PASSERINI, A., *Caio Mario Come Uomo Politice*, *Athenacum*, 1934.

(4) LAST, II, *The Enfranchisement of Italy*, *Cam. Anc. Hist.*, IX, 158–209; BLOCH et CAROPIMO, *Rép. Rom*, 358–398.

(5) *Sources*: APPIAN, *Bell. Civ.*, I; PLUTARCH, *Sulla*; CICERO, *Pro Roscio Amerino*; GREENIDGE and CLAY, *Sources*, 133–70.

Modern: MOMMSEN, *Th., Hist. of Rome*, “Hammer of the Optimates”; LEVI, M.A., *Silla*, (1924); Last, H., *Sulla*, *Cam. Anc. Hist.*, IX, 261–310; CARCOPINO, J., *Sylla*, (1931).

(6) *Sources*: PLUTARCH, *Sertorius*, *Lucullus*, *Pompeius*; APPIAN, *Bell. Civ.*, I, 80 f.—Mod.: LAST and GARDNER, *Rise of Pompey*, *Cam. Anc. Hist.*, IX, 313–349; ORMEROD and CARRY, *Rome and the East*, C.A.H., IX, 350–395; BOAK, A.E.R., *The Extraordinary Commands from 80 to 48 B.C.*, *Am. Hist. Rev.* 1918–1919; GUSE, F., *Die feldzuge des dritten Mithradatischen Krieges*, *Klio*, 1926; LANZANI, C., *Silla e Pompeo*, *Historia*, 1933.

(7) BOISSIER, G., *La Conjuration de Catilina*, (1905); HARDY, E.G., *The Catilinarian Conspiracy*, (1924); CARRY, M., *Cam. Anc. Hist.*, IX, 475–504.

(8) SHILER, E.G., *Annals of Caesar*, (1911); RUSSELL, A., *Julius Caesar*, (1915); BRANDES G.G., *Julius Caesar*, (1918).

(9) RICE HOLMES, J., *Cesar's Conquest of Gaul*, (1911); KROMAYER, J., *Antike Schlacht-felder*, (1904–1931); BLOCH et CARCOPINO, *Rép. Rom.*, 735–795.

(10) *De Bello Gallico Commentarii*, I–VIII; EDWARDS, H.J., *Caesar's Gallic War*, Text and Translation, (Loeb Class. Library).

(11) ADCOCK, F.E., *Fom Louca to the Rubicon*, *Cam. Anc. Hist.*, IX, 614–637; GELZER, M., *Die Lex Vatinia*, *Hermes*, 1928, 113; CARRY, M., *Pompey's Compromise*, *Class. Quart.*, 1919, 109.

(12) ADCOCK, F.E., *The Civil War*, *Cam. Anc. Hist.*, IX, 639–648; BLOCH et CARCOPINO, *Rép. Rom.*, 861–874.

(13) RICE HOLMES, T., *The Roman Republic*, III; ADCOCK, F.E., *op. cit.*, 648–651; BLOCH et CARCOPINO, *op. cit.*, 874–893.

(14) VEITH, G., *Zu dem Kampfen der Caesarianer in Illyrien*, (1924); STAHLIEN, F., *Das, Hellenische Thessalien*, (1924), 142 f.; LUCAS, F.L., *The Battlefield of Pharsalos*, *Brit. Sch. Athens*, 1919–1921, 34.

(15) CARCOPINO, J., *Passion et Politique chez les Césars*, (1959), 11–64; VOLKMANN, H., *Cleopatre*, (1953), 65–73.

(16) ADCOCK, F.E., *Caesar at Alexandria*, *Cam. Anc. Hist.*, IX, 667–675.

(17) Sources: *Bellum Alexandrinum*; JOSEPHUS, *Antiq.*, XIV, 98. — Modern: JUDEICH, W., *Caesar im Orient*, (1885); ADCOCK, F.E., *Nicopolis and Zela*, *op. cit.*, 676–680.

(18) Sources: *Bellum Africum*, *Bellum Hispaniense*.—Modern: GSELL, S., *Hist. Anc. de l'Afrique du Nord*, VIII, (1928); BLOCH et CARCOPINO, *Rép. Rom.*, 925–957.

(19) Sources: BRUNS, *Fontes Iuris Romani*, 15–18, 28; CAESAR, *De Bello Gallico*, *Bella (Alexandrinum, Africum, Hispaniense)*; CICERO, *Correspondence and Speeches* (Tyrell and Purser); LUCAN, *De Bello Civile*.

Modern: MOMMSEN, *Th., Hist. of Rome*, IV–V; RICE HOLMES, T., *The Rom. Repub.*, (1923); CARY, M. and ADCOCK, F.E., *Cam. Anc. Hist.*, IX,

(1932); CARCOPINO, J., *César* (Hist. Gen., ed. Glotz, Hist. Rom. II, 1936); GELZER, M., *Caesar der Politiker und Staatsmann*, (1941); SYME, R., *The Roman Revolution*, (1939); CARRY, M., *Notes on Lagislation of Julius Caesar*, JRS, 1929.

الفصل الثالث

حكم الثلاثة

(١) أنطونيوس

وانتهى الخامس عشر من آذار السنة ٤٤ قبل الميلاد بليل دامس مخيف، فأعضاء السناتوس فروا مذعورين، وأنطونيوس القنصل الجديد الوحيد الباقي امتنع في بيته، و«لبيدوس Lepidus»، «كبير الفرسان Magister Equitum» يمين الدكتاتور عبر نهر التير، والقتلة الفائزون المفتخرون الذين انطلقوا من قاعة المجلس منادين بالحرية اضطروا أن يلجئوا إلى الكبيتول بضغط من الشعب، وبات زعماء السياسة ينتظرون موقف هؤلاء من سياسة رومة وخطتهم للمستقبل. وكان بروتوس قد ذكر اسم شيشرون عندما رفع خنجره واقترب جرمه، مشيراً بذلك إلى وجوب المحافظة مع شيشرون على الجمهورية وتقاليدها، فزار شيشرون في اليوم التالي القتلة في الكبيتول، فأتضح أنهم لم يرموا إلى شيء سوى التخلص من قيصر والمحافظة على التقليد. وجرت اتصالات في السابع عشر بين أنطونيوس والقتلة، فالتأم السناتوس في هيكل تلوس بالقرب من بيت أنطونيوس، فطالب طيباريوس نيرون، وكان جمهورياً متطرفاً، بمكافأة القتلة الذين أنقذوا رومة من يد المغتصب المستبد. وقال غيره بإلقاء جثة قيصر في التير، فذكر أنطونيوس أن إلغاء أحكام قيصر يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، وإلى تنازل كثير من أعضاء السناتوس نفسه عن مقاعدهم فيه. ونصح شيشرون بالاعتدال، فقال قوله كثيرون، وامتنع السناتوس عن محاكمة القتلة، واعترف في الوقت نفسه بأحكام قيصر، وأوجب تنفيذ وصيته، والاحتفال بدفن جثمانه احتفالاً رسمياً، وبعد الاجتماع دعا أتباع قيصر القتلة إلى عشاء مشترك.

وكان أنطونيوس من أقرب المقربين إلى قيصر وزميله في القنصلية، وكان يأمل أن يكون وريثه وابنه بالتبني.¹ ومن هنا إصراره على الاعتراف بأحكام قيصر في جلسة السناتوس، وعلى تصديق وصيته، فلما تليت الوصية في بيته، وتبين أن يوليوس تبني

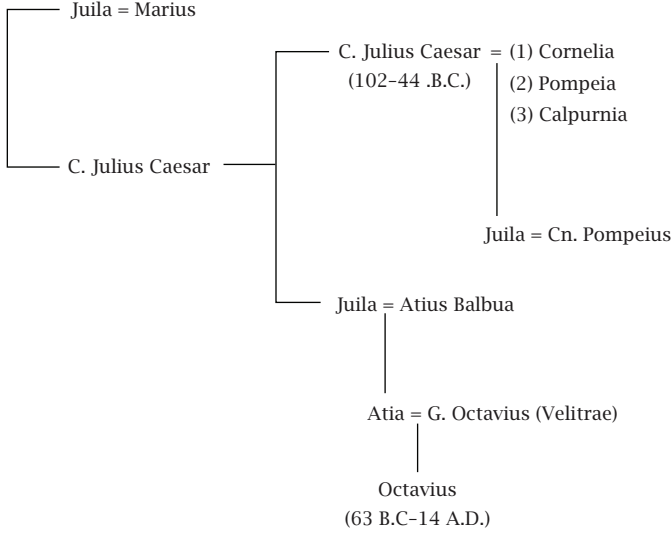
أوكتافيوس، وأوصى له بما عنده، واكتفى بذكر أنطونيوس بين الورثاء الثانويين، انفصمت عرى آماله، وتقوّضت حصونها، ولكنه رأى الظرف ملائماً والفرصة ساحة لتسهم المراتب العالية، فاندفع يستغل الحوادث لصالحه، فصالح القتلة وتقرب وتودد إلى أتباع قيصر، وأرضى السناتوس بالمحافظة على النظم الجمهورية والتقاليد، وسعى أن يكون تحت إمرته جيش يقاتل به عند الضرورة، وذلك بتسليم مقاليد الحكم في إحدى الولايات القريبة من إيطالية.²

وعلم الشعب الروماني بأمر وصية قيصر، وأنه وهب كل مواطن روماني ثلاثمائة «سستركة sesterce»، وأنه وهب الشعب جنائنه التي وراء التير،³ فلما احتفل بجنائزته في العشرين من آذار، وتليت القرارات باحترامه وإكرامه، ومراً رداؤه الملوّث بالدم هاج الشعب وطالب بإعدام القتلة، فاضطر بروتوس وكاسيوس أن يخرجوا من المدينة وابتعدا عنها، فكان ذلك في صالح أنطونيوس، ولم يعارض أنطونيوس وصول «دولابلا Dolabella» القيصري إلى القنصلية، وعاون لبيدوس القيصري في الوصول إلى رتبة «الحبر الأعظم Pontifex Maximus»، واسترضى السناتوس باتخاذ قرار ألغى به الدكتاتورية، وأظهر السناتوس الرضى بأن منح أنطونيوس حكومة مقدونية ودولابلا حكومة سورية. ولكن أنطونيوس لم يكتف بهذا القدر من السلطة، فإنه لجأ إلى استمالة الجنود الذين خاضوا غمار حروب قيصر، فوزع عليهم الأراضي، وخرج في نيسان إلى كامبانية؛ ليشرف بنفسه على توزيع الأراضي، وكان لا يزال ملتحيًا حزينًا على فقد سيد الجنود! ودسّ على وصية يوليوس، فمنح الصقليين حقوق المواطن الروماني، وأعطى «ديوتاروس Deiotarus» أرمينية الصغرى، وأدخل أنصاره إلى مقاعد السناتوس، وغض النظر عن عودة كليوبترا وابنها الصغير إلى مصر، فارتاب الشيوخ الأرستوقراطيون في أمره، وقال شيشرون: إن الدكتاتورية لا تزال حية على الرغم من وفاة الديكتاتور، وشاع في أيار خبر وصول أوكتافيوس إلى رومة، فهرول أنطونيوس إليها.

(٢) أوكتافيوس الشاب

هو «غاليوس أوكتافيوس Gaius Octavius» ابن «آتية Atia» بنت «يوليا Julia» أخت يوليوس قيصر، وابن غاببوس أوكتافيوس، الذي تحدّر من أسرة «وليترة Velitroe» المحترمة. ولدى الاطلاع على نص وصية الخال الكبير يوليوس قيصر اتخذ أوكتافيوس لنفسه الاسم غايوس يوليوس قيصر «أوكتافيانوس Octavianus»، فعُرف به حتى

حُكم الثلاثة



السنة ٢٧ ق.م، ثم اشتهر بعد ذلك باللقب «أوغسطسوس Augustus». وُلد في الثالث والعشرين من أيلول سنة ٦٣ ق.م، وتوفي والده وهو لا يزال في الرابعة من العمر. ومع أن والدته تزوجت من مركيوس فيليبوس، فإنها عُنيت عناية فائقة بتربية ولديها أوكتافايوس وأوكتافية تربية صالحة وبتهديهما أيضًا. ثم نال أوكتافايوس قسطًا وافرًا من العلوم على يد أشهر الأساتذة كأبولودوروس البرغامي وأريوس الإسكندري. وكان منذ نعومة أظفاره جميل الوجه أبيضًا نكيرًا، فأحبه خاله الأكبر وشمله بعطفه، فأرسله إلى أبولونية في خريف السنة ٤٥؛ ليكمل علومه، ويختبر الحياة العسكرية مع الضباط والجنود الذين كانوا يتدربون فيها. ولكن أوكتافايوس شكا منذ صغره من ضعف البنية والمرض، فكان لا بد من الاعتناء بصحته عناية خصوصية.

وبينما كان أوكتافايوس ينتظر في أبولونية صدور الأوامر لتحرك الجيش نحو حدود برتية في الشرق، تلقى في أواخر آذار سنة ٤٤ رسالة من والدته تنبئه فيها بمقتل خاله يوليوس، فهبَّ لساعته يستعد للعودة إلى رومة، وعلم الضباط بذلك، فأكدوا استعدادهم للزحف معه على رومة، ولكنه آثر التريث، وعاد إلى رومة مع بعض الرفاق. ونزل في برنديزي، فعلم فيها مضمون وصية خاله، وأنه هو وريثه وحامل اسمه. وجاءت أمه ترجوه ألا يرث مخاطر خاله، فأبى وجعل أخذ الثأر شعاره،⁴ ولدى وصوله إلى رومة أعلن

اسمه الجديد غايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس، وطالب بصفته ابن يوليوس قيصر ووريثه بالإرث المتروك. وكان لا بد من موافقة «مجلس العشائر Comitia Curiata» على الاسم الجديد قبل اتخاذه رسمياً، فعرقل أنطونيوس هذا السعي مدة من الزمن، ولكن أوكتافيانوس لم ينتظر صدور الموافقة، ومضى يتكلم ويطالب كأنه الوريث الوحيد، ولم يكتثر أنطونيوس بادی ذي بدء، لمقاومة أوكتافيانوس، واستخف به لصغر سنه وقلة اختباره، فكان يشير إليه باللفظ «الولد»، ولم يعلم أن منكبيه الغضين كانا يحملان رأس شيخ حنكته السنون.

ونظر أوكتافيانوس إلى البيئة التي وجد فيها نظرة الحضيف، ولم ينس أن يستفيد من سيرة أبيه بالتبني، فاستغل اسم هذا الأب ونهج نهجه. ما كاد أنطونيوس يخرج من رومة ليلاقى الجيش القادم من مقدونية، حتى قام أوكتافيانوس إلى كامبانية يستميل جنود قيصر المجربين الأبطال، فالتفوا حوله، وانضم إليهم نصف الجنود القادمين من مقدونية، وهكذا، فإن أنطونيوس وجد نفسه قبل انتهاء السنة ٤٤ بين عدوين «ديكيμος بروتوس Decimus Brutus» في الشمال، وأوكتافيانوس في الجنوب، فرأى أن يضرب ديكيμος أولاً، وقام إلى وادي البو على رأس ما تجمّع لديه من جنود، وخشي ديكيμος تفوق جنود أنطونيوس، فامتنع في «موتينة Mutina» أي مودينة الحالية. فاضطر أنطونيوس أن يحاصره فيها، وانتهت السنة ٤٤ في إبان الحصار، وتم انتخاب القناصل الجدد، فنجح كل من «هورتيوس Hurtius» و«بنسة Pansa»، اللذين رشحهما قيصر قبل مقتله.

(١-٢) حصار موتينة

وتوجّس السناتوس خوفاً من مطامع أنطونيوس، ورأوا في شخص ديكيμος بروتوس وموقفه دعامة للحكم الجمهوري، ورغبوا في الإفراج عنه، وتشاوروا في الأمر، فلم يجدوا لدى القنصلين الجديدين من القوة العسكرية ما يكفي لمجابهة أنطونيوس وإكراهه على التراجع. فعرض أوكتافيانوس خدماته في هذا المضمار، فاعترض المتطرفون من الشيوخ، وآثروا هلاك ديكيμος على قبول مساعدة من رجل يحمل اسم قيصر، ولكن شيشرون رجل الساعة آنئذٍ اكتسح الموقف لصالح أوكتافيانوس. وكان هذا قد اتصل بشيشرون، وأكد له أكثر من مرة استعدادة للمحافظة على الجمهورية، فأعطى السناتوس «السلطة imperium» لأوكتافيانوس، وخوّلوه حق التجبيش والتعاون مع القنصلين لرفع الحصار

عن موتينة، وقام الجميع إلى الشمال، فكانت موقعة حاسمة عند «فوروم غالورم Forum Gallorum»، أدت إلى انسحاب أنطونيوس من ميدان القتال في إيطالية، واتجاهه شطر غالبية نفسها لاستمالة لبيدوس وفرقه. ولم يجد أوكتافيانوس في أثر أنطونيوس؛ لأن جنوده لم يرضوا عن محاربة رفاقهم في السلاح القيصري لمجرد الدفاع عن قتلة قيصر وأصدقائهم في السناتوس.⁵

(٢-٢) الزحف على رومة

واستطار خبر الانتصار على أنطونيوس فأبهج السناتوس، وبولغ فيه، فغلبت على الشيوخ نشوة الطرب، ولم يملكو أنفسهم، فاعتبروا أنطونيوس وجنوده مجرمين لا يؤخذ أحد على قتلهم، وأظهروا لجنود أوكتافيانوس وضباطه مقدار ما عندهم من الرأفة والتبصر والتمييز، وكان القنصلان هيرتيوس وبنسة قد توفيا في ميدان القتال، فحوّل السناتوس قيادة جيوشهما إلى ديكيموس، فتمرد هؤلاء والتحقوا بجيش أوكتافيانوس. وكان من عنفوان السناتوس أيضًا، أنهم أقاموا لجنة تحقيق في أعمال أنطونيوس، ولم يعينوا أحدًا من أصدقاء قيصر فيها، فخشي جنود أوكتافيانوس سوء العاقبة، وأوجبوا إشراك أوكتافيانوس في أعمالها وانتخابه قنصلًا حتى نهاية السنة. ولكن الشيوخ كانوا لا يزالون في غفلة معرضين، فأثاروا قضية عدم اكتمال الشروط في شخص أوكتافيانوس، فأمر هذا بفض مضرب الخيم، وقام على رأس جيشه زاحفًا على رومة. فاستفاق الشيوخ، وفاوضوا على أساس مطالب الجند، ثم ترددوا على أثر وصول الجنود من أفريقيا، ولكن هؤلاء أعلنوا انضمامهم إلى صفوف أوكتافيانوس، فرضخ الشيوخ، وانتخبوا أوكتافيانوس قنصلًا، وكذلك «بيديوس Pedius» أحد أنسبائه (آب ٤٣)، ثم اتخذ مجلس العشائر قرارًا اعترف به ببنوة أوكتافيانوس لقيصر Lex Curiata. ولم يلبث القنصل الجديد طويلًا في رومة، فإنه بعد أن سن السناتوس قانونًا يوجب إنزال العقاب بقتلة قيصر، اتجه شطر الشمال؛ ينهي قضية أنطونيوس.⁶

(٣) حكم الثلاثة

وكان أنطونيوس قد وصل إلى غالبية، وتمكن من التفاهم مع لبيدوس قائد الجيش في إسبانية و«بلانكوس Plancus» قائد القوات في غالبية. وكان شيشرون قد كتب إلى هذين القائدين يحضهما على الدفاع عن النظام الجمهوري، ويجوز القول: إن

القائدين أحبا الوقوف إلى جانب السناتوس، ولكنهما لمسا نفورًا في نفوس جنودهما من السناتوس، وتعلقًا بذكريات قائدهم القديم العظيم قيصر، وامتناعًا عن التناحر فيما بينهم بعد أخوة في السلاح دامت طويلًا، وأدت إلى نصر مبين. وهكذا، فإن أنطونيوس كان قد أصبح سيد الموقف فيما وراء الألب في غالية والغرب، وتمكن — والحالة هذه — من استمالة الجنود، الذين كانوا لا يزالون تحت إمرة ديكيموس بروتوس، الذي امتنع في موتينة، ثم تأثر أنطونيوس حتى غالية نفسها. فلما علم ديكيموس بفوز أنطونيوس في استمالة جنوده فرَّ هاربًا، فقبض عليه أمير غالي، وقضى عليه بإشارة من أنطونيوس.⁷ وكان مركوس بروتوس زعيم المؤامرة على حياة قيصر ولونجينوس كاسيوس شريكه فيها قد أصبحا سيدي الموقف في الشرق. فلم يرَ أنطونيوس بدءًا من منازلتهما فتودد إلى أوكتافيانوس، وكان هذا يرى أن قوة أنطونيوس قد أصبحت عظيمة، وأن المصلحة تقضي بالتفاهم لا باللجوء إلى العنف، فلما زحف على رأس جيوشه من رومة إلى الشمال التقى بأنطونيوس وليبيدوس في «بونونية Bononia» في وادي البو، ففاوضهما واتفق معهما على إنشاء حكومة ثلاثية تنظم أمور الجمهورية وتضبطها *Lex Triumviri Reipublicae Constituendae*، واعترف بالواقع، وأقر «القانون التيتي Lex Titia» في السابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ٤٣ ق.م.، فأنهى بذلك النظام الجمهوري.⁸

(٤) تطهير إيطالية

ورأى الثلاثة في اجتماعهم التمهيدي أن رافة يوليوس وحلمه أديا إلى اغتياله، وأنه لا بد من الشدة والعودة إلى قساوة سولاً وبطشه ومصادراته، ورأوا أيضًا أن المصادرة تضمن سد العجز الذي طرأ على الخزينة، ولما انتقلوا إلى إعداد اللوائح قبل التنفيذ لم يتفقوا على الأشخاص الذين سيحل بهم العقاب، فأقروا حق كل منهم بإضافة أسماء الأشخاص الذين يرغب في إعدامهم أو إبعادهم أو مصادرة أملاكهم، سواء أرضي الآخرا أو لم يوافقا. فاضطر أوكتافيانوس أن يضحي بشيشرون ليُرضي أنطونيوس، الذي لم ينسَ تهجم الخطيب عليه بفيليبياته. وأوعز الثلاثة إلى «القنصل الثاني Pedius» الذي كان لا يزال في رومة، بالقبض على كبار الرجال، الذين تقرر إعدامهم وتنفيذ الحكم فيهم حالًا وسريعًا. وبعد أن تم ذلك قام الثلاثة، كل على رأس أفضل ما لديه من الجند، إلى رومة. ولدى وصولهم إليها لم يلقوا من أعضاء مجلسها أية مقاومة لمشروعهم المفاجئ،

فاتخذ حكمهم الثلاثي شكلاً قانونياً بإصدار القانون التيتي، الذي خول الثلاثة صلاحيات واسعة لإعادة النظر في نظام الجمهورية لمدة خمس سنوات. وفور صدور هذا القانون أعلن الثلاثة أسماء جميع من شملهم التطهير، وأكدوا أن مصلحة الدولة قضت بتطهير رومة من عناصر الفساد قبل الشروع بملاحقة قتلة قيصر في بلاد بعيدة، ولكنه لم يخفَ على أحد أن سبب التوسع في التطهير والمصادرة كان مادياً لا سياسياً، وأن حاجة الثلاثة إلى ما يعرضون به على جنودهم قضت بهذا التوسع. وشملت لوائح التطهير ثلاثمائة شيخ من شيوخ السناطوس، وحوالي مائة فارس من طبقة الأغنياء الوجهاء. وتمكن بعض هؤلاء من الفرار والالتحاق بمعسكر بروتوس في مقدونية، كما تمكن غيرهم من العبور إلى صقلية والالتجاء إلى سكستوس بومبايوس وأسطوله القوي.

وأرسل شيشرون عائلته عبر الأدریاتيك، وكان بمقدوره أن ينجو بنفسه أيضاً، ولكنه أثر الموت مع الجمهورية التي أحب ودافع عنها، ثم ألح عليه أصدقاؤه بوجوب الالتحاق بعائلته، فحاول ولكنه لم يفلح، ففُطع رأسه في السابع من كانون الأول سنة ٤٣ وحُمل إلى رومة، فوضعه أنطونيوس على «الدكة rostrum» نفسها التي كان شيشرون يقف عليها، وجاءت «فولوية Fulvia» امرأة أنطونيوس وزوجة كلوديوس سابقاً، وشكت مثقّباً في اللسان الذي هجا زوجها الأول والثاني بفصاحته النادرة.⁹

(٥) يوم فيليبي

وكان مركوس بروتوس وغايوس كاسيوس قد فرّا إلى الشرق بعد اغتيال يوليوس، كما سبق وأشرنا. وكان بروتوس قد استقر في مقدونية، أما كاسيوس، فإنه كان قد تسلّم مقاليد الأمور في ولاية سورية، وكان أنطونيوس قد نصّب دولابلا زميله في القنصلية والياً على سورية بعد وصوله إلى الندوة، فقام دولابلا إلى سورية مارّاً بأسية الصغرى، فاعترض سبيله «تريبونيوس Trebonius» أحد المشتركين في اغتيال قيصر، ولكنه أخفق ووقع في يد دولابلا فأمر هذا به فقتل. فلما وصل دولابلا إلى سورية اعترضه كاسيوس في ساحل اللاذقية وقضى عليه، فظلت السلطة في الشرق وفي مقدونية بيد القتلة المتآمرين، فجنّدوا وجيشوا واستعدوا ليوم الحساب، وحاول شيشرون إقناع بروتوس بضرورة الزحف على رومة لتدعيم الجمهورية، ولكن دون جدوى، فإن بروتوس لم يرّض عن تعاون شيشرون مع أوكتافيانوس، واعتقد أن اتفاق أنطونيوس والسناطوس كان أمراً مستحيلاً، ولعله خشي خبرة الجنود القيصرين، الذين التفوا حول أنطونيوس وأوكتافيانوس وتعلقهم بيوليوس، ولم يثق بمن كان قد دخل في خدمته في الشرق.



ترى في هذا الشكل وجهي قطعة نقد، سكها بروتوس في السنة ٤٣-٤٢ ق.م؛ ليدفع بها مرتبات جنوده، ويشاهد على الوجه الواحد رأس بروتوس والكلمات Brut (us) Imp(erator)، وعلى الوجه الآخر خنجران، يشيران إلى مقتل قيصر، وخوذة ترمز إلى الحرية، والكلمتان Eid(ibus) Mar(tits) منتصف آذار، وهو تاريخ مصرع قيصر.

وما كاد الثلاثة يتفاهمون في الغرب ويتسلطون، حتى اتجهوا بأنظارهم شطر الشرق، موجبين تعقب القتلة والتخلص منهم، فبقي لبيدوس في رومة يدبر شئونها، ونهض أنطونيوس وأوكتافيانوس على رأس قواتهما، فعبرا الأدرياتيك ونزلا في بلاد اليونان، وكان بروتوس وكاسيوس قد وصلا بقواتهما إلى «فيلبي Philippi» في شرق مقدونية عند شاطئ إيجة بالقرب من «قولة» الحديثة، وانتقيا ميدان القتال خارجها في محل تفصله عن البحر مستنقعات واسعة، فلما أطل أنطونيوس وأوكتافيانوس في أوائل تشرين الأول سنة ٤٢ على فيلبي، ودرسا ميدان القتال، شرع أنطونيوس في تشييد طريق عبر المستنقعات يهدد بها مؤخرة كاسيوس، ثم انقض على معسكر كاسيوس، وأعمل السيف في رقاب رجاله، فيئس كاسيوس وانتحر. أما بروتوس، فإنه بعد أن هجم على معسكر أوكتافيانوس ونجح نجاحًا ملموسًا، اضطر إلى التراجع بعد انتحار زميله، ولكنه ثبت في وجه خصمه عشرين يومًا. وكان في صالح أنطونيوس وأوكتافيانوس أن يستدرجا خصمهما إلى قتال فاصل، فكان لهما ذلك في الثالث والعشرين من تشرين الأول، وكان لهما نصر مبين. وانتحر بروتوس في التلال المجاورة، فأصبح «الثلاثة» أسياد الموقف في عالم المتوسط.¹⁰

(٦) أوكتافيانوس والغرب

وجلس العظيمان بعد فيليبي يدرسان الموقف، فهالهما فراغ الخزينة، وعجزها عن التعويض على الجنود تعويضاً كاملاً مُرضياً، فرأياً أن لا بد من اللجوء مرة ثانية إلى المصادرة، ورأياً أيضاً أن لا بد من الاستعانة بمال الشرق لهذه الغاية، فأظهر أنطونيوس رغبة في تولي أمور الشرق، ولم يستطع أوكتافيانوس أن ينازعه في ذلك؛ لأنه كان قد قضى شطراً وافراً من وقته، إما مريضاً وإما مستجماً. وكان أنطونيوس قد تحمل مسئولية الحرب ومخاطرها، فتم الاتفاق بين الاثنين على أن يعود أوكتافيانوس إلى إيطاليا ويتدبر شئونها، ويدبر الأموال اللازمة لإرضاء الجنود، وعلى أن يتجه أنطونيوس إلى الشرق؛ لضبط أموره وفرض السلطة فيه، واستعادة هيبة رومة.

وما كاد أوكتافيانوس يصل إلى إيطاليا ويشرع في تنفيذ الاتفاق الذي تم بينه وبين أنطونيوس حتى جُوبه بمشاكل ومشاكل، فالجنود رغبوا في مصادرة الأموال في المدن، وأبناء المدن احتجوا على ذلك، ورأوا فيه إجحافاً، وتدخلت فولوية زوجة أنطونيوس في هذا الأمر، واتفقت وسلفها لوكيوس أنطونيوس — القنصل آنئذٍ — على حماية المدن وتزعم معارضتها، وكان لا يزال تحت تصرف لوكيوس بعض جنود أخيه، فكان لجوءاً إلى العنف أدى إلى ما يُعرف بحرب «بيروسية Perusia» لامتناع لوكيوس فيها وقيام أوكتافيانوس إليها على رأسه جنوده، وبعد حصار دام فترة من الزمن استسلم لوكيوس، فلم يعاقبه أوكتافيانوس، ولم يتعرض لفولوية بأذى، بل سمح لهما بالالتحاق بزميله في الشرق. ولكنه خشي مغبة ذلك، فبدأ يستعد للدفاع عند الحاجة، وتوفي والي غالية، وكانت لا تزال تُحسب على أنطونيوس، فتسلم أوكتافيانوس إدارتها، وتولى قيادة جيوشها، فأُمسى سيد إيطالية وغالية وإسبانية، أما أفريقية، فإنها كانت لا تزال بيد لبيدوس أحد «الثلاثة».¹¹

(٧) سكستوس بومبايوس

وأما صقلية، فإنها كانت خارج نطاق الحكم الثلاثي؛ لأن سكستوس ابن بومبايوس كان قد امتنع فيها، وسكستوس هذا كان أصغر أبناء بومبايوس، وكان قد رافق والده بعد موقعة فرسلوس من جزيرة لسبوس حتى مصر وشاهد مصرعه فيها، ثم انتقل إلى أفريقية مع غنايوس أخيه الأكبر، ولكنه لم يشترك في الحرب الأفريقية. ولما أنفذ الجمهوريون غنايوس إلى إسبانية؛ ليغذي الثورة فيها ضد الحاكم القيصري، لجأ سكستوس إليها،

واستقر في شمالها، وتمرد على السلطات جاعلاً من نفسه رئيس عصابة. وبعد مقتل قيصر في الخامس عشر من آذار سنة ٤٤ ودخول رومة في حربها الأهلية، ترك سكستوس يفعل ما يشاء، فعظم أمره، وأمسى سيد إسبانية القصوى له جيشه وأسطوله. وعندما قامت الحرب حوالي موتينة في السنة ٤٣، نهض سكستوس على رأس قواته إلى مسالية في جنوب غالية يراقب سير الحوادث، وينتظر فرصة مواتية، واتصل شيشرون به، وأسند السناتوس إليه قيادة الأسطول، ولكنه لم يعبأ بذلك، ظناً منه أن الجمهورية لا ترغب في بومبيايوس جديد، وجاء حكم الثلاثة في السنة ٤٣، فتوج اسمه لائحة المحكومين بالإعدام، فعاد إلى الأسطول والقرصنة، ثم احتل صقلية، وجعلها قاعدته.¹²

(٨) أنطونيوس والشرق

وكان ما كان من أمر بروتوس وكاسيوس في ميدان فيليبى في خريف السنة ٤٢ ق.م.، فقام أنطونيوس إلى الشرق؛ ليدبر شؤنه، ويجمع المال لسد نفقات الحرب، فأحبه الأثينيون لتهلنه، واستقبله أهل أفسس استقبال الآلهة، فرأوا فيه ذيونيسوساً جديداً واهباً الفرح والنعمة، والتف حوله الأمراء المحليون الشرقيون طالبين الرضى مقدمين الهدايا. واستقر أنطونيوس بعض الوقت في مدينة طرسوس في قيليقية، فاستدعى في السنة ٤١ كليوبترة إليها؛ ليناقشها الحساب حول موقفها من الحرب الأهلية، وقبلت كليوبترة الدعوة، ولكنها أجلت السفر وماطلت لتستوقد شوقه. وفيما كان جالساً في إحدى باحات طرسوس المظلة على النهر يقضي بين الناس، اضطرب الجمهور، واندفع شطر المرفأ، وترك أنطونيوس وشأنه، فتساءل أنطونيوس ما الخبر؟ فقليل: هي إفروديتية إلهة الجمال والحب والخصب، جاءت تسامر ذيونيسوس الجديد لخير آسية. وأطلت الذهبية الملكية بمقدمها المذهب ومقازيفها المفوضة وقلوعها الحريرية الأرجوانية، وقد اتكأت ملكة مصر بثيابها الأفروديتية تحت مظلة مذهب، يحيط بها جوق من أجمل الصبية في ملابس آلهة الجمال، ووصيفات فانتات يحركة الدفة، ويمسكن حبال القلوع، وشبان أشداء ظرفاء يقذفون على وقع الموسيقى وألحان السماء، وكان النسيم ينقل إلى ضفتي النهر روائح الطيب والعطر. ونزلت كليوبترة إلى طرسوس، ولبت دعوة القائد القنصل، ودعاها إلى تناول الطعام معه فأبت، وأصرت أن يكون هو ضيفها، فقبل الدعوة وصعد إلى الذهبية الراقية، فشاهد من نفائس الأواني ما لم يره قط، وذاق من ألوان الطعام ما لذ وطاب، وأعجب بما رأى من النفائس، فقالت: هي لك هدية صغيرة، فأزهفت هذه العظمة عقله، وازدهفت

لله، فأمر بإخراج أرسنوة منافسة كليوبتره من هيكل أرتيميس في أفسس وبقتلها، وقضى بمثل هذا على كل من بطليموس الكاذب الثالث عشر، الذي ادّعى أنه هو أخو كليوبتره الحقيقي، وعلى سيرايون الذي كان قد التحق بكاسيوس على رأس الأسطول المصري، واكتفت كليوبتره بهذا القدر من النصر، وعادت فجأة إلى مصر في خريف السنة ٤١، وتركت في طرسوس قائداً كاد قلبه يطير وراءها.

وكان على أنطونيوس أن ينظر في مشاكل إدارية سياسية ملحة، فأنتيغونوس المكابي كان يضايق هيرودوس بن أنتيباتر صديق قيصر ونصيره، وكان أنطونيوس قد ولّى هيرودوس وأخاه الحكم في فلسطين رغم معارضة اليهود. وكان على أنطونيوس أيضاً أن يعين والياً على سورية، ويحدد الضرائب فيها، كما كان عليه أن يستعد لصد هجوم على هذه الولاية قد يقع في كل لحظة من جانب البرت من وراء الفرات. ولم تكن رومة قد تأثرت بعد لقائدها كراسوس، الذي خرَّ صريعاً على يد البرت. ولكن أنطونيوس لم يعبأ بشيء من هذا، فإنه كان قد ولع بكليوبتره وراعه ثراؤها، فأراد أن يتعرف بأمر عينه إلى بلد قد يصبح فيما بعد أفضل قاعدة لأعماله في الشرق وفي الغرب، فعجل أمور سورية وفلسطين تعجلاً، فثبّت بطليموس خلكيس في إمارته في البقاع والغوطة، وأبقى السلطة في حمص ونواحيها بيد ميمبليخوس، وطرد غيرهما من الأمراء المحليين، فعبروا الفرات ولجئوا إلى البرت، واستشار هيركانوس في أورشليم، فجعل من هيرودوس وأخيه تترخين على فلسطين، وعين «ديكيدوس سكسا Decidius Saxa» والياً على سورية، وأغار على تدمر لابتزاز المال، وأثقل كاهل السكان بضرائب جديدة، فثارت أرواد في وجهه، وأبقى فرقتين من جنود كاسيوس بإمرة ديكيدوس، وقام إلى مصر لتمضية شتاء السنة ٤١-٤٠ فيها إلى جانب كليوبتره.¹³

وبينما كان أنطونيوس يُطلق لنفسه عنان هواه في مصر، عبر فرسان البرت الحدود الشرقية، وقتلوا والي سورية، واستولوا على أورشليم، وتوغلوا في آسية الصغرى، وفتحت بعض مدنها أبوابها لهم، وتعاونت معهم، وانضم إلى صفوفهم عدد من الرومانيين الساخطين على الحكام الثلاثة، وآثر البرت نظاماً جمهورياً في رومة، تنقسم فيه الكلمة وتختلف فيه الآراء على حكم رجل فرد، أو رجال ثلاثة يفرضون إرادتهم فرضاً.

ولم يكن أفق أنطونيوس الغربي أقل تجهماً، فإنه علم — وهو لا يزال في مصر — بما جرى في إيطاليا، ولا سيما حوادث الحرب البيروسية، فقام من الإسكندرية إلى صور، فأصدر عنها التعليمات اللازمة لدرء الخطر البرتي، وأقلع منها إلى قبرس وروودوس

فأثينة، والتقى بزوجته فولوية فروت ما جرى، وكيف أن ظلّه تقلّص في إيطالية وغالية، فنهض إلى إيطالية، وحاول النزول في برنديزي، فمنعه قائد حاميتها عن النزول فنزل في ضواحيها، ووصل إليها أوكتافيانوس بعد فترة قصيرة، وعسكر الطرفان مستعدين للقتال، ثم جاء خبر وفاة فولوية في أثينة، ولم يُظهر الجنود رغبة في القتال، وأيدهم في ذلك جمهور الرومانيين والإيطاليين.

(٩) اتفاقات برنديزي ومسينة

ولم يكن أوكتافيانوس واثقًا كل الوثوق من ميول بعض جنوده، ولا سيما أولئك الذين كانوا إلى حد قريب تحت إمرة أنطونيوس في غالية، كما أن أنطونيوس كان يرى الخير كل الخير في تدبير شئون الشرق ورد خطر البرت عنه، فوقع الطرفان اتفاقًا في خريف السنة ٤٠ ق.م.، قضى بتقسيم المتوسط وحوضه إلى قسمين رئيسين: غربي وشرقي، وبموجب حد مر بمدينة أشقودرة في البرية من الشمال حتى الجنوب، فتولى الغرب أوكتافيانوس، وتسلط أنطونيوس على الشرق، وظلت أفريقية بيد لبيدوس. أما إيطالية، فإنها اعتُبرت مباحة للكبيرين، يجندان فيها أنى شاءا، ومكّن أوكتافيانوس أواصر الألفة والاتفاق بالزواج، فحلت أوكتافية أخت أوكتافيانوس محل فولوية زوجة أنطونيوس التي توفيت في أثينة، فهتفت الجيوش ودعت للزوجين وللكبيرين، وقام الاثنان إلى رومة، فقابل أهلها خبر الاتفاق بارتياح عظيم.¹⁴

وكان سكستوس بومبايوس لا يزال مسيطرًا على صقلية والبحار، فتعذر تموين العاصمة بالحبوب وارتفعت أسعارها، وهدد الجوع الجماهير، فألحوا بوجوب تسوية الأمور، والوصول إلى تفاهم مع سكستوس، وأراد الكبيران أن يجردا حملة عليه، ولكن الشعب لم يرَضَ عن تحمل نفقاتها، فعاد الكبيران إلى المفاوضة، فطلب سكستوس أن يكون هو الثالث في الحكم بدلًا من لبيدوس، ثم اعتدل فقبل بحكم صقلية وسردينية على أن يرشح إلى القنصلية في المستقبل القريب، ووقع الطرفان المتفاوضان في السنة ٣٩ ق.م. اتفاق مسينة، وكانت شروط هذا الاتفاق: أن يبقى سكستوس في الحكم في صقلية وسردينية، وأن يسهّل تموين رومة بالحبوب اللازمة، وأن يُنتخب قنصلًا في القريب العاجل، وأن يصدر عفو عن جميع الذين لجئوا إليه في أثناء الحرب الأهلية، ما عدا الذين اشتركوا في التآمر على قيصر والفتك به، وأن يعاد إلى اللاجئين ربع أموالهم المصادرة، وأن يصار إلى عتق الأرقاء الآبقين الذين التجئوا إلى سكستوس، وأن يُصيّب جنوده من التعويض ما أصاب جنود الثلاثة الحاكمين.¹⁵

(١٠) نهاية سكستوس

وعاد أنطونيوس إلى الشرق في السنة ٣٩، ولم يتمكن سكستوس من البر بوعوده والقيام بعهوده، فكان لا بد من اللجوء إلى العنف، فربح سكستوس الجولات الأولى لتعاضد قوته البحرية، ثم نشب خلاف بين سكستوس وبين «مينيدوروس Menedorus» حاكم سردينية، فمال هذا إلى أوكتافيانوس وسلمه الجزيرة. وقارب أمد حكم الثلاثة النهاية، فعاد أنطونيوس إلى إيطاليا؛ ليضمن تمديد هذا الحكم، وليعجل إرسال المدد إليه؛ ليتمكن من رد البرت في الشرق وإعادة النظام إلى ربوعه. واعتبر أنطونيوس أن سكستوس كان أحد حلفائه، ففاوض أوكتافيانوس فيما يقدمه له مقابل التخلي عن سكستوس، فكان اتفاق جديد في برنديزي في السنة ٣٧، تخلى أنطونيوس بموجبه عن سكستوس، وتعهد بتقديم معونة بحرية إلى أوكتافيانوس مقابل تجنيد عشرين ألف روماني وإرسالهم إلى الشرق، وقام الكبيران إلى رومة، فجدا حكم الثلاثة ومدّاه خمس سنوات جديدة، وعاد أنطونيوس إلى الشرق.

وانصرف «أغريبة Agrippa» يمين أوكتافيانوس في السنتين ٣٨-٣٦ ق.م. إلى إنشاء أسطول يقضي به على مقاومة سكستوس. ولما تم له ذلك قام بأسطوله إلى شاطئ صقلية الشمالي، وقام «طوروس Taurus» بمائة وعشرين سفينة إلى شاطئ الجزيرة الشرقي، وعبر لبيدوس البحر من أفريقية مهدداً الشاطئ الغربي، وتمكن من النزول إلى البر، وإقامة رقبة جسر عند «ليليبايوم Lilybaeum»، أما أغريبة وطوروس، فإنهما اضطرا إلى التراجع؛ لهبوب عاصفة بحرية قوية، ثم أصلحا ما تخرّب من السفن، وعادا إلى القتال، فالتقيا في الثالث من أيلول سنة ٣٦ عند «نولوخوس Naulochus»، فحطما أسطول سكستوس تحطيمًا، وفرّ هو ببضعة سفن إلى أسية الصغرى، حيث لقي حتفه فيها على يد «تيتيوس Titius» (معاون Legatus أنطونيوس) في السنة ٣٥ قبل الميلاد، واحتل لبيدوس صقلية، وخضعت سردينية وكورسيكة إلى أوكتافيانوس.¹⁶

(١١) عزل لبيدوس

وسئم لبيدوس بعده عن رومة، وعدم اشتراكه فيما جرى فيها من القرارات الهامة والصفقات الكبيرة، فلما نزل في صقلية جعل جنود سكستوس يستسلمون له لا لأوكتافيانوس، ووجد نفسه فجأة على رأس قوة أكبر من قوة زميله أوكتافيانوس، فتصلف وتغطرس، فعمل أوكتافيانوس على استمالة جنود لبيدوس، ونجح في ذلك نجاحًا باهرًا،

ثم عُزل لبيدوس من الحكم الثلاثي (٣٦)، وأمر بإقامته في إيطالية إقامة جبرية، فأُمسى الحكم الثلاثي ثنائياً، وبات أمر الفصل بين سيد الغرب وسيد الشرق واقعاً لا محالة. وبقي أنطونيوس طوال السنتين ٣٩-٣٧ في أثينة، يدير دفة الأمور منها، ويصدر أوامره عنها، ورافقته زوجته أوكتافية إليها ولدت له فيها بنته أنطونية. واحتفى الأثينيون بالقائد الروماني وزوجته الجديدة، وحيّوه تحية ديونيسوس، واعتبروه ديونيسوساً جديداً، واقترحوا عقد زواج بين الإله الجديد وبين إلهة المدينة أثينة، فقبل أنطونيوس شاكرًا، ولكنه طالب ببائنة «دوطة» بلغت مليون درهم، فاعترض أحد الوجهاء مازحًا، وقال: «إن زفس تزوج من أمك «سميلة» Semele أم ديونيسوس بدون دوطة.» فتنازل ديونيسوس الجديد، وقبل الدوطة مقسطة ثلاث دفعات، وسُكَّت النقود فظهر وأوكتافية إلهين محسنين، وتردى باللباس اليوناني، وشارك الأثينيين أفراحهم وأتراحهم، وأنفق بسخاء، فحملت دورة ألعابهم الرياضية في آب السنة ٣٨ اسمه، فدُعيت الأنطونيات بدلًا من الأثينيات.¹⁷ وبعد أن مدد الثلاثة حكمهم خمس سنوات أخرى في السنة ٣٧، وذلك بعد اتفاق «ترنتوم Tarentum»، أرسل أنطونيوس زوجته وبنته الصغيرة إلى رومة، وقام إلى أنطاكية سورية، يستعد لهجوم على البرت هجومًا يستعيد به ما لحق بسمعة رومة من أذى، وأرسل يستدعي كليوبتره إليها؛ لتمضية فصل الشتاء معه فيها، فجاءت إليها في شتاء السنة ٣٧-٣٦، واشتركت في المهرجانات التي أقيمت فيها، احتفاءً بما كان قد تم من نصر، اشتراكًا سياسيًا وغراميًا في آن واحد، وقضى الاستعداد للهجوم على البرت بتأمين المؤخرة، ورصد المال الكافي، وتسهيل الوصول إليه عند الحاجة، فتزوج أنطونيوس من كليوبتره،¹⁸ واعتمد هيرودوس ملك اليهود لإخماد ما قد ينشب من فتن ويُحاك من دسائس، ونهض بجيشه وحاصر أفراسية، فأضاف مأساة إلى مأساة، كما سيذكر في حينه في الفصل السابع.

وكان أوكتافيانوس قد تعهد بتجنيد عشرين ألفًا في إيطالية، يعين بهم أنطونيوس في الشرق، فتأخر في إرسال هذا المدد، ثم اضطر في السنة ٣٥ أن يجرّد حملة على البرية عبر الأدریاتيك، فأعاقت هذه الحملة عن البر بالوعد. ولما حان وقت التنفيذ، أرسل أوكتافية إلى الشرق وألفي جندي بدلًا من العشرين، وبعض السفن التي كان قد استعارها للاستيلاء على صقلية، فرأى أنطونيوس في هذا كله عرقلة لمساعيه في الشرق، فلم يسمح لأوكتافية أن تتجاوز أثينة في طريقها إلى الشرق، ولكنه لم يطلقها، فعدت إلى إيطالية، ولم يرص أوكتافيانوس عن هذه المعاملة، فنصح إلى أوكتافية أن تهجر بيت زوجها، ولكنها أبت.¹⁹

(١٢) أنطونيوس وكليوبترة

وتزوج أنطونيوس من كليوبترة في السنة ٣٧ ق.م.، فعانى في زواجه مشقة، وقاسى فيه نَصَبًا؛ فالقانون الروماني قضى بزوجة واحدة، وأوكتافية كانت لا تزال زوجة أنطونيوس الشرعية، والعرف والقانون حرّمًا زواج الروماني من أجنبية، ولم تكن كليوبترة مواطنة رومانية، ثم إن هذا الزواج من كليوبترة أسبغ على أنطونيوس صفة ملكية لم يرضَ عنها الرومان، واضطره هذا الزواج أيضًا إلى توسيع رقعة ملك البطالسة على حساب رومة، فإنه أدخل في السنة ٣٧ قيرونة وقبرص وإمارة خلقيس البقاعية والشاطئ الفينيقي حتى النهر الكبير في حوزة كليوبترة، وأضاف إلى هذه أحراج قيليقية الضرورية لأحواض السفن المصرية وجزءًا من جزيرة كريت، واعترف ببنوة التوءمين، اللذين ولدا له من كليوبترة في السنة ٤٠ بعد خروجه من مصر، وبولد ثالث أبصر النور في السنة ٣٦، ووافق على تسمية التوءمين ألكسندروس وكليوبترة تيمناً، وعلى إطلاق الاسم بطليموس فيلادلفوس على الولد الثالث، ولا يخفى ما كان في هذه التسمية من تطلع إلى إعادة أمجاد غابرة!

وجاءت السنة ٣٤، وانتصر أنطونيوس على ملك أرمينية، وأحب أن يحتفل بالنصر، فخالف العرف الروماني، واحتفل بفوزه في الإسكندرية لا في رومة. وجاء دور المنح لهذه المناسبة، فأعلن كليوبترة «ملكة على الملوك»، واعترف بشرعية ابنها من قيصر، الذي كان يُدعى «قيصريون Caesarion»، وأشركه في الحكم معها. وجعل بطليموس ابنه منها ملكًا على سورية وقيليقية، واعتبر ألكسندروس ملكًا على أرمينية، وكليوبترة الصغيرة ملكة على قيرونة، وكتب إلى السناتوس الروماني بهذا كله، وطلب الاعتراف بقانونية عمله. ولا نعلم كيف برر عمله هذا أمام السناتوس؟ ولعله قال: إنه اتبع في ذلك خطة رشيدة إلى إقامة دول صديقة حليفة، تتولى هي أمر الدفاع عن الشرق والصمود في وجه البربر، ولكن السناتوس سكت عن رسالة أنطونيوس، ولم يعلن مضمونها، ولم يوافق عليها. ولم ير السناتوس — في الوقت نفسه — الخطر الكامن في إجراءات أنطونيوس، الذي رآه أوكتافيانوس.²⁰

(١٣) تيقظ أوكتافيانوس وسهره

وفي السنة نفسها، التي أخفق فيها أنطونيوس في حملته على البربر (٣٦ ق.م.)، تمكن مناظره أوكتافيانوس من السيطرة على صقلية والقضاء على سكستوس بومبايوس فيها، ونجح أيضًا في عزل لبيدوس، وفي فرض سلطته على أفريقية، وأبعد أوكتافيانوس بهذين

الانتصارين شبح المجاعة عن رومة، وأعاد إلى مزارعها أكثر من ثلاثين ألف رقيق أبقي، فاستحق شكر السناتوس، وأقيم له تمثال ذهبي في الفوروم يحمل على قاعدته العبارة التالية: «بعد اضطراب دام طويلاً، أعاد السلم في البر والبحر». وظهر هذا التمثال على النقود، وأضيفت العبارة «الإمبراطور قيصر». وخطب أوكتافيانوس في الناس، وأكد حلول النظام والأمن، وأشار إلى انتهاء الاستبداد، وألغى عددًا من القوانين الاستثنائية، التي كانت قد سُنت في أثناء الحرب الأهلية، وأضاف أنه سيكون مستعدًا للتنازل عن السلطة الاستثنائية التي مارسها بصفته أحد «الثلاثة» إذا قبل أنطونيوس بذلك وعمل به. فقابل الشعب هذه التصريحات بارتياح عظيم، ومنحه السناتوس حق الجلوس مع الترابنة، واعتبر شخصه مقدسًا لا تُخرق حرمة. وأعلن أوكتافيانوس في السنة ٣٦ أيضًا عزمه على تشييد هيكل لأبولون إله بيته وحاميه وإله «النظام والانضباط». فقارن الرومانيون بين دخول أوكتافيانوس في حماية إله النظام والانضباط، وبين قبول أنطونيوس بأن يكون ديونيسوسًا جديدًا إله فرح ونعمة، يغازل أفروديتة إلهة حب وخصب.

وجعل أوكتافيانوس الرومانيين في السنة ٣٥، يقارنون بين ارتماء أنطونيوس في حوض خلية شرقية، وبين نفوره من سيدة رومانية شريفة هي زوجته الشرعية. فأوكتافيانوس رأى من الحكمة في السياسة أن تتولى شقيقته المحترمة زوجة أنطونيوس الشرعية تسليم المعونة المادية والعسكرية، التي قرر أوكتافيانوس إرسالها إلى أنطونيوس في الشرق، ولما رفض أنطونيوس مقابلة زوجته الشرعية، وآثر رفقة الخلية على التعايش مع زوجته، اقترح أوكتافيانوس منح أوكتافية شقيقته، زوجة أنطونيوس، و«ليبية» Livia زوجته، شرف التساوي مع عذارى وستة آلهة الموقد العائلي الروماني. فاعتُبرت مقدستين لا تُخرق حرمتهم، كما اعتُبرت حرتين غير خاضعتين لأية رقابة، ومُنحتا حق إقامة صور لهما، فأمسى توقير أوكتافية وتفخيمها تحقيرًا واستصغارًا لزوجها أنطونيوس، الذي امتنع عن قبولها، وآثر مغازلة خلية شرقية غير رومانية.²¹

(١٤) كشف القناع وحرب الأعصاب

وتخسّنت الصدور، ودمنت القلوب، وقربت نهاية المدة الثانية لحكم الثلاثة، فتخشى الناس انتهاء السنة ٣٣، وهالهم صباح الحادي والثلاثين من كانون الأول، لا يدرون ما يهجم عليهم منه. وفي خريف السنة ٣٣ لجأ الطرفان إلى الدعاية، وسخّرا لها الألسنة

والأقلام. فنظم «كاسيوس البرمي Cassius Parmenensis» قصيدة قدح فيها بأصل أوكتافيانوس، فقال: إن والده عجنه من طحين أريكي، مشيرًا بذلك إلى أن أمه جاءت من «أريكة Aricia» من سلالة طحان وضيع. وكتب أنطونيوس نفسه إلى أوكتافيانوس يقول: «وما الذي يبعدك عني؟! هل هو نومي مع الملكة؟! وأي جديد ترى في هذا، وقد بدأت منذ تسع سنوات؟ وماذا نقول عنك؛ هل تنام مع «دروسلة Drusilla» فقط؟ إنني أتمنى لك الخير كل الخير إذا كنت — لدى اطلاعك على هذه الرسالة — بعيدًا عن «ترتولة Tertulla» و«ترنتلة Tarentilla» و«روفيلة Rufilla» و«سلوية Salvia». وأقبح ما جاء في تهجم أنطونيوس إشارته إلى علاقة أوكتافيانوس غير المشروعة مع خاله الأكبر يوليوس، وإلى أن هذه العلاقة الجنسية كانت سبب عطف يوليوس عليه واتخاذها ابنًا له،²² ومما جاء في هذه المهارات التي سبقت حلول العاصفة، أن مناشير الدعاية والرسائل المغفلة لم تخلُ من الإشارة إلى جبن أوكتافيانوس وخرعه في الحروب، وأن ليس وراءه إلا الفشل والخور، ومما ذُكر من هذا القبيل، أنه كان لا يزال مستغرقًا في النوم حين بدأ الهجوم في فيليبّي، وأنه حُمِلَ حملًا إلى ميدان القتال، فكانت عيناه شاخصتين إلى السماء لا تجرؤان على النظر إلى الأعداء.²³

ولم يحجب أوكتافيانوس فضله عن أنطونيوس، فإنه ردَّ الكيل كيلين، وجعل العيب عيبين، وكتب له مباشرة بذلك، وأوعز إلى رجاله بالتقريع، فأوجعوا أنطونيوس لومًا، وأعد «غايوس أوبيوس Oppius» رسالة خصوصية في علاقة قيصريون بقصر، وكتب «مركوس فلاريوس ميسالا Messala» كتابًا في نفائس الفن والمخطوطات، التي جمعها أنطونيوس من بلدان الشرق ليهبها إلى خليلته المصرية de Antoni Statuis. ومما جاء في هذا الكتاب، أن أنطونيوس أرسل من برغامة إلى الإسكندرية أكثر من مائتي ألف درج من المخطوطات، واشتد اللوم والتقريع والتوبيخ، فاضطر أنطونيوس نفسه أن يعد رسالة يبحث فيها إدمانه على المسكر؛ ليرد على اللائمين.²⁴

ولم يكتفِ أوكتافيانوس بما تقدم، بل إنه رفع النزاع بينه وبين أنطونيوس إلى مستوى سياسي عالٍ، فأشار إلى زواج مناظره من ملكة هلينية شرقية، وإلى صيرورته ديونيسوسًا جديدًا، واتهمه بالطمع في ملك إلهي هليني، وأيد هذا الاتهام بذكر ما أضافه أنطونيوس إلى أملاك كليوبترة وأولادها على حساب رومة، ورماء بالخيانة، فقال: إن أنطونيوس لم يعد رومانيًا، بل أمسى بخضوعه إلى كليوبترة عدوًا مميّيًا يهدد كيان رومة. وكان الشعب الروماني قد عرف كليوبترة في أثناء إقامتها في رومة في عهد قيصر، ولم

يرض عن سلوكها. فلما هجر أنطونيوس أوكتافية النبيلة المحترمة ليلتصق بكليوبترة، بدأ الشعب يقارن بين الاثنين، ويحتقر هذه ويعظم تلك، فرأى أوكتافيانوس أن يستغل هذا الشعور، وأن يجعل نزاعه حرباً دفاعية في سبيل المحافظة على الكيان الروماني ضد مطامع كليوبترة وخليها أنطونيوس.²⁵

(١٥) موقف السناتوس

ورقّب الشيوخ هذه الأمور كلها، ولم يغفلوها طرفة عين، ولكنهم كانوا واقعيين يعملون بما تمليه عليهم تطورات القوة التنفيذية المتسلطة وروابط الحسب والنسب ودوافع المصلحة الشخصية، وانتهت السنة الثالثة والثلاثين، وجرت الانتخابات القنصلية للسنة ٣٢، فوصل إلى هذه الرتبة اثنان من أصدقاء أنطونيوس ومريديه «دوميتيوس أهينوبربوس Ahenobarbus» و«غايوس سوسيوس Sosius» حاكم سورية. ولدى تسلمهما زمام الأمور في أول كانون الثاني من السنة ٣٢، وقف سوسيوس خطيباً فمدح أنطونيوس ولام أوكتافيانوس وأوجع، وفند وفلى، ولكنه لم ينجح باتخاذ أي قرار سناتوسي باللوم؛ لأن التريبون «نونيو بلبوس Balbos» تدخل واعترض، فأبطل اتخاذ أي قرار ضد أوكتافيانوس، وكان هذا قد تعمد التغيّب؛ لتفضي المعارضة بما لديها، فلما حل موعد الجلسة الثانية، دخل المجلس محاطاً بالجنود والأصدقاء، ورد على سوسيوس، واقترح متهمكاً أن يوزع أنطونيوس على جنوده الأراضي في مادي وأرمينية، ثم احتج على موقف أنطونيوس من كليوبترة، وتصرفه بأملك الدولة لصالح هذه المرأة وأولادها، وقال: إنه سيوافي الشيوخ في الجلسة المقبلة بما لديه من أوراق ورسائل تثبت سوء تصرف أنطونيوس وسوسيوس أيضاً.²⁶

وخشي سوسيوس وزميله أهينوبربوس مغبة ما جرى، وشاركهما في ذلك الشيوخ أصدقاء أنطونيوس، ففروا من رومة قبل موعد الجلسة التالية، وأبحروا إلى أفسس مقر زعيمهم أنطونيوس، وكان عدد هؤلاء الشيوخ ثلاثمائة من مجموع ألف.

(١٦) حرب فاصلة

وكان أنطونيوس قد عزم على الحرب في أوائل السنة ٣٣، فنهض إلى مادي والتقى صاحبها، وجدد السلم والصداقة، ثم عاد إلى أفسس، ودعا كليوبترة إليها، وبدأ بالحشد،



زعيم سياسي روماني.

وكان مجموع القوى الرومانية في الشرق لا يتجاوز التسع عشرة فرقة، فأبقى أربعاً منها في قيرونة، وسبغاً في مصر وسورية، وقدمت كليوبترة مائتي سفينة حربية، وعشرين ألف وزنة، وكان لا بد من إنشاء سفن جديدة، فأطلق أنطونيوس يد كليوبترة في بيروت لبناء السفن في أحواضها من خشب لبنان، وكان لا بد من الإسراع في العمل، فأمر بقطع أشجار الغابة المقدسة في جزيرة كوس، وتجمع لديه قبل البدء بالأعمال الحربية حوالي ثمانمائة سفينة.

وازداد أنطونيوس قوة بوصول القنصلين إلى معسكره، ووصول الشيوخ الثلاثمائة معهم، واعتبر أن حكومة رومة الشرعية أصبحت في أفسس لا في رومة، وجعل الشيوخ

ينقضون القرار الذي اتُّخذ في رومة بنزع سلطة الحكم الثلاثي عنه وبتجريدته من رتبة القنصلية، وكان لا يزال محبوباً مؤيداً في بعض الأوساط في إيطاليا، فلو استغل وجود الشيوخ والقنصلين معه أكثر مما تقدم شرحه، ولو ارتفع في مخاصمة أوكتافيانوس إلى هذا المستوى القانوني الدستوري لتمكن من إزعاج مناظره وإضعاف معنوياته، ولكن أنطونيوس وقف عند هذا الحد.

ثم إن عدداً من الشيوخ استنكر وجود كليوبترا في أفسس في ذلك الظرف الروماني الداخلي، وطلب إلى أنطونيوس إخراجها وإبعادها، وكان أشد هؤلاء انفعالاً القنصل دوميتيوس أهينوبربوس، فإنه كان قد لمس امتعاض الرومانيين من علاقات أنطونيوس مع كليوبترا، وأدرك درجة الخطر السياسي الداخلي من بقائها في المعسكر، فامتنع عن مخاطبتها كملكة، واكتفى بذكر اسمها الشخصي، وألحَّ على أنطونيوس بوجوب إبعادها. وكان أنطونيوس يحترم دوميتيوس، فطلب إلى كليوبترا أن تعود إلى مصر، فلم تلجأ إلى الاستهواء كسابق عادتها، بل رشت «كنيديوس Canidius» أحد كبار الضباط المقربين، وجعلته يدافع عنها بما أوتي من حكمة، فأكد كنيديوس إلى أنطونيوس أنه لا يجوز إغضاب المصريين بعد أن أسسوا أكثر رجال الأسطول عدداً، كما أنه لا يجوز إغضاب من مؤل الجيش وقدَّم معظم العتاد، فعاد أنطونيوس عن قراره، وبقيت كليوبترا في المعسكر العام.

وفي ربيع السنة ٣٢، في إبان أعمال الحشد والتجيش، بينما كانت الحراب تُشحذ، والسيوف تُرهف، والتروس تُدق، رأى الزوجان الإلهان أنطونيوس وكليوبترا أن ينتقلا إلى جزيرة ساموس؛ ليشتركا في احتفال ديونيسوسي راقص كبير، احتفاءً بديونيسوس الجديد وأفروديتة مصر! وظلَّت الرجال تتوافد على أفسس، فوصل «تركونديموتوس Tarcondimotus» قيليقيّة، الذي اتخذ لقب «صديق أنطونيوس» على ما سگه من نقود، و«أرخيلاوس Archealus» قبذوقية و«ديوتاروس Deiotaros» بفلغونية، و«ليكوميدس Licomedes» البونط، و«أمينتاس Amintas» غلاطية، وميتراداتس كوموجينة، وأمير حمص العربي بمبليخوس، وبوغود أمير موريتانية اللاجئ، وقدَّم ملكو النبطي العربي جنوداً وموئناً، وكذلك «أرتفسدس Artavasdes» المادي، ولم ترغب كليوبترا في اشتراك هيرودوس اليهودي بشخصه، لما كان لكلامه من تأثير في نفس أنطونيوس، ولكثرة عدد الساخطين عليها في المعسكر العام، فجعلت أنطونيوس يشغله بحرب محلية ضد جيرانه العرب. ولما بدأ يتغلب على هؤلاء أوعزت إلى والي البقاع، الذي حكم باسمها أن يعي أخصام

هيروُدوس؛ لتشغله وتضعفه في آن واحد، ثم ألحت على أنطونيوس بوجوب إلحاق مدينة غزة بممتلكاتها على حساب هيروُدوس، وكان لغزة آنئذٍ أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية التجارية.

وفي آيار السنة ٣٢، جعل أنطونيوس أثينة مقرًّا له، فتبعته كليوبترا إليها، فذكرت لياليه فيها مع زوجته أوكتافية، ولقيت من بعض الأوساط الأثينية شيئًا من السخط والسخرية على دور التفرقة، الذي كانت قد لعبته بين الزوج وزوجته الشرعية، فأوجبت التخلص من أوكتافية، فصعد أنطونيوس، وكتب إلى أوكتافية كتابًا رسميًا بالطلاق، فقابلت أوكتافية الطلاق بالدموع، وعادت إلى خدن أخيها حاملة بنتها من أنطونيوس وابنه الأصغر من زوجته الأولى. وشاع ذلك في الأوساط الرومانية، فقبول بامتعاظ وسخط شديدين، وتمكن أوكتافيانوس من إقناع الجماهير بانقياد أنطونيوس لامرأة داهية خداعة، وخسر أنطونيوس بخروج أوكتافية من بيته في رومة حلقة وصل متينة كانت تربط بين مريديه، فإن أوكتافية ظلت حتى الساعة الأخيرة أمينة له، على الرغم من عداؤه لأخيها، وصدّق الجمهور ما كان يُروى عن مطامع كليوبترا بقول نُسب إليها، أنها ستعدل بين الناس من الكبيتول الروماني، وتسرّب اليأس إلى قلوب الموالين لأنطونيوس، فاستنكروا ونفروا، وانحازوا الواحد تلو الآخر إلى جانب أوكتافيانوس.

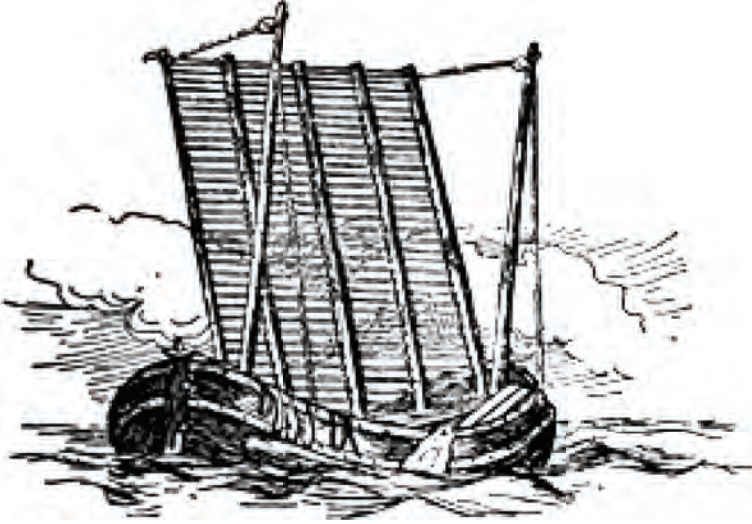
وكان في طبيعة المستنكرين النافرين «موناتيوس بلانكوس Munatius Plancus» ونسيبه «تيتيوس Titius»، فإنهما أعلنّا فور وقوع الطلاق انضمامهما إلى معسكر أوكتافيانوس، ونقلّا إليه محتويات الوصية، التي كتبها أنطونيوس، وأودعها عذارى ويستة لتفض بعد وفاته. فهب أوكتافيانوس لساعته يحاول الحصول على هذه الوصية؛ ليثبت بها ما كان قد شاع عن أنطونيوس من تبذير وإسراف، ورفضت العذارى تسليم الوصية، وقلن لأوكتافيانوس: إذا كان لا بد من الاطلاع عليها فخذها أنت بنفسك، فاخترق أوكتافيانوس حرمة المعبد، وتناول الوصية بيده وفضّها، فإذا بأنطونيوس يعترف بقيصريون ابنًا شرعيًّا لقيصر، وإذا به يوزع الأراضي الرومانية في الشرق على كليوبترا وأولادها، وإذا به يوصي أنه في حالة وفاته في رومة يجب نقل جثمانه إلى الإسكندرية. وتلّيت الوصية تلاوة علنية في مجلس الشيوخ، فانصب أحدهم «كلويسوس Calvisius»، وأدلى بتفاصيل أخرى أظهرت أنطونيوس في مظهر الانقياد والخنوع لأوامر سيدة مصر. ومما ادعى به أن أنطونيوس كان يهرع في بعض الأحيان لذلك أقدام كليوبترا، وأنه كان إذا جلس للقضاء أو تدبير شئون الدولة ووردت عليه رسائل كليوبترا، يوقف الأعمال؛ ليفض هذه الرسائل ويقرأها، وأنه إذا كان جالسًا في باحة من الباحات ومَرّت كليوبترا

أمامه، يؤجل ما كان ينظر فيه إلى وقت آخر ويلتحق فوراً بها. ومما نقله أوكتافيانوس نفسه عن إنفاق كليوبترا في سبيل استرضاء أنطونيوس أنها أهدته أنواعاً متنوعة من الأواني الذهبية، بينها وعاء للغائط من ذهب، صنَّع خصيصاً لأنطونيوس.

وكان أوكتافيانوس قد دوَّخ بعض القبائل في البرية بين السنة ٣٥ والسنة ٣٣، وأنشأ عدداً من الثكنات المحصنة فيها، فاحتاط بذلك لهجوم بري على إيطالية قد يفاجئه به أنطونيوس، وكان أيضاً قد فرض شيئاً من هيبة رومة على القبائل الداقية الضاربة في حوض الدانوب الأسفل، وعاد إلى إيطالية لفرض الضرائب لجمع المال اللازم للحرب، فلقى بعض المقاومة، ولكنه سرعان ما أحبطها، وجاءت سياسة أنطونيوس في الشرق ضعيفة سخيفة، ففندها أوكتافيانوس وقبَّحها، فالتفَّ الناس حوله وأيدوه، وانحاز إليه عدد متزايد من أنصار أنطونيوس.

وطلَّق أنطونيوس زوجته أوكتافية في أيار السنة ٣٢، فأنكر الرومان عليه فعله، ولم يروا له فيه عذراً، ثم وُقِّع أوكتافيانوس إلى وصية أنطونيوس، وتلاها في السناطوس، فاضطربت بها الألسن، ورأى الناس في شطرها الأخير، الذي قضى بدفن أنطونيوس في الإسكندرية إلى جانب كليوبترا، وبتخصيص أولادها منه بأموال طائلة، دليلاً على عزم أنطونيوس أن يجعل الإسكندرية عاصمة الدولة بدلاً من رومة، فقالوا: إنه لم يعد رومانياً، وإنما أمسى أداة بيد امرأة أجنبية.²⁷ واستغل أوكتافيانوس هذا كله فأجمع الناس في خريف السنة ٣٢ على تأييده بـ «القسم conjuratio»، واعتباره قائداً عاماً في جهاد مقدَّس لدرء الخطر من الشرق، وشمل هذا القسم الغرب كله، فنزع أوكتافيانوس سلطة الحكم الثلاثي من يد أنطونيوس، واعتبره غير لائق لأن يكون قنصلاً في العام ٣١، ثم توجه إلى هيكل «بلونة Bellona» إلهة الحرب بصفته رئيس كهنة «الفيتيالس Fetiales»، وغمس سهماً في الدم وسدده نحو الشرق بلاد العدو، وأعلنها حرباً مقدسة على كليوبترا لا على أنطونيوس.²⁸

وأطلَّت السنة ٣١ ق.م.، فإذا هو قنصل للمرة الثالثة، يعاونه في هذه الوظيفة «فاليريوس ميسلة Valerius Messalla Corvinus» بدلاً من أنطونيوس، وتمت الاستعدادات للحرب، فأقيم «مكيناس Maccenas» حاكماً على إيطالية والعاصمة، وأنفذ «كورنيليوس غالوس Cornelius Gallus» إلى أفريقية؛ ليصد كل هجوم يأتي من الشرق،²⁹ وأقلعت قوة بحرية إلى الغرب لتحمي شواطئه، وفي أوائل الربيع بعد أن أصبح البحر صالحاً للملاحة والمناورة، عَبَّر أوكتافيانوس بحر الأدرياتيك، يحيط به عدد كبير من الشيوخ.

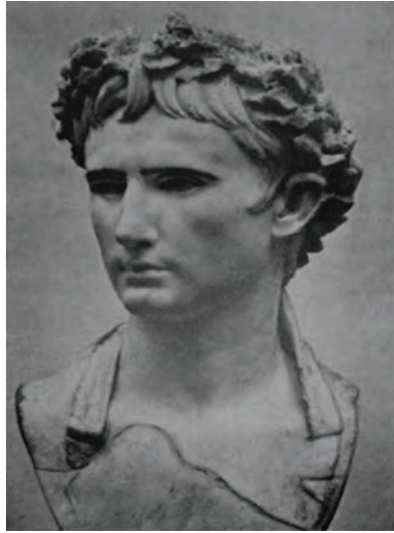


سلالم الحصار البحري.

وكانت قوات أنطونيوس قد قامت إلى الشاطئ الأيوني عند مدخل الأدرياتيك في أيلول السنة ٣٢، فرابط ستون أو سبعون ألفاً من المشاة والفرسان في ساحل أبيروس والمورة، وكان معظمهم من الرومانيين أو الإيطاليين، وتجول في مياه البحر الأيوني من جزيرة كفلونية حتى جزيرة كورفو حوالي خمسمائة سفينة حربية. وكان أنطونيوس قد اتخذ من مدينة بتراس عند مدخل خليج كورنثوس مقراً له، وجعل خليج «أمبراكيا» Ambracia قاعدة للأسطول، وكانت مدينة «أكتيوم» Actium تحرس مدخل هذا الخليج من الجنوب، ولكن أسبارطة كانت قد أيدت أوكتافيانوس، رداً على قساوة أنطونيوس في معاملة ملكها السابق، وكذلك لبنة وكيدونية في جزيرة كريت،³⁰ وكانت بيروت أيضاً قد ثارت على كليوبترية في شتاء السنة ٣٢-٣١، وعادت إلى سك العملة المدنية البيروتية،³¹ وكان ما كان من أمر وجود كليوبترية في المعسكر كما سبق وأشرنا، ومن تشعب الآراء واضطراب الحبل، فتناقل أنطونيوس واحترار في أمره، فلم يبدأ بالهجوم، بل بقي منتظراً قدوم خصمه، ولعله كان واثقاً من قدرته في المناورة والقتال، وتفوقه في ذلك على أوكتافيانوس،

فبات ينتظر وصول خصمه، معللاً نفسه أنه سينتصر في أية معركة برية مهما تنوعت ظروفها.

وحشد أوكتافيانوس ثمانين ألفاً من المشاة، واثنى عشر ألفاً من الخيالة، وأربعمائة سفينة حربية، بينها البوارج الثقيلة التي خاضت معارك صقلية، والسفن الصغيرة الخفيفة السريعة المناورة والمناوشة، وتولى أغريبة قيادة الأسطول، فاتجه جنوباً، وفاجأ بوغود الأفريقي في مرفأ «ميثوني Methone» في أقصى المورة، فقتله واستولى على المرفأ، فهدد تموين أنطونيوس بقطع مواصلاته مع مصر، وأوهمه أن الهجوم المنتظر سيهدف إلى اكتساح الميسرة واحتلال المورة. وفي خلال ذلك، انقض أوكتافيانوس على الميمنة ونزل في أبروس، وأسرع منها جنوباً إلى خليج أمبراكية قاعدة الأسطول المصري الأنطوني، واحتل شاطئه الشمالي وحصّن مراكزه فيه. ثم قضى أغريبة على وحدات بحرية مصرية أخرى، وجاء يحصر أسطول الخصم في قاعدته في خليج أمبراكية نفسه.



أوكتافيانوس (متحف مونيخ).

وهب أنطونيوس يمنع هذا الحصار البري البحري، فأنفذ قوة من الخيالة إلى معسكر أوكتافيانوس؛ لتقطع عنه مياه الشرب، فاندحرت وانحاز بعضها إلى أوكتافيانوس،



أغربية يمين أوكتافيانوس ودماغه المفكر.

وكان بين الذين انحازوا أميران من أمراء تراقية وبفلغونية. فقال أوكتافيانوس قوله المأثور: «إني أحب الخيانة، ولكني لا أحب الخائنين.» وأعاد أنطونيوس الكرة فردَّ على أعقابهِ، وانحاز أمينتاس بخيالته الغلط الألفين إلى معسكر أوكتافيانوس،³² وأيقن أنطونيوس أن لا فائدة تُرتجى من هجوم ثالث، فأمسى هو وجيشه في حالة حصار؛ لأنَّ أغربية كان قد نجح في قطع المدد البحري الآتي من مصر أو المورة، واضطر أنطونيوس أن يستقدم الطعام على ظهور الرجال. وكان جد بلوتارخوس المؤرخ الشهير أحد هؤلاء الذين أُكْرِهوا على حمل الطعام على ظهورهم عبر التلال من الشرق إلى معسكر أنطونيوس. فوهنت عزائم الرجال، وثقلت همتهم، وشرع الضباط والأمراء ينسحبون الواحد تلو الآخر؛ ليلتحقوا بمعسكر أوكتافيانوس. وحاول أنطونيوس أن يحول دون ذلك بالقساوة، فأمر بيمبليخوس أمير حمص العربي، وبأحد أعضاء السناتوس فأعدما، فأدت هذه القساوة إلى تعدد حوادث الفرار لا إلى إيقافها. وفرَّ في هذه الآونة دوميتيوس — على الرغم من مرضه — ولجأ إلى أوكتافيانوس، وتبعه «دليوس Dellius».

فدعا أنطونيوس إلى مجلس حربي، فرأى كنيديوس أن يُستغنى عن الأسطول، وأن ينسحب الجيش بكامله إلى مكدونية ويقاوم فيها. أما كليوبتره، فإنها استمسكت بالأسطول، ووافقتها أنطونيوس على ذلك، فعبأ أسطوله بنصف قوته البرية، أي بحوالي خمسة وثلاثين ألفاً، واستعد لكسر الحصار البحري بالقوة والإفلات من خليج أمبراكية والذهاب إلى مصر. وفي الثاني من أيلول، خرج إلى البحر الأيوني ينفذ خطته، فنجا ببعض سفنه ورجاله وخسر الباقي، ففاز أوكتافيانوس بثلاثمائة بارجة، فأحرق معظمها وزين بمقدماتها البرونزية الأثر التذكاري الذي أقامه في معسكره عند مدخل الخليج، وجانباً من الهيكل الذي شيد ليوليوس في رومة. وحاول كنيديوس أن ينهض بمن بقي من الجنود إلى مكدونية فلم يفلح ففرَّ إلى مصر، واستسلم الجنود بعد مفاوضات دامت سبعة أيام، فحياً الجنود جميعهم أوكتافيانوس إمبراطوراً للمرة السادسة.³³

(١٨) الإسكندرية



كليوبتره في أواخر عهدها على قطعة من النقود سكّت في عسقلان.

وعادت كليوبتره إلى الإسكندرية رافعة «أكاليل النصر»، وقبضت على من شكت بإخلاصهم، وأمرت بهم فأعدموا، وأبحر أنطونيوس إلى قيرونة، فوجد أن جنوده فيها كانوا قد التحقوا بغالوس، فكاد ينتحر لولا تدخل بعض المقربين إليه، ثم تابع الإبحار إلى الإسكندرية،

وبدأت كليوبترة تعد الخطط، فاقترحت النزوح إلى إسبانية والسيطرة على مناجمها الفضية، وتمثيل دور سرتوريوس مرة أخرى. ومما اقترحتة أيضًا وبدأت بتنفيذه، إنشاء دولة في المحيط الهندي، وأمرت بنقل بعض سفنها عبر البرزخ إلى «هيرونوبوليس Heronopolis» على البحر الأحمر، ولكن ملكو ملك الأنباط هاجمها وأحرقها، ورأت أن تتوود إلى ملك مادي لتتحالف معه، فأمرت بإعدام «أرتفسدس Ariavasdes» ملك البرت، الذي كان لا يزال لاجئاً في مصر. وعرضت هذا كله على أنطونيوس لتتال موافقته وتعاونها، ولكن كارثة أكتيوم كانت قد حطمت أعصابه فأخذ إلى العجز، ورضي بالحرمان، وانزوى في بيت عند الشاطئ يمثل فيه دور تيمون المبتعد عن غيره. وحاولت كليوبترة إقالاته من عثرته بشتى أنواع اللهو، فانتقل إلى قصرها، ولكنه أبى الدفاع عن مصر عند النيل؛ لأنه خشي انحياز الجنود إلى جانب خصمه كما فعلوا أخيراً في قيرونة، وكما كانوا سيفعلون قريباً في سورية لدى وصول أوكتافيانوس إليها، وحفظ عهده جماعة من المصارعين كانوا يتدربون في شبه جزيرة كيزيكوس عند بحر مرمرا؛ ليحتفلوا بانتصاره على أوكتافيانوس، ووفوا وقاموا إلى مصر عبر سورية، ولكن ديدويوس منعهم من العبور، فلما جاء ميسالة، قائد أوكتافيانوس، أمر بهم فقتلوا.

ورأت كليوبترة أنها إذا قاتلت وحدها دفاعاً عن مصر وقدر النصر لأوكتافيانوس ذهب ملكها وملك أولادها أيضًا. أما إذا حذت حذو هيودوس وغيره من ملوك الشرق وأمرائه، ووضعت تاجها بين يدي أوكتافينوس، بقي لأولادها أمل في الاستمرار في الحكم. وهكذا، فإنه عندما طالب المصريون بالدفاع عن بلادهم والصمود في وجه أوكتافيانوس نصحت بالاستسلام حقناً لدماء رعاياها!³⁴

وفي صيف السنة ٣٠، قام أوكتافيانوس إلى مصر عن طريق سورية، بينما زحف غالوس من الغرب واحتل «برتونية Paraetonium» في غرب الإسكندرية، وأراد أنطونيوس أن يصد غالوس، ولكنه خسر أربعين سفينة في مياه برتونية، فكتب إلى أوكتافيانوس يؤكد استعداده للانتحار إذا كان في ذلك ما يخلص كليوبترة من الهلاك، فلم يجب أوكتافيانوس، واحتفظ بالصمت، ولا صحة فيما يُعزى إلى كليوبترة من خيانة من هذا الطرف،³⁵ وجل ما هنالك أنها قدمت تاجها ووصولجانها إلى أوكتافيانوس؛ راجية أن يبقى الملك لأولادها، أما هو، فإنه طلب إليها رسمياً أن تنزع السلاح، وأكد لها سراً أن لا خوف عليها، وكان أوكتافيانوس يعلل نفسه بالاستيلاء على أموال كليوبترة وجواهرها؛ ليسد بها مطالب الجند. وكانت كليوبترة قد بدأت تشيد ضريحها بالقرب من هيكل إيسيس، فلما اقترب

أوكتافيانوس من الإسكندرية لجأت إلى ضريحها بمالها وجواهرها واشتتت من جواريتها، فكُدست أموالها في طبقة سفلى، ولجأت هي إلى غرفة عليا، وباتت تنتظر قدوم الفاتح، فإن أبقي الملك لأولادها سلمته ما تمنى، وإن هو أبى أضرم النار بالغرفتين. ووصلت طلائع الفرسان إلى ضواحي الإسكندرية في الحادي والثلاثين من تموز، فهب أنطونيوس لقتالهم وشتت شملهم. وفي الليل سُمعت أصوات موسيقية شجية تمر بالمدينة من غربها حتى شرقها فتخرج منها، فاعتبرت أصوات جوقة ديونيسيوس الذي صمم على ترك أنطونيوس وشأنه. وفي الصباح انحاز فرسان كليوبترة وبحارتها إلى جانب أوكتافيانوس، وسمع أنطونيوس أن كليوبترة ماتت فانتحر بخنجره، ولكنه لم يمت فوراً، ثم سمع أنها لا تزال حية فطلب أن يُحمل إليها، وما إن وصل حتى لفظ أنفاسه بين ذراعيها، ودخل أوكتافيانوس الإسكندرية في هذا اليوم نفسه في أول آب السنة ٣٠. ولم يُعشَّ إمبراطوراً؛ لأنه دخل المدينة بدون قتال، ولكن دخوله إليها ظهر في «التقويم Fasti»؛ ليخلد ذكرى خلاص رومة من الخطر الذي أحرق بها،³⁶ وفور وصوله إلى الإسكندرية أرسل صديقه «بروكولايوس Proculeius» يقبض على كليوبترة حية. فذهب إلى ضريحها وكلمها فأجابته من وراء شعرية النافذة، مُصرّة على حفظ التاج لأحد أولادها، فعاد إليها في اليوم التالي، وطلب إلى رفيقه غالوس أن يحادثها، وفي أثناء الحديث تسلق هو وبعض رفاقه حائط الضريح، ودخلوا على كليوبترة من نافذة ثانية، وقبضوا عليها. واستولى أوكتافيانوس على أموالها، ونقلها إلى رومة، فتمكن بها من سد مطالب الجنود، ودفع أثمان الأراضي التي صودرت، ومن إنشاء بعض المنشآت العمومية وتوزيع الحصص على أفراد الشعب، وسقطت الفائدة المطلوبة لأجل الديون من ١٢ إلى ٤ في المائة.³⁷

وسمح أوكتافيانوس لكليوبترة بدفن أنطونيوس، وأمر بـ «تورليوس Turullius» وكاسيوس البرمي قُتلا؛ لأنهما قُتلا قيصر، وقضى كذلك بإعدام «أوينيوس Ovinus» عضو مجلس الشيوخ الروماني وكنديديوس الضابط يمين أنطونيوس، ولم يرص عن بقاء أنطونيوس الصغير في قيد الحياة؛ لأن والده أنطونيوس كان قد رغب في أن يكون هذا الولد خليفته. وكانت كليوبترة قد حاولت إبعاد قيصريون إلى المحيط الهندي؛ لينجو بحياته، فقبض أوكتافيانوس عليه وقتله؛ لادعائه بأنه ابن قيصر من كليوبترة، ورغب أوكتافيانوس رغبة أكيدة في زوال كليوبترة، وانتظر الرومانيون إنزال عقاب الموت بها، ولكن أوكتافيانوس أبى أن يقتل امرأة، وآثر أن تقتل هي نفسها. وكان يعلم أنها تكره كُرّة الموت أن تظهر في موكبه في رومة مكبلّة ذليلة، فأقدم بها على الانتحار بالتهويل غير المباشر بأنه سيجرّها إلى رومة بعد أيام قلائل، فضعف احتمالها، ونفذ صبرها، واستأذنت أن تزور

قبر أنطونيوس، فكان لها ذلك. وعادت في العاشر من آب إلى قصرها، واستحمت وتناولت آخر وجباتها، ثم كتبت إلى أوكتافيانوس أن يسمح بدفنها قرب أنطونيوس، فما كاد أوكتافيانوس يطلع على مضمون هذه الرسالة حتى أدرك ما جرى، فأنفذ رسله على جناح السرعة إلى قصر كليوبتر، فوجدها ملقاةً على سريرها جسداً هامداً خافتاً. واختلف القدماء في كيفية الانتحار، ولا يزال هذا الأمر غامضاً حتى يومنا، وجل ما وُجد آنئذٍ من آثار فعل الانتحار وخزتان نحيفتان في ساعد كليوبتر الأيسر، ولا نعلم ما إذا كانت هاتان النخستان أثر لسعة صل أو وخز إبرة سامة، ولم يرَ أحد صلّاً في القصر، وإنما قال البعض: إنهم رأوا صلّاً خارج القصر عند الشاطئ، فاعتبر أوكتافيانوس الصل سبب الوفاة.³⁸

هوامش

- (1) CICERO, *Phil.* II, 29, 71; III, 5, 12. "testamento, ut dicebas, filius".
- (2) DEUTSCH, M.E., *Caesar's Son and Heir*, (1928), 149; *Antony's Funeral Speech* (1928), 127.
- (3) SUTONIUS, *Dio*, Iul. 84, 2.
- (4) CICERO, *ad Att.*, XVI, 15.
- (5) BONDURANT, B.C., *Decimus Julius Brutus Albinus* (1909); DRUMANN-GROEBE, *Gesch. Roms.* IV; TYRELL and PURSER, *Corresp. of Cicero*, VI.
- (6) DION CASS., *Hist. Rom.*, 46:29–39; APP., *Bell. Cie.*, 3:53–73; SUET., *Aug.*, 10–11.
- (7) APP., *Bell. Civ.*, 2–5; VELLEIUS, 2; BRUCGEMANN, F., *De M. Aem. Lepidi Vita*, (1889).
- (8) AUG., *Mon. Ancy.*, 7; SUET., *Aug.*, 27; APP., *Bell. Civ.*, 4:2, 5:95; HOMO L., *Haut-Empire*, 6; RICE HOLMES, T., *Rom. Rép.*, I–II.
- (9) CONWAY, R.S., *The Proscription of 43B.C.*, (1928); KLOEVEKORN, H., *De Proscriptionibus a.a. Chr.* 43, (1891); CHARLESWORTH, M.P., *The Avenging of Caesar*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 19–22.
- (10) APP., 4:105–131; DIO CASSIUS, 47:42–49; COLLART, P., *Philippe*, (1937).

- (11) App., 5:32–49; HEYWOOD, W., *Hist. of Perugia*, (1910).
- (12) CICERO, *Letters and Philippics*; App., *Bell. Civ.*, 2–5; DIO CASSIUS, 42–49; DRUMANN-GROEBE, *Gesch. Roms*, IV, 563–591; RICE HOLMES, T., *Architect of the Rom. Emp.*, (1928); HADAS, M., *Sextus Pompey*, (1939).
- (13) PLUTARCH, *Ant.*; VOLKMANN, H., *Cleopatra*, 90–106; TARN, W.W., *Triumvirs*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 35–40.
- (14) DION CASS., 48:27–28; App., 5:55–56, 60–65; PLUTARCH, *Ant.*, 30–31.
- (15) DION CASS., 48:54, 49:1–10; App., 5:94–122, 142–144, HOMO, L., *Haut-Emp.*, 10–11.
- (16) DION CASS., 48:36–38; App., 5:72–73; LIV. PER., 127; HOMO, L., *ep. cit.*, 10–11; SFLME, R., *Roman Revolution*, (1939).
- (17) VOLKMANN, H., *Cleopatra*, 116–118.
- (18) RICE HOLMES, T., *The Architect of the Roman Empire*, I, 227–231.
- (19) DIO CASS., 47 ff; DRUMANN-GROEBE, *Gesch. Roms*, IV, 250–258.
- (20) DION CASS., 49:32, 41; PLUTARCH, *Ant.* 36, 54; STRABO, *Geog.*, 14:5; *Jos. Ant.*, 15:3, 4, *Ind.*, 1:18; VOLKMANN, H., *Cleopatra*, 121–132, 145–151.
- (21) PLUTARCH, *Ant.*; SUETONIUS, *Caesar and Augustus*; App., 3–5; DIO CASS., 47 ff., DRUMANN-GROEBE, *Gesch. des Roms*, IV, 250–258.
- (22) SUETONIUS, *Aug.*, 28; DIO CASS., 50:1; PLUTARCH, *Ant.*
- (23) TRAN, W.W. and CHARLESWORTH, M.P., *War of East against West*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 90–98; VOLKMANN, H., *op. cit.*, 155–156; CHARLESWORTH, M.P., *Propaganda of Mark Antony*, *Class. Quart.*, 1933, 172–177.
- (24) SCOTT, K., *Octavian's Propaganda and Antony's "de sua ebrietate"*, *Class. Phil.*, 1929, 133; TRAN and CHARLESWORTH, *op. cit.*, 92.
- (25) VOLKMANN, H., *op. cit.*, 157–158.

(26) DIO CASS., 50:2-3; SUETONIUS, *Aug.*, 17; HOMO, L., *Haut-Empire*, 15-16; VOLKMANN, H., *op. cit.*, 159-160; TRAN and CHARLESWORTH, *op. cit.*, X, 90-96.

(27) DIO CASS., 50:3-5; SUETONIUS, *Aug.*, 17; PLUTARCH, *Ant.*, 55.

(28) HOMO, L., *Haut-Empire*, 16; TARN and CHARLESWORTH, *op. cit.*, X, 97-99.

(29) DESSAU, 2672 (*C.I.L.*, XI, 623).

(30) DIO CASS., 51:5, 6.

(31) KAHRSTEDT, U., *Klio*, 1910, 277.

(32) HORACE, *Epode*, IX, 17-18; SERVIUS, *Aen*, VI, 612.

(33) DIO CASS., 51:1-9; SUETONIUS, *Aug.*, 17; PLUTARCH, *Ant.*, 68-72; TARN and CHARLESWORTH, *op. cit.*, X, 100-106; VOLKMANN, H., *op. cit.*, 176-188; KROMAYER, J., *Aktium, cin Epilog*, *Hermes*, 1933, 361-383; RICE HOLMES, T., *Architect of Rom. Emp.*, I, 253-260; TARN, W.W., *Battle of Actium*, *Journ. Rom. Stud.*, 1931, 173-199; RICHARDSON, G.W., *ibid.*, 1937, 153-164.

(34) PSEUDO-ACRO, *Horace, Odes*, I, 37 (Keller, I, 133).

(35) BLUMENTHAL, F., *Wiener Studien*, 1915, 92-97; TARN, W.W., *Journ. Rom. Stud.*, 1931, 196.

(36) C.I.L., *Fasti Fratrum Arvalum*, 214, *Fasti Amiterni*, 244.

(37) TARN and CHARLESWORTH, *op. cit.*, X, 108-109.

(38) SPIEGELBERG, W., *Weshalb wahlte Kleopatra den Tod durch Schlangenbiss?* (Sitzungsberichte der bayrischen Akad. der Wissenschafte 1925, II, 1-6); SBORDONE, F., *La Morte di Cleopatra* (Rev. indo-greco-italica, 1930, 1-20); IDRIS BELL, H., *Egypt from Alexander to the Arab Conquest*, (1948), 141, n. 39; VOLKMANN, H., *Cleopatra*, (1959), 189-207.

الفصل الرابع

عهد المواطن الأول

(١) تدبير شئون الشرق

وبلغ أوكتافيانوس ما في نفسه في آب السنة ٣٠ ق.م.، فأمر بدفن كليوبترة إلى جانب أنطونيوس في الإسكندرية، وأقام لجاريتها تمثالين أمام ضريح سيدتهما، اعترافاً بشجاعتهما وأمانتهما، وقبلت أوكتافية أبناء كليوبترة الثلاثة وربتهم في بيتها، ثم انقطع خبر الصبيين واندثر أثرهما، وما القول بأن زينب الزباء تحدثت من أحدهما إلا حديث خرافة، أما أختهما، فإنها تزوجت من «يوبة Juba» الثاني ملك موريتانية في أفريقية، وأنشأت إسكندرية جديدة على شاطئ مراكش، ولكن غايوس قتل ابنها بطليموس، فانقطعت بموته سلالة البطالسة، وشطب اسم أنطونيوس من تقويم الأيام الرومانية Fasti، وقُلبت تماثيله، ونُقضت القرارات التي اتخذت في المدن لتكريمه، وحُرِّم السناتوس الجمع بين الاسمين: مركوس وأنطونيوس. وأشهر أحفاده الذين تحدروا منه بزواجه من أوكتافية شقيقة أوكتافيانوس الإمبراطوران غايوس ونيرون.

وعزا أوكتافيانوس انتصاره في أكتيوم إلى الإله أبولون، فوسَّع هيكله فيها، وجعل الاحتفال بعيدة فيها خماسياً مساوياً في الأهمية للاحتفال بأعياد زفس في أوليمبوس، وكَرَّس أوكتافيانوس لأبولون في أكتيوم مقدمات عشر من السفن التي أَسْرَ وأَحْرَقَ في الموقعة ضد أنطونيوس وكليوبترة، وبينها مقدم سفينة أنطونيوس نفسه. وأنشأ على شاطئ خليج أمبراكية الشمالي وبالقرب من المكان الذي أقام فيه معسكره في موقعة أكتيوم مدينة جديدة، أسماها «مدينة النصر Nicopolis»، وجعلها عاصمة معظم مدن أكرنانية وأبيروس. وظهر في مسكوكاته صنوًا للأنتيغونيين الذين قهروا الباطالسة، فحمل بعضها رسم نبتون يطأ الكرة بإحدى قدميه، وزين تمثال النصر الواقف على مقدمة



أبولون المحارب.

مركب أنتيغونوس غوناتاس بعض هذه المسكوكات، والإشارة هنا إلى انتصار أنتيغونوس غوناتاس على بطليموس الثاني في السنة ٢٥٨ في موقعة سموثراقية البحرية.¹ وجعل أوكتافيانوس مصر ولاية رومانية وربطها بشخصه، ونظم أمورها تنظيمًا خصوصيًا، كما سنرى فيما بعد، وكان قد ثبت هيرودوس في الحكم على فلسطين ما عدا عسقلان، فأعاد لدن الساحل الفينيقي سابق حرياتهما، وخصَّ بيروت بعطفه لقيامها في وجه كليوبتر، فوسع سلطتها، وضرب عُق ألكسندروس أمير حمص؛ لأنه كان قد دسَّ على أخيه يممليخوس لدى أنطونيوس فسبب قتله، وحرر خلكيس البقاع (مجدل عنجر)، وكافأ ليسنياس أميرها بعد وفاته بأن جعل ابنه «زينودوروس Zenodorus» حاكمًا على «أبيلة Abila» (وادي بردي). ولم يتدخل أوكتافيانوس في شؤون البلدان وراء الفرات، ولم يثار للرومانيين الذين دُبحوا في أرمينية، ولكنه أبقى أخوة «أرتاكسس Artaxes» ملك أرمينية رهائن لديه. ومع أنه قبل تيريداتس لاجئًا في سورية في السنة ٣٠، فإنه لم يقدم له ما طلب من معونة، واستقبل رسل «فراتس Phrates» استقبلاً ودّيًا.²

وبذل معظم أمراء آسية الصغرى الطاعة لأوكتافيانوس قبيل انتصاره، ونزلوا على حكمه، فثبتهم فيما كانوا عليه، وكان قد أصرَّ «تركونديموتوس Tarcondimotus» أمير الأمانوس على الإبقاء، وقتل محارباً في سبيل أنطونيوس، فخلع أوكتافيانوس ابنه «فيلوباتور Philopator» وضم الأمانوس إلى قيليقية. وعطف أوكتافيانوس عطفًا خصوصيًا على «أمينتاس Amyntas» ملك غلاطية، الذي انحاز إلى جانبه قبيل موقعة أكتيوم، وقدم خدمات كثيرة، فكأفأه أوكتافيانوس بإلحاق أسورية وقيليقية «تراخية Tracheia» وزربة ولارندة إلى حكمه، وظل عاطفًا عليه حتى وفاته في السنة ٢٥، أما أرخيلووس ملك قبذوقية، فإنه ظل على ما كان عليه، ولا نعلم كيف تمكن «بوليمو Polemo» ملك البونط من استمالة أوكتافيانوس.³

ونالت كل من «لبّة Lappa» و«كيدونية Cydonia» حريتهما في جزيرة كريت، وكانتا قد أيدتا قبل أكتيوم. أما أسبارتة حليفة أوكتافيانوس الوحيدة في بلاد اليونان، فإنها توسعت توسعًا ملموسًا، وسيطرت على الألعاب الأكتية، وأمسى سيدها «إفريكس Eurycles» الذي حارب إلى جانب أوكتافيانوس نافذ الكلمة، مستبدًا في المورة وفي خارجها أيضًا.

(٢) هدوء الغرب

وقام «ماكيناس Maccenas» بالمهمة الموكولة إليه خير قيام، فإنه بلباقته وتيقظه تمكن من إدارة شئون الغرب بحذق ولطف وهدوء، ولم تكن مؤامرة لبيدوس الأصغر شيئًا يُذكر. وقل الأمر نفسه عن حركات القبائل عند حدود غالية والرين، فإنها كانت عادية من النوع الذي يقع في كل عام، وجرى مثل هذا في إسبانية في شمالها الغربي، ولكن ستاتيليوس توروس وغيره تمكنوا من فرض هيبة رومة والعودة إليها منتصرين معززين، وقام أوترونيوس في أفريقية بأعمال مماثلة.

(٣) كراسوس والبلقان

وكان أوكتافيانوس قد وكل إدارة شئون البلقان إلى زميله في قنصليته الرابعة «ليكينوس كراسوس Licinius Crassus»، وكان هذا قد ترك أنطونيوس بعد موقعة نولاخوس في مياه صقلية والتحق بأوكتافيانوس، وكان قائدًا قديرًا ومدبرًا حكيماً. فلما انهزم أنطونيوس في ميدان القتال في اليونان تولى كراسوس شئون البلقان، وأبقى تحت إمرته

أربع فرق كاملة، ومع أن خطر الداقيين كان قد تضاءل، فإن قبيلة جرمانية عُرِفَتْ بـ «البيسترنائي Bastarnae» عبرت الدانوب، وعاشت في البلاد فسادًا، فجرد كراسوس في السنة ٢٩ حملة عليها، وذبح ملكها «دلدو Deldo» وعدداً كبيراً من أتباعه.⁴

(٤) سلم ومسالمة

ولم يصل أوكتافيانوس إلى رومة قبل آب السنة ٢٩، فدخلها مظفراً منصوراً، واحتفى الرومانيون به احتفاء كبيراً، وحرص هو على أن يكون إكرامهم له لأجل خلاصهم من الخطر الذي أهدق بهم من الشرق، وليس لمناسبة تغلبه على أنطونيوس. وهكذا، فإنه أبى أن يدخل العاصمة «زعيماً dux» زعيم حزب معين، بل أمر أن يكون منقداً لرومة كلها من خطر طارئ عليها، وأدرك شعراؤه غايته في ذلك، فنسجوا على منواله، مؤكدين أنه لو تم انتصار كليوبترا لتمشقت الدولة بأسرها.

وغالى الرومانيون في الإكرام والتبجيل، ولكن أوكتافيانوس لم ينتش، بل ظل واعياً متنبهاً، وأدرك مع صديقه وزميله ماكيناس أن لا بد من إعادة النظر في نظام الحكم؛ ليدراً نشوب اضطرابات داخلية جديدة. وكان ماكيناس قد قال له: «إن سبب اضطرابنا هو تزايد السكان، وتكاثر واجبات الدولة، فقد تنوعت الأجناس وتفاوتت المواهب، وتضاربت الأمزجة والرغائب، فغدا عمل الحكومة واسعاً كبيراً لا يتم إلا بعد الجهد الجهيد».⁵ أدرك أوكتافيانوس هذه الحقيقة منذ وصوله إلى رومة، ورغب رغبة أكيدة في الإصلاح الإداري، ولكنه رأى أن لا بد من التمهيد له بإعادة الطمأنينة إلى النفوس وتنمية الشعور بالاستقرار، ففضى سنتين كاملتين يعمل لتحقيق هذا الهدف، وراح يوزع الحنطة والحبوب بسخاء panis et circenses؛ ليذهب عن البال مصائب الماضي القريب، وشرع في الوقت نفسه بتشييد المباني العمومية، وإنشاء الطرقات؛ ليشعر الناس بأن الاستقرار قد عاد إلى سابق عهده. وسدد الديون التي استدانها، وغض النظر عن ديون الآخرين للدولة، واهتم بشأن الشيوخ الذين خسروا أموالهم، وأعاد إليهم كرامتهم، فعمت الثقة الأسواق والمصارف وتناقصت الفوائد، فأمست ثلث ما وصلت إليه في أثناء الحرب الأهلية. وأزاح كابوس الحرب عن صدور الناس، فأقفل أبواب هيكـل «يانوس Janus» بالثجلة والاحترام، وأعلن أنه أحرق كل الوثائق التي تستذنب وتدين، وبدأ بتسريح جيشه على نطاق واسع، فأمن أصدقاء أنطونيوس وأتباعه، وارفضت عنهم المخاوف، ودفع أوكتافيانوس لجنوده تعويضاتهم كاملة مكملة، وأرسلهم إلى المستعمرات في إيطالية، وإلى بعض المدن في

الولايات البعيدة كقرطاجة في أفريقية و«باريوم Parium» في ميسية وبيروت في سورية. فركن الناس إليه، واستسلموا واستراحوا.⁶

وبعد هذا القدر الكبير من التطمين والتمهيد التفت أوكتافيانوس إلى نفسه، إلى مركزه في الدولة، وإلى صلاحياتها فيها، أي إلى قائد قدير وراءه جيش كانت الإمبراطورية الواسعة الأطراف والحرب الأهلية قد أثبتت وجوب بقائه والاعتراف به، وكان هو حذورًا يقظًا حكيمًا، سديد الرأي بعيد الغور، فرأى ألا يفرض نظامًا جديدًا كاملاً على الرومانيين دفعة واحدة. ولعله لم يكن لديه في أي وقت من الأوقات نظام جديد كامل شامل، فإنه كان بطبيعته حذورًا، يؤثر الفحص والاختبار والتأني قبل الانتقال من دور إلى دور.

وكان شخص أوكتافيانوس قد أمسى «مقدسًا sacrosanctus»، لا تُخرق حرمة منذ السنة ٣٦ ق.م.، ولحظ أوكتافيانوس أن جميع كبار القادة العسكريين الذين طمعوا بالسلطة السياسية كانوا قد لمسوا الحاجة إلى تريبون شعبي يتعاونون معه للوصول إلى أهدافهم، وكانت ظروف «سولاً Sulla» قد أظهرت بوضوح أن إصلاح دستور الدولة لا يتم بدون رضی الترابنة وموافقتهم. وكان أوكتافيانوس بطريقًا من البطارقة، لا يجوز له ترشيح نفسه لمنصب التربة، وكان باستطاعته أن ينسج على منوال «كلوديوس Clodius»، فينتمي بالتبني إلى عائلة بليبية شعبية، ولكنه كان بطريقًا حقيقياً فأبى ولم يفعل. وعاد إلى السناتوس في السنة ٣٠ ق.م.، ووسّع قدسية شخصه، فجعلها تشمل امتيازات أخرى، منها السلطة على الإكراه، ومنها حقه في تنفيذ صلاحياته خارج المدينة وإلى بعد ميل عن أسوارها، وهكذا، فإنه فاز بصلاحيات تريبونيه «غير محددة».⁷

أما اللقب «إمبراطور imperator»، فإنه كان قد استُعمل في عهد الجمهورية نعتاً يُنعت به القائد المنتصر. وكان هذا النعت يجيء بعد اسم القائد لا قبله، وكان يوليوس قيصر قد أظهر ميلاً لجعل هذا النعت كنية من كناه cognomina، ولكنه لم يثابر على ذلك مثابرة سولاً على الكنية السعيد felix، أو مثابرة بومبايوس على الكنية «العظيم magnus». وجاء أوكتافيانوس فجعل في السنة ٤٠ اللفظ «إمبراطور» اسمه الأول praenomen، فأحله محل الاسم غايوس، وتردى بالأرجواني الكامل، ثوب الإمبراطور، ثم حصر الأرجواني الكامل بنفسه، وعلى الرغم من هذا كله، فإن اللقب الإمبراطور ظلّ لقباً غير رسمي، فإن طيباريوس وغايوس وكلوديوس لم يستعملوه. وأول من عاد إليه بعد أوكتافيانوس كان «أوثون Otho».⁸

ولم يشأ أوكتافيانوس أن يظهر متميزاً بهذا الشكل دون التظاهر بالمحافظة على التقاليد الرومانية. ولعله كان مخلصاً في ذلك؛ لأنه كان رومانياً لا غش فيه، فالتفت إلى الكهنوت والكهنة، وكان لبيدوس لا يزال «الكاهن الأعظم Pontifex Maximus» كما سبق وأشرنا، فلم يتعرض أوكتافيانوس له بشيء، وإنما اكتفى باللقب «عائف augur»، وأعاد النظر في لوائح الكهنة، بناء على طلب السناتوس، فملاً المراكز الشاغرة، وأحسن انتقاء الكهنة الجدد، وأعاد إلى الحياة الدينية الرومانية سابق رونقها، فاشتهر بمحافظته على التقليد والدستور، وقدر الكهنة لأوكتافيانوس خدماته، فذكر «الراقصون sallii» منهم اسمه في طقوسهم، وأوجب السناتوس الصلاة لأجله، وسكب الخمر له في جميع المآدب العمومية.



أغربية في قنصليته الثالثة (٢٧ ق.م.)، وعلى ظهرها نبتون والدلفين والتريدننت.

وفي السنة ٢٨ انتُخب أوكتافيانوس وأغربية قنصلين، وكانت هذه قنصلية أوكتافيانوس السادسة، وتميّزت هذه القنصلية بعدم تغيب القنصلين عن رومة طوال مدة الوظيفة، وبعنايتهما بالإحصاء لأول مرة بعد السنة ٧٠ ق.م.، وتحاشى الاثنان اتخاذ اللقب «المحصي censor»، ولكنهما مارسا «صلاحيات الإحصاء censorial potestas» بصفتهم القنصلية. وبناء على عرف قديم سبق السنة ٤٤٣ ق.م.، سنة التفريق بين القنصل والمحصي. وكان السبب في هذا التحاشي أن المحصي كان قد أمسى في نظر الرومانيين مؤدب الشيوخ ومجلسهم،^٩ فلم يرَ القنصلان موجِباً لتنفير الشيوخ وإقلاقهم، ورأيا أن يمارسا صلاحيات المحصي بصفتهم قنصلين؛ ليشعر الشيوخ بأن لهم يدًا في الإصلاح المنشود. ورضي الشيوخ عن أوكتافيانوس وعن زميله، وتعاونوا معهما تعاونًا

وثيقاً شاملاً وقضت سياسة التطمين والمسالمة التي اتبعها أوكتافيانوس بإصدار عفو عام عن كل ما جرى قبل السنة ٢٨،¹⁰ فقبل عمله هذا بارتياح عظيم، وظهرت مسكوكات السنة ٢٨ تحمل العبارة: "liberatis populi Romani vindex".

(٥) عودة إلى النظام الجمهوري

وفي الثالث عشر من كانون الثاني سنة ٢٧، أعلن أوكتافيانوس لشيوخ الدولة أنه ينوي إعادة ما تسلم من سلطان وقوة إلى المجلس، فقابله مؤيدوه في المجلس بوابل من الصياح والاحتجاج والاستنكار، فظهر مرة أخرى بمظهر المسالم البعيد عن الإكراء البريء من المطاعن، المنزه عن النقائص. ونزولاً عند رغبة هؤلاء الصاخبين، الذين استنكروا استعفاءه قبل «القنصلية بالوكالة Pro consule» في إسبانية وغالية وسورية ومصر، أي الولاية على هذه الولايات باسم القنصل، وقيادة الجيوش فيها، وذلك لمدة عشر سنوات. واجتمع الشعب في مجلس ما، ووافق على هذه القرارات، فزادها صحة وثبوتاً. ولما كانت هذه الولايات تشغل القسم الأكبر من الجيش أمسى أوكتافيانوس يتصرف بقوة عسكرية كبيرة، ويتكلم باسمها. ومع أن العرف قضى ألا يمارس وكيل القنصل صلاحياته القانونية والعسكرية في رومة، بل في الولاية أو الولايات التي عُيِّن عليها، فإن هذا العرف لم يشمل أوكتافيانوس؛ لأنه كان وكيل قنصل «بروقنصل» في ألويا، وقنصلاً في الوقت نفسه في رومة.¹¹

وفي السادس عشر من كانون الثاني من السنة نفسها ٢٧ ق.م.، أطلق السناطوس على أوكتافيانوس لقب أوغوستوس، أي الجليل المحترم، وأطلق هذا اللفظ نفسه على الشهر «سكستيليس Sextilis»، فراج اللقب الجديد رواجاً كبيراً، وكاد لا يُعرف أوكتافيانوس بعدئذٍ إلا به، ولم يكن في هذا التقليب الرسمي أي جديد، فسوياً كان «سعيداً»، وبومبايوس كان «عظيماً»، ولكن انتقاء اللقب الجديد كان موفقاً من الناحية الساسية؛ لأنه حمل شيئاً من التعظيم الديني، إذ ذُكر الرومانيين برومولوس الـ augusto augurio، الذي أسس المدينة.¹²

ولم يكتفِ أوغوستوس بهذا القدر من السلطة والسيادة الفعلية الواقعية، فإنه أنشأ في هذه الآونة نفسها لجنة «السناطوس الدائمة amici caesaris» لجنة أصدقاء قيصر؛ لتعد جدول أعمال السناطوس، وتألّفت هذه اللجنة من القناصل، ومن ممثل عن كل سلطة حكومية أخرى، ومن خمسة عشر عضواً من أعضاء السناطوس يُنتخبون انتخاباً لمدة ستة أشهر،¹³ فضيق بذلك مجال البحث في السناطوس، وإذا ما ذكرنا أنه لم يكن له كُفأ أحد بين أعضاء هذه اللجنة، أدركنا أنه كاد يسير الأمور كما شاء.



أوغسطس في السنة ٢٧ ق.م. مكللاً بوبرق العقص لنجاحه في الأمور المدنية.

وعلى الرغم من هذا كله، ظلَّ أوغسطس يدعي أنه أعاد الجمهورية إلى سالف عهدها، وأنه لم يكن هو سوى مواطن أول princeps في جمهورية حرة سيدة مستقلة. ولم يكن في هذا اللقب أي جديد، فإن الرومانيين كانوا قد أطلقوه على بومبايوس وقيصر، وكانوا قد استعملوه في صيغة الجمع منذ عهد بعيد، ولم يتخذ أي قرار رسمي في استعمال هذا اللقب، ولم يكن اختصار اللقب الأول بين «أعضاء السناتوس princeps senatus»،¹⁴ وإنما كان لفظاً غير رسمي يشير إلى تقدم أوغسطس في الشؤون المدنية، كما أشار اللقب أوغسطس إلى مكانته الممتازة في الشؤون والأسرار الدينية.¹⁵

وسارع أوغسطس بعد أن جمع هذا المقدار من السلطة بين يديه، إلى العمل المثمر في سبيل رومة وإيطالية. فعني بشبكة الطرقات، وخصَّ الطريق الشمالي الذي ربط رومة بأرمينوم Via Flaminia برعايته، بينما هب أعوانه لإصلاح باقي الطرقات، ثم نهض إلى

الولايات الغربية لتحسين أحوالها، ففُضِيَ الباقي من السنة ٢٧ في غالبية والسنتين ٢٦ و٢٥ في إسبانية. ولم يعد إلى رومة قبل ربيع السنة ٢٤.¹⁶

(٦) تآمر مورينة وكييو

وعلى الرغم من اتزان أوغسطس، وحبس عنانه وتقصير خطاه، فإنه لم يسلم من ظن بعض الأعيان فيه واستيحا شهم من ناحيته. وتفصيل ذلك، أن أوغسطس أحيّا في السنة ٢٦، لمناسبة تغيبه عن رومة، وظيفة «ناظر المدينة praefectus urbi»، وكان ناظر المدينة في عهد الملوك يرأس المجالس القضائية، ويتولى دفة الإدارة في أثناء غياب الملك، وكان أوغسطس قد عين «ميسالة Messalla» لهذه الغاية، تقديرًا لخدماته المتواصلة ولتعلقه بالنظام الجمهوري. ولكن الشيوخ اعتبروا إحياء هذه الوظيفة عملًا غير جمهوري، فاضطر ميسالة أن يستقيل بعد وصوله إلى هذا الكرسي ببضعة أيام. وفي السنة ٢٦ استبد كورنيليوس غالوس في أمور مصر، ثم انتحر، فأحيلت ممتلكاته إلى أوغسطس، واحتفل بذلك احتفالًا دينيًا على اسم أوغسطس، واشتد نفور الشيوخ فتلور بتآمر وقع في السنة ٢٣ ق.م. وكان يودي بحياة أوغسطس، وكان بطل هذا التآمر القائد «وارو مورينة Varro Murena» الذي تبوأ كرسي القنصلية مع أوغسطس في تلك السنة، وعاونه في ذلك «فانيوس كيو Fannius Caepio».¹⁷

(٧) السنة الثالثة والعشرون

وأدرك أوغسطس أن استمراره في القنصلية كان يحك في الصدور. وكان هو قد أمسى سابقًا لا يُبارى ومبرّرًا لا يُجارى، فكف وأفسح المجال لغيره، ولكن التآمر على حياته أسهر قلبه وأيقظ رأيه، وأوجب النظر في أمر الخلافة بعده، فرأى أن يكون الخلف من أنسبائه المقربين؛ ليضمن التفاف الجند حوله وتأييدهم له، فوقع اختياره على «مركلوس Marcellus» ابن شقيقته أوكتافية من زوجها الأول، وكان أوغسطس قد أزوجه من ابنته ووحيدته يولية في السنة ٢٥، وكان أيضًا قد استصدر له في السنة ٢٤ موافقة السناتوس لتولي الوظائف الكبرى قبل بلوغه السن القانونية، فجعله في السنة ٢٣ ناظر المصالح العمومية aedile قبل أن يجلس على منصة القضاء، ثم جعل السناتوس يسمح له بترشيح نفسه للقنصلية قبل بلوغه السن القانونية لهذه الوظيفة بعشر سنوات.¹⁸

قابل السناتوس تنازل أوغسطس عن القنصلية في أول تموز السنة ٢٣ بتوسيع رقعة سلطته البروقنصلية، والاعتراف بها في داخل رومة نفسها، ثم منحه في السنة ٢٢ صلاحية دعوة السناتوس إلى الاجتماع وعرض الأمور عليه *ius primae relationis*. وفي السنة ١٩ أذن له بالجلوس بين القناصل وبإحاطة نفسه بالحجاب الاثني عشر، ولكن هذه الامتيازات القنصلية التي منحها السناتوس لوكيل قنصل غير اعتيادي ظلت في حد ذاتها عملاً غير دستوري، القنصلية، التي منحها السناتوس لوكيل قنصل غير اعتيادي ظلت في حد ذاتها عملاً غير دستوري، لا يتفق وسياسة المحافظة على التقاليد الجمهورية، التي كان أوغسطس يدعي بأنه حاميتها. فاضطر أوغسطس أن يوطد سلطته غير الاعتيادية على أساس آخر يكون أقرب للتقليد الجمهوري وأكثر ثباتاً. وكان قد تمتع منذ السنة ٣٦ بصلاحيات تريبونيه شعبية واسعة دون أن يُنتخب تريبوناً، فوحدت هذه الصلاحيات المستمدة من الشعب في السنة ٢٣، واعتُبرت «سلطة تريبونيه *tribunicia potestas*» رسمية. ولما كان واجب التريبون هو حماية الشعب ورفع الظلم، رأى أوغسطس في سلطته التريبونية أداة لرفع الظلم لا للتظلم والإكراه، ورجا أن يراها الناس كذلك، وأن يروه بالتالي بعيداً عن الاستئثار بالسلطة والاستبداد بالرأي. ومن هنا قراره في أن يكون العاشر من كانون الأول من كل سنة يوم وصوله إلى السلطة؛ لأنه كان اليوم الذي باشر فيه كل تريبون أعماله وصلاحياته. ومن هنا أيضاً، جُعل هذا اليوم فيما بعد «يوم السلطة *dies imperii*». ومن هنا كذلك تاريخ بياناته الرسمية بالنسبة إلى بدء ممارسته التريبونية. ومن هنا قول المعاصرين: إن السلطة التريبونية أهم من السلطة العسكرية،¹⁹ ولم يكتفِ أوغسطس بهذا القدر، بل جعل السناتوس والشعب معاً، يُمنحون هذه السلطة الشعبية بمجلس خصوصي، عُرف بـ «مجلس السلطة التريبونية *Comitia tribuniciae potestatis*»، وأصدر قانوناً *Lex de Imperio* بين فيه جميع هذه السلطات التي تجمعت بين يديه.²⁰

(٨) وفاة مركلوس

وفي خريف السنة ٢٣ ق.م.، أُلِمَّ بالصهر الوريث مركلوس مرض عضال أعجز الأطباء، فانقضى أجله، ودُفن في مدفن أوغسطس، فرثاه ورجيليوس،²¹ وخذل أوغسطس ذكره بملعب لا تزال آثاره ماثلة للعيان، وشيدت أمه أوكتافية رواقاً ودار كتب على اسمه.²² ولما كان لا بد من وريث يوليوسي استدعى أوغسطس صديقه الأمين أغريبة من الشرق،

فلما عاد إلى رومة في السنة ٢١، أزوجه أوغوستوس من ابنته يولية راجياً أن يُرزقا ولداً ذكراً، يكون وريثه فيما بعد، ويتولى الوصاية عليه أغريقية والده إلى أن يبلغ أشده، ورزقا غايوساً بعد سنة ولوكيوساً بعده.

(٩) مصالح الحبوب والمياه والطرق

وفاض التبر في شتاء السنة ٢٣-٢٢، وعقب هذا الفيضان وباء مخيف انتشر في الريف، واجتاح كثيراً من المزارعين والفلاحين، فقلّت الحبوب وارتفعت أسعارها، فعزا الجمهور ذلك إلى تنازل أوغوستوس عن السلطة والإدارة، فحاصروا «الكورية Curia»، وأندروا الشيوخ أعضاء السناتوس بتدميرها فوق رؤوسهم، وطالبوا بجعل المواطن الأول ديكتاتوراً، فرفض أوغوستوس الديكتاتورية، ولكنه قبل أن يتولى إدارة «مصلحة الحبوب cura annonae»²³ ثم تولى بعد ذلك مصلحتي المياه والطرق لتأمين راحة الأهليين. وكان يدير هذه المصالح بواسطة «أمناء curatores» يعينهم لهذه الغاية. واضطر كذلك في السنة ٢١ أن ينظم مصلحة المطافئ؛ ليحد من شهرة «روفوس Engatius Rufus»، الذي أنشأ فرقة إطفائية من أرقائه، ونال بأعمالها شهرة ولاء.²⁴ وهكذا، فإننا نرى أوغوستوس يعود إلى إدارة شؤون المدينة على الرغم من تنازله عن صلاحياته القنصلية.

(١٠) السنة الثامنة عشرة

وفي السنة الثامنة عشرة قبل الميلاد، سنة انتهاء سلطته البروقنصلية، أشرك أوغوستوس أغريقية في السلطتين التريبونية والبروقنصلية، فأوجد لرومة خلفاً يدير شؤونها في حال وفاته، وكان الفارق الوحيد بين سلطته التريبونية وبين سلطة أغريقية أن هذه كانت لمدة خمس سنوات فقط، بينما تلك استمرت في يدي أوغوستوس ما دام حياً.²⁵ وأراد أوغوستوس في هذه السنة نفسها أن يعيد النظر في لوائح عضوية السناتوس، وأن يجعل عدد الأعضاء ثلاثمائة، كما كان سابقاً في عهد الجمهورية. وكان هذا العمل من واجبات «المحصين censores». وكان أوغوستوس قد مارس أهم صلاحيات المحصي، كالإشراف على الآداب العامة، وتطهير الدولة، وإعادة النظر في عضوية السناتوس وغيره من منظمات الدولة، والموافقة على أعمال التلزم الكبرى، ولكنه لم يرض أن يظهر هو محصياً رسمياً. وهكذا، فإننا نراه في السنة الثامنة عشرة يقترح إناطة إعادة النظر في

عضوية السناتوس بلجنة سناتوسية مؤلفة من ثلاثين عضوًا، ولم يرض الشيوخ الأعضاء عن هذه البدعة، فاضطر أن يقوم هو بإعادة النظر بنفسه. فغضَّ النظر عن العدد ثلاثمائة، وجعل العدد ستمائة؛ ليرضي معظم الأوساط، ويتحاشى الظهور بمظهر المحصي المستبد.²⁶

ومن أعمال أوغسطس في السنة الثامنة عشرة، أنه أصدر «الشرائع اليوليوسية Leges Iuliae» بالتعاون لآخر مرة في هذا المضمار مع الكوميتيات، وما يجدر ذكره لهذه المناسبة، أنه قبل إصدار هذه الشرائع بهذا الشكل، كان قد رفض أن يكون «أمين الآداب curator morum»؛ كي يبتعد عما يمت إلى السلطة الفردية بصلة. والشرائع اليوليوسية كانت في الواقع مجموعة قوانين جديدة حددت الأجرام المتنوعة، وأوضحت أصول المرافعات، كما نظرت في الآداب العمومية،²⁷ ومن ذلك أنها أعادت النظر في جرم «الخيانة maisstas»، فشيشرون كان قد اعتبر خائنًا كل شخص ينقص بالقول أو الفعل من وقار الشعب أو عظمته أو سلطته، فجاء الشرع اليوليوسي يعتبر خائنًا كل شخص ينقص بالقول أو الفعل من وقار المواطن الأول. وكان من حق كل مواطن في عهد الجمهورية أن يرفع أمره إلى الشعب إذا حكم بالإعدام، فحل المواطن الأول محل الشعب بموجب القوانين الجديدة، وكان سولاً قد أنشأ عددًا من «المحاكم الاستثنائية الدائمة quaestiones perpetuae»؛ لتمارس حق الشعب في إعادة النظر في حكم القضاة عند الاقتضاء، فأنشأ أوغسطس بدوره مجلسًا قضائيًا «استشاريًا consilium»، مؤلفًا من عدد من ذوي الخبرة القضائية؛ لينظروا معه في الأحكام القضائية التي تُرفع إليه. وهذا المجلس القضائي الاستشاري أي ال Consilium، هو غير لجنة السناتوس الدائمة ال amici Caesaris، أو consilium amicorum Caesaris، التي سبقت الإشارة إليها. وظل القناصل يستمعون بعض الشكاوى، ويشاورون في أمرها أعضاء السناتوس، فبقي مجلس السناتوس محكمة عليا. أما محاكم «المحلفين العمومية iudicia publica»، فإنها لم تُهمل، ولكن أعضاءها انتُخبوا من طبقة الفرسان الأغنياء، ولم ينظروا — في عهد المواطن الأول — في الدعاوى المهمة.

وجرت الحروب الأهلية استخفافًا بالقيم الروحية، وتساهلاً في الأمور الأخلاقية، فاستبهمت على الحكام معالمُ القصد، وعميت عليهم وجوهُ الرشد، فأحدثت هذه النقائص صدًى عميقًا في مصنفات النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد في مخلفات سلوستوس وورجيليوس وهوراتيوس وليبيوس.

ولم يكن أوغوستوس ممن يقول: «بعدي الطوفان»، فبدأ بإحياء الدين والمحافظة على تقاليده. فأنشأ الهياكل والمعابد ورمم المهْدَم فيها، وأحاط رجالها بالإكرام والاحترام، ثم التفت إلى الحياة العائلية؛ ليعيد لها سابق قدسيّتها ورونقها. وكانت هذه قد أمست على وشك الانهيار، وكاد الناس في رومة لا يفرقون بين الزواج والمساكنة، فإنهم ما كادوا يخرجون من حروب التوسع الجمهوري حتى دخلوا في حرب أهلية طويلة. وكانت حروب التوسع قد درت عليهم أموالاً طائلة، فلما جاءت الحرب الأهلية، وعم القلق الأوساط الغنية أثر الأغنياء أصحاب هذه الأموال الاحتفاظَ بها نقدًا وعدم توظيفها، وأدى تكادس المال بالنقد إلى الإنفاق على اللهو والملذات، والابتعاد عن التزاوج لما في ذلك من مسؤوليات بعيدة الأمد، فانحطت الأخلاق بين الرجال والنساء وانتشرت العزوبة، وقل التزاوج والتوالد. ونشأ عن التعزب والإثراء داء اجتماعي آخر، هو موآنسة العزّاب الأغنياء ومواصلتهم ومداهنتهم، والتملق إليهم للحصول على شيء من ثروتهم بعد الوفاة. فأسمى هؤلاء في حلقة مفرغة: تعزّب يؤدي إلى تملق واستعطاف، وتملق يشجع بدوره على التعزّب.

وعالج أوغوستوس التعزّب باشتراع القوانين، فأصدر في السنة ١٨ قبل الميلاد «قانون الزواج Lex Iulia de Maritandis Ordinibus»، وأردفه في السنة ٩ بعد الميلاد بالقانون Papia Poppaea، فمنع كبح الأولاد عن الزواج، وحرّم حصر الإرث بالعزّاب، وفرض ضريبة خصوصية على العوانس، وحرّم العزّاب من النساء، والرجال الذين تجاوزوا الخمسين والستين من الاستفادة من أنواع معينة من الإرث. ثم ناصر المتزوجين بما دعاه «حق الأولاد الثلاثة ius trium liberorum»، فقدّم أعضاء السناطوس الذين خدموا الدولة بالتوالد على غيرهم، فأجاز لهم تولي المناصب قبل بلوغ السن القانونية، وفي حال تعادل الأصوات في انتخاب القناصل فاز أبو الأولاد الأكثر عددًا، واعتبر أبا الأولاد الأكثر عددًا بعد الانتخاب مقدمًا على غيره، وحاز مثل هذه الأفضلية في نظره من رشح نفسه للمناصب في حكومات الولايات. والرجل الحر العادي إذا كان أبًا لثلاثة أولاد أُطلقت يده في كل أرضه، ورُفعت يد «سيده patronus» عما كان ممسكًا به منها. وأم الثلاثة تميزت بزيها وبتحررها من سلطة زوجها.²⁸

وردد أوغوستوس عن الطلاق بـ «قانون العفة وقمع الزنى Lex Iulia de Adulteriis Coercendis»، فلم يكن هنالك ما يعيق الطلاق سوى ضغط الرأي العام وتبكيّت المراقب، فأنشأ أوغوستوس في السنة ١٨ محكمة للزنى، وأنزل عقابًا صارمًا بالزانية وبالسّمسار أيضًا، وعرضهما للنفي إلى الجُزر، ولخسارة ثلث ما يملكان.²⁹

وذهب أوغسطس إلى أبعد من هذا، فاتخذ إجراءات قانونية؛ ليحد بها من البذخ والإسراف، فحدد حجم البيوت، وحظر كثرة الإنفاق على اللباس والزينة والطعام، ولكنه لم يوفق في هذا المضمار توفيقه في الأمور الأخرى.

(١١) الاحتفال المئوي

وقسّم الرومان الزمن أدوارًا، وجعلوا «الدور saeculum» مائة عام. واستقبلوا الدور الجديد باحتفالات دينية شعبية، وتميزت هذه الاحتفالات بـ ألعاب ludi دينية شعبية أيضًا، وكان «واليريوس كورفوس Corvus» قد احتفل بالعيد المئوي لمناسبة قنصليته الأولى في السنة ٣٤٨ ق.م.، وكان مثل هذا قد جرى في السنتين ٢٤٩ و١٤٦. وكان ويرجيليوس قد أعلن في السنة ٤٠ بدء عصر جديد بوصول «أوكتافيوس» إلى السلطة. وكان أوغسطس نفسه قد بدأ يشعر أن الإصلاح الأخلاقي المنشود لن يتم بدون العودة إلى دين الآباء والجدود، فرأى أن يجعل السنة ١٧ قبل الميلاد سنة احتفالات دينية شعبية، تتميز بـ «ألعاب مئوية ludi saeculares»، واستمال الخمسة عشر رجلًا نبوات «سبلة Sibylla» xv viri sacris faciundis، فجعلوا الدور مائة وعشر سنوات بدلًا من مائة، وفي حزيران السنة ١٧ استقبل الدور الجديد باحتفالات دامت ليل نهار مدة ثلاثة أيام، ونظم هوراتيوس شاعر رومة آنئذٍ «ترنيمة الدور Carmen Saeculare»، فأنشدها جوق مؤلف من سبعة وعشرين صبيًا وسبع وعشرين بنتًا، وجاءت سبعة أيام أخرى مملأى بحفلات المسارح والملاعب.³⁰

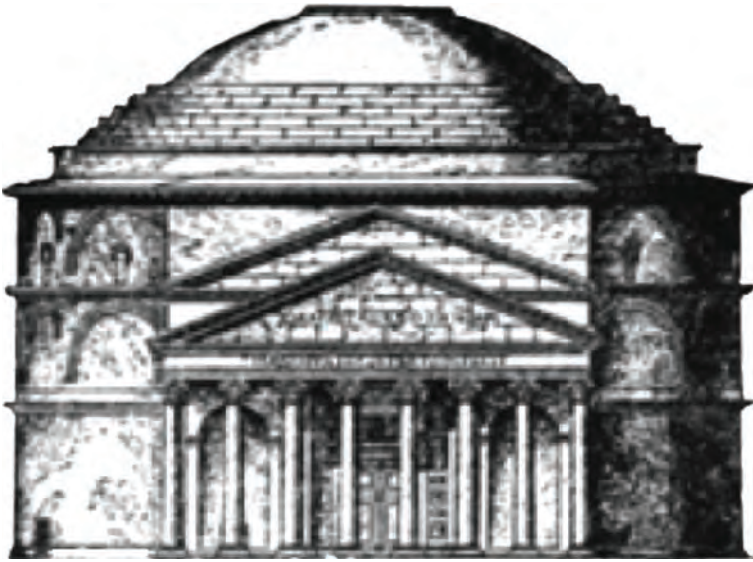
(١٢) عبادة قيصر

وأراد أوغسطس أن يربط شعوب الإمبراطورية بعضها ببعض على تنوع لغاتها وثقافات وأجناسها، فأكرم في الاحتفال المئوي أبولون اليوناني ووينوس ومرتيوس في هيكلم على تلة البلاتين بقدر ما أكرم يوبيتر الروماني ويونو ومينرو على تلة الكبيتول. ولعل التقليد الذي قال بتحدّر يوليوس وأسرته من وينوس كان من الأسباب التي أدت إلى إكرام هذا الثالوث اليوناني.

وكان السناتوس الروماني قد ألّه يوليوس قيصر بعد مرور سنتين على اغتياله، وكان إكرام قيصر قد شاع في جميع أنحاء الإمبراطورية. ثم أكرمت المدن الإيطالية أوكتافيانوس

في السنة ٣٦ ق.م.، فأفرزت له محلًا لائقًا في هياكلها، وأضافت رومة اسمه منذ السنة ٢٧، إلى أسماء الآلهة في التراتيل الرسمية، وجعلت يوم ميلاده مقدسًا، كما اعتبرته يوم بطالة. وذهب الشرق إلى أبعد من هذا، فيونان آسية استقبلوا أوغسطس في السنة ٢١ استقبلاً إلهيًا، وحيّوه مخلصًا وبشيرًا وإلهًا ابن إله.³¹ وجرى مثل هذا في مصر أيضًا، ولم يرض أوغسطس عن هذا التأليه؛ لأنه لم يتفق وسياسته الداخلية في رومة وإيطالية، التي ابتعدت عن كل ما يمت إلى الدكتاتورية والملكية بصلة، ولكنه لم ير سبيلًا للرفض؛ كي لا يخيب أمل مريديه وأصدقائه، فأوعز بعبادة آبائه في الغرب جريًا على العرف والتقليد، فصلى الرومان لأجل عائلاتهم وعائلة أوغسطس في آن واحد، وأشار بالربط في الشرق بين عبادة أسرته وعبادة الآلهة رومة، ثم أصبح أوغسطس في السنة ١٢ ق.م. «الحبر الأعظم Pontifex Maximus»، فراجت عبادة أسرته رواجًا كبيرًا في معظم الولايات.³²

(١٣) البناء والتعمير



البانتيون، كما أعيد بناؤه في عهد أدريانوس، ولعله في تخطيط أبولودوروس الدمشقي.

وأدى اهتمام أوغسطس بالدين والعبادة إلى تشييد الهياكل وترميم القديم منها، فقد جاء في بيان أعماله Res Gestae أنه رمم ثمانين هيكلًا، وأنشأ عددًا كبيرًا غيرها، منها «البانتايون Pantheon» هيكل جميع الآلهة في وسط ساحة «مرتيسوس Campus Martius» في رومة،³³ وهيكل أبولون على تلة البلاتين، وهيكل «يوبيتر فيريترسوس Jupiter Feretrius» و«يوبيتر توناس Jupiter Tonans» على تلة الكابيتول،³⁴ وأكمل «بهو يولية Saepta Julia» للاجتماعات والانتخابات العمومية، الذي كان قد بدأ بإنشائه خاله يوليوس. ومن بنايات عصره في قلب رومة «حمامات Thermae» أغريقية،³⁵ ومسرحا بومبايوس ومركلوس. واستعان أوغسطس في بناء هذه الأبنية «بالتوفة tufa» البركانية و«التراورتينة travertine» الرخامية والقرميد الروماني، وبرخام كرارة الأبيض، ومن هنا قوله الشهير: إنه جاء رومة مدينة من القرميد فبرحها رخامية، ولا بد من الإشارة إلى بعض إنشاءات أوغسطس العمومية الأخرى، إلى اهتمامه بأرصفت المرافئ ومخازن الحبوب والأسواق وأقنية المياه. ومن أشهر هذه الأقنية «قناة أغريقية Aqua Virgo». ولا يزال جسر نيم Pont du Gard ماثلاً شاهداً على اهتمام أوغسطس بالإنشاءات العمومية في الولايات أيضًا.³⁶

(١٤) النقود والمال

وكان السناتوس قد تولى سك النقود في عهد الجمهورية، وفوض أمرها لثلاثة من أعضائه، عُرفوا بـ «الرجال الثلاثة III viri»، وأجاز سكها في الولايات لكبار القادة الولاة. وكان أوغسطس قد مارس هذه الصلاحية يومئذٍ، فلما استتب له الأمر حل هو محل السناتوس، وتولى إصدار جميع النقود الفضية والذهبية. أما البرونزية، فإنها ظلت تصدر باسم السناتوس، وكانت نقود أوغسطس الذهبية تُسك في «لوغدونم Lugdunum» للغرب والشرق معاً. أما الفضية، فإنها كانت تُضرب للشرق في أنطاكية وللغرب في لوغدونم.³⁷

وظل السناتوس يشرف على أمور «الخزينة العامة aerarium Saturni»، التي كانت تحفظ في هيكل ساتورنوس إله الزراعة، وأشرف أوغسطس على «الخزينة العسكرية aerarium militare»، وعلى «سلات fisci» الولايات التي كانت تنقل إلى رومة مختومة، حاملة الأموال الأميرية. وأموال السلال هذه كانت أموالاً عمومية لا علاقة لها بـ «دخل أوغسطس الشخصي Patrimonium Caesaris».

وتغذت الخزينة العامة بالضرائب، التي كانت تُجَبى من سكان الولايات الخاضعة للسناطوس ومن ضرائب أخرى محلية. أما الخزينة العسكرية، فإنها كانت تستوفي ضريبتين واحدًا في المائة من المبيعات وخمسة في المائة من التركات. وكانت أموال «السلال fisci» التي تُجَبى من سكان الولايات الخاضعة لأوغوستوس تعتبر مَالاً له، ولكنه كان يتوجب عليه أن يبين كيفية إنفاقها.

وتحملت الخزينة العامة نفقات الإنشاءات العمومية والطرق والهيكل، وخصصت أموال الخزينة العسكرية لرواتب التقاعد التي كان يتقاضاها رجال الجيش، أما أموال السلال، فإنها كانت تخصّص لنفقات الجيش والأسطول، ولتموين العاصمة بالحبوب، ولتزيينها والترفيه عن سكانها.

ولم تتمكن الخزينة العامة من القيام بجميع النفقات المتوجبة عليها، فلجأت في غالب الأحيان إلى أموال سلال أوغوستوس، فخضعت بطبيعة الحال إلى المشرف على هذه الأموال، أي إلى أوغوستوس الإمبراطور.³⁸

(١٥) ألقاب أوغوستوس وصلاحياته

وهكذا، فإنه بعد أن علّم الدهرُ المشيخة الرومانية ضعفها وعجزها عن تنظيم العالم الروماني وإحكام إدارته، قلّدت أوغوستوس قيادة الجيش، وولّته حكم أهم الولايات، وأعطته حقوق التربة وتفسير القوانين، واعتبرته حامي دين الجدود، وأبا موطن الآباء، وكثرت ألقابه وتعددت، ولكنه أثر منها خمسة كان يستعملها في بياناته الرسمية وأحكامه القانونية، وهي ما يلي:

(١) «الحبر الأعظم Pontifex Maximus»: والأصل في الـ Pontifex أنه حازق في السحر لبناء الجسور،³⁹ ثم أطلق هذا اللفظ Pontifex على الكهنة، الذين برعوا في إقامة الطقوس الدينية،⁴⁰ ثم انتظم بعضهم «كلية collegium»؛ ليعاونوا الحكام في خدمة الطقوس الدينية، ويدبروا أمورها، فأُمسى «عظيمهم maximus» رئيس كهنة الدولة وحبر أخبارها.⁴¹

(٢) «القنصل Consul»: وهو ذو السلطان الأعظم في رومة في عهد جمهوريتها في الشؤون المدنية والعسكرية، ويلاحظ أن أوغوستوس اتخذ اللقب قنصل في المناسبات الرسمية، وأهمّل اللقب بروقنصل تحاشياً.

- (٣) «الإمبراطور Imperator»: وهو غير «الاسم الأول praenomen» «إمبراطور Imperatoris». وأهمية اللقب إمبراطور أن الجنود حيوا حامله إمبراطورًا. وبالتالي، فإنه أشار إلى السلطة البروقنصلية العسكرية العظيمة.⁴²
- (٤) «صاحب السلطة التريبونية Tribunicia Potestas»: وقد سبقت الإشارة إليها، وإلى أهميتها.
- (٥) «أبو موطن الآباء Pater Patriae»: وهو لقب أطلقه السناطوس عليه في السنة الثانية قبل الميلاد. وكان شيشرون قد حمل هذا اللقب منذ السنة ٦٣ ق.م.، وكذلك يوليوس قيصر.⁴³

(١٦) الخلافة والخلفاء

وهدف أوغسطس إلى الوحدة والسلم والطمأنينة، فرأى أن وصول غير اليوليوسيين إلى منصة الحكم يثير الحسد والطمع والمطالبة بالسلطة. فأزوج — بعد وفاة مركلوس ابن أخته من زوجها الأول في السنة ٢٣ ق.م. — أغريبة من بنته يولية؛ لينجبا خلفًا يوليوسيًا، وأثمر هذا الزواج، فخلف لأوغسطس حفيدين: غايوس في السنة ٢٠، ولوكيوس في السنة ١٧، فتبنى أوغسطس الحفيدين في السنة ١٧، وجعلهما «قيصرين caesares».

واستعان أوغسطس في أثناء حداثة حفيديه بأغريبة والدهما، وبطيباريوس ودرسوس ابن زوجته ليبية من زوجها الأول، ووثق بأغريبة وفوض أموره إليه، ولم يداخله ريب في ولاء طيباريوس ودرسوس، ولم يبدُ منهما ما دعا إلى التحذر، ولكنه شاع عن الاثنين أنهما أثرا العودة إلى نظام جمهوري حقيقي.

وفي السنة ١٦ ق.م.، اضطر أغريبة أن يعود إلى الشرق؛ لتدبير شئونه باسم أوغسطس، فوطد حكم «بوليموس Polemos» في البونط، ونظم شئون الجاليات العسكرية في بيروت وبعلبك، ونظر في أمور اليهود في فلسطين ونال تقديرهم، ثم ساءت الأحوال عند وادي الرين، فاضطر أوغسطس أن يتولاها بنفسه، فعين ستاتيليوس طوروس «ناظرًا praefectus» على رومة، ونهض إلى غالية فوادي الرين مصطحبًا طيباريوس ودرسوس أيضًا. وبعد أن نظم شئون غالية نهض إلى إسبانية، تاركًا حماية حد الرين في أيدي طيباريوس وأخيه، وفي السنة الثالثة عشرة عاد أوغسطس إلى رومة، وعاد إليها أيضًا صهره أغريبة، وجُددت بروقنصلية أوغسطس خمس سنوات أخرى،

كما جُددت تربنة أغريقية مدة مماثلة، ثم ظهرت القلائل في بانونية في البلقان الغربي، فأُسرع أغريقية إليها لإخماد نار الفتنة فيها، وعاد إلى رومة في ربيع السنة ١٢، فنصبه المرض، وأثخنه وانتزعه من بين ذويه، فشقَّ ذلك على أوغوسطوس، وحرمه صديقًا مخلصًا ومعاونًا قديرًا، ووصيًا أمينًا على الأحفاد الخلفاء،⁴⁴ ووُلد لأغريقية ولد ذكر بعد وفاته، فسمي أغريقية أيضًا Agrippa Postumus.

وهكذا، فإن أوغوسطوس اضطر أن يعيد النظر في أمر الوصاية على الأحفاد القُصَّر مرة ثانية، فأكره طيباريوس على الزواج من يولية المترملة في السنة ١١، وذلك على الرغم من تعلقه بـ «ويبسانية Vipsania» بنت أغريقية من زواجه الأول. وفي السنة ٩ ق.م. وقع دروسوس عن ظهر حصانه في إحدى جولاته العسكرية الموفقة في ألمانية فمات، فأمسى طيباريوس الخلف المنتظر لأوغوسطوس في حال وفاته قبل بلوغ أحفاده السن القانونية. وفي هذه السنة أيضًا، عاد أوغوسطوس من غالية وإسبانية سالمًا، فكُرِّس السناتوس «مذبح السلام Ara Pacis» في فسحة مكشوفة محوطة بجدران من الرخام، مغطاة من الأسفل بزناير عريض من اللوالب النباتية المزخرفة، وفوقها سلسلة من النقوش البارزة، تمثل إحداها البطل الخرافي إينياس آتياً بتقدمة إلى هيكل أسرة الآلهة الرومانية، التي حملها من طروادة إلى لاتيوم. وانتهت مدة بروقنصلية أوغوسطوس في السنة ٨، فجددها عشر سنوات أخرى، وأشرك طيباريوس فيها،⁴⁵ وفي السنة السادسة نال طيباريوس التربية لمدة خمس سنوات.

وفي هذه السنة السادسة عينها بلغ غايوس حفيد أوغوسطوس الرابعة عشرة، فمهدَّ جده لانتخابه قنصلًا، فتردى الفتى في السنة التالية بـ «طوغة الرجال toga virilis»، وقُدِّم للجمهور مواطنًا رجلًا، وأذن له بحضور جلسات السناتوس، ونودي به «مواطنًا أول بين الأحداث Princeps Iuventutis» وزعيم الفرسان الأحداث، وجرى مثل هذا بالضبط لأخيه لوكيوس بعد ثلاث سنوات.

وفوجئ أوغوسطوس في هذه السنة السادسة أيضًا باعتزال طيباريوس الحياة المدنية العمومية، وانزوائه في جزيرة رودوس. ولم يكن السبب في ذلك إلحاح أوغوسطوس في أن تبقى الخلافة بعد وفاته لأحفاده اليوليوسيين، وإنما كان عبث زوجته يولية بالأمانة له، وتماديها في الخلعة وصفاقة الوجه. ومع أنه لم يستنكف عن القيام بواجبات الوصاية، فإنه لم يرَضَ أن يكون قوائداً لامرأة، ولو كانت بنت أوغوسطوس. وما فتئ طيباريوس منزويًا في رودوس، عاكفًا على درس النجوم والتنجيم، حتى قرر أوغوسطوس إبعاد بنته



Ara Pacis.

يولية في السنة ٢ ق.م.، إلى جزيرة «بندترية Pandateria»⁴⁶ فلما علم طيباريوس بذلك كتب إلى أوغسطس يرجو السماح له بالعودة إلى رومة، ولكن أوغسطس لم يرضَ، ولم يرشح طيباريوس للترتبة عند انتهاء مدتها في السنة ١ ق.م.، ولم يعد طيباريوس إلى رومة قبل السنة ٢ بعد الميلاد.

وفي غضون هذا كله جاوز الحفيدان حدَّ الصغر، وبلغا سن التكليف، ففاز غايوس في السنة ٤ ق.م. بمقعد في مجلس أوغسطس الخاص، وفي السنة الثانية قبل الميلاد، اشترك هو وأخوه في تكريس «هيكل مارس Mars Ultor» في فورم أوغسطس الجديد. وفي السنة التالية، أنفذ غايوس إلى الشرق بروقنصلًا في مهمة إدارية سياسية، وبعد ذلك بسنوات ثلاث أنفذ أخوه لوكيوس بمهمة مماثلة في الغرب، ولعل غايوس هو الذي سَكَّن غضب جده على طيباريوس، وأذهب حنقه.⁴⁷

وتوفي لوكيوس في مرسلية، وهو في طريقه إلى إسبانية في السنة ٢ ق.م.، ثم توفي غايوس في السنة ٤ من جرح أصابه في أرمينية في أثناء قيامه بالواجب، فتبنى أوغسطس طيباريوس، ومنحه الترتبة عشر سنوات، ولكنه تبنى أيضًا حفيده الثالث أغريية الصغير، وجعل طيباريوس يتبنى بدوره ابن أخيه جرمانيكوس من زوجته أغريبينة حفيدة أوغسطس، مؤثرًا بذلك الدم اليوليوسي مرة أخرى، ممهدًا لنزاع شديد نشب بعد وفاته

بين أحفاد كلوديوس وأحفاد أوغسطس، ولم يكن أغربية لائقاً بالحكم؛ لأنه نشأ فظاً قاسياً، كما أن جرمانيكوس نشأ عنيداً متصلفاً.

وتميزت السنوات العشر الأخيرة من حكم أوغسطس بتعاون متزايد بينه وبين طيباريوس، واضطر أوغسطس في الاتكال على ربيبه الجديد في المهمات العسكرية. فلما جاءت السنة ١٣ ب.م. وانتهت بها بروقنصلية أوغسطس وتربنة طيباريوس، اعتبر أوغسطس ربيبه شريكاً له في الحكم، كما جرى في السنة ١٨ ق.م. لأغربية، وفي صيف السنة ١٤ حضرته الوفاة، فقال لذويه: «لقد نجحت في الدور الذي لعبت، فصفقوا واصرفوني من المسرح مصفقين متهللين.» ثم التفت إلى زوجته ليبية فعانقها، وقال: «اذكري اتحادنا الطويل، أستودعك!» وبعد أيام قليلة حملته الشيوخ على الأكتاف إلى حقل مارتيروس، وأحرقوا جثته، بينما كان أبناء الأسر الكريمة يرتلون ترانيم الوداع،⁴⁸ وفي أيلول السنة نفسها ١٤ ب.م. رفعه الشيوخ إلى مصاف الآلهة، فأسمى Divus Augustus.⁴⁹

(١٧) مكانة أوغسطس

وسئم الرومانيون الحرب الأهلية والفوضى، فتاقت نفوسهم إلى السلم والاستقرار، فشق أوغسطس طريقه إلى سدة الحكم، وتمكن بمعونة المخلصين من إصلاح أجهزة الدولة، والوصول إلى الاستقرار المنشود، ومع أن الوسواس كانت تعتريه، والخرافات تخالج صدره، فإن فهمه للأمور ظل صحيحاً، واستنتاجاته بقيت سليمة. وكذلك حذر الشد يد ودهاؤه، فإنهما لم يُنقصا من ولائه لأصدقائه، ولم يجعلاه متصنعاً ممالقاً. ومع أنه لم يَرثْ جاذبية خاله الأكبر، فإنه استدرَّ ولاء أصدقاء قديرين، تمكنوا من تغطية بعض النقص، الذي كان يشكو منه، وتطورت قساوة الشباب، فإذا بها في عهد الكهولة إيمان شديد بالواجب، وسعي حثيث لمصلحة الدولة، وكان واقعياً مؤمناً بالتجربة والامتحان، فنجح حيث كان إخفاق السياسي النظري محتماً، وتجلَّى التعقل الروماني في شخصه والاتزان وحب العمل المثمر، والابتعاد عن الخطط النظرية أو الهوائية، فوافقت مواهبه حاجة رومة الملحة، وتمتع الرومانيون بسلم طويل الأمد، وتسنى لهم أن يروموا الغرب بأسره، وأن يلقحوا الشرق المتهلل ببعض ميزات المدنية الرومانية. وأمسى الشاب الذي وُصم في أول عهده بـ «الندالة والخساسة adulescentulus carnifex» «أباً لبلاده patriae»، رحوماً شفوفاً. ولكنه على الرغم من ثقافته الهلينية، فإنه اكتفى بالسلم والأمن الداخليين، ولم يتنق في أعماق نفسه إلى الحرية الحقيقية، ولم يشجع الحياة الحرة.

هوامش

- (1) STUDNICZKA, F., *Jahrbuch des Deutsch. Arch. Instituts*, 1923, 125; TARN, W.W., *Journ. Rom. Stud.*, 1931, 179 ff.
- (2) ABEL, F.M., *Hist. de la Palestine*, (1952), I, 347–357; TARN and CHARLESWORTH, *op. cit.*, X, 114–115.
- (3) *Ibid.*, 114.
- (4) PREMIERSTEIN, A., von, *Die Aufänge der Provinz Moesins*, Jahreshefte, I, 1898, Col.; 158 PARVAN, V., *Getica*, 85–90.
- (5) DIO CASS., 52:15
- (6) RES GESTAE, 16, 20; DIO CASS., 48:4, 6 53:2, 5; SUET., *Aug.*, 17; PLIN., N.H., 33:83; KORNEMANN, E., *Coloniae*, RITHELINO, F., LEOIO, P.W.
- (7) Res GESTAE, II, 22–24; DIO CASS., 49:15, 50:2; App., *Bell. Civ.*, 5:132.
- (8) MCFAYDEN, D., *Hist., of Title Imperator under Roman Empire*, (1920); PREMIERSTEIN, A. von, *Vom Werden und Wesen des Prinzipats*, (1937); GRANT, M., *From Imperium to Auctoritas*, (1946).
- (9) DIO CASS., 54:13.
- (10) *Ibid.*, 53:2, 5.
- (11) STEVENSON, G., *Pro consule*, Ox. Class. Dict.
- (12) BALSDON, J.P., *Augustus*, Ox, Class. Dict.
- (13) DIO CASS., 53:21.
- (14) *Ibid.*, 51:1; RES GESTAE, 7.
- (15) BALSDON, J., *Principes*, Ox, Class. Dict.; HAMMOND, M., *The Augustan Principate*, (1933); MOMMSEN, Th., *Rom. Staatsr.*, II, 3.
- (16) JONES, H.S., *The Principes*, Cam. Anc. Hist., X, 127–135.
- (17) SYME, F., *Rom. Rev.*; FLUSS, M., Real-Encyc.
- (18) DIO CASS., 53:28.
- (19) TACITUS, *Ann.*, III, 56.
- (20) Jos., *Ant. Jud.*, 15:10, 16:3; DESSAU, *Inscriptiones Latinae Selectae*, 244; HAMMOND, M., *The Augustan Principate*, (1933); HOMO, L.,

Institutions Pol. Rom., (1927), 243–287; JONES, H., *Restoration of the Republic*, Cam. Anc. Hist., X, 127–142.

(21) VERGILIUS, *Aen.*, VI, 860–885; PROPERTIUS, III, 6.

(22) GAHEISS, *Real-Encyc.*, III, 2764.

(23) DIO CASS., 54:1; RES GESTAE, 5.

(24) Velleius, 2:91, 92; DIO CASS., 53:24.

(25) DIO CASS., 54:12.

(26) JONES, H., *op. cit.*, X, 148–150.

(27) *Ibid.*; ROTONDI, G., *Leges Publicae Populi Romani*, (1912), 442–454.

(28) DIO CASS., 54:16, 56:6–7,10; SUET., *Aug.*, 34, *Claud.*, 19, 23; HOMO, L., *Haut-Empire*, 148–149; LAST, H., *Social Policy of Augustus*, Cam. Anc. Hist., X, 448–456.

(29) HOR., *Od.* IV, 5, 21; OVID., *Fast.*, II, 139; TACIT., *Ann.*, III, 24; MOMMSEN, Th., *Rom Stafr.*, 628 f., 688 f.; LOTMAR, P., *Mélanges Girard*, II, 143 f.

(30) HOR., *Carmon Saeculare*; CENSORINUS, *D.N.*, 17; LIV., *Per.*, 49; ZOSIMUS, II, 1 ff.; *CIL.*, VI, 32323–36; TAYLOR, L., *Secular Games*, Ox. Class. Dict.

(31) HOR., *Satires*, 2:5.

(32) BICKERMANN, E., *Die Remische Kaiserapotheose*, Arch. Relig., 1929; GAGE, J., *Romulus-Augustus*, Mélanges d'Arch. et d'Hist., 1930; GAGE, J., *Diums Augustus*, Rev. Arch., 1931, II; TAYLOR, L.R., *The Divinity of the Rom. Emperor*, Am Phil. Assoc., 1931; NOCK, A.D., *institut. of Ruler Worship*, Cam. Anc. Hist., X, 481–488.

(33) DURM, J., *Ant. Baukunst*, 550–573.

(34) KOCH, C., *Des Romische Jupiter*, (1939).

(35) DANIEL., R., *Marcus Ves. Agrippa*, (1933).

(36) ASHLY-ANDERSON-SPEARS, *Architecture of Ancient Rome*.

(37) GRANT, M., *A Hist., Study of Aes Coinage in the Rom. Empire*, 49 B.C.–A.D. 14, (1946); MATTINGLY-SYDENHAM-SUTHERLAND, *Roman Imperial Coinage*, II, *Augustus to Pupienus*.

(38) HIRSCHFELD, O., *Die Kaiserlichen Verwaltungsbeamter*, (1905), 8 ff.; MATTINGLY, H., *The Imperial Civil Service of Rome*, (1910); LAST, H., *Journ. Rom. Studies*, 1944, 51 ff.

(39) CIUFFRIDA-RUGGERI, *Journ. Roy. Anthropol. Inst.*, 1918, 180.

(40) CICERO, *Har.*, 18.

(41) MOMMSEN, Th., *Staatsr.*, II, 22 ff.

(42) MCFAYDEN, D., *Hist. of the Title Imperator under the Rom. Emp.*, (1920); CARCOPINO, J., *Point de Vue sur l'Imperialisme Romain*, (1934), 127; PREMERSTEIN, von A., *Vom Werden und Wesen des Prinzipats*, (1937), 245.

(43) BALSDON, J., *Pater Patrias*, *Ox. Class. Dict.*

(44) DIO CASS., 54:28.

(45) DESSAU, *Insc. Lat. Sel.*, 95.

(46) VELLEIUS, 2:100; SENECA, *Ben.*, 6:32; DIO CASS., 48, 53–56; MACROBIUS, *Sat.*, 2:5.

(47) JONES, H., *The Princeps*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 155–157.

(48) SUETONIUS, 99.

(49) GAGE, J., *Divus Augustus*, *Rev. Arch.*, 1931, 11; TAYMOR, L.R., *The Divinity of the Rom. Emperor*, *Am. Philol. Ass.*, 1931.

الجزء الثاني

الإدارة، السياسة، الحرب

الفصل الخامس

المواطن الأول والسناتوس والإدارة

(١) السнатوس

واستمد المواطن الأول سلطته من مصدرين مختلفين، أحدهما حقيقي واقعي، والآخر تقليدي قانوني من الجيش ومن السнатوس والشعب. ولما كانت موافقة الشعب شكلية، وكان حق انتقاء المواطن بيد أعضاء السнатوس، جاز القول إن وصول المواطن الأول إلى وظيفته كان من الناحية القانونية الشرعية مربوطاً بموافقة السнатوس، وجاز القول أيضاً إن السнатوس كان لا يزال يتمتع بحقوق عظيمة وسلطة واسعة، فهو الذي كان ينتقي القناصل، ويشرف على إدارة إيطالية والولايات، وعلى خزينة الدولة وطرقها، وعلى مصلحة مياه العاصمة ومصلحة تموينها بالحبوب، ونظر السнатوس أيضاً في نوع من الدعاوى التي كانت تُرفع إليه، وأصدر فيها أحكاماً مبرمة، وسنَّ القوانين فصدرت «آراء سناتوسية Senatus Consulta»، وظل يمارس شيئاً من صلاحياته القديمة في العلاقات الخارجية، ولكنه كان خاضعاً في الواقع لرأي المواطن الأول؛ لأن هذا المواطن انتقى أعضائه انتقاءً، وراقب حركاتهم وسكناتهم، وأوحى وأوعز إليهم، فكان لهم فيلسوفاً وصديقاً.¹

وكان الرومانيون لا يزالون منتظمين طبقات؛ شيوخاً وفرساناً وعمامة ومعتقين وأرقاء، فكان السناتوسي يولد سناتوسياً، وقد يصير سناتوسياً بعطف المواطن الأول؛ لأنه كان يحق لهذا أن يمنح تزيين الطوغة بـ «القلم الأرجواني daticlava» من يشاء. وكان المواطن الأول ينتقي هؤلاء — في غالب الأحيان — من طبقة الفرسان، وكان على المرشح لهذا الترفيع الاجتماعي السياسي أن يكون صاحب مليون سستركة، وأن يوظفها في الأراضي الإيطالية. وظل هذا التقليد ساري المفعول زمناً طويلاً، فإنه بعد أن بدأ غير الإيطاليين ينالون شرف الانتماء إلى السнатوس، ظل متوجباً عليهم أن يوظفوا ثلث أموالهم في الأراضي الإيطالية.²

واشترك السناتوسيون اشتراكاً فعلياً في إدارة الدولة، وكانوا يبدؤون في الوظائف الصغيرة، فيقومون سنة واحدة بـ «أعمال الرجال العشرين *vigintiviri*»، فإما أن ينتموا إلى «رجال النقود الثلاثة *Tresviri monetales*»، وإما إلى «رجال الشرطة الثلاثة *Tresviri Capitales*»، وإما إلى «المهندسين الأربعة *Quatuorviri viis in urbe purgandis*»، وإما إلى «قضاة محاكم الشرطة العشرة *Decemviri litibus Iudicandis*». وكانوا بعد هذا يلتحقون بالجيش: إما ضباطاً في «فرق المشاة *tribuni militum*»، وإما ضباطاً في كتائب «الخيالة المساعدة *praefecti alae*»، فإذا ما أتموا هذين النوعين من الخدمة، وأكملوا الخامسة والعشرين من العمر أمسوا مرشحين لوظيفة «المحقق *quaestor*»، وكان عدد المحققين في الدولة عشرين، وكانت مدة خدمتهم سنة واحدة، تبدأ في الخامس من كانون الأول وتنتهي في الرابع منه، وقد يكون المحقق مدققاً مالياً في إحدى الولايات الخاضعة للسناتوس *quaestor pro praetore*، وقد يكون «مدققاً في خزينة الدولة *quaestor urbanus*»، وقد يكون ضابطاً ارتباطاً بين الإمبراطور والسناتوس *quaestor principis* أو *quaestor consultum*. فإذا ما عُين محققاً مدققاً اعتُبر عضواً عاملاً في السناتوس ورشح للترتبة، أو «النظارة *aedilitas*»، وكان عدد الترابنة عشرة وعدد النظار ستة. وفي الثلاثين من العمر أصبح عضو السناتوس أهلاً لـ «المقديمة *praetura*» لرئاسة المحاكم أو لإدارة الخزينة، وكانت المقديمة تبدأ في أول كانون الثاني، وتنتهي في الحادي والثلاثين من كانون الأول، وبعد ذلك بسنتين، أي بعد أن يصبح عضو السناتوس في الثالثة والثلاثين من العمر، كانت تبدأ المنافسات والمناورات للوصول إلى القنصلية، وكان لا بد من الحصول عليها للوصول إلى حاكمية رومة، أو حاكمية إحدى الولايات المهمة، أو إلى قيادة جيش من الجيوش.³

وضبط أوغسطس الدخول في عضوية السناتوس، بجعل الخدمة في الجيش شرطاً من شروطها الأساسية، فالتعيينات في صفوف الضباط صدرت عنه وحده، فإذا ما وافق على التحاق أبناء السناتوسيين بالجيش، مهّد لهم السبيل للدخول في عضوية السناتوس والجلوس مع آبائهم فيه، وما صح عن هؤلاء انطباق كل الانطباق على أبناء الفرسان، الذين رغبوا في الترقية والوصول إلى عضوية هذا المجلس.

وعني أوغسطس أيضاً بأسلوب العمل في السناتوس وبتصرفاته، فأُنقص في السنة ١١ ق.م. النصاب اللازم لإصدار رأي المجلس في أمر معين *senatus consultum*. وبعد ذلك بسنتين، جعل هذا النصاب يختلف باختلاف القضايا موضوع البحث. وكان أوغسطس قد منع الأعضاء من مغادرة إيطاليا بدون موافقته منذ السنة ٢٩ ق.م.



خارج السنتاتوس.

فجاء في السنة ٩ ق.م. يغرم المتغييبين عن الجلسات بدون عذر قانوني، ثم أبطل نشر أعمال المجالس وتعميمها.

وكان لا بد من بحث الأمور التي تُعرض على السنتاتوس مسبقاً في مجلس أوغوستوس الخاص، فإن هو وافق على بحثها في السنتاتوس بُحثت، وإن هو امتنع عن عرضها امتنع المجلس عن بحثها. والجدير بالذكر أيضاً، أن المجلس الخاص كان يتألف من سنتاتوسيين وغيرهم، وأن عدد هؤلاء ازداد مع مرور الزمن، فأُمدت صلاحيات السنتاتوس الاشتراعية والتنفيذية مقيدة بموافقة أوغوستوس ومجلسه الخاص.

واضطر أوغوستوس أن يحد من صلاحيات السنتاتوس في حقل العلاقات الخارجية؛ وذلك لأسباب أهمها أن الدول المفاوضة رغبت في التفاوض مع أصحاب الحل والربط في الجمهورية الرومانية مع المواطن الأول نفسه لا مع السنتاتوس، وأن التقليد الروماني قضى بعدم خروج الأعضاء للمفاوضة خارج حدود الدولة، فأُمسى دور السنتاتوس في الأمور الخارجية محصوراً في المقابلات الرسمية وتبادل اللياقات.

ولم يتمكن السناتوس من ممارسة صلاحياته الإدارية كاملة في إيطاليا وفي الولايات التابعة له، فحرس أوغسطس كان حامي إيطاليا و«نظار curatores» أوغسطس أشرفوا على الطرقات العمومية، وعلى سير مصلحة الحبوب. والشرطة والإطفائيون كانوا خاضعين لأوامر أوغسطس مباشرة، وكان لأوغسطس نفوذ كبير في الولايات التابعة للسناتوس، كما تبين من نقش قيرينة⁴ وغيره. وكانت حاميات هذه الولايات رهن إشارة أوغسطس، يأمر بنقلها حيث يشاء، كما كان بإمكانه أن يحوّل الولايات السناتوسية إلى ولايات خاضعة له مباشرة.⁵

(٢) القناصل والدور الجديد

واستعان أوغسطس بالقناصل القدماء لتسيير دفة الإدارة، فأنشأ لجائاً من أعضاء السناتوس، وأسند إليهم مراقبة مصالح الدولة برئاسة قنصل قديم، ومن هذه اللجان: لجنة إصلاح الطرق والإشراف عليها، ومنها لجنة مصلحة الحبوب، ولجنة مصلحة المياه، ومنها لجنة الأشغال العمومية. ولجأ أوغسطس إلى القناصل القدماء لإدارة الشؤون الخارجية، فأسند إلى ثلاثة منهم استقبال الوفود المفاوضة، والإصغاء إليها والإجابة عن أسئلتها، والبت في بعض الأمور غير المهمة. أما المهم منها، فإنه كان يُعرض إما على أوغسطس نفسه، أو على السناتوس قبل البت فيه.

وكثرت مصالح الدولة وتنوعت، فتطلبت إدارتها عددًا متزايدًا من القناصل القدماء، فأنقص أوغسطس مدة القنصلية إلى شهرين بدلًا من سنة كاملة، فتكاثر عدد القناصل القدماء، وقاموا بما وُكل إليهم من أعمال، وأرضى أوغسطس بهذه الطريقة عددًا كبيرًا من العناصر الجمهورية بإشراكهم على هذا الوجه في تسيير أمور الدولة.⁶

(٣) الفرسان

وجاء بعد الشيوخ في المجتمع الروماني الفرسان، وكان هؤلاء أيضًا من المزارعين الأغنياء، ولكنهم لم يكونوا على وفاق دائم مع الشيوخ، فأيدوا بطبيعة الحال المواطن الأول وأخلصوا. ونظر هو في أمرهم، فأفسح لهم مجالاً جديدًا لإظهار مواهبهم، وللتمتع بقسط جديد من الهيئة والوقار، ولم يكف عدد القناصل القدماء لإشغال المراكز الجديدة في الحكومة. وكان الفرسان قد عملوا في حقل جباية الضرائب، واكتسبوا بذلك خبرة واسعة في شئون الدولة، فاستعان أوغسطس بهم في دوائر المال والضرائب وفي بعض الوظائف



فارس روماني.

الأخرى. وأعاد النظر في نظامهم، فجعل الانتماء إلى طبقتهم إما بحق الولادة في هذه الطبقة، وإما بالتعيين من قبله. وكان رائده في هذا أن يدخل إلى صفوفهم ذوي المقدرة والكفاءة، ممن لم يتسنَّ له أن يكون غنيًا، فانضم إليهم عدد من قادة السرايا من ضباط الجيش، وعدد غير قليل من أغنياء المدن الإيطالية وبعض كبار المعتقين. وأوجب على جميع الرجال من هذه الطبقة الذين لم يتجاوزوا الخامسة والثلاثين من العمر أن ينتظموا في ست «شرذمات turmae»، وأن يشتركوا في عرض سنوي في الخامس عشر من تموز. وكان من الطبيعي أن تتألف هذه الشرذمات من أبناء البيوتات الكبيرة، فأمسوا «الشباب iuventus» بذاته في رومة. وانتقوا زعيمًا لهم الشاب خليفة المواطن الأول، فأصبح ولي العهد al Princeps Iuventutis. وأوجب على الفرسان الذين هدفوا إلى المراكز العالية أكثر من مجرد الاشتراك في العرض السنوي، فكان الواحد منهم يبدأ قائدًا لـ «فوج cohors» من أفواج «القوات المساعدة praefectus cohortis»، ثم قائدًا لفوج من أفواج القوات الرومانية tribunus militum، ثم قائدًا لألاي من «ألايات الفرسان praefectus alae».

فإذا ما بلغ — بعد هذا كله — الثلاثين من العمر، عين مدير مال، أو وكيلاً إدارياً في رومة أو «الولايات procurator»، وكان يُفَرَّق بين المدير الفارس والمدير العادي بإضافة النعت «أوغوستي augusti»، وبعد هذا القدر من الخبرة، أفسح أوغسطس المجال للمجلين منهم لتولي إحدى القيادات praefecturae التالية: قيادة السير، أو الأسطول، أو الإطفائية، أو الحرس، أو مصر.⁷

(٤) جمهور المواطنين

ومن لم ينتم إلى طبقتي الشيوخ والفرسان لم يبقَ له في آخر عهد المواطن الأول شيء من السلطة، ولم يشترك في الحكم، ولم يلغِ المواطن الأول منظمات الشعب الروماني، ولكنه لم يبقَ لها شيئاً سوى الموافقة على انتخابه، وهذه الموافقة نفسها أمست شكلية لا فاعلية لها. والغريب هو أن جمهور الشعب لم يتبرّم من هذا الإهمال، ولم يتضجّر من عدم اشتراكه في الحياة السياسية، ويرى البعض أن السبب في ذلك يعود إلى أن الشعب لم ير في الواقع أي جديد في إبعاده عن المعترك السياسي، فالبيوتات الكبيرة في رومة كانت منذ عهد بعيد قد سيطرت على سير الأمور في المنظمات الشعبية بواسطة الموالي، الذين كانوا يدينون لها بالولاء والطاعة، وما تمّ على يد المواطن الأول لم يكن سوى استبدال البيوتات المتعددة ببيت واحد، ويرى آخرون أن جمهور الشعب لمس في برامج أوغسطس عناية وعطفاً فوالاه وأذعن إليه، والإشارة هنا إلى توزيع الحبوب على السكان على نطاق واسع، وإلى الترفيه عنهم بالألعاب المجانية، ومع أن مائتي ألف روماني استفادوا من توزيع «الحبوب frumentationes»، فإن الكميات الموزعة لم تكن في أي وقت من الأوقات كافية، ولم تكن الحبوب كل شيء للروماني العادي، ولم تسد كل حاجاته، ووزع المواطن الأول المال أيضاً congiara وتلقاه الشعب بالشكر، ولكن توزيعه لم يكن منتظماً، وإنما جاء لمناسبات معينة، ويعلل بعضهم عدم التضجر بتسرب شيء من الاتكالية إلى صدور الناس، وانتشاره في جميع طبقات المجتمع، فقد كان هنالك من يتكون في سلطتهم المحلية وسيادتهم على المواطن الأول، وشعراء يعيشون على سخاء أصحاب الملايين، وأرقاء لا يعرفون سوى أسيادهم، ومعتقون لا يوالون إلا من أعتقهم.

ولكن هذه الاتكالية — على انتشارها — لم تعم الشعب بأسره، فقد ظلّ في رومة محامون وأطباء ومعلمون وتجار وبناءون وفعلة وموسيقيون وقاصون يعملون لحسابهم الخاص، ويعيشون من أتعابهم الشخصية، وانتظم بعض هؤلاء «نقابات collegia» للنظر

في مصالحهم المشتركة ورعايتها عند الحاجة، وشملت هذه النقابات المواطن الحر الأصيل والمعنق والرقيق، ولم يمنع أوغسطس سوى الجمعيات السياسية.



مواطن روماني.

ولم تكن علة الشعب في رومة مادية بقدر ما كانت روحية معنوية، فموقف الجماهير من التطورات السياسية والعسكرية ظلَّ سلبيًّا؛ لأنهم لم يشتركوا فيها اشتراكًا فعليًّا، ولم يشعروا بأنها صدرت عنهم، ولم يحسوا بأية مسئولية معنوية تدفعهم للمحافظة عما تم والدفاع عنه، فقد بقي هذا الإحساس محصورًا في الطبقات العليا، وزادت سلبية الشعب بازدياد العناصر غير الإيطالية، التي أمت رومة واستقرت فيها، ثم تفشَّت مع مرور الزمن، فانتشرت في الطبقات العليا مع وصول بعض هذه العناصر إليها، ولم يعالج أوغسطس هذا الداء معالجة جدية، ولم ينفخ في صدور الناس عقيدة معينة يؤمنون بها ويناضلون عنها، فعبادة أوغسطس ظلَّت شكلية طقسية فارغة. ومن هنا إقبال الجماهير على العقائد والطقوس الشرقية، ولم يلجأ إلى التعليم والتهديب، ولم يظهر خلفاؤه الأقربون

اهتماماً بهذه الناحية قبل السنة ٧٥ بعد الميلاد، ولم يُعَنَ برفع مستوى المعيشة بين الجماهير، فظلت بيوتهم قذرة حقيرة، وظلت شوارعهم ضيقة، ملأى بالأقذار والأوساخ.⁸ ويجمع رجال الاختصاص على أن أحوال المدن الإيطالية كانت أصح وأفضل، فالمستعمرات الرومانية منها *coloniae*، والمدن الإيطالية الحرة *municipii* تمتعت بقسط وافر من الاستقلال الداخلي، واشترك الشعب في حياتها السياسية اشتراكاً فعلياً، فانتخب «رجالها» الاثنان *duoviri* في المستعمرات، و«الأربعة» *quatuorviri* في المدن الحرة. وكانت الانتخابات في بعض الأحيان حامية الوطيس، كما كان يجري في بومباي مثلاً، وكان لكل منها سناطوساً *curia* يدبر شئونها.⁹

(٥) العتقاء

وتألف الشعب الروماني من أحرار، وُلدوا «أحراراً» *ingenui*، ومن «عتقاء» *libertini* أُخرجوا عن الرق، وقضى الشرع الروماني بأن يحظى العتيق بحق المواطن الذي لمعتقه، فنال العتقاء في إيطاليا ورومة حقوق المواطن الروماني، بيد أن السلطات في عهد الجمهورية لم تشجع العتق، فاستوفت ضريبة عتق معينة، وجاء أوغسطس فلم يعترف بعتق من لم يدفع الضريبة القانونية، وحَرَمَه من حقوق المواطن الروماني، ولم يسمح بإعادتها له إلا بعد الزواج والتوالد، وعلى الرغم من هذه العوائق ظل العتق جاريًا ساريًا، وظل عدد العتقاء ينمو ويرتفع.

ولم يكن العتق في رومة مطلقاً بدون قيد أو شرط، وأحب أوغسطس أن ينتقي العتقاء انتقاءً، فعاد إلى العرف الجمهوري، ونظر فيه فضبطه بقانونين، صدر الأول منهما *Lex Fufia Caninia* في السنة ٢ ق.م.، والثاني *Lex Aelia Sentia* في السنة ٤ ب.م.، وكان العتق يتم في عهد الجمهورية إما بالوصية بعد الوفاة، وإما بالإقرار والاعتراف أمام القضاء، وإما بإدخال اسم الرقيق في لوائح المواطنين باقتراح المعتق وموافقة «المراقب *censor*»، وإما ببيان خطي غير رسمي موقع من المعتق نفسه، وكان الناس قد أقبلوا على العتق بعد الوفاة إقبالاً شديداً، فأوصوا في كثير من الأحيان بعتق جميع أرقائهم، فجاء القانون الأول في السنة ٢ قبل الميلاد يحدد عدد العتقاء تحديداً، فأجاز عتق نصف الأرقاء إذا كان مجموعهم يتراوح بين الثلاثة والعشرة، ومنع الأغنياء الذين ملكت أيمانهم مئات الأرقاء من عتق أكثر من خمس ما عندهم، وأوجب على المعتق ذكر من يعتق باسمه، وعاد أوغسطس في السنة ٤ ب.م.، فحرم نوعاً معيناً من العتقاء من حقوق المواطن

الروماني، أولئك الذين ارتكبوا جرماً فنالوا عقاباً، إما من الدولة وإما من سيدهم، والذين تحلوا بالصفات الحميدة تمتعوا بحقوق المواطن، إذا كان المعتق فوق العشرين من العمر، وكانوا هم فوق الثلاثين، وكان لا بد من إجراء العتق أمام ممثل للسلطة، يثبت الإخراج عن الرق بمس الرقيق بعكاز السلطة vindicte.¹⁰

وظل العتق دون المواطن الحر مرتبة، فإنه لم يتمتع بجميع حقوق المواطن الروماني، فكان معرضاً للتعذيب إذا دُفع دفعاً إلى قاعة المحاكمة، ولم يسمح له بالجلوس على منصة الحكم أو القضاء، أو بالانتماء إلى طغمة الكهنة، أو إلى الحرس البريتوري، أو إلى فرق المشاة، وكان عليه أن يحتفظ باسم سيده، وأن يعطيه «المقام الأول prænomen»، وباسم قبيلة سيده nomen، وأن يبقى اسمه الشخصي في المرتبة الثالثة cognomen، وكان إذا تردى بالطوغة الرومانية تميز بزي رأسه، فلبس قبعة خصوصية عُرفت بـ «البلوسة pilleus»، ولم يتورع الروماني الحر عن تحقير المعتق بشتى الوسائل، كتذكيره بعبوديته السالفة، وتقدير ألوان من الطعام دون تلك التي كانت تُقدم للمواطن الحر.

وعلى الرغم من هذه القيود، فالمعتق ظل يتمتع بعدد غير قليل من الامتيازات، فإنه كان مواطناً رومانياً، وكمواطن روماني أعفي من مال الأعناق ومال الأراضي، واشترك في النقابات وسيطر على بعضها، وزواج الأحرار، واحتكر حق خدمة الآلهة غير الرومانية، ولعب دوراً لاثقاً في عبادة أوغوستوس، وكان إذا تفوق في المقدرة والأمانة يلفت نظر أوغوستوس، فينال منه «حق لبس الخاتم الذهبي ius annuli aurei»، ويمسي مساوياً للمواطن الحر، لاثقاً بالدخول في طبقة الفرسان.

وبلغ عتقاء أوغوستوس نفسه liberti Caesaris رُتباً تقاصر عنها كبار الأحرار، وتفصيل ذلك، أن الرومانيين «الأحرار ingenui» زُموا بأنوفهم، وامتنعوا عن القيام بخدمة بعضهم خدمات شخصية، فاضطر أوغوستوس أن ينتقي خدامه الشخصيين من عتقائه، وأن يفوضهم إدارة أملاكه و«أمواله الشخصية patrimonium Caesaris». ولما كان يصعب عليه التفريق بين أمواله الشخصية وأمواله التي كانت تعتبر عمومية، أمسى الموظفون لإدارة أمواله موظفين في الواقع مدنيين، ذوي نفوذ طائل وحول وصُول. وكان أهم هؤلاء ثلاثة: «أمين السر الإمبراطوري liberti ab epistulis»، و«أمين المال liberti a rationibus»، و«أمين الاستعطاف liberti a libellis». أما «سكرتيره القضائي liberti a cognitionibus» و«مستشاره الأدبي اللغوي liberti a studiis» فإنهما كانا أقل شأنًا. وأما الثلاثة الأولون، فإنهم أصبحوا بفضل وظائفهم وصلاحياتهم أبواباً رئيسة لا بد من ولوجها للوصول إلى حضرة المواطن الأول، فاستشفعهم الكبراء إليه، وواصلوهم على الرغم

من ضعة ماضيهم، وأثارت منزلتهم الرفيعة الجديدة التي اشرأت إليها الأعناق حسداً تلظت منه أكباد الأشراف، وفي أدب العصر الأوغوسطي حكايات وحكايات عن تصنع الشيوخ والوجهاء لهؤلاء المعتقين الأوغوسطيين، ولكنها لا تخلو من الغلو والمبالغة. ولم يبلغ سائر العتقاء ما بلغه عتقاء أوغسطس من النفوذ والعزة، ولكنهم تمتعوا جميعاً بامتياز واحد، خفف كثيراً من وطأة الشعور بالنقص الاجتماعي الذي كان يحز في صدورهم، فإن أولادهم بعد العتق وُلدوا «أحراراً ingenui» كسائر المواطنين، وحملوا أسماء رومانية قديمة، أخفت ما لحق آبائهم من وصمة العبودية، ويقدر العلماء نسبة الرومانيين الأحرار في رومة أحفاد الأحرار بعشرة في المائة فقط من مجموع السكان، أما الباقون، فإنهم كانوا جميعاً في وقت مضى عتقاء، أخذ عنهم الرق أخذاً.¹¹

(٦) الأرقاء

وكثر عدد الأرقاء في رومة في أوائل عهد الإمبراطورية، فبلغ مائتي ألف من سبعمائة ألف، أو مائتي ألف من مليون، وكان الرقيق في رومة واحداً من ستة، إما أسير حرب بيع بيعاً كما جرى في آسية بعد حرب أنطيوخوس الثالث، وفي غالية بعد حروب قيصر، وفي البونط بعد حروب متراداتس، وفي اليهودية بعد حروب طيطس، وإما خطفاً بالقرصنة، وإما بتعريض الأولاد وإهمالهم، وإما ببيعهم بيعاً، وإما بالمعاقبة لجرم كبير، وإما بالتوالد، وكانوا أجناساً متنوعة، ولكن معظمهم جاء من شرق المتوسط، ومعظم هؤلاء من سوق جزيرة ذلوس، وكان بينهم الآسيوي والسوري واليهودي والمصري واليوناني، وتفاوتوا في التمدن والثقافة، فالرقيق الشرقي كان في غالب الأحيان أرقى من سيده، أما الرقيق الشمالي والغربي، فإنه تميز بقوته الجسدية وخشونته، فقام بالحرثة والزراعة والرعاية وما شاكل ذلك، وكان إما ألمانياً، أو غالياً، أو داقياً، أو موسياً بلقانياً، وتفاوت سعر الرقيق بتفاوت درجة رقيه، وتغيير ظروف العرض والطلب، وليس من السهل تقدير الأسعار التي دونها «بلاوتس Plautus»، كما أنه يصعب التثبت من صحة ما جاء في الأدب اللاتيني، فإن «كولوميلة Colomella» يعتبر ثمانية آلاف سستركة سعراً عدلاً لرقيق يجيد تقليم الكرمة، وهوارتيوس يجعل سعر الرقيق المثقف مائة ألف سستركة.

ولم يتجاوز عدد الأرقاء في البيت العادي الاثنين، أو الثلاثة، ولكنهم تكاثروا في بيوت الأغنياء، فقام كل منهم بعمل خصوصي، بما في ذلك التطبيب والتمريض، والأغنياء الأغنياء تباهاوا بعدد الأرقاء، الذين واكبهم في خروجهم إلى المدينة وعودتهم إلى قصورهم، وعاون

الرقيق سيده في عمله في تجارته، أو صناعته، أو حرفته، وبعضهم تولى إدارة المصانع والمتاجر، ودخل بعضهم في خدمة الحكومة، فشغلوا المراكز المدنية العادية، ومع أن كاتو كان يقول: إن تشغيل الرقيق في الحقول حتى الموت، وابتياح من يحل محله أرخص من العطف عليه، فإن أصحاب المزارع الكبيرة اكتشفوا لأنفسهم مع مرور الزمن أن نتاج هذا النوع من العمل لم يكن مشجعاً، وأن العناية بالرقيق إلى حد الحرية كان أفيد وأنفع. وأقبل الرومانيون على الأدب الهليني، وقال كثيرون من رجال الفكر، بينهم بالرواقية فساوى «سينيكا Seneca» مثلاً في رسالته السابعة والأربعين بين جميع البشر، وقال الفقهاء: «الأصل التحرر لا العبودية»، فبدأ الناس يرقون للرقيق ويشفقون ويرحمون، وفي رسائل بلينسيوس الأولى والثانية والثامنة ما يدل دلالة واضحة على هذا الاتجاه الجديد، وفي النقوش الباقية ما يؤيد القول بطمأنينة الأرقاء وراحتهم.¹²

(٧) الولايات

أطلق اللفظ اللاتينية provincia أولاً على كل رقعة مارس فيها أي حاكم روماني «السلطة imperium» التي تلقاها من السناطوس، وقد تكون في إيطالية أو خارجها، وقد تُطلق على رقعة من الأرض قبل دخولها في حوزة رومة إذا كان النظر في أمورها مفوضاً إلى أحد كبار الموظفين أو المواطنين، وأُطلق هذا اللفظ أيضاً على واجبات حكام آخرين كالقضاة، فكان هنالك provincial urbana تدل على صلاحيات القاضي في الدعاوى بين الرومانيين أنفسهم، provincial peregrina تدل على نوع الواجبات التي قام بها القاضي في الدعاوى بين الرومانيين والأجانب، ثم أُطلق اللفظ provincia على ممتلكات رومة عبر البحار، التي اختلفت عن الممتلكات الإيطالية في أن سكانها دفعوا جزية لرومة.

وتم ظهور الولايات عبر البحار بشكل تدريجي، فلم يتسن لرومة اتخاذ سياسة موحدة تجاه هذه الولايات، فصقلية دخلت في حوزة رومة منذ السنة ٢٤١ ق.م.، ثم سردينية وكورسيكا في السنة ٢٣١، ثم إسبانية الدنيا والقصوى في السنة ١٩٧، فمقدونية في السنة ١٤٨، فأخية وأفريقية في السنة ١٤٦، فأسية في السنة ١٣٣، فجنوب غالية في السنة ١٢٠، ففيليقية في السنة ١٠٢، فبيثينية وقبرونة في السنة ٧٤، فسورية في السنة ٦٤، فمصر في السنة ٣١، فاليرية في السنة ٢٧، ثم نظم أوغسطس أمور الحد الشمالي بين الدانوب والرين، فظهرت ولايات الدانوب «راتية Raetia» و«نوريكا Noricum»، و«بانونية Pannonia» و«موسية Moesia»، وأهم ما أضيف من الولايات

بعد أوغسطس بريطانية في عهد كلوديوس، وداقية في عهد تريانوس، وقبذوقية في السنة ١٧ ب.م.، وموريتانية في السنة ٤٠ ب.م.، وتراقية في السنة ٤٦.

وكان السناتوس — في بادئ الأمر — يوكل تنظيم الولاية المستجدة إلى قائد ولجنة سناتوسية تعد «قانوناً للولاية Lex Provinciae»، فتبين فيه أسس الإدارة والقضاء وكيفية جباية الضرائب، وأشهر هذه القوانين «قانون روبيليوس Lex Rupilia» لتنظيم شئون صقلية، و«قانون بومبايوس Lex Pompeia» لإدارة بيتينية، وأطلق السناتوس يد الحاكم في اشتراح ما يراه ضرورياً لضبط إدارته، فكان بعضهم يصدر قوانين خصوصية تحدد موقعه من بعض المشاكل المالية والقضائية، وكان خلفه حرّاً في تطبيق هذه القوانين أو إبطالها أو تعديلها، ومما يُذكر من هذا القبيل إقدام شيشرون على منح مدن قيليقية مقداراً من الاستقلال في أمورهم لم يعتادوه من قبل.

واكتفى السناتوس في بدء التوسع بانتخاب حاكم واحدة للولاية، ثم أُرْدِفَ الحاكم الواحد لصقلية بـ «قاض مفوض praetor» في السنة ٢٢٧ ق.م. يعاونه في الحكم، وأجرى مثل هذا في سردينية وإسبانية، ثم فرق السناتوس بين الولايات القنصلية والولايات والبريتورية.

وأيقن أوغسطس منذ أن أصبح رجل رومة الفرد في مطلع السنة ٢٧ ق.م.، أن لا بد من الاحتفاظ بجيش يسانده عند الحاجة، فجعل من نفسه قائد القوات اللازمة للمحافظة على ولاء بعض البلدان النائية كإسبانية في أقصى الغرب، وسورية في أقصى الشرق، وغالية في الشمال الغربي، فكان القائد والوالي في هذه البلدان في آن واحد، وأمسى من الناحية القانونية مواطناً مفوضاً يقود قوات مسلحة في ظروف تستوجب المحافظة على كرامة رومة ومصالحها، وغدت هذه البلدان الثلاثة الرقعة، التي مارس فيها أوغسطس سلطته العسكرية والإدارية provincia، ولم يكن في هذا التدبير أي خروج على التقليد الجمهوري، ولكنه وضع تحت تصرف المواطن الأول قوة تفوق كل قوة أخرى، وتمكنه من سحق كل طامع في السلطة العليا، وكان أوغسطس — بالإضافة إلى ما تقدم — سيد مصر المطاع المطلق الصلاحية، يعين واليها، ويتصرف بأموالها كما يشاء، ومع أنه لا يجوز القول أن مصر كانت قسماً من «ممتلكاته الخاصة patrimonium Caesaris»، فإن أوغسطس حرّم على جميع الشيوخ و«كبار الفرسان equites illustres» أن يطلّوا أرضها بدون موافقته، وفي السنة ١١ ق.م. أضاف أوغسطس البيرة إلى الولايات التي في عهده، ولم تنتقل أفريقية إلى عهدة المواطن الأول الإمبراطور قبل السنة ٤٠ ب.م.

وهكذا، فإنه نشأ في عهد أوغسطس فرق ظاهر بين نوعين من الولايات: ولايات سناتوسية عمومية، ولايات إمبراطورية خصوصية، فحكم الولايات السناتوسية قناصل أو قضاة سابقون لمدة سنة واحدة، حاملين لقب بروقنصل، وتولى شئون الولايات الإمبراطورية مفوضون «أوغوستسيون قضاة سابقون legati Augusti propraetore» من رجال السناتوس، أو موظفون من الفرسان انتقاهم الإمبراطور نفسه لمدة غير محددة، وكان يعاون البروقنصل في الولايات السناتوسية «موظف مالي quaestor» و«مفوض legatus»، وكان البروقنصل يحتفظ بالسلطتين المدنية والعسكرية، وعاون مفوض الإمبراطور في الولايات الإمبراطورية «محصل مالي procurator» من طبقة الفرسان يعينه الإمبراطور نفسه، وقد يكون البروكوراتور حاكم ولاية إمبراطورية صغيرة في ظل «مفوض legatus» إمبراطوري كبير في ولاية مجاورة، كما جرى لفلسطين في عهد أوغسطس، فإن حاكمها كان procurator تابعاً لمفوض ولاية سورية المجاورة.

وأهم الولايات السناتوسية ولاية آسية، التي امتدت من بيثينية شمالاً حتى ليقية وغلاطية شرقاً، وشملت شاطئ آسية الصغرى الغربى والجزر القريية، وكانت برغامة مقر واليها، وافسس أعظم مدنها، ومن ولايات السناتوس في الشرق، ولاية بيثينية في شمال آسية الصغرى، وولاية قبرص قبل إلحاقها بقيليقية، وولاية كريت وقيرينة، وولاية أخية ومعظم بلاد اليونان، وولاية مقدونية وعاصمتها تسالونيكية، وولاية صقلية، وولاية أفريقية تونس الحديثة وعاصمتها قرطاجة، وولاية «نربو Narbo» في غالية، وولاية «بايتيكة Baetica» في إسبانية.

أما الولايات التي ربطها أوغسطس بنفسه، واحتفظ بتدبير شئونها، فإنها كانت أنواعاً أربعة: أولها مصر، وكان نظامها خصوصياً، يختلف عن أنظمة سائر الولايات، وثانيها الولايات القنصلية، منها ألمانية العليا وألمانيا السفلى و«تراكو Tarraco»، وهي طرغونة الحديثة في كتلونية إسبانية، ولايات دلماتية وموسية وبانونية وسورية وعاصمتها أنطاكية، والبريتورية وهي ولايات لوسيتانية الإسبانية و«اكويتانية Aquitania» الغالية، و«لوغدونة Lugdunum» وهي ليون الحديثة وغلاطية وبمفيلية، والبروكوراتورية وهي ولايات «الألب البحرية Alpes Maritimae» و«نوريكة Noricum»، و«راتية Raetia» وسردينية وكورسيكة و«اليهودية Judaea».

واكتمل الفتح في عهد أوغسطس، ووصلت الدولة الرومانية إلى حدود طبيعية إلى الفرات في آسية والدانوب والراين في أوروبا وأطراف البادية قبل الصحراء في أفريقية، فتمكن أوغسطس من انتهاج سياسة موحدة في جميع هذه الأطراف، وكان السناتوس

قد اكتفى في عهد الجمهورية بتوزيع المنح المالية على حكام الولايات، ولم يعين لهم رواتب محددة، وكان على هؤلاء أن يقوموا بنفقات من عاونهم في أعمالهم، ولم يكن منح المنح منتظمًا، فنجم عن ذلك غصب وبلص وابتزاز وتذمر واشمئزاز، فرتب المواطن الأول الرواتب للحكام وأعاونهم، وكان الولاة أغرارًا عديمي الخبرة، فأمسوا من ذوي الخبرة بما فرضه المواطن الأول من شروط لا بد من توفرها، ومرور زمن لا بد من انتظاره في «سباق الشرف *cursus honorum*» لأجل الوظائف، وأمسى معاونو الوالي من ذوي الخبرة أيضًا، فاستعاض بهم وبخبرتهم عما كان يتلقاه من «العشارين *publicani*» المغرضين، الذين كان يستعين بهم سلفاؤه في تقرير الخطط والسياسات المحلية، وتميزت الولايات الإمبراطورية في عهد أوغسطس بوجود «محصلين *procuratores*» يعينهم المواطن الأول، فيجوبون الولايات الإمبراطورية، مستقلين كل الاستقلال عن ولايتها، وكانوا يرفعون تقاريرهم مباشرة إلى أوغسطس، فيحيطونه علمًا بالأحوال المالية والسياسية أيضًا، فيعينونه على ضبط أعمال الولاة وسلوكهم وعلى توبيخهم وزجرهم، وكان أوغسطس إذا قضت الظروف، يستعين بـ «سلطته العظمى القانونية *imperium maius*»، فيدفع بهؤلاء المحصلين إلى الولايات السناتوسية.

ومما ساعد على ضبط سلوك الولاة في الولايات محاكمتهم أمام محكمة السناتوس العليا، وتعرضهم لدفع الغرامات الثقيلة، ومصادرة أملاكهم ونفيهم، أو طردهم من السناتوس، والسماح لممثلي الولايات بالإدلاء بشهاداتهم أمام هذه المحكمة، وكان لتحسين المواصلات وتسهيل نقل البريد *cursus publicus* أثرها الملموس في متابعة سير الأمور في الولايات، وأنشأ أوغسطس في الولايات «مجالس محلية *Concilium Provinciae*»؛ لتثبيت عرى المودة والولاء لرومة بتشجيع عبادة القيصر، وبحث القوانين المحلية والاحتجاج عليها عند اللزوم.¹³

(٨) الولايات والمدن

وقسم الرومان الولاية إلى مقاطعات، وربطوا كلاً من هذه بأعظم مدينة فيها، فأنشأوا صقلية ٦٨ مقاطعة مدنية، وفي الغاليات الثلاث ٦٤، وفي آسية ٤٤، وفي «البونط الأوري *Ora Pontica*» ١١، وفي «البونط البوليمي *Pontus Polemoniacus*» ٦، وفي ليقية ٢٣، وفي سورية ١٧، وفي قبرينة ٥، وكان الرومان يعودون، فيقسمون الولايات إلى «مجموعات *conventi*» من المدن للقضاء وتوزيع العدل، فيجلس القاضي في أهمها، وينظر في الدعاوى

التي تُرْفَعُ إليه، أما المقاطعات الجبلية والصحراوية، فإنها كانت تُترك في أيدي أمرائها المحليين.

وحيث اضطر الرومان إلى الاستيلاء على المدن بقوة السلاح كانوا يدمرون المدن الممتنعة، ويصادرون أملاكها، ويجعلونها من أملاك الدولة، فيلزمونها إلى من يستثمرها تلزيماً، والمدن التي كانت تستسلم بدون مقاومة شديدة كانت تصبح ملك الدولة الرومانية بكل ما فيها من مال ومنازل ورجال ونساء وأولاد، فلا تلبث كثيراً حتى تعود في غالب الأحيان إلى سابق حريتها وحقوقها، فتدفع إما جزءاً معيناً من «الحاصلات vectigal»، وإما ضريبة معينة محددة stipendium، وكان بعضها يدفع بالإضافة إلى ما تقدم دخولية، تستوفي عند أبواب المدينة portorium، وكانت معظم مدن الولايات من هذه الفئة، فدعيت civitates vectigales، أو civitates stipendiariae، أما المدن الممتازة التي حالفت رومة قبل الفتح، أو أيدتها بشتى الوسائل فإنها كانت قليلة، ومن هذه بيروت، فإنها ثارت على كليوبتر وأنتونيوس في أخرج الأوقات وأيدت أوكتافيانوس، فاستحقت نظاماً ممتازاً، فاستسعت رقعة سلطتها حتى شملت بعلبك وما بينهما، وتولى أمورها مركوس أغريية، صهر أوكتافيانوس، وكان هذا مولعاً بالأبنية، فشملها بالنعم وجعلها من المدن الأولية، واستدعى إليها فرقتين من الجيش استقرتا فيها، الفرقة الخامسة المعروفة بـ «المقدونية Legio Macedonica»، والفرقة الثامنة المنسوبة إلى «أوغسطس Legio Augusta»، ثم منحها أوغسطس امتيازات المستعمرات الرومانية، وسماها باسم بنته يولية، فأصبحت Colonia Julia Augusta Felix Berytus،¹⁴ والمدن المستعمرات الرومانية كانت أسمى رتبةً من غيرها، وأكبر حظاً.

(٩) الجنسية الرومانية

واكتسب الروماني «الجنسية الرومانية civitas Romana»، إما بالولادة، وإما بموافقة الشعب، وتمتع بـ «حقوق iura»، و«امتيازات commercium»، وقام بـ «واجبات Munera»، وكان بين الحقوق «حق التعاقد Commercium»، وحق الزواج من الأجنبية، دون أن يفقد الأولاد حق البنوة الرومانية و«حق الميراث canobium». وكان من هذه الحقوق أيضاً «حق التصويت suffragium» في المجالس.

وقد مرَّ بنا كيف قضت ظروف التوسع في إيطاليا وغيرها بمنح شيء من حقوق المواطن الروماني إلى «اللاتينيين Latini» بالقانون ius Latini، ثم كيف أصبح الحلفاء

في إيطاليا «مواطنین بدون حق التصويت civitas sine suffragio»، فنجم عن هذا كله، دخول الرومانين الجدد في نطاق «القوانين iura»، و«الواجبات munera»، و«الامتيازات honores»، وتنازلهم عن سيادة مدينتهم إلى رومة ... ونجم أيضاً عن تكاثر هؤلاء تطور في مفهوم الدولة، فغدت رومة وطناً لجميع الإيطاليين communis patria، لا دولة مدينية كما كانت قبلاً، وجاءت الثورة، وجاء معها حكم الثلاثة، فكثرت عدد المستعمرات والمدن الحرة عبر البحار، وبدأ أبناء الولايات يكتسبون حقوق المواطن الروماني، أو حقوق الحليف اللاتيني، واستمر هذا الأمر في عهد المواطن الأول، فمُنحت حقوق الجنسية الرومانية إلى المحاربين القدماء الذين من الولايات، ولا سيما الغربية منها، كما مُنحت إلى بعض الوجوه والأعيان، الذين اشتهروا بولائهم لرومة وخدماتهم لها.¹⁵

هوامش

(1) DIO CASS., 53:21, 33, 55:10; SUET., *Aug.* 24; FRONT., *de Aq.* 100, 104, 106, 125, 127; HOMO, L., *Inst. Pol. Rom.*, 270–273; JONES, H., *Senatus, Cam. Anc. Hist.*, X, 159–175.

(2) DIO CASS., 52, 54, 55; SUET., *Aug.* 35; HOMO, L., *Haut-Emp.*, 60–61.

(3) DIO CASS., 53, 54; TACIT., *Ann.*, I, II, VI; SUET., *Aug.*, 37; HOMO, L., *Haut-Empire* 64–67; JONES, H., *Constit. of Senate, Cam. Anc. Hist.*, X, 161–163.

(4) ANDERSON, J., *Journ. Rom. Stud.*, 1927, 43–49.

(5) TACITUS, *Ann.*, I, 2; ABELE, TH., *Der Senat unter Augustus*, (1907); HAMMOUD, M., *The Augustan Principate*, (1933); VOLKMANN, H., *Zur Rechtprechung im Prinzipal des Augustus*, (1935).

(6) TACIT., *Ann.*, I, 14, 81; DIO CASS., 55:33; SENECA, *De Clementia*, 1:10; MARSH, F., *The Founding of the Rom. Empire*, 250 f.

(7) KUBLER, *Equester Ordo, Real-Encyc.*; MATTINGLY, H., *Equester Ordo, Ox. Class.Dict*; KEYES, C.W., *The Rise of the Equites*, (1915); STEIN, A., *Der Rom. Ritterstand*, (1927).

(8) ARNOLD, W.T., *Domestic Policy of Augustus*, (1906); HOMO, L., *Problèmes Sociaux*, (1922); FRANK, T., *Aspects of Social Behaviour in Anc.*

Rome, (1932); MAXEY, M., *Occupations of Lower Classes in Rom. Society*, (1938).

(9) KORNEMANN, E., *Colonia, Real-Encyc.*; RUDOLPH, H., *Stadt und Staat im Romischen Italien*, (1939); SHERWIN-WHITE, A.N., *The Roman Citizenship*, (1939); ABBOTH AND JOHNSON, *Municipal Adm. In Rom. Emp.*, (1926); TANZER, H., *Common People of Pompeii*, (1959).

(10) GAIUS, I, 18–20, 31, 38, 44, 46; DUFF, A.M., *Freedmen in the Early Roman Empire*, (1928); LAST, H., *Social Policy of Augustus, Cam. Anc. Hist.*, X, 432–434.

(11) WEISS, E., *Manumissio, Real-Encyc.*; FRANK, T., *The Sacred Treasure and the Rate of Manumission, Amer. Journ. Philol.*, 1937; *Race Mixture at Rome, Amer. Hist. Rev.*, 1925–1926; HAMMOND, M., *The Aug. Principate in Theory and Practice*, (1933).

(12) BECKER and GOLL., *Gallus*, II, (1881), 115–186; MARQUARDT, J., *Das Privatleben der Römer*, ch. IV; BOISSIER, G., *La Religion romaine*, (1884), II, ch. IV; FOWLER, W.W., *Social Life at Rome in the Age of Cicero*, (1910), 204–236; BARROW, R.H., *Slaver in the Roman Empire*, (1928).

(13) MARQUARDT, J., *Rom. Staatsverw.*, I-II, (1881); MOMMSEN, Th., *The Provinces of the Roman Empire*, (1909); GREENIDGE, A.H.J., *Roman Public Life*; ABBOTT and JOHNSON, *Municipal Adm. in Rom. Empire*, (1926); CHAPOT, V, *Le Monde Romain*, (1927); STEVENSON, G.H., *Roman Provincial Administration*, (1939).

(14) PLINIUS, *Hist. Nat.*, V, 17; CIL, 161 f.

(15) VOGT, J., *Ciceros Glaube an Rom*, (1935); SHERWIN-WHITE, A.N., *The Roman Citizenship*, (1939); LAMBRECHT, P., *La Composition du Sénat Romain*, (1935); ANDERSON, J.G.C., *The Cyrenean Edicts, Journ. Rom. Stud.*, 1927.

الفصل السادس

المواطن الأول والجيش والأسطول

ويعصب التثبّت من صحة ما يروى من أخبار الجيش الروماني في أوائل عهد الملكية، فما تبقى من أخباره دُونَ في الأزمنة المتأخرة وتلَوْن بآراء المتخلفين، ولكن لا غضاضة في القول: أن خدمة العلم كانت آنثُذ من أقدس واجبات المواطن الروماني، وأن نفقات التسلح أبعدت الفقراء عن الجيش، وكادت تحصر الخدمة في طبقة الأغنياء، فجاء «سرفيوس توليوس Servius Tullius» الملك السادس وتلافى هذا النقص، فقسم الشعب إلى فئات على أساس المقدرة على التسلح، فجعل الأغنياء فرساناً والفقراء مشاة، ثم تطورت ظروف الدفاع والتوسع، فقصّت بخدمة عسكرية طويلة دامت ست عشرة سنة، فاضطرت الدولة في حوالي السنة ٤٠٠ ق.م. أن تتحمل هي نفقات التسلح.

ولم ينضو في خدمة العلم في أثناء الحروب القرطاجية سوى مواطنين معينين، يملكون قدرًا معينًا من الأراضي، وينتظمون فرقًا تحت إمرة قناصل أو ترابنة عسكريين، وكان على «الحلفاء الإيطاليين Socii Italici» أن يقدموا أعدادًا تساوي ما قدمته رومة، وعرف هؤلاء بـ «الألاي alae»، وخضعوا لإمرة «نظار praefecti» نصفهم من الموظفين الرومانيين، وكان يهرع إلى خدمة العلم في الملمات جميع الرومانيين على اختلاف طبقاتهم وصنوفهم، حتى الأرقاء، وجاءت ظروف ماريوس وإصلاحاته، ففتحت أبواب التطوع أمام جميع المواطنين، وتحررت إيطالية، فدخل الإيطاليون في صفوف الفرق الرومانية، وألغيت فرقهم الخصوصية، وأصبح الجيش الروماني مؤلفًا من فرق المواطنين ومن «المساعدين auxilia» من خارج إيطالية، وكان ما كان من أمر الثورة في القرن الأول قبل الميلاد، فطالت مدة القيادة حتى بلغت عشر سنوات، وتحولّ الجيش إلى جيوش تأتمر بإمرة قائد واحد دون سواه، وتقسم له يمين الولاء.

(١) توحيد القيادة

وأبعد أوغسطس الشيوخ عن الجيش، ولم يسمح لهم بالانتماء إليه، وكان الشعب ينتقي أربعة وعشرين ضابطاً كبيراً *tribune militum a populo*، فألغى أوغسطس هذا العرف أيضاً، وكانت القيادة العليا في عهد الجمهورية تعقد للقنصلين الحاكمين، فألغى أوغسطس هذا التدبير أيضاً، وحصر القيادة في شخص المواطن الأول، وعيّن لكل فرقة قائداً *legatus legionis*، وجعله مسئولاً عن جميع أعماله له وحده.

(٢) دوام الخدمة

وقضى دوام سلطة أوغسطس البروقنصلية بدوام الجيش الذي انضوى تحت لوائه، وكانت الفرق قبل عهده تنظم لظروف خصوصية تنشأ بين آونة وأخرى، وكانت الفرق تسرح لدى قيامها بالمهام الموكولة إليها، ولكن عندما بدأ الجيش يحارب في مناطق بعيدة عن العاصمة، ويناضل ضد جيوش آسيوية منظمة دائمة، استمرت الفرق في الخدمة مدات أطول بكثير من ذي قبل، وقضى اتساع رقعة الإمبراطورية وتعدد الأعداء وتنوعهم بإبقاء حرس دائم في معسكرات دائمة، فوافقت هذه الظروف كلها رغبة أوغسطس في دوام سلطته، وأدت إلى تنظيم جيش دائم لأول مرة في تاريخ رومة.

(٣) الفرق الرومانية الدائمة

وبدأ أوغسطس إصلاحه العسكري بتسريح العناصر المتمردة المتتمدة، التي كانت قد خاضت معارك الثورة، وشعرت بأهميتها، فنبذت الأوامر وراء ظهرها، فأجزل أوغسطس لهؤلاء العطاء من غنائم الفتح والنصر، وأقطعهم الأراضي، وسرح منهم حوالي ثلاثمائة ألف مقاتل، ثم أنشأ ابتداءً من السنة ١٥ ق.م. خمسا وعشرين «فرقة *legio*» رومانية أو أكثر قليلاً، وعُرفت بأرقام متسلسلة وأسماء معينة، ووزعت على الإمبراطورية كـ «الخامسة المقدونية *V Macedonia*»، و«الثامنة الأوغوسطية *VIII Augusta*»، اللتين استقرتا في بيروت،^١ وتألّفت كل «فرقة *legio*» من ٦١٠٠ ماشٍ و٧٢٦ فارساً، وقسمت إلى عشرة «أفواج *cohortes*»، والفوج إلى «سرايا *centuriones*»، وكان الفوج في الفرقة الأولى مؤلفاً من ألف *milliaria* ماش، وأما في التسع الباقية فمن خمسمائة *quingenariae*، ما عدا الفوج الأول حامي العلم وصورة الإمبراطور، في كل منها، فإنه تألف من ألف كما في الفرقة الأولى.

وأوجب أوغسطس تأليف هذه الفرق كلها من مواطنين رومانيين، يتطوعون لخدمة العلم والإمبراطور لمدة محددة تتراوح بين عشر سنوات وعشرين سنة، وجعل أجرهم اليومي ديناراً رومانياً واحداً، دفعه من الخزينة البروقنصلية لا العامة، ومَنَحهم عند تسريحهم ثلاثة آلاف دينار، وأقامهم مزارعين في إحدى المستعمرات، ولم يشجعهم على الزواج في أثناء الخدمة؛ ليسهل عليهم الانتقال عند الحاجة، وأسند أوغسطس قيادة الفرقة إلى حاكم أو «قاضٍ practor»، تولى الحكم والقضاء سنة واحدة على الأقل، وعُرف باللقب legatus legionis، وجاء بعده قادة الأفواج فعُرفوا باللقب tribune militum، فقيادة «السرايا centuriones»، وكان هؤلاء في غالب الأحيان قد تدرجوا في الخدمة، وعرفوا الجنود والحياة العسكرية، فأمسوا خبراء لا بد من الرجوع إليهم في الملومات والاستماع لآرائهم ومشورتهم، ولا نعلم بالضبط مقدار المعاشات التي تقاضاها الضباط، ولعل قائد المائة تقاضى ضعف ما تقاضاه الجندي، وقائد الألف ضعف الضعف.²

(٤) فرقة الحرس

واعتبر أوغسطس نفسه قائد القوات الأعلى، فكان لا بد له من مقر عسكري عام عُرف بالـ practorium، ومن حرس لشخصه، أُطلق عليه الاسم cohors practoria فوج المقر العام، وتألّف هذا الحرس من مواطنين رومانيين من لاتيوم واطرورية وأومبرية والمستعمرات في قلب إيطاليا، وجُعِلوا تسعة أفواج، ثلاثة في رومة وستة في سائر أنحاء إيطاليا، وبلغت جُعالتهم ضعف جماكية العساكر العاديين، ومُنحوا عند تسريحهم خمسة آلاف دينار، وتولى قيادتهم ترابنة عينهم أوغسطس نفسه.³

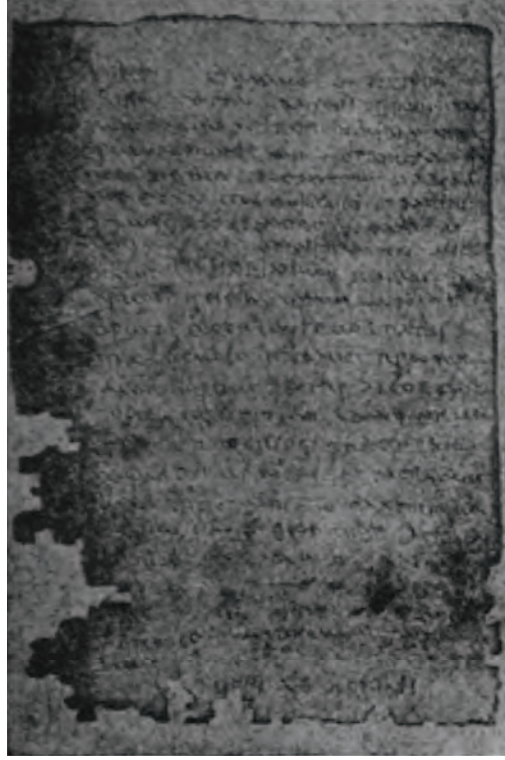
وأضاف أوغسطس إلى هؤلاء فوجاً من الجنود المجريين، الذين انتقاهم من أفواج الجيش وفرقه، وأحاط نفسه أيضاً بفوج من المشاة الألمان، وكوكبة من الفرسان «البتافيين Batavi».

وأنشأ أيضاً حامية لموقع رومة، تألفت من أربعة أفواج من الإيطاليين، وجعل كل فوج من هؤلاء ألفاً وخمسمائة جندي، ولم يشيد لهم ثكنة معينة، أو حصناً يهيمن على المدينة العاصمة، بل أسكنهم في بيوت عادية أو في بعض الأبنية العمومية، وكان لرومة بالإضافة إلى ما تقدم سبعمائة شرطي، عُرفوا بـ «الحراس vigiles».⁴

(٥) القوى المساعدة

وكما قضى توسع رومة في إيطالية بالاستعانة بالحلفاء وإدخال رجالهم في الجيش، كذلك قضى توسع رومة في خارج إيطالية بالاستعانة بسكان الولايات لتدعيم الجيش عند الحاجة، وازداد عدد هؤلاء «الجنود المساعدين auxilia» في أثناء الحرب الأهلية، فلما استتب الأمر لأوغسطس نظمهم مشاةً وفرساناً، واستقدم معظمهم من إسبانية وغالية، ثم من سائر الولايات، ورأى بادئ ذي بدء، أن يبقِيهم قريبين من أوطانهم؛ ليستفيد من معرفتهم لمحيطهم وخبرتهم في فنون القتال المحلية، وأقامهم إما «أفواجًا cohortes» من المشاة، وإما «أجنحة alae» من الخيالة، وقبلوا أجوراً أقل مما تناوله الجنود الرومانيون، فازداد عددهم حتى ساوى عدد هؤلاء.⁵

إن هذا لشاب مصري، دخل الجيش الروماني بعد عصر أوغسطس، في أوائل القرن الثاني، مع رهط من أترابه وأبناء قريته، وودَّع أسرته، وسافر من الإسكندرية إلى إيطالية في إحدى سفن الحكومة الكبرى، وبعد معاناة الأهوال في البحر وصل بسلام إلى «ميسينوم Misenum» الميناء الحربي بالقرب من نابولي، وأسرع في النزول إلى البر؛ لكي يتصور ويرسل إلى والده كتاباً مع الصورة، وكان الرقيم مكتوباً على ورق البردي باللغة اليونانية بخط جميل، والذي كتبه كاتب عمومي بالأجرة، وهذا نص الرقيم: «من أبيون إلى أباخوس والده وسيده، أولاً: أرجو أن تكون بصحة جيدة، وأن تكون أحوالكم جميعاً أنت والشقيقة وابنتها وأخي حسنة دائماً، أشكر الرب سيرايبس؛ لأنه أنقذني من خطر البحر، وحين وصلت إلى ميسينوم وصلني من الإمبراطور ثلاث قطع نقود ذهبية لنفقات السفر، وأنا مبسوط جداً، فأرجو منك يا سيدي الوالد أن تكتب إليّ سطرًا، وأول كل شيء طمئني عن حالك، وثانيًا: طمئني عن حال أخي وشقيتي، وثالثًا: أقبل يديك بالاحترام؛ لأنك ربيتني تربية حسنة، ولي الرجاء بأنني سأترقى سريعاً إذا شاءت الآلهة ... سلّم على كيتون وأخي وأختي وُسرنلاً وأصحابي، سأرسل إليك صورتَي الصغيرة، اسمي أنطونيوس مكسيموس، أرجو أن تكون أحوالكم طيبة». وعلى الهامش الأيسر حيث يرى سطران عموديان، أرسل سلام وتحيات رفقاءه أولاد الضيعة، الذين انتظموا معه في الجيش، ثم طوى هذا الرقيم وخُتم، وأُرسل مع البريد الروماني العسكري، ووصل سالمًا، وقرأه والد الجندي وأسرته، وبعد أن توفي الأب — بعد سنتين — فقد الرقيم بين قمامة البيت، ووجده الأثريون المنقبون بين أنقاض جدران المنزل المتهدم، ووجد مع هذا الرقيم



رسالة الجندي ابيون المصري.

رقيم آخر مرسل من الشاب إلى شقيقته بعد ذلك بسنين، بعد أن كان قد عين مركزه على بعض الحدود الرومانية، وصار له زوجة وأولاد.

(٦) الأسطول

والغريب أن رومة كانت لا تزال، حتى عهد أوغسطس، تتغافل عن الأسطول وتتناساه، فلا تُعنى به إلا عند ظهور الخطر من البحر، فإذا ما زال الخطر زال الأسطول الذي أُعد لتلافيه، وجاء أوغسطس يُؤمّن الدولة فرأى — على حد تعبير تكيثوس — أن أمور الجيوش والولايات والأساطيل «متشابكة متواصلة *cuncter inter se connexa*»،⁶ ولا

غرو فبطولة بومبايوس في البحر كانت لا تزال سارية على الأفواه، وجراًة سكستوس وحصاره البحري، وما نجم عنه من جوع وضيق في رومة نفسها كانت لا تزال في متداول الرواة وتناقل الركبان، وعلى الرغم من أن رومة كانت قد سيطرت على جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وأنها كانت قد قضت على الأسطول الوحيد الباقي فيه أسطول البطالسة، فإن إمكانيات القرصنة كانت لا تزال كامنة في الصدور على أهبة التنفيذ في الظروف المؤاتية.

فأنشأ أوغسطس أسطولاً لتأمين البحر الأعلى، وجعل قاعدته في «راينية Rayenna»، وأعد مثله لتأمين البحر الأدنى في مياه نابولي عند «ميسينوم Misenum»⁷ وأنزل إلى البحر في الغرب أسطولاً ثالثاً في مياه «فرايوس Frejus» في ساحل غالية الجنوبي، وخصّ شرقي المتوسط بأسطولين، أحدهما في مياه فينيقية، والآخر في مياه مصر، وأمن الرين والدانوب بسفن نهريّة حربيّة، ولا نجد في المراجع الأولية ذكرًا لأي إجراء مماثل يتعلق بالفرات. وشحن أوغسطس السفن بالأرقاء والعتقاء «جنودًا classiarii» و«بحارة classici»، وانتقاهم من سكان السواحل الذين عرفوا البحر واخشوشنوا فيه،⁸ فأمست الخدمة البحرية أحط قدرًا من خدمة البر،⁹ وضبط أوغسطس التسلسل في السلطة، فجعل للأسطول صفوف ضباط لإمرة الجنود suboptio، و صفوف ضباط فنيين بحريين، لكل منهم عمل فني خصوصي يشرف عليه، ثم جاء «قادة السفن trierarchus»، و«قادة الإنزال إلى البر centurions classici»، وجاء فوق هؤلاء «الناظر praefectus»، ومعاونه وكبار رجال الملاحة الفنية «الربان navarchus»، وال archigybernes وغيرهما.¹⁰

(٧) الحدود والأطراف الأوروبية

ولم يكن تدويخ إسبانية سهل المنال يسيرًا، فطبيعة أرضها وخشونة سكانها جعلتا من فتحها أمرًا وعز المرتقى، صعب الممارسة، ومع أن رومة بدأت أعمال الفتح في إسبانية في القرن الثالث قبل الميلاد، فإنها عالجتها فيه شدة وعانت مشقة، ولم يتم لها ذلك تمامًا قبل عهد أوغسطس، فإنه اضطر أن يذهب بنفسه إليها، وأن يبقى فيها مدة من الزمن ٢٦-٢٥ ق.م.، ولم تخضع قبائل «الكانتبري Cantabri» قبل السنة ١٩، وتطلبت مهارة أغريقية نفسه، وفي السنة ١٥ ق.م. غدت «بايتيكة Baetica» المتحضرة في الجنوب ولاية سنانوسية لا تتطلب رقابة عسكرية شديدة، أما سائر أنحاء إسبانية، فإنها قُسمت ولايتين إمبراطوريتين «لوسيتانية Lusitania» و«تراكونة Tarraconensis»، واستوعبت

خمس فرق كاملة، ثم تعهدا أوغوسطوس بعنايته وحكمته فشق الطرقات، وهَدَّم القلاع، وأدخل الإسبانين في خدمة العلم، وأبعدهم عن بلادهم، فاستتب الأمن، وجلا الجيش، فلم يبق منه في كل إسبانية بعد السنة ٩ ب.م. أكثر من ثلاث فرق.¹¹

وَرَقَبَ أوغوسطوس حدَّه الشمالي، ولم يُغفله طَرْفَة عين، فإن بعض عشائر جبال الألب كانت لا تزال مُعرضة عن الطاعة مُنكَبَّة، فالقائد الروماني «ترنتيوس فارو Terentius Varro» اضطر في السنة ٢٥ ق.م. إلى محاربة قبائل «السلاسي Salassi» في عقر دارها في ممرات القديس برناردوس، وإلى إنشاء معسكر دائم فيها في «أوسطة Aosta» الحالية Augusta Praetoria القديمة، فرأى أوغوسطوس أن لا بد من الاستيلاء على جبال الألب لحماية حده الشمالي، فهيأ للفتح أسبابه، واستعان بآلاته، وأمر البروقنصل «سيليوس نرفة Silius Nerva» حاكم أليزية أن يستولي على جبال الألب الشرقية في السنة ١٦ ق.م.، وأن يضم مملكة «نوريكوم Noricum» التيرول، ففعل، وفي السنة ١٥ ق.م. فرض طيباريوس ودرسوس سلطة رومة على ما وقع بين جبال الألب ومجرى الدانوب الأعلى، وبعد ذلك بسنة واحدة دخلت جبال الألب الغربية في حوزة رومة، فشيد أوغوسطوس نصب النصر الذي لا يزال قائماً فوق موناكو، وانتظمت مناطق الألب مُحَصَّليات خمس، يدبر شئونها «محصلون procuratores» يعينهم أوغوسطوس، وهذه المحصليات الخمس هي: الألب البحرية الغربية، والألب الكوتية، والألب البينية، ونوريكة، وراتية.¹²

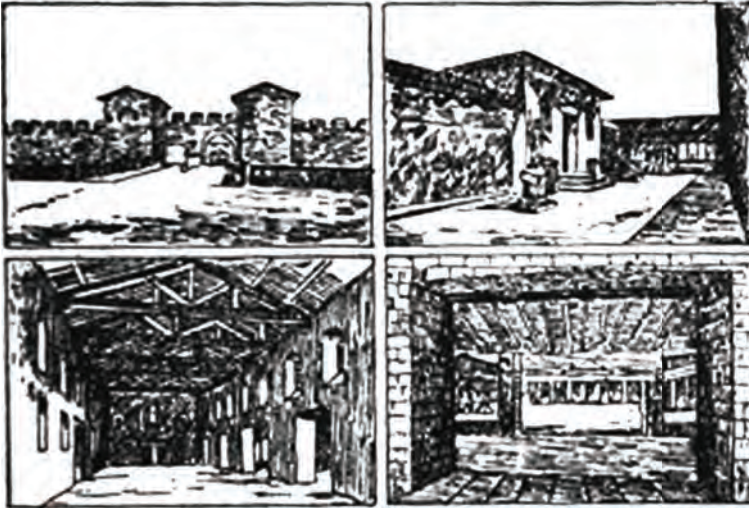


ترميم الليميس الحجري بين الرين والدانوب.

ووصلت جيوش رومة إلى الدانوب الأسفل في السنة ٢٩ ق.م.، ولكن سطوة رومة لم تترك أثراً يُذكر في صدور القبائل والعشائر الضاربة في البلقان، ففي السنة ١٢ ق.م.

ثارت تراقية، وتبعها في الوقت نفسه الدلماتيون والبنانيون، فرأى أوغسطس أن يجعل الحد الفاصل بينه وبين البرابرة خطاً قصيراً نسبياً يصل الدانوب بنهر «الألب Elbe» في ألمانيا، فأخمد نيران الثورة في تراقية، وغزا جيشه بقيادة «كورنيليوس لنتلوس Cornelius Lentulus» و«أليوس كاتوس Aelius Catos» القبائل المجاورة عبر الدانوب، ونقل كاتوس خمسين ألفاً من «الغيتيين Getae» إلى موسية، وظلت القبائل الداقية تشن غارات عبر الدانوب إلى داخل البلقان، ولكنها لم تقلق راحة المواطن الأول، ولم تستوجب حرباً على نطاق واسع في عهده، ولا نزال نلمس صدًى هذه الغارات في مخلفات الشاعر «أوفيدوس Ovidius»، الذي كان آنئذٍ منفيًا مكرهًا على الإقامة في «توميس Tomis» قسطنزة الحديثة، فقد راعه أمر هؤلاء البرابرة ووجف قلبه واضطرب.¹³

وتولى القيادة في الحرب البانونية (١٣-٩ ق.م.) «فينيكوس Vinicius» أولاً، ثم أغريية، ثم طيباريوس، وتفاقم شر هذه الحرب، فنزع أوغسطس عن ولاية اليرية صبغتها السناتوسية، وجعلها ولايتين بانونية ودلماتية وربطهما بشخصه، وفي السنة التاسعة قبل الميلاد، وبعد قتال شديد تمكن أوغسطس من فرض سلطته في حوض الدانوب الأوسط وإملاء شروط الصلح إملاءً.



يرى على اليسار في هذا الترميم باب الحصن، والصور الثلاثة الأخرى هي الثكن.

ولا نعلم الشيء الكثير عما جرى في حوض الدانوب الأعلى، أما في ألمانة الغربية، فإن دروسوس عبر الراين مرارًا على رأس خمس فرق رومانية، وغزا بها متجهًا نحو نهر الألب، ولكنه قُتل في السنة ٩ ق.م.، فأُسرع أخوه طيباريوس ليتولى القيادة محله، فوطد سلطته على ضفة الين الشرقيّة في السنتين ٨ و٧ ق.م.، وكانت غزوات دروسوس قد أجلت «الماركوماني Marcomanni» عن جنوب ألمانة، فاستقروا في بوهيمية، وامتنعوا فيها بزعامة ملكهم «ماروبودوس Maroboduus»، فكان لا بد من إخضاعهم قبل الاتجاه شطر نهر الألب، ثم حَرَكَ طيباريوس، واعتزل في رودوس، فأنفذ أوغسطسوس غيره لمتابعة القتال والتوسع في ألمانة، فلم يلقوا نجاحًا ملموسًا، وظلت الحال على هذا المنوال حتى خرج طيباريوس من عزلته، وتسلم مقاليد الأمور في السنة ٤ ب.م.، فشجذ للحرب عزمته، وتجهّز لها، وزحف على بوهيمية وماروبودوس في السنة ٦ ب.م.، وما كاد يبدأ القتال حتى اندلعت ثورة في بانونية، فصالح طيباريوس ماروبودوس، واعتبره صديقًا حليفًا، ووكل إليه أمر الدفاع عن حدود رومة عند الدانوب الأعلى، وقام هو إلى بانونية، وبعد قتال دام ثلاث سنوات تمكن من إخضاعها.¹⁴

وما كادت البشرية بإخماد الثورة في بانونية تتلج صدور الرومانيين، حتى ضاف الهم وسادهم وأسهرتهم أخبار ألمانة، فإن «فاروس Quinctilius Varus»، القائد الروماني الذي تولى شئون ألمانة بين الين والألب أساء التصرف، فأوغر صدور زعماء القبائل واستوقد غيظهم، فحكموا بالمقاومة قولًا واحدًا، ووافقوا «أرمينيوس Arminius» زعيم قبيلة «الشيروسكي Cherusci» على الحرب، وفي أواخر صيف السنة ٩ ب.م.، تظاهر بعضهم بشق عصا الطاعة، فساق فاروس الفرق السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة إلى غابة «توتوبورغ Teutoburg»، حيث كمن العصاة، فحلت به وبرجاله هزيمة شنعاء، انتهت بمجزرة مخيفة وبانتحار فاروس، ولم يتمكن أوغسطسوس من حشد ما يكفي لإعادة هذه الفرق إلى حيز الوجود، وتغاضى عن الوصول إلى نهر الألب، وجعله الحد الأقصى لسلطته في ألمانة، وظلت الأرقام ١٨-١٩ أرقامًا بدون مرقم، ونشأ عن ذلك تقليد روماني قضى بعدم إعادة تنظيم الفرق التي تفتنى في الحرب وتضيع نسرها.¹⁵

وسبق أوغسطسوس غيره إلى تعيين الحدود الشمالية، ولكنه لم يشيد «ليميس limes» كما فعل تريانوس وأدريانوس في مصب الدانوب وفي الجزر البريطانية بعده، وكان دوميتيانوس أول من أنشأ سلسلة متسلسلة من الحصون عند حدود الإمبراطورية في أوروبا، والليميس الحجري المتسلسل الذي وقى الإمبراطورية بين الين الأعلى والدانوب الأعلى من أعمال خلفاء دوميتيانوس.

(٨) مصر والنيل وأوغسطس

ودخلت مصر في حوزة أوغسطس، كما سبق وأشرنا في اليوم الأول من آب سنة ٣٠ ق.م.، فأشرف على إدارة شئونها وتنظيم فتحها القائد الأديب «غايوس كورنيليوس غالوس G. Cornilius Gallus»، وكان هذا القائد قد تولى الدفاع عن ولاية أفريقية في أثناء النزاع بين أوغسطس وبين أنطونيوس، واحتل «مرسى مطروح Praetorium»، فاستحق ثناء أوغسطس وتقديره، وكان شاعرًا له مكانته في حركة التجدد في الشعر اللاتيني، ولعله اشترك مع فيرجيليوس في إعداد «الكيريس Ciris»،¹⁶ ولكنه لم يبدع في إدارة مصر، فإن مطالبه المالية أدت إلى ثورة في الصعيد، وإلى انتفاضة قاسية شديدة في مدينة «هيروبوليس Heroopolis» في شرق الدلتا، ووفق غالوس في إخماد هذه الثورة في برهة وجيزة، فخلد عمله في نقش تاريخي أقامه في جزيرة Philae في أقصى الجنوب في الخامس عشر من نيسان سنة ٢٩ ق.م.، فاش به فيشًا وافتخر بأكثر مما فعل،¹⁷ ثم استقبل غالوس في هذه الجزيرة نفسها وفدًا حبشيًا مفاوضًا، ووقع معه معاهدة صداقة، جعلت حد الولاية المصرية عند الشلال الأول، وجعلت من الحبشة محمية رومانية، ومن «التركوتسوخينس Triakontoschoinos» بين الشلال الأول والشلال الثاني، التي كانت خاضعة في عهد مضى للبطالسة، إمارة فاصلة بين مصر والحبشة،¹⁸ وعاد غالوس إلى مصر ناصبًا صدره تكبرًا، فأقام لنفسه التماثيل ونثرها، ونقش انتصاره نقشًا على الأهرام، فاستدعاه أوغسطس إلى رومة، وادعى عليه ذنوبًا وذنوبًا، وتقوّل عليه ما لم يقل، وأوجب السناتوس محاكمته، وإبعاده ومصادرة أملاكه، فانتحر في السنة ٢٦ ق.م.¹⁹ وأنفذ أوغسطس «ناظرًا praefectus» آخر إلى مصر ليدبر أمورها، هو «ماركوس أميليوس غالوس Marcus Aemilius Gallus» صديق سترابون الجغرافي اليوناني المؤرخ وصاحب الرسائل الطبية، وأوجب أوغسطس تجريد حملة عسكرية على الجزيرة العربية للاستيلاء على شاطئها الغربي، ولا سيما زاويتها الجنوبية، تسهيلًا لأعمال التجارة وطمعًا بالمال، ولكن ما كاد غالوس الجديد يسوق جنود مصر لهذه الغاية في السنة ٢٥ ق.م.، حتى استغل الأحباش الظرف الجديد، فأغاروا على مصر العليا، وأتلفوا قواعدها، ونهبوا فيلة وأسوان والألفنتين،²⁰ وتولى نظارة مصر «بترونيوس C. Petronius»،²¹ فهرع إلى أقصى الجنوب على رأس عشرة آلاف ماش وسبعمئة فارس، فطرد الأحباش وتعقبهم في داخل حدودهم، وأنزل بها هزيمة عند «دكة Pselcis»، وتابع السير جنوبًا حتى قصر «عبريم Primis» و«نباتة Napata» عاصمة الحبشة الشمالية، فامتنتت الملكة «القنداقة»

في حصن قريب، وأفلت ابنها من العاصمة، فدمّر بترونيوس نباتة، وحرر بعض الأسرى الرومانيين، واستحوذ على تماثيل أوغسطس، وعاد إلى قصر عبريم فحصنه وشحنه بأربعمائة مقاتل، وموَّنه مئنة سنتين، وانكفأ راجعاً إلى مصر والإسكندرية، وأرسل ألف أسير حبشي إلى رومة يعلن بهم انتصاره على الحبشة، وبعد سنتين (٢٢٠ ق.م.) عادت القنடைة إلى ميدان القتال، وحاصرت قصر «عبريم Primis»، ولكن بترونيوس تمكن من فك الحصار، فرضخت القنடைة، وأرسلت وفدًا مفاوضًا، وكان أوغسطس قد قام ساموس مشتيًا (٢١-٢٠ ق.م.) فاستقبل الوفد، وأكرمه، وقبل برفع الجزية عن الأحباش مقابل سلم دائم بين الدولتين، واعتراف الحبشة بضم «الدودكاسخينس Dodekaschoinos» النوبة السفلى إلى مصر،²² وأمست النوبة السفلى منطقة حدود عسكرية تحمي مصر من الجنوب، واستقرت العلاقات بين رومة والحبشة على هذا الوجه مدة تربو على القرنين، ومن آثار هذا التفاهم نقش «بسلكيس Pselcis» في النوبة السفلى، الذي يعود إلى السنة ١٣ ق.م.²³

وظلت مصر مرمى بصر أوغسطس لأسباب بعضها عسكري وبعضها شخصي، فالفتح كان لا يزال ابن الساعة، والأحباش وقبائل الجنوب كانوا لا يزالون يطمعون في غنائم وادي النيل ودخل مصر، الذي تولى أوغسطس نفسه أمر إنفاقه، كان عظيمًا، ونتاجها الكبير في الحبوب كان ضروريًا لإسكات الجماهير في رومة، فأدى هذا كله إلى إبقاء قوة كبيرة في مصر، وازت ضعف ما أبقاه أوغسطس لمجابهة الحظر البرتي عند الفرات، فشمل جيش الاحتلال ثلاث فرق كاملة «الثالثة القيرونية III Cyrenaica»، و«الثانية والعشرين الديوتارية XXII Deiotariana»، و«الثانية عشرة الفولينية XII Fulmina» وتسعة أفواج مساعدة، وثلاث آليات من الخيالة، فكان المجموع حوالي ثلاثة وعشرين ألفًا.

ورابطت الفرقة الديوتارية الباسلة على بعد خمسة كيلومترات من مدخل الإسكندرية الشرقي من مدينة النصر «نيكوبوليس»، التي أنشأها أوغسطس، تخليدًا لانتصاره على أنطونيوس وكليوبترا، وكان رجالها من الغلط الأشداء المدربين على القتال بالطرق الرومانية، وقد دخلوا في عداد الفرق الرومانية بعد مأساة فاروس في ألمانيا، فعُرفوا بالرقم ٢٢، ويذكر سترابون أن فرقة أخرى رابطت في بابليون عند رأس الدلتا مقابل الأهرام، ولكنه لا يعين اسمها ولا رقمها،²⁴ ولعل الفرقة الثالثة القيرونية استقرت في طيبة، أو في «قُفط Coptos»، ولا نعلم بالضبط أين استقرت القوات الأخرى ولا سيما آليات الخيالة، ولكن لا بد وأن تكون «الفرما Pelusium» مفتاح البر، على حد تعبير تكيثوس، قد نالت

نصيبها من الجيش الاحتلالي،²⁵ ولا بد أيضًا وأن تكون القيادة الرومانية قد أقامت مراكز عسكرية دائمة لحماية الطريق المؤدية من الفرما إلى بابلون، ومن الفرما بطريق «سقارة Scrapeum» إلى «القلزم Clysma, Colzum» عند رأس خليج السويس، وجرى مثل هذا في الأرجح على الطرق المؤدية من الإسكندرية إلى «ممفيس Memphis» وإلى قيرينة، وكانت «اشمونين Hermoupolis Magna» مقرًا رئيسًا لجباة الكمارك على البضائع الواردة من مصر العليا، فاستحقت هي أيضًا حامية عسكرية، ومع أن إقامة الأبراج العسكرية في نقاط متوازية على ضفتي النيل بين طيبة وأسوان كانت خطة رومانية ثابتة، فإن إنشاءها في عهد أوغسطس غير ثابت، ولكن لا بد وأن تكون القلاع الرومانية قد أنشئت منذ أيام أوغسطس عند «تافا Tafa»، والباب في منطقة أسوان، وفي دكة أيضًا Pselcis.²⁶

وشرعت رومة منذ عهد أوغسطس في استثمار المناجم والمقالع المصرية بين النيل والبحر الأحمر، واتخذت من مدينة قفط مركزًا لتوزيع النتائج، وكانت القوافل التجارية القادمة من مرفأى «البندر الكبير Berenice» و«هورموس Myos Hormos» على البحر الأحمر تلتقي في قفط أيضًا، فوكل أوغسطس أمور هذه المنطقة كلها إلى ضابط عسكري كبير، حمل اللقب «ناظر برنيقية Praefectus Berenices»،²⁷ وأمر أوغسطس بتسهيل الاتصال والنقل في هذه المنطقة الصحراوية المضطربة، فحمى الناظر الطرقات والمناجم والمقالع وحفر الآبار لأبناء السبيل، وحصنها؛ كي لا يعيث بها رجال القبائل المجاورة.²⁸ وأنشأ أوغسطس أسطولاً، وجعل قاعدته الإسكندرية، فعرف بـ «الأسطول الأغوستي الإسكندري Classis Augusta Alexandrina»، وأردفه بأسطول نهري، فأمن الأول بالتعاون مع الأسطول السوري نقل الحبوب إلى رومة، وعاون الثاني في تأمين الملاحة في النيل من مصبه حتى الشلال الأول، ولعله عين «ناظرًا praefectus» خصوصاً لقيادة البحر والنهر معاً.

وآثر أوغسطس في سائر أمور مصر إبقاء القديم على قدمه، فحلّ هو محل البطالسة والفراعنة في دين مصر وطقوسها، ومثله في ذلك ناظر مصر، ومع أنه أبى أن يزور عجل مصر المقدسة في ممفيس وسيرايوم، فإنه لم يبطل عبادتها، ولم يوجب التعبد لآلهة رومة، وأبقى كذلك الإدارة على ما كانت عليه في عهد البطالسة، وحلّ هو محل كليوبترة فربط مصر برومة بشخصه، وظلت مصر مقسمة إلى مقاطعات إدارية ريفية إلى ستة وثلاثين «نوموساً nomos» والنوموس إلى توبورخيات والتوبورخية إلى قرى، ولم يدخل أوغسطس النظام المدني الروماني، وظلّ المصري العادي في القرى والمدن

محكومًا لا يشترك في الحكم، ولا يتمتع بحقوق سياسية، وظل اليونانيون المقدونيون طبقة أعلى من الطبقة المصرية يتمتعون بحقوقهم السياسية القديمة في كبريات المدن، ولا سيما الإسكندرية،²⁹ وظلت لغتهم لغة الحكومة، ولم تقوَ اللاتينية عليها إلا في المعسكرات. وعني أوغسطس بتأمين البلاد أكثر من ذي قبل، واهتم لكري الترع وتوسيع شبكتها، وسهّل المواصلات، وأمنها وشجع التجارة مع الهند عبر البحر الأحمر، فزاد عدد السفن التي مخرت عباب هذا البحر من ٢٦ في عهد كليوبترا إلى مائة في عهده، ولكن المصري العادي وجد الحكم الجديد أشد وأضبط مما كان عليه في عهد البطالسة، فقدم إلى الخزينة أكثر مما قدمه في ما مضى.³⁰

(٩) قيرينة والمدن الخمس

وتبسط اليونانيون في الهجرة، فعبروا البحر من جزيرتي كريت وتيرة إلى أفريقية، وأسسوا في منتصف القرن السابع قبل الميلاد «قيرينة Cyrene» على الشاطئ الأفريقي مقابل كريت، ثم توسعوا فأنشئوا في هذه المنطقة نفسها «أرسينوة Arsinoe» و«أبولونية Apollonia» و«برنيقية Berenice» و«طللسة Ptolemaios»، فعُرفت هذه المدن جميعها بـ «المدن الخمس Pentapolis»، وكان الداعي لهذا التوسع خصب الأرض ووفرة غلاتها ونمو «السيلفيوم silphium» في براريها، وهو من الأعشاب الطبية الغالية الثمن، ثم اشتهرت هذه المنطقة أيضًا بخيلها،³¹ وتهللت لقدم الإسكندر، وأرسلت وفدًا يرحب بوصوله إلى مصر، فحالفها الفاتح الكبير، أما بطليموس الأول، فإنه ضمها إلى مصر، وظلت ضمن محور البطالسة حتى أوصى بها ملكها بطليموس أبيون إلى رومة، فدخلت في حوزة هذه الدولة بعد وفاته في السنة ٩٦ ق.م.

ولم تَقْد لقيرينة فائدة من دخولها في حوزة الجمهورية الرومانية سوى تطهير مياهها من القرصنة، فالرومانيون أهملوا أمورها، ووجهاءها طمعوا بأراضي الملوك، فدخلت في فترة من الفوضى دامت عشرين عامًا، ثم نظر السناتوس في أمرها، فجعلها ولاية رومانية في السنة ٧٦، وربطها بجزيرة كريت في السنة ٦٧ قبل الميلاد.

وقضى برنامج أوغسطس بتأمين ولاية أفريقية، وفرض سلطته على قبائل البربر الضاربة عند حدودها الجنوبية، فرأى أن أمور هؤلاء كانت ترتبط بشئون زملائهم عند حدود قيرينة الغربية والجنوبية، فأنفذ في السنة ٢١-٢٠ ق.م. «كورنيليوس بلبوس Balbos» على رأس قوة لتأديب قبائل أفريقية، وفي السنوات الأولى بعد الميلاد نرى حملتين

رومانيتين تتجهان جنوباً، واحدة من ولاية أفريقية بقيادة Cossus Corn. Gaetilius، وأخرى من ولاية قيرينة بإمرة Sulpicius Quirinius، وتتكلم أعمال الحملتين بالنجاح، ويصل القائدان إلى حل دائم لمشكلة الحدود الجنوبية، ومن هنا، هذان النقشان اللذان وُجدا في قيرينة، وأقيما فيها لمناسبة هذه الأعمال الحربية التأديبية.³²

ويُستدل من الآثار الباقية عند أطراف المناطق المخصصة في أجدابية وسرت، وفي قلب البادية الجنوبية أن السلطات الرومانية أنشأت في وجه القبائل مراكز عسكرية لحماية المناطق المتحضرة، ولا تزال بعض أسماء الجنود السوريين التي حُفرت على الصخور تذكّر بأعمال الحراسة، التي قاموا بها آنئذٍ،³³ وورود أسماء كتائب «الفرسان اللوسيتانيين Cohors Lusitanorum» و«الإسبانين Cohors Hispanorum» يدل على أن قوات الحدود هذه تألفت من مشاة وفرسان.³⁴

وقد رمت رومة الحضارة اليونانية قدرها، فاحترمت نظمها ومؤسساتها حيثما وُجدت، فظلت المدن الخمس تتمتع بمجالسها الشعبية اليونانية boule وبمنظماتها العسكرية epheboi وندواتها «الرياضية gymnasium»، واستمرت «المجالس الإدارية nomophylakes» في أعمالها ومعها كتابها وحراس أبوابها، وعطف كل من يوليوس قيصر وأوغسطس على الجاليات اليهودية، فسمحا لها بـ «مجالسها الخصوصية politeuma»، أما الليبيون أنفسهم الذين عُرفوا بالاسم georgoi، فإنهم أُلّفوا طبقة رابعة من السكان، واستمروا يطبقون نظام العشائر السائد بينهم.³⁵

وأوامر أوغسطس الخمسة التي وُجدت منقوشة في قيرينة في السنة ١٩٢٧ تخلد عطف أوغسطس على سكان الولايات، وسعيه لحماية مصالحهم وتأمين أعمالهم، وتعود الأربعة الأولى منها إلى السنة ٧-٦ ق.م.، والخامس إلى السنة ٤ ق.م.، وقد جاء في الأربعة الأولى أن الهيئة القضائية التي تنظر في الجنايات تتألف من قضاة يونانيين ورومانيين، وأن موقف الحكام من المواطنين الرومانيين كان صحيحاً، وأنه يتوجب على اليونانيين الذين ينالون حقوق المواطن الروماني أن يستمروا في تحمل مسئولياتهم اليونانية السابقة، إلا إذا كانوا يتمتعون بامتيازات خصوصية، ونقل الأمر الخامس قرار السناتوس، الذي قضى بوجوب النظر في رومة وأمام السناتوس في تظلم الرعايا من بلص الحكام والجباة.³⁶

(١٠) ولاية أفريقية وحدودها

وثابر القرطاجيون بعد زاما على العمل المثمر، ونهضوا من كبوتهم، واستعادوا مكانتهم التجارية على الرغم من الجزية التي ضربتها رومة عليهم، وبهظت بها عواتقهم، فاضطرب

الرومان وانزعجوا فحرضوا النوميديين على الاعتداء على قرطاجة، فاضطرت هذه أن تدافع عن نفسها، فاعتبرت رومة هذا الدفاع عن النفس إخلاً بشروط المعاهدة، فأعلنت الحرب على قرطاجة، واستمر القتال ثلاث سنوات متتالية سقطت في نهايته قرطاجة بيد أعدائها، فدكوها في السنة ١٤٦ ق.م. إلى الحضيض دكاً، وجعلوها خراباً يباباً، واقتسموا أملاكها، فأطلقت رومة على ما أصابها من أملاك قرطاجة الاسم «ولاية أفريقية Provincia Africa»، واشتق الرومان الاسم الجديد أفريقية من الاسم Afri، الذي كان يطلق على سكان المنطقة الأصليين، ولا يخفى أن الاسم العام للبلدان الأفريقية كان «لبية Lybia» لا أفريقية. واحتاطت لجنة العشرة السناتوسية، التي أشرفت على تنظيم الولاية الجديدة لأمر الحد الفاصل بينها وبين نوميديّة وقبائلها، واتبعت الطريقة القرطاجية القديمة، فأوجبت حفر خندق على طول هذا الحد، أطلقت عليه اسم «الخندق الملكي fossa regia»، وبدأ هذا الخندق عند الوادي الكبير بالقرب من «طبرقة Tabarca»، ثم قطع وادي المجرّدة بالقرب من وادي الزرقة، ومر إلى الجنوب من جبل زغوان، ثم اتجه مستقيماً حتى طينة في ضواحي صفاقس، تاركاً للملك نوميديّة مغانم «باجه Vaga» ودقة «تبرسق Thubursicum» وجاما «زاما» وغيرها، ويقدر رجال الاختصاص مساحة هذه الولاية بخمس مساحة تونس الحديثة، أي بمليونين ونصف المليون من الهكتارات المربعة، وشملت هذه الولاية المدن القرطاجية السبع Utica العتيقة، التي فاخرت قرطاجة بعثاقتها، وقامت بالقرب من مصب المجرّدة و«حضروميّت Hadrumetum»، وهي سوسة الحديثة و«لبتيس Leptis»، وهي لمطة الحديثة، و«تبسوس Thapsus» عند رأس الديماس بين الموناستير والمهدية و«أخولّه Acholla» عند رأس بوترية، و«أوسولة Usula» و«توداليس Theudalis» في نواحي بنزرت، وكانت هذه المدن قد أيدت رومة منذ بدء النزاع الجديد، فأقرتها لجنة السناتوس على نظامها القديم، وصادرت هذه اللجنة أملاك المدن والقرى التي ساندت قرطاجة، واعتبرتها «أرضاً رومانية عمومية ager publicus populi romani»، ولكنها رأت بالوطنيين الأحرار أبناء البلاد الأصليين، فاعتبرت الأراضي التي استثمروها إما ملكاً لهم، وإما مأجورة شرط دفع ضريبة عقارية و«مال عنق stipendium» فُرض على الرجال والنساء، ولُزم في رومة تلزيماً.

وأُست المدينة العتيقة Utica عاصمة ولاية أفريقية لأسباب، أهمها أنها كانت الثانية بعد قرطاجة، وأنها فاخرت قرطاجة بقدم عهدها، وأنها كانت قريبة من صقلية، وأنها كانت تتسع لعدد كبير من القادمين إليها، إن من حيث المسكن أو المأكل، وكان يمثل رومة

فيها وال من رتبة «قاض praetor»، ينتخبه السناتوس الروماني بالقرعة، ويتخذ لقب propraetor وproconsul بعد السنة ٨١ ق.م.، ويحكم لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد، وعاون الوالي معاون عُرف بال legatus، ومدير مال عرف بال quaestor، وتولى الوالي إدارة الولاية والنظر في دعاويها القضائية الحقوقية والجزائية، وقاد قواتها العسكرية، وكانت هذه في الأحوال العادية فرقة واحدة وبعض وحدات من القوى المساندة تجند في أفريقية، وكان على المدن المهمة أن تدافع عن نفسها عند الحاجة، فكانت محصنة منيعة، وكان سكانها مسلحين مستعدين دوماً للدفاع.

ولم يرغب السناتوس في ليتنة هذه الولاية، ولم يشجع الرومانيين على الإقامة فيها مستعمرين، خشية قيام قرطاجة رومانية شعبية تشاطر رومة الزعامة، وظل القرطاجيون أحراراً في ممارسة طقوسهم الدينية وإدارة شئونهم بطرقهم الخصوصية، فقد بقي في المدينة العتيقة سناتوس محلي يرئسه «شافط»، أي قاض حاكم محلي.

ثم كان ما كان من أمر النزاع بين العامة والأشراف، وظهور طيباريوس غراكوس وأخيه غايوس، فعبر غايوس في ربيع السنة ١٢٢ ق.م. إلى أفريقية على رأس بضعة آلاف روماني وإيطالي، وأسكنهم أرض قرطاجة نفسها، فنشأت «قرطاجة يونية Colonia Kartago Lunonia»، وربط اسمها بين قرطاجة وبين «يونو Juno» أم الآلهة الرومانية، التي كانت قد اعتبرت منذ عهد بعيد عشرون الفينيقيين، أو «تنيت Tanit» قرطاجة، هذا ولا يخفى أن رجال الاختصاص لا يزالون غير متفقين على كيفية التلفظ باسم هذه الآلهة الفينيقية، فالاسم الفينيقي ثلاثي «تنت» غير مضبوط بحركات أو حروف علة، وكان الرومانيون قد وافقوا أيضاً بين بعل همون القرطاجي و«كرونوس اليوناني Cronos» وSaturnus الروماني إله الزرع.³⁷

وخلا مكان غايوس (١٢١ ق.م.) فانطوت صحيفة قرطاجة اليونية وانقطعت أخبارها، وتولى أمور نوميدية بعد «مسينيسة Masinissa» «ميكيبسة Micipsa» (١٤٨-١١٨) و«أذربعل Adherbal» (١١٨-١١٢) و«يوغورثة Jugurtha» (١١٢-١٠٦) و«هيمبسال Hiempsal» (١٠٦-٦٠) و«يوبة الأول Juba» (٦٠-٤٦)، وأيد يوبة بومبايوس (٤٧-٤٦)، ففضى يوليوس قيصر على آماله في موقعة «تبسوس Thapsus» عند رأس الديماسي، فهرول يوبة إلى قاعدته زاماً وانتحر فيها، فجزأ يوليوس نوميدية وأنشأ من أراضيها التي تاخمت ولاية أفريقية ولاية جديدة أسماها «أفريقية الجديدة Africa Nova»، وجعل الأولى «أفريقية القديمة Africa Vetus»، وأسند إدارة الولاية

الجديدة إلى صديقه المؤرخ «سلوستوس Sallustus»، ووهب الباقي من نوميديّة إلى «سيتيوس Sittius» و«بوخوس Bocchus» ملك موريتانية، لقاء مساعدتهما له في الحرب، ورأى بثاقب نظره إمكانيات الأفريقيّتين في ليتنة البربر، فأمر بإنشاء عدد من المستعمرات الرومانية، أهمها قرطاجة Julia Concordia Karthago و Julia Uthina في وُدْنَه Julia Aurelia Thuburbo Maius في خشير القصبة، و Julia Curubis في قُرْبِه، و Julia Carpitana في مِريّة، و Julia Hippo Diarrhytus في بنزرت.³⁸

(١١) المور وموريتانية

والمور فرع من البربر، و«موريتانية Mauretania» في عرف الرومان بلاد المور، أي بلاد الجزائر الحديثة ومراكش، غزا سواحلها الفينيقيون، فأنشئوا فيها عددًا كبيرًا من المستعمرات، واتجروا مع قوافلها التي ربطت الساحل بالصحراء الكبرى فصدروا العاج والأخشاب الثمينة، واستخرجوا الصباغ الأرجواني من اصداف شواطئها. وانتظمت قبائل المور إمارات قبيل القرن الثاني قبل الميلاد، واشتركت في سياسة غرب المتوسط، إن في أمور نوميديّة وقرطاجة أو في شئون إسبانية، وأشهر أمرائها أو ملوكها «بوخوس Bocchus»، وبخوس الثاني و«بوغود Bogud»، وقد لعبوا أدوارًا هامة في الحرب اليوغورثية والحرب الأهلية الرومانية، وحكم بوخوس الثاني وأخوه بوغود موريتانية من السنة ٥٠ حتى السنة ٣٨ ق.م.، ثم استأثر بوخوس الثاني بالسلطة حتى السنة ٣٣، وساند بوغود قيصر في السنة ٤٩، ولعب فرسانه دورًا حاسمًا في موقعة «موندَة Munda» في السنة ٤٥، ثم أيد أنطونيوس وهاجم إسبانية، فأخفق وخسر عرشه، وفي السنة ٣١ خرَّ صريعًا في ميثونة في المورة محاربًا ضد أغريقية.³⁹

(١٢) أوغسطس وأفريقية

وكان يوبة الثاني ابن يوبة الأول ملك نوميديّة قد مشى في ركاب يوليوس قيصر إلى رومة بعد مصرع والده، وبقي فيها، ثم نال حقوق المواطن الروماني، ورافق أوكتافيانوس في حروبه، فلما تم النصر لأوكتافيانوس في أكتيوم في السنة ٣١، عاد يوبة إلى ما تبقى من نوميديّة مَلِكًا عليها، وكان عالمًا أدبيًا فنانًا، صنف باليونانية تاريخًا لرومة، وكتب عن لبية والعربية وأشور، وأعد رسالة في الحشيشة «افوربية Euphorbia»، التي اكتشفها

وسماها باسم طبيبه «افوربوس Euphorbos»، ولكنه على الرغم من علمه وثقافته، لم يحسن سياسة نوميديّة، فنقله أوغسطس في السنة ٢٥ ق.م.، وجعله ملكاً على موريتانية وأزوجه من كليوبترّة «سيلينيّة Selene» بنت أنطونيوس من كليوبترّة، فاستقرّ يوبّة في موريتانية حتى وفاته في السنة ٢٣ ب.م.⁴⁰

ونعم المتحضرون من سكان ولايتي أفريقية وسكان موريتانية بسلم روماني دام نصف قرن من الزمن، ولكن القبائل البدوية الضاربة في جنوب هاتين المنطقتين، ولا سيما «الغاتولي Gaetuli» لم يذعنوا، وظلوا يهددون الحدود الجنوبية، فجرد الرومان عليهم حملات تأديبية متتالية بقيادة «طوروس Statilius Taurus» في السنة ٣٥-٣٤ ق.م.، و«كورنيكيوس Cornificius» في السنة ٣٢ ق.م.، و«باييتوس Autronius Paetus» في السنة ٢٨ ق.م.، و«أتراتينوس Sempronius Atratinus» في السنة ٢١ ق.م.، ثم توغل «كورنيليوس بلبوس Balbus» فيما وراء الحدود حتى بلغ الفرّان، واضطر «كويرينوس Sulpicius Quirinus» أن يقوم بالعمل نفسه في السنة ١٩ ق.م.، و«باسيانوس روفوس Passienus Rufus» في السنة ٣ ب.م.، وجاءت السنة ٦ ب.م.، فإذا بالحالة على ما كانت عليه، فنجد صبر أوغسطس فأمر «كوسوس لنتلوس Cossus Lentellus» باتخاذ إجراءات حاسمة لإنهاء هذه الحالة المضنية المنهكة، فاتفق ويوبّة ملك موريتانية على خطة مشتركة، ووفقاً في ضرب الغاتولي والموسولامي ضرباً قوِّضاً به حصون آمالهم وقطعا رجاءهم، فنال لنتلوس لقب إمبراطور وكنية «قاهر الغاتولي Gaetulicus»، وسُمح ليوبّة الثاني بالاحتفال بالنصر.⁴¹

وهيّا أوغسطس للدفاع أسبابه، فاحتل ما تبقى من الساحل الأفريقي بين ولاية أفريقية القديمة وقيرونة وحصّن Sabrata وطرابلس Oca و«لبتيس الكبرى Leptis Magna»، ووقف في الأفريقيّتين عند خط امتد من قابس إلى قفصة وتبسة، وحصّن شاطئ موريتانية بعدد من المستعمرات العسكرية، أهمها «جلجلة Igilgili» و«باجية Saldæ»، و«دليس Rusucurru» و«راس جون Rosuguniaie»، وقرتنة عند تينيس الحديثة Cartenna و«زيليس Zilis»، وشيّد أوغسطس في منطقة الحدود الجنوبية سلسلة من «الحصون castella» و«الأبراج burgi»، وجعل من «حيدرة Ammaedara» مقراً دائماً للفرقة الأوغوسطية الثالثة، وأبقى وحدات مساندة في طرابلس وما يليها، وفي أقصى الغرب.⁴²

هوامش

- (1) DIO CASS., 55:28; LESQUIER, J., *L'Armée Romaine d'Égypte*, (1918).
- (2) KROMAYER-WEITH, *Heenoesen und Kriegführung der Griechen und Römer*, (1928), "EXERCITUS", *Real-Encyc.*; PARKER, H., *The Roman Legions*, (1928); HOMO, L., *Haut-Empire*, 77–80.
- (3) DURRY, M., *Les Cohortes Préorieennes*, (1938); PASSERINI, A., *Le Coorti Pretorie*, (1939).
- (4) BAILLIE REYNOLDS, P.K., *The Vigiles of Imperial Rome*, (1926).
- (5) CHEESMAN, G.L., *The Auxilia of the Imperial Rom. Army*, (1914); WAGNER, W., *Die Dislokation de Römischen Auxliarformationen in der Provinzen noricum, Pannonien, Moesien, und Dakien*, (1938).
- (6) TACITUS, *Ann.*, I, 9.
- (7) SUTONIUS, *Aug.*, 49.
- (8) DIO CASS, 55:24.
- (9) HOMO, L., *Emp. Rom.*, 177–178.
- (10) CAMILE DE LA BERGE, *Etudes sur l'Organisation des Flottes Romaines*, *Bull., Epig.*, 1886; CHAPOT, V., *La Flotte de Misène*, (1896); STARR, C.G., *The Roman Imperial Navy*, (1941); THIEL, J.H., *Studies on the Hist. of Rom. Sea Power*, (1946); MILTNER, F., *Seekrieg*, *Real-Encyc.*
- (11) BOUCHIER, E.S., *Spain under the Rom. Empire*, (1914); SUTHERLAND, C., *Aspects of Roman Imperialism in Spain*, *Jour. Rom. Stud.*, 1934; SYME, R., *The Spanish War of Augustus*, *Am. Jour. Philol.*, 1934.
- (12) APP., *Illyr.*, XVII; DIO CASS., 53:23, 54:24; HOMO, L., *Haut-Empire*, 99–101; OBERZINER, G., *Le Guerre di Augusto contre i Popoli Alpini*, (1900).
- (13) EPISTOLAE ex Ponto; DIO CASS., 51:23–27, 54:3, 20; STRAB., *Geog.*, III, 10.
- (14) DIO CLASS., 55:29–34; YELL. PAT., *Hist. Rom.*, II, 108–109, 110–116; SUET., *Aug.* 25; ABRAHAM, A.F., *Zur Gesch der germ. und pann. Kriege*

unter Augustus, (1875); BAUER, A., *Zum Dalmatisch-pannonischen Krieg*, (1894); RAU, R., *Zur Gesch. des Pannonisch-dalmatischen Krieges*, Klio, 1924.

(15) FRANKE, A., *Saltus Teutoburgiensis*, *Real-Encyc.*, V, A, 1166–1171.

(16) SKUTSCH, F., *Vergil und Gallus*, (1906).

(17) STRABO, 17:819; *CIL*, III, 14147.

(18) Or. Gr. Inscript. Selectae, 111.

(19) DIO CASS., 53:25; SUET., *Aug.* 66.

(20) STRABO, 17:820; DIO CASS., 54:5; PLIN., *Hist. Nat.*, 6:181 f.

(21) MAIORI, A., *La Successione Elie Gallo — C.Petronio*, *Saggidi Storia Antica e di Archeologia*, (1910).

(22) *Res Gestae*, V, 18–19; DIO CASS., 54:5; STRAB., *Geog.*, I, 54; PLIN., *Hist. Nat.*, VI, 181–182.

(23) *CIL*, 5080.

(24) STRABO, XVII, 797, 808.

(25) “*Claustra terrae*”, TAGITUS, *Ann.*, II, 59.

(26) *Inscriptiones Graecae ad res Romanas pertinentes*, I, 1366.

(27) “*Montis Berenicidis, praefectus praesidiorum et montis Berenices*”, *CIL*, III, 13580; DESSAU, 2698–2700.

(28) PLIN., *Hist. Nat.*, VI, 102–103.

(29) JOUGUET, P., *La vie municipale dans l’Egypte Romaine*, (1911).

(30) WALLACE, S.L., *Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian*, (1938); JOHNSON, A.C., *Economic Survey of Ancient Rome — Roman Egypt*, (1936).

(31) ROSTOVTZEFF, M., *Soc. and Econ. Hist. of the Hellenistic World*, I, 333.

(32) OOIS, 767, *Doc. Afr. Ital. Cyren.*, II, 67.

(33) *ann. épig.*, 1927, 157, 157 bis.

(34) IDRIS BELL, H., *Crete and Cyrenaica, Cam. Anc. Hist.*, XI, 668–669.

(35) JONES, *Eastern Cities*, ch. XII; ROMANELLI, P., *La Cirenaica Romana*, (1946).

(36) *Supplementum Epigraphicum Graecum*, IX, 5:8; VISSCHER, F., de, *Les Edits d'Auguste découverts à Cyrene*, (1940).

(37) CONTENAU, G., *La Civilisation Phinicienne*, (1949), 96–97.

(38) LAPYRE et PELLEORIN, *Carthage Latine Chrétienne*, (1950), 46–69.

(39) CARCOPINO, J., *Le Maroc Antique*, (1940); CHATELAIN, L., *Le Maroc des Romains*, (1944); ROGET, R., *Index de Topographie Antique de Maroc*, (1938).

(40) GSELL, S., *Hist. Anc. De l'Afrique du Nord*, VIII, 206 ff.

(41) DIO CASS., 55:28; SYME, R., *Spain and Africa, Cam. Anc. Hist.*, X, 345–347.

(42) GSELL, S., *op. cit.*, VIII, 227–229; CACNAT, R., *L'Armie Romaine d'Afrique*, 107 ff.; RITTERLING, E., *Legio, Real-Encyc.*; HOMO, L., *L'Empire Romain*, 215 f.

الفصل السابع

أوغوسطوس والشرق

(١) أرمينية

وحدد «سترابون Strabo» الجغرافي المؤرخ أرمينية عصره (٦٣ق.م. - ٢١ب.م.) فجعلها تقع بين مادي شرقاً، والفرات وقبدوقية وقوموجينة غرباً وجنوباً، وإيبيرية والبالنية وخلقيس شمالاً، وفرّق الرومان بين هذه التي دعوها أرمينية الكبرى، وأرمينية الصغرى التي تاخمت خليج الإسكندرونة غرباً،^١ وكانت أرمينية مقر ملوك «الأورارتو Urartu» في العصور القديمة، فلما نشأت دولة الفرس أمست ولاية «ستربية» من ولاياتها، وقد وصفها «كسينوفون Xenophon» في كتابه «الصعود Anabasis» كما شاهدها في السنة ٤٠١ ق.م.^٢ ثم دخلت في حوزة الإسكندر وسلوقوس وخلفائه من بعده، وانتصرت رومة على أنطيوخوس الثالث في «مغنيزية Magnesia» في السنة ١٨٩ ق.م.، وأملت شروطها عليه، فأعلن الأرمن استقلالهم في ظل رومة، وتبواً عرشهم في أرمينية الكبرى الملك «أرتاكسياس Artaxias».

وتألق نجم متراداتس السادس في سماء آسية الصغرى في الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد، فحالفه «دكران الأول Tigranes» ملك الأرمن، الذي أقامه جنود البرت ملكاً على أرمينية، وتدخل في شئون آسية فأقلق رومة، وجاء سولاً إلى الشرق في السنة ٩٢، وتوصل إلى تفاهم مع البرت، ولكن دكران لم يرعو، بل تابع الفتح والتوسع، فضم أراضي برتية وسورية إلى مملكته، واتخذ لنفسه لقب «ملك الملوك»،^٣ وفي السنة ٦٩ ق.م. تمكن لوكلوس من الاستيلاء على عاصمة دكران Tigranocerta ففر دكران أمامه، ولكن قضيته ظلت معلقة، وتسلم بومبايوس السلطة في آسية في السنة ٦٧ فقهر متراداتس، واضطره إلى النزوح عبر القوقاس، وثار ابن دكران في وجه أبيه، والتحق بركاب بومبايوس، ومشى

الاثنان على «أرتكساتة Artaxata»، فاستسلم دكران واستأمن، ودخل في محور رومة بمملكته القديمة.⁴

(٢) برتية

والذين دعاهم اليونانيون والرومانيون «برتيين»، كانوا في الواقع «برنيين Parni» من القبائل الضاربة عند زاوية بحر قزوين الشرقية الجنوبية في «هيرانية Hyrcania»، ثم احتلوا السترية السلوقية «برتية Parthia» في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، فعُرفوا بها، وتوسعوا بعد ذلك فحكموا من عاصمتهم «اقبطنة Ecbatana» ما وقع بين نهري الفرات والهندوس، وتكلموا البهلوية وتقبلوا الزردشتية، لكنهم أخذوا أشياء وأشياء عن النظم الهلينية والعلوم اليونانية، واستخدموا كتابًا يونانيين، وأجلسوا بعض اليونانيين في مجالسهم العالية، وأصغوا إلى مشورتهم، وسكت سلفية التي على دجلة نقودهم وأرختها بالتاريخ السلوقي، وكانوا أشداء في الحرب، أقوياء يجيدون ركوب الخيل والرمي والطعن، فأهملوا أساليب المتهلين في القتال، ولم يكثرثوا للمشاة، بل جعلوا من جيشهم جيش فرسان، وأتقنوا تربية الخيل، فأمسوا قوة سريعة الكر والفر تجيد المفاجأة والمناورة.⁵

(٣) رومة وبرتية

ويرى رجال الاختصاص أن البرتيين لم يحبوا الاعتداء، ولم يبالوا كثيرًا، ولكن بومبايوس أقحمهم إقحامًا بتدخله في شئون أرمينية، وجعلها محمية رومانية، وأنه لو اكتفى بالفرات حدًّا فاصلاً لوفر على نفسه وعلى خلفائه من بعده مشقة وعناء وإسرافًا،⁶ ويرى رجال الاختصاص أيضًا، أن كبار الرومانيين اعتنفوا حروب برتية اعتناءً، وأن شيشرون قال قولاً صحيحًا، عندما أكد أنه لم يكن للرومانيين عذر يؤاخذون البرتيين به ويعاقبونهم عليه، وأنهم هم الذين أساءوا واعتدوا، والواقع أن بومبايوس قطع لـ «فرأتس Pharaates» الثالث ملك برتية وعودًا في أثناء القتال في أرمينية، لم يبر بها عند التصفية، وكان أهم هذه الوعود الاعتراف بسلطة فرأتس على كل ما في الجزيرة حتى الفرات، ثم تأمر أولاد فرأتس عليه وقتلوه في حوالي السنة ٥٧، واختلفوا في الخلافة، وتولى الملك «أورودس Orodes» الثاني، فخرج أخوه الأصغر متراداتس عليه، وسك النقود باسمه، فتدخل القائد سوريناس البرتي، وأعاد الملك لأورودس، ففر متراداتس والتجأ إلى «غابينيوس Gabinius» بروقنصل

سورية، فتنبى ممثل رومة قضية المتمرّد الثائر وعبر الفرات في السنة ٥٥ مدافعاً مقاتلاً، وكان بطليموس الحادي عشر قد أكره على الخروج من الإسكندرية واللجوء إلى رومة، وكان قد استمال بومبايوس بوعود نجهلها، فكتب هذا إلى غابينيوس موجّباً التفاهم مع بطليموس، فوجد غابينيوس عرض بطليموس مغرياً، فعاد إلى سورية، وقام منها إلى مصر، وأعاد بطليموس إلى عرشه، متقاضياً عشرة آلاف وزنة، فاستعل سوريناس البرتي الموقف، وحصر متراداتس في سلفكية، وأخذها عنوة، وأمر بمتراداتس فقتل.

وكان اتفاق الثلاثة لا يزال ساريّاً في رومة، فاجتمعوا في لوكة في السنة ٥٥، واتفقوا على أن يتولى القنصلية بومبايوس وكراسوس، وعلى أن يتولى كراسوس شئون سورية، وأن يستولي على برتية ويدخلها في حوزة رومة، ولعلّ السبب في ذلك، أن كراسوس كان قد بدأ يشكو من مركب نقص، فكل من زميليه في الاتفاق الثلاثي كان قد أحرز نصراً بعد نصر، ونال حمداً بعد ثناء، أما هو، فإنه قد ناهز الستين وثقل سمعه، ولم يكن لديه ما يفاخر به إلا المال والثروة، فأحب أن ينال الشهرة والمديح اللذين نالهما زميلاه، ولعله كان لا يزال رغب العين واسع المطامع، يرغب في الاستيلاء على سلفكية التي على دجلة لاحتكار تجارة الحرير وغيره من سلع الشرق الأقصى، التي كانت تمر في أسواق هذه المدينة،⁷ وجاء في التقليد الروماني أنه كان يتشوّق إلى أبعد من هذا، إلى التوسع في الشرق والوصول إلى المحيط الأقصى، وكان كراسوس ملماً بالتاريخ والجغرافية، ولكنه كان يجهل أخبار البرتين وأحوالهم، فظن أنهم من طبقة الأرمن، وذكر انتصارات لوكولس على هؤلاء، فالتبس عليه وجه الصواب، وتوقع فتكاً يسيراً.

وصدر في السنة ٥٥ القانون التريبوني،⁸ فتولى كراسوس ولاية سورية لمدة خمس سنوات بصلاحيات فوق العادة، وقام يجند فلم يلق إقبلاً، وعارضه «الأفضلون Optimates» مؤكدين أن البرتين لم يسيئوا إلى رومة، وأن الهجوم عليهم يُعدّ تهجماً وجوراً، وضرب اليوم الخامس من تشرين الثاني سنة ٥٥ موعداً لخروجه من رومة على رأس جنوده، وارتدى بزته الرسمية، وحاول الخروج فجاش الشعب من الحنق، وبات يزفر وينفخ، وجلس التريبون «أتيوس كابيتو Ateius Capito» في باب المدينة إلى جانب مجمرة من النحاس ينتظر مرور كراسوس، فلما وصل كراسوس إلى الباب لفظ التريبون لعنات تقليدية هوت بكراسوس إلى مقر آلهة الجحيم، وأقلع كراسوس بجيشه من برنديزي إلى ديراكيوم عبر الأدرياتيك، ثم اتجه شطر سورية فوصلها في ربيع السنة ٥٤، وتسلم زمام السلطة وقيادة الجيش فيها من غابينيوس، ونهض بجيشه إلى الفرات، وغزا الجزيرة، ثم عاد إلى سورية منتظراً ربيع السنة التالية.

وفي ربيع السنة ٥٣، عبر كراسوس الفرات عند «جراپلس Zeugma» بحوالي ثمانية وعشرين ألف ماش وأربعة آلاف فارس، وسار في ركابه كل من ابجر الثاني ملك الرها، و«ألخوذونيوس العربي Alchaudonius» بخيالتهم، وصمد سوريناس بعشرة آلاف فارس عند تقاطع الطرق بين «حران Carrhae» و«خنز Ichnae»، وما كاد كراسوس يصل بقواته منطقة حران حتى أُطبق البرت عليه، فذبحوا عشرة آلاف وأسروا عشرة أخرى، وفرّ الباقيون، وخرّ كراسوس نفسه صريعاً.⁹

وكان سوريناس الرجل الثاني بعد الملك طويل القامة، جميل الطلعة، كثير الموارد، غنياً ينفق على فرسانه من جيبه، وكان حاد الذهن، دقيق الفهم، ثبّت الجنان، رابط الجأش، فلما تقمّص لباس العز في حرّان قام إلى سلفكية التي على دجلة، ودخلها في موكب تصاغرت عنده الهمم، فحمّ أورودوس له حسداً، ونظر إليه بعين مريضة، وخشي سوء العاقبة، فأمر به فقتل، وتسلم قيادة جيشه «بكوروس Pacorus» ابن أورودوس. واستعاد أورودوس سلطته في الجزيرة حتى الفرات، بما في ذلك نصيبين ومنطقة «غورديانة Gordyane» بينها وبين أرمينية، ونوى غزو سورية في السنة ٥٢، ولكن مقتل سوريناس أفكّه عن ذلك، ولم يعبر ابنه بكوروس الفرات قبل السنة ٥١، ولم يكن بكوروس من أكفاء سوريناس ولا من أشباهه، فجلاً ما فعله أنه أغار على سهول سورية الشمالية، واستنهض هم العناصر المعارضة، ولكن فرسانه لم يقووا على حصون أنطاكية، ولما اقتحموا أنتيغونية الصغيرة في السنة ٥٠ فاجأهم كاسيوس¹⁰ وباغتهم من حيث لم يحتسبوا، فولوا مدبرين واستقروا بضعة أشهر في «القوروشية Cyrrhестice» في شمال حلب وشرقها، ثم أفسد البروقنصل الجديد «بيبولس Bibulus» بين أورودوس وابنه بكوروس، فعبر هذا الفرات بجموعه في تموز السنة ٥٠.

وأدى مصرع كراسوس إلى زعزعة تحالف الثلاثة من الناحية المالية، وإلى اختلال التوازن بينهم، ثم تولى بومبايوس أمور الشرق، ولكنه لم يبرح رومة، فتاب عنه في حكم ولايات الشرق ممثلون شخصيون، واهتم يوليوس لشتون الغرب، ولا سيما لثورة غالية، ثم جاءت الحرب الأهلية (٤٩-٤٦) وانتهت بمصرع بومبايوس، وتولى يوليوس أزمة الحكم وانفرد بالسلطة، ثم اغتيل اغتيالاً (٤٤)، فجاء حكم الثلاثة والأخذ بالتأثر، وعبر بروتوس وجماعته الأدرياتيك، وباتوا ينتظرون تطور الموقف ووقوع معركة حاسمة، فرأى كاسيوس أن يستعين بالبرت، فأوفد أحد ضباطه «لايانوس Quintus Labienus» ابن «طيّطس Titus» لايانوس القائد في حروب قيصر، إلى بلاط أورودوس ملك البرت يزف

إليه حاجة أسياده، وانتحر كل من كاسيوس وبرتوس بعد معركة فيليبى (٤٢)، فوجد لابيائوس نفسه لاحقاً مقطوعاً في بلاط البرت، وكان عدد من وجهاء تدمر قد لجأوا إلى البلاط نفسه فتعاون لابيائوس وهؤلاء على إقناع بكوروس بوجوب استغلال الظرف العسكري وخلص أسية الصغرى وسورية من الجند لإدخالهما في حوزة برتية (٤١)، وكان أنطونيوس قد عين «ديكيدوس سكسة Decidius Saxa» والياً على سورية، ولكنه لم يرفقه بجنود بررة، فاضطر سكسة أن يستعين بما كان قد بقي في سورية من جنود أفسدت قلوبهم السياسة، فباتوا مضطربين مشوشين، ولم يتجاوز مجموع عددهم الفرقتين.

وعبر لابيائوس وبكوروس الفرات، ودخلا سورية فتخلى قسم كبير من الجنود الرومانيين عن سكسة، فانكسر في الميدان، وخسر «نصره»، واضطر أن يتراجع حتى امباية، وأن يمتنع فيها، ثم استسلمت ابامية وأنطاكية ففر سكسة إلى قيليقية، وقُتل وانتحر فيها أو في قبرس، وانشطر الجيش البرتي شطرين في قيليقية، فتولى لابيائوس قيادة القوات في أسية الصغرى، ونهض بكوروس إلى سورية والجنوب، وكان أنطونيوس قد تشاغل عن تدبير شئون أسية الصغرى، فلم يلقَ لابيائوس مقاومة تُذكر، وتمكن من فرض سلطة البرت على معظم أسية الصغرى، وكان أورودس قد عينه قائداً، ففاخر هو بهذا اللقب — كما مرَّ بنا — وسك نقوداً نقش عليها العبارة Particus Imperator، وما فتئ متسلطاً حتى كسره «فنتيديوس Vendidius» في السنة ٣٩ وقتله.

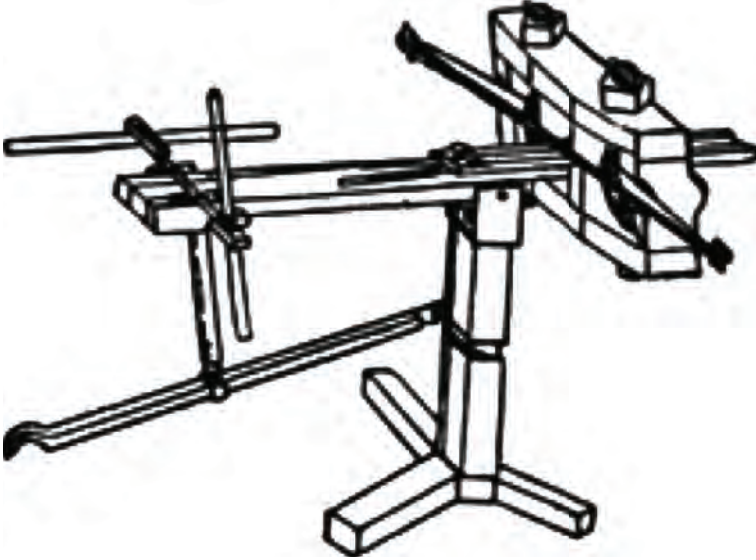
وأطل بكوروس على سورية، ودخل مدنها بدون مقاومة، وأيده أمراؤها وصادقه مالك ملك الأنباك، أما صور، فإنها ظلت حرة لمناعة موقعها وقوة رجالها في البحر، ورحب بقدومه منتياس Antigonus ابن أرسطوبولس، وقَدَّم ألف وزنة وخمسمائة امرأة من نساء أخصامه ومناظرية، فدخل بكوروس أورشليم، وجلس على العرش فيها، وفرَّ هيروُدس صديق رومة، ولجأ إلى كليوبتره في مصر، ثم ركب البحر إلى رومة، واعترف اليهود بفضل البرتتين، واعتبروهم طوال قرن كامل أصدقاء بررة مخلصين.

واندلعت ثورة في السنة ٤٠ نفسها في اليرية، وانطلق «البرتينيون Parthini» باتجاه مقدونية مخربين مهددين، وكادت إمبراطورية رومة في الشرق تنهار انهياراً، فاضطر أنطونيوس أن يتدبر الأمور بحكمته، وأن يتخذ إجراءات سريعة لإنقاذ الموقف، ولم يكن لديه سوى أربع وعشرين فرقة وعشرة آلاف فارس غالي وإسباني، فوكل القيادة في البلقان إلى «بوليو Pollio»، ووضع تحت تصرفه إحدى عشر فرقة، وأنفذ «فنتيديوس Ventidius» إلى أسية والشرق بإحدى عشرة فرقة أخرى، وظل هو في إيطاليا يعالج أمورها.

وجهز فنتيديوس رجاله بالمقاليع، واستبدل حجارتها بقطع من الرصاص، ورأى في هذا السلاح ما يقيه شر النبال البرتية؛ لأن مدى المقلاع كان أطول من مدى السهم، ولم يعلم أن سقوط سوريناس كان قد أعاد نبلاء البرت وخيولهم المدرسة الثقيلة cataphractes إلى الميدان بدلاً من خيول العامة وأقواس فرسانها وسهامهم، وقد يكون الفضل في اعتماد المقاليع لأنطونيوس، وقد يكون لفنتيديوس، ولا نعلم الشيء الكثير عن أعمال فنتيديوس في الشرق، ولا يجوز الاطمئنان إلى أخبارها، فما دونه سلوستوس جاء نقلاً عن فنتيديوس للرد على أنطونيوس، ونقلًا عن أخصام أنطونيوس، الذين مجدوا فنتيديوس للحد من نفوذ أنطونيوس.

وباعت فنتيديوس خصمه، فنزل في ساحل ولاية آسية في أوائل السنة ٣٨، فاضطر لبيانوس أن يتخلّى عن كارية، وأن يفر إلى قيليقية، ويمتنع في منحدرات طوروس، ويطلب النجدة من بكوروس من سورية، فاتخذ فنتيديوس مراكز مماثلة، وجمع بكوروس جميع قواته في سورية، وخرج منها إلى قيليقية، وهاجم فنتيديوس منفردًا، فارتد على أعقابها، وتبين أن رصاص المقاليع الرومانية كان يخرق سلاح البرت خرقةً، ثم هاجم فنتيديوس لبيانوس في معسكره ففر وقتل، وصمد بكوروس في ممرات الأمانوس، ولكنه لم يثبت في وجه الرومان، ففر هو بدوره وعبر الفرات، واتجه فنتيديوس جنوبًا؛ ليقص من متتياس اليهودي، وينزله عن عرشه، ولكن متتياس رشاه، فعاد إلى شمال سورية متوقعًا هجومًا برتياً أو أرمنيًا، وعاد بكوروس إلى الهجوم في ربيع السنة ٣٨، وعبر الفرات في مجراه الأعلى عند سميساط، واتجه شطر القوروشية، فوجد فنتيديوس صامدًا له في أحد المرتفعات بالقرب من جبل «جندروس Gindarus»، فهجم بكوروس بخيالته على معسكر فنتيديوس، ولكنه مني بالفشل وقتل، فولى من نجا الأدبار، وعبروا الفرات.

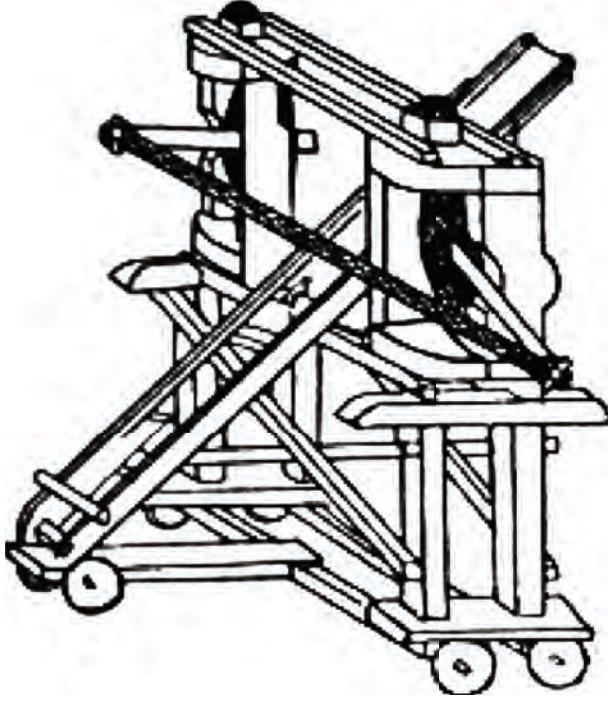
وناءً مقتل بكوروس بوالده وأرهقه، ففتر وضعف، فعين ابنه فرأتس الرابع خلفًا له، ثم نفذ صبر الوريث ففتك بوالده الشيخ واستأثر بالسلطة، فعُرف بالقاسي، وعزا فرأتس الكارثة التي حلت بالجيش في الغرب إلى تدخل الأشراف في شئون الدفاع والحرب وإبعاد المواطنين العاديين الحاذقين في رمي السهام عن متون الجياد وساحات الوغى، فاضطهد النبلاء وأقام «موناسه Monases» حامي الحدود الغربية قائداً عامًا، وكان موناسه من أكبر الكبراء وأغنى الأغنياء، فادعى أنه من المغضوب عليهم وقصد أنطونيوس مستجيرًا لاجئًا، فخف أنطونيوس ولبى، ومنحه إمارة ألخونديوس ووعد بعرش برتية، ولكن موناسه تقوى فجأة في ربيع السنة ٣٦، وشجع وعاد إلى برتية، وتسلم قيادة جيشها!



قوس روماني جبار catapulta.

وكان أنطونيوس قائد خيالة قديرًا ومناورًا شجاعًا، ولكنه لم يكن كفوءًا للقيادة العامة ولوضع الخطط، فإنه هدف إلى إخضاع برتية واحتلالها قبل أن يؤمن خط اتصاله بقواعده في سورية باحتلال أرمينية، واكتفى — فيما يظهر — بوعود «أرتاوسده Artavasdes»، وخضوعه بعد موقعة صغيرة جرت بينه وبين القائد الروماني «كنيديوس كراسوس Canidius Crassus»، ونسي أن مصلحة أرمينية قضت بالتملق للطرفين، والتفريق بينهما عند الاقتضاء، وأن الأرمن كانوا أقرب لتفهم البرتيين والتعاون معهم منهم إلى رومة والرومانيين، ونسي أن الشرق أيضًا كله كان قد سئم أساليب رومة في الحكم، وتفرق كلمتها وانقسامها بعضها على بعض وحروبها الأهلية.

وتبنى أنطونيوس خطة يوليوس في السير، فهاجم برتية من الشمال من أرمينية لا من الغرب، وما كاد القتال يبدأ حتى انحرف ملك أرمينية الصديق الموالي إلى جانب برتية، فاستولى البرت على كميات كبيرة من العتاد والمؤن، التي كانت تُنقل عبر أرمينية، وكان أنطونيوس آنئذٍ يحاصر «أفراسبة Phraaspa» عاصمة مادي الصغرى، فوجد نفسه فجأةً مفتقرًا إلى معدات الحصار، ثم أحاط البرت به من كل جانب، وقطعوا عنه المدد،



منجنيق روماني ballista.

فاضطر إلى التراجع والانسحاب، وكادت الكارثة تقع، ولكن أنطونيوس تداركها بانتفاضة شديدة، فشارك جنوده الشقاء والتعب، وعاد بهم إلى سورية في السنة ٣٥ ق.م.¹¹ وكتب إلى كليوبتره يخبرها بما جرى ويطلب معونتها، واستقر في الساحل اللبناني في الجية Leuke Kome بين بيروت وصيدا ينتظر المدد، وطال الانتظار، وبدت علائم القلق، وكاد أنطونيوس يسيئ فهم كليوبتره، ويعتبر تأخرها مُحطاً بكرامته، وضاق صدره فلجأ إلى الخمر يلتهى بها، فإذا ما استفاق أطل على البحر يبحث في الأفق مرتقباً طلّاع المدد، وبعد انتظار دام طويلاً أطلت فرعونة مصر، تحمل المال والملابس لجنود زوجها الجديد، وفي السنة ٣٤ جند أنطونيوس حملة جديدة على أرمينية استعداد بها بعض ما كان قد فقده من نفوذ في الأوساط العسكرية في الشرق.¹²

وجاءت السنة ٣٠ وصَفَّى أوغوسطوس حساب أنطونيوس وكليوبترا، وأدخل مصر في حوزة رومة، وأنهى الحرب الأهلية وعاد إلى سورية، فانتظر الرومانيون زحفًا على برتية لمحو العار الذي لحق برومة، ولكن أوغوسطوس قام إلى آسية الصغرى ودبر شئونها قدر المستطاع وعاد إلى رومة، وكان يعلم حق العلم أن ظروف برتية الداخلية كانت موآتية لتجريد حملة عليها، وأن جيشه كان كفوًا لذلك، ولكنه رأى بثاقب نظره واتساع أفقه أن معالجة قضية برتية وأرمينية بالطرق السلمية وبالساسة أجدى وأنفع، فالحرب الأهلية كانت قد انتهت، وكلمة رومة كانت قد توحدت، وكان «تيريداتس Tiridates» مناوئ فرآتس الملك الجالس لاجئًا مقيمًا في سورية مستعدًا للتدخل في شئون برتية عند أول إشارة تبدو من أوغوسطوس، وكان ارتفسده قد أمسى ملكًا على أرمينية الصغرى، يهدد مناظره «أرتكسه Artaxes» ملك أرمينية الكبرى، وكان أخوا أرتكسه رهنين في قبضة أوغوسطوس، ومن هنا ترحيب أوغوسطوس في السنة (٣٠-٢٩) بوفد فرآتس، وتأكيده أنه لن يسمح لتيريداتس بإزعاج خصمه الجالس على العرش،¹³ واكتفى أوغوسطوس بهذا القدر من التفاهم، ولم يحرك ساكنًا قبل السنة ٢٠، ولكنه أبقي في مكان ما في سورية أربع أو خمس فرق تساندها قوات مساعدة، ويجوز الافتراض، بناءً على ما نعلمه عن الأمكنة التي أقام بها الجيش الروماني بعد هذا التاريخ، إن هذه الفرق والقوات المساندة لم تستقر عند الفرات، بل أبعد من هذا إلى الغرب.

وألحت الأوساط الرومانية المثقفة بوجوب إخضاع الشرق كله حتى الهند أو الصين، وإدخال برتية في حوزة رومة،¹⁴ ولكن أوغوسطوس كان أعقل وأبعد نظرًا من هذا، فإنه لمس تجانسًا بين سكان حوض المتوسط ووحدة في طبيعة أرضه ومناخها، ورأى أن رومة كانت قد توصلت إلى حدود هذا الحوض الطبيعية، وأن هذه البلدان جميعها كانت بحاجة إلى أمن وعدل واستقرار أكثر منها إلى توسع وسيطرة، ولولا تطرف بعض الأوساط الرومانية إلحاحها لجعل من مجرى الفرات حدًا طبيعيًا فاصلًا بين رومة وبين الشرق وراء الفرات.¹⁵

وكان لوكلوس قد اعترف بالفرات حدًا فاصلًا، وكان بومبايوس قد وافق على ذلك بادئ ذي بدء، ولكن الرومانيون آنئذٍ آثروا اعتماد أمراء وطنيين في حكم المناطق المتأخرة، أو ما كان منها صعب المنال، ورغبوا في إنشاء دويلات فاصلة عند الحدود، تتحمل صدمات القبائل المجاورة،¹⁶ ورأى بومبايوس أن يجعل من أرمينية دولة فاصلة موالية لرومة، فأورث أوغوسطوس مشكلة لا بد من معالجتها وحلها، ومما زاد في الطين بلة أن

الأرمن — كما سبق وأشرنا — كانوا أقرب إلى البرتيين في العادات والأخلاق وطرق المعيشة والدين، منهم إلى رومة،¹⁷ وكان بإمكان أوغسطس أن يعتمد واحدًا من حلول ثلاثة: إما أن يتغاضى عن أرمينية، ويطلق يد برتية فيها، ويجعل الفرات حدًا فاصلاً، وإما أن يدوِّخ أرمينية، ويضمها إلى الدولة الرومانية، وإما أن يضمن ولاءها وإخلاصها ويبقي على استقلالها، فيعتبرها دولة فاصلة، وكان الحل الأول وَغَرَ المرتقى لما كان قد لحق برومة من ذل وهوان في حروب أرمينية وبرتية السابقة، ولم يرَ أوغسطس في تدويخ أرمينية وضمتها أمرًا سهل المنال، ولم يفكر به جدًّا على الرغم من ظاهر النص في خلاصة أعماله في الجسته،¹⁸ ومما يؤيد هذا القول أنه لم يكن لأوغسطس في أي وقت من الأوقات قوة كافية لحماية الحدود الشرقية حماية مانعة، فلم يبقَ أمامه — والحالة هذه — سوى الحل الثالث الذي اختطه بومبايوس، وتمشى فيه بموجب تقاليد رومة السياسية والإدارية. وعلى الرغم من الوعد الذي قطعه أوغسطس في السنة ٣٠ إلى الوفد البرتي المفاوض؛ بأنه لن يغري تيريداتس — الخصم المناوئ اللاجئ إلى سورية — على إثارة الفتن في برتية، فإن تيريداتس هذا عبر الفرات إلى الجزيرة في السنة ٢٧، وحاول قلب الحكم في برتية، وأخفق في مهمته، فعاد إلى سورية لاجئًا في السنة ٢٦-٢٥، مصطحبًا فرأتس ابن فرأتس الملك، مدعيًا أنه خطفه خطفًا،¹⁹ فأنفذ الملك وفدًا إلى رومة نفسها في السنة ٢٣، يطالب بتسليم تيريداتس وإعادة فرأتس إلى أبيه، فوافق أوغسطس على المطلب الثاني وسلّم فرأتس، وطلب — بالمقابل — إطلاق حرية الأسرى الرومان وإعادة «النسور الرومانية»، التي وقعت بيد البرت في المعارك السابقة، وأكد أنه لن يعاون تيريداتس في أي عمل عدائي ضد برتية،²⁰ ولكن فرأتس نام عن مطلب أوغسطس وتغابى سنة كاملة، فبدأ الشعراء يطالبون باتخاذ موقف حازم من برتية وملكها محافظة على شرف رومة وعزتها، فنهض أوغسطس في أواخر السنة ٢٢ ق.م. يتفقد شئون صقلية واليونان، ثم قضى شتاء السنة ٢١-٢٠ في جزيرة ساموس، ومنها كتب إلى طيباريوس أن يجمع عددًا من الفرق من مقدونية واليرية، وأن يجيء بها إلى أرمينية لمساندة أصدقاء رومة فيها، أي لتأييد «دكران Tigranes» ضد أخيه الأكبر «ارتكسه Artaxes» الجالس على العرش، ولا سيما وأن دكران كان قد قضى عشر سنوات في رومة، وفي ربيع السنة ٢٠ ق.م. عبر أوغسطس البحر إلى ولاية آسية، ونظر في شئونها وشئون بيثينية، ثم جاء سورية، واستطارت هذه الأخبار استطارة البرق في السماء، واضطربت بها الألسنة، فوصلت إلى فرأتس مجسمة، فخشي الحرب على جبهتين في آن واحد، وأسرع يطلق سراح الأسرى

الرومانيين ويعيد النسور، ووصلت هذه إلى أوغوستوس في الثاني عشر من آيار سنة ٢٠، فنودي به إمبراطورًا للمرة التاسعة،²¹ وظهر خضوع البرت على درع أوغوستوس²² وعلى نقود سُكت خصيصًا لهذه المناسبة في السنة ١٨، فحملت العبارة Caesar Augustus signis receptis،²³ واتخذ السناتوس قرارًا بالاحتفال بالنصر رسميًا، ولكن أوغوستوس أبى فشيد قوسًا في الفوروم بالقرب من هيكل يوليوس قيصر ظهر بدوره على مسكوكات السنة ١٨-١٧، وأعيدت الأعلام النسور إلى رومة، وكُرسَت لمارس إله الحرب، فعُرف هذا الإله بعدئذٍ بـ «مارس المنتقم Mars Ultor»، وما فتئ الرومانيون يحتفلون بذكرى هذا الحدث حتى القرن الرابع بعد الميلاد، فكانوا في الثاني عشر من آيار من كل عام، يقدمون الشكر ويقيمون الألعاب السباقية لهذه الغاية.²⁴

وسهّل هذا التفاهم بين رومة وبين برتية عمل طيباريوس في أرمينية، فإن أقرباء أرتكسه الملك تألبوا عليه، وقتلوه قبل وصول طيباريوس، فلم يبق على القائد الروماني — والحالة هذه — إلا أن يتوج بيده مرشح رومة وصديقها دكران، فأعلى أوغوستوس خضوع أرمينية، وأكد أنه يؤثر بقاءها مستقلة في يد ملك صديق، وظهرت النقود تحمل العبارة Armenia capta، ورسم أرمني راكم مسلماً مستسلماً، واكتفى أوغوستوس بهذا القدر، وكتب إلى السناتوس مؤكداً عدم رغبته في التوسع عبر الحدود،²⁵ وفي السنة ١٠ أو ٩ ق.م. سلّم فرأتس ملك برتية إلى «تيتيوس Titius» والي سورية أولاده الأربعة وعائلاتهم ليعلموا في رومة،²⁶ ورأى يوسيفوس أن السبب في ذلك نشأ عن زواج فرأتس من جارية إيطالية Thea Urania Musa قدمها أوغوستوس له، وأنجبت ابنًا خلفه فيما بعد، وعُرف بـ «فراتاكس Phrataces» وعن سعي هذه لإبعاد أولاد زوجها الأربعة الأولين؛ لتضمن الخلافة لابنها.²⁷

(٤) رومة والبوسفور

وهناك بوسفوران في الأدب القديم: بوسفور تراقية، الذي وصل البحر الأسود ببحر مرمرا، وبوسفور «كيميري Cimmerii»، الذي وصل بحر أزوف بالبحر الأسود، والكيميري شعب أسطوري «لم تشرق عليهم الشمس» نزع من جنوب روسية في العصور الخالية، واستقر في أنحاء آسية الصغرى، ومملكة البوسفور في عصر أوغوستوس دويلة شملت شبه جزيرة القرم وحوض أزوف، وتزعمتها أسرة إيرانية أو نصف إيرانية، فتسلطت على جاليات يونانية وقبائل كالصرامته كانوا قد تقبلوا شيئاً من المدنية الهلينية.

وكانت هذه المملكة البوسفورية تمون مدن آسية الصغرى الشمالية وجزر إيجيه بالحبوب، فكان لا بد من تأمين الملاحة في البحر الأسود، وتنظيف مياهه من فساد القرصان والقرصنة، وكان أشهر هؤلاء قبائل القوقاس المطلة على البحر وأفراد عشائر «الطوري Tauri» في ساحل القرم الجنوبي.²⁸

وفاز «فرناكس الثاني Pharnaces» ابن متراداتس العظيم بالتسلط على مملكة البوسفور مقابل خدماته لبومبايوس واستقر فيها، ثم خلعه «أسندر Asander» بعد مقتل قيصر، وتزوج من بنته «دينامس Dynamis»، وكان أسندر من أنصاف اليونانيين وأحد المواطنين في مدينة «بنتيكابيوم Panticapeum»، وأسكت هذا المغتصب أنطونيوس بهدية مالية كبيرة، وسك النقود باسمه في السنة ٤١، وسكت أوكتافيانوس عن شذوذ أسندر، واعتبره صديق الشعب الروماني،²⁹ وتمكن أسندر من صيانة حدوده، فصد هجمات الصرامطة والسيكثيين في البر، ودانت له رقاب القرصان في البحر، فأمن الملاحة فيه وطمأن سكان سواحله، وفي حوالي السنة ١٨ ق.م. نازعه «سكريبونيوس Scribonius» الملك، وادعى أنه حفيد متراداتس العظيم، فمال الجنود إليه، فامتنع أسندر عن الطعام، ومات في السنة ١٧ عن ثلاثة وتسعين عامًا،³⁰ ويروى أن سكريبونيوس ادعى أيضًا أنه مرشح أوغسطس، وأن الملكة دينامس مالت إليه لهذا السبب فتزوج منها.³¹

وعلم أغريقية بحوادث البوسفور في أثناء وجوده في سورية (١٦-١٣ ق.م)، فامتنع عن الاعتراف بسكريبونيوس وأوعز إلى «بوليمو Polemo» ملك البونط أن يجرّد حملة على سكريبونيوس، وأن يتزوج من دينامس، ويوحد في شخصه مملكة البونط والمملكة البوسفورية، فلما علم البوسفوريون بذلك قتلوا سكريبونيوس، أملين أن ترضى رومة عنهم وتعيد بوليمو إلى بلاده، ولكن بوليمو كان أبيّ العنان شديد الشكيمة، فاضطر أن يحارب البوسفوريين، وطالت الحرب فركب أغريقية نفسه البحر إلى سينوب، وأبرق وأرعد، فأخذ البوسفوريون إلى السكينة فشرع أغريقية يدبر أمورهم، فأوجب تقديم الرجال للخدمة في القوى الرومانية المساندة، وأدخل مدينة «خرسوننسوس Chersonesus» في المملكة البوسفورية، محتفظًا باستقلالها في تدبير شئونها موجبًا الدفاع عنها عند الحاجة،³² واختلف الزوجان الملكيان في السنة الأولى من زواجهما، وفرت دينامس عبر الحدود ولجأت إلى «أسبورجوس Aspurgus» أحد أمراء الصرامطة، وشنتها حربًا شعواء على بوليمو دامت طويلًا، وانتهت بمصرع بوليمو في السنة ٨ ق.م،³³ وعرض لأوغسطس في جبال طوروس وأرمينية ما شغله عن المملكة البوسفورية، فاعترف بالواقع وأقر دينامس في حكمها، وبعد وفاتها بسنتين (١٠ ب.م.) تولى زوجها أزمّة الأمور، ثم اتخذ لقب الملك في

السنة ١٤ ب.م.، فمنحه طيباريوس «حقوق المواطن الروماني واللقب amicus Caesaris populique Romani»، وحمل هو وأحفاده اسم ولي نعمتهم Tiberius Iulius.³⁴

(٥) هومانة والهومانليون

و«هومانة Homana» مضرب رئيسي لعشائر بربرية سيطرت على وادي بحيرة «تروغيتس Trogitis» أقصى بحيرات آسية الصغرى في الجنوب، وكان «أمينتاس Amyntas» ملك غلاطية قد حاول إخضاع هذه العشائر فجرّد عليهم تجريدات متتالية، وقبض على زعيمهم وقتله، ولكنه وقع قبيل السنة ٢٥ ق.م. في كمين نصبته له زوجة الزعيم القتل فقتل هو بدوره، ومع أن أمينتاس الملك الصديق الموالي خلّف من يخلفه في الملك، فإن أوغوستوس ضم مملكته إلى الدولة الرومانية، وأمر بإدارة شئونها مباشرة، وأنشأ في أنطاكية بيسيدية المجاورة جالية قيصرية عسكرية مؤلفة من فرقتين الخامسة الغالية والسابعة المقدونية لصد هجمات القبائل ومعاقبته.

وثار الهومانليون³⁵ في السنوات العشر الأخيرة قبل الميلاد، واستعصوا وامتنعوا في معاقل صعبة المنال في الجبال الفاصلة بين بمفيلية وتروغيتس، فوكل أوغوستوس أمر إخضاعهم إلى «كويرينيوس Sulpicius Quirinius»، الذي كان قد دوّخ قبائل القيروان في منطقة قيرونة، وجعله قنصلًا وواليًا على غلاطية وبمفيلية في آن واحد؛ ليتمكن من حصر الهومانين قبل إخضاعهم، ونكاد لا نعلم شيئًا عن القوات التي جرّدها كويرينيوس على هؤلاء العصاة، ولعلها كانت كبيرة؛ لأنه ضرب الحصار على أربعة وأربعين معقلًا في آن واحد، وهناك ما يدل على أنه استعان ببعض فرق سورية ومصر،³⁶ وانقطع المدد وقلّ الزاد، فاستسلم الهومانليون فنقلهم كويرينيوس إلى المدن المجاورة، وأجبرهم على الإقامة فيها، ونشأت جاليات عسكرية جديدة، خمس في جنوب أنطاكية بيسيدية للمحافظة على القانون والأمن،³⁷ وربطت هذه الجاليات بالجاليات القديمة بشبكة من الطرق الرومانية عُرفت بـ «السبسطية viae Sebastae»، وأنشئت في هذه الفترة نفسها.³⁸

وفي السنة ٦ ب.م. نكّب الآسوريون المجاورون عن الطاعة، ولجئوا إلى السلب والنهب، فكان لا بد من مطاردتهم مدة غير قصيرة،³⁹ ثم استأمنوا وتحضروا متقبلين المندية اليونانية الرومانية، وظل إخوان لهم في جبال «قيليقية الغربية Cilicia Tracheia» جافلين شاردين حتى العهد البيزنطي.⁴⁰



هجوم روماني من فوق.

(٦) ثورة في أرمينية

ولم يطل حكم صديق رومة دكران الثاني، فإنه مات قبل السنة ٦ ق.م.، فثارت أرمينية في وجه رومة، وأجلس أخصام رومة دكران الثالث، فطلب أوغسطس إلى طيباريوس أن ينهض إلى أرمينية فامتنع وآثر الانعزال في رودوس، فأجلس أوغسطس بقوة جنود ارتفسدة أخوا دكران الثاني على عرش أجداده، فغذت برتية الحزب المناوئ، فكان انقلابٌ أدى إلى خروج مرشح رومة والجنود الرومانيين الذين حموه، وكان الكبر قد مس أوغسطس فلم يستطع تولي أمر أرمينية بنفسه، فانتدب غايوس قيصر ابن أغريبة، وجعله بروقنصلاً، ومنحه صلاحيات واسعة على غرار ما تمتع به والد غايوس من قبل، وأحاطه بعدد من المستشارين يتزعمهم «لوليوس Lollius»، الذي كان قد نظم ولاية غلاطية، وعرف الشرق وفهم أموره ومشاكله.⁴¹

وتهيأ غايوس وتجهّز، وجاء أثينة وقام منها إلى جزيرة ساموس فوفد عليه طيباريوس مرحباً مهنتاً، ولكن غايوس استقبله استقبلاً بارداً عملاً بمشورة لوليوس،⁴²

وانتقل غايوس من ساموس إلى مصر متفقدًا كما سبق وفعل في ولايات الغرب، ولا صحة — على الأرجح — في القول إنه أراد أن يؤمن الاستعدادات الضرورية لحملة جديدة على الجزيرة العربية،⁴³ ونهض من مصر إلى سورية، حيث بدأ يمارس صلاحياته القنصلية (١٠٠ م.).

وما حَرَّض فراتاكس الأرمن على الثورة، وما حَسَّن وما زَيَّن إلا ليثبت عرشه في برتية ويقوى فيها على الأشراف، الذين لم يروا فيه زكاء المغرس وشرف المنبت، ولم ينسوا أنه كان ابن الجارية الإيطالية، فلما ظهر خبر الحملة التي أعدها أوغوستوس وأُسند قيادتها إلى غايوس خاب رجاء فراتاكس وأخفق، ففاوض أوغوستوس على أساس تسليم الأخوة الأربعة أبناء أبيه الذين كانوا لا يزالون قائمين في رومة، فامتنع أوغوستوس ووصم فراتاكس باغتصاب الملك، وطلب إليه أن يسحب عملاءه من أرمينية، فرد فراتاكس هذا الإنذار بمثله، ثم مات أرتفسدة مرشح رومة فأوفد دكران الثالث إلى رومة من حمل الهدايا ورجا الاعتراف به ملكًا على أرمينية، فقبل أوغوستوس الهدايا، واعتبر الطلب بالاعتراف اعترافًا بسيادة رومة، وكتب إلى دكران الثالث أن يتوجه إلى سورية، ويقابل غايوس فيها.

وبعد وصول غايوس إلى سورية خَفَض فراتاكس من غلوائه، وكَفَّ عن المطالبة بالأخوة الأربعة، وأعلن استعداده لعدم التدخل في شئون أرمينية، فاجتمع إلى غايوس على جزيرة في نهر الفرات، وتم الاتفاق بين الاثنين على هذه الشروط، واعتبرا الفرات حدًا فاصلًا بين الدولتين (٢٠٠ م.)، وشاهد «فيلپوس باتركولوس Velleius Paterculus» هذه المقابلة بأم عينه، وكان آنئذٍ تريبونًا في إحدى الفرق الرومانية، فقال إن الجيشين اصطفا كل عند الضفة الخاضعة لدولته، وإن ممثلي الشرق والغرب التقيا على جزيرة يحف بكل منهما حرس يوازي حرس الآخر، وإنهما تبادلوا عبارات المجاملة وتآدبا، فقبل فراتاكس الدعوة أولًا ثم غايوس، وشكا فراتاكس لوليوس إلى سيده غايوس، واتهمه بقبول الرشوة، فانتحر لوليوس وخلفه في مجلس المشورة «كويرينيوس Sulpicius Quirinius».⁴⁴

ولم يرَض الأرمن الموالون لبرتية عن خضوع دكران الثالث لرومة، فكانت حرب مع البرابرة أثارها أصدقاء برتية، وتوفي دكران، واعتزلت شقيقته وزوجته فانقطعت السلالة المالكة في أرمينية، فقدم غايوس التاج الأرمني إلى «أريوبازة Ariobazanes» ملك مادي، وكان أريوبازة رجلًا وقورًا حكيمًا، ولكن الحزب الموالي لبرتية لم يقبل به ملكًا على أرمينية، فاضطر غايوس أن يؤيد هذا الملك بالقوة، وفيما هو يحاصر «أرتجيرة Artagira» طلب

صاحبها مقابلته؛ ليفضي إليه ببعض الأسرار، فاجتمعا فحاول الأرمني اغتيال غايوس فلم يفلح، ولكنه جرحه جرحاً ترامى إلى الفساد، ثم سرى إلى نفسه فمات غايوس في إيطالية في السنة ٤٥ ب.م.، وتوفي أريوبازة بعد ذلك بقليل، فخلفه ابنه ارتفسده فُقتل، فأجلس أوغسطس دكران الرابع على عرش أرمينية في حوالي السنة ٦ ب.م.، فأكره على التنازل، فأجلس أوغسطس زوجة دكران الثالث الملكة «إراتو Erato» فأكرهت هي أيضاً على التنازل، فشغل عرش أرمينية مدة من الزمن، ومات أوغسطس والعرش لا يزال شاغراً.

وبعد وفاة غايوس ثار أشراف برتية، وخلعوا فراتاكس، وأقاموا «هيروُدس Hyrodes» ملكاً عليهم، ثم اغتالوا الملك الجديد لقساوته وحدة طبعه، وأرسلوا وفدًا إلى رومة يرجون إرسال «فونونه Vonones» أكبر أبناء فرآتس الرابع؛ ليحكم البلاد ويدبر شئونها، فوافقت رومة، وتولى فونونه ما بين السنة ٦ والسنة ٨ ب.م.،⁴⁶ ولكن النبلاء لم يرضوا عنه؛ لأنه كان قد تخلق بأخلاق الرومان، فلم يركب متون الجياد، ولم يرغب في الصيد، فدعوا «أرتبان Artabanus» أحد أمراء قبائل الداهاي الضاربة في شمال هركانية موطن «الأراسكة Arsacid» لتولي مقاليد الحكم والملك، فاستتب له الأمر بعد قتال قصير الأمد، وجلس على عرش برتية في السنة ١١-١٢ ب.م.،⁴⁷ ولجأ فونونه إلى أرمينية طامعاً في عرشها.

(٧) الدفاع عن الفرات

وأبقى أوغسطس أربع فرق في شمال سورية للدفاع عن الفرات والشرق بكامله، وكانت هذه «الفرق الغالية الثالثة III Gallica»، و«المدرعة السادسة VI Ferrata»، وفرقة «المضيق العاشرة X Fretensis»⁴⁸، أي مضيق صقلية، والفرقة «المرعدة الثانية عشرة XII Fulminata»، وأيدت هذه الفرق قوات مساندة نجهل عددها، وأقامت الفرق والقوات المساندة في المدن السورية الشمالية، أو في ضواحيها لا في القلاع والحصون والأبراج كما في الغرب، فقلَّ انضباط الجنود وتضاءلت خشونتهم،⁴⁹ ولم تخل أنطاكية عاصمة الولاية من الجند، ولكن قورش كانت قاعدة رومة العسكرية، وفيها استقرت «فرقة المضيق العاشرة X Fretensis»، وأقامت «الفرقة السادسة المدرعة VI Ferrata» في اللاذقية أو في جوارها، كما احتلت إحدى الفرق مدينة رمنية بالقرب من حمص.⁵⁰

(٨) ولاية سورية

ووسّع بومبايوس ولاية سورية، وجعلها تشمل الساحل الفلسطيني من جبل الكرمل حتى غزة، وجعل عاصمتها أنطاكية،⁵¹ وعمل بمفهوم الدولة آنئذٍ، فشجّع الانتظام المدني ولا سيما حيث كان العنصر اليوناني قويًا، أو حيث كان التهلل شديدًا، فاستقلت معظم المدن السورية في كثير من شئونها الداخلية، وشجع التعاون بين بعض المدن النائية ليسهل عليها الدفاع عن النفس في المشاكل المحلية، فنشأت «جامعة المدن العشر Decapolis» في شرق الأردن وحواران حتى الغوطة، وشملت هذه الجامعة دمشق في أقصى الشمال، وعمان Philadelphia في أقصى الجنوب، وبيسان Scythopolis على ضفة الأردن الغربية، وفحل Pella و«جرش Gerasa» و«قنوات Kanatha» و«رفح Rafana» و«الحصن Dion» وأم قيس Gadara وفيق Hippos،⁵² ومهد لنجاح هذا النظام المدني فطرد الطاغية اليهودي سيلاس من جسر «شغور Lysiade»،⁵³ وضرب العيطوريين في معاقلهم في تلال لبنان، ولا سيما في جرد جبيل والبترون، وأمر بديونييسيوس أمير طرابلس و«كنراس Kinras» أمير جبيل فقتلا، وأكره بطليموس ابن «منايوس Mennaeos» أمير عنجر Chalcis على دفع ألف وزنة،⁵⁴ وأبقى بومبايوس الإمارات الوطنية المستقلة، إما لتفصل بين رومة وبين منازرتها برتية، فتنحمل الصدمات الأولى على أقل تقدير، وإما لتؤمن الأمن عند الحاجة، فاستمرت إمارة الرها العربية في الشمال الشرقي بيد أباجرتها، وإمارة العيطوريين العرب في البقاع وحتى وادي بردي، وإمارة شمسي غرام العربي في حمص وضواحيها، ومملكة الأنباط العرب في جنوب الأردن وحتى الحجاز، وجعل من فلسطين دولة يهودية ثيوقراطية، كما سيذكر في محله.

ورأى أوغوستوس أن جبال طوروس العالية فصلت قيليقية عن سائر آسية الصغرى، وأن حاجز الأمانوس الذي فصل سورية الشمالية عن قيليقية لم يكن صعب المرتقى، وأن الممر الأرسلاني الذي ربط القوروشية ومدينة «الإصلاحية Nicopolis» بسهول قيليقية كان عريضًا، لا يعلو في أعلى أعاليه أكثر من ثلاثة آلاف قدم، وأن ممر بيلان لم يعل أكثر من ألفي قدم، فضم في السنة ٢٧ ق.م. «قيليقية السهل Cilicia campestris» إلى ولاية سورية، ووكل أمور هذه الولاية إلى مفوض «قائد سابق legatus pro praetore» من رتبة قنصل، فأمسى والي سورية أعلى رتبة من جميع ولاة الإمبراطورية.⁵⁵

وحكم الوالي الروماني سورية الشمالية حكمًا مباشرًا، وظلت سورية الجنوبية خارج المدن الحرة خاضعة للأميري حمص وعنجر، يردان عنها غزوات البدو من الشرق

ومطامع العشائر اللبنانية المعتصمة في السلسلتين الغربية والشرقية، وظل «ابن زينون Zenodorus» شيخ المشايخ tetrachus والكاهن الأعلى مسيطراً على وادي البقاع وبعلبك ومنحدرات السلسلتين اللبنانيتين الغربية والشرقية والغوطة وحوران حتى السنة ٢٤ ق.م.⁵⁶ فلما غفل عن واجبه وأهمل مراقبة الأمن في مناطقه سُلِخت عن إمارته اللجا Trachonitis و«البثنية Batanaea» و«حوران Auranitis» وضمّت إلى منطقة هيرودس، ولدى وفاته في السنة ٢٠ ق.م. ألحقت بعهدة هيرودس أيضاً المنطقة الواقعة بين الجليل واللجا، وفي السنة ١٤ ق.م. قضت ظروف رومة الداخلية — كما سبق وأشرنا — بإقطاع إبطال الحرب الأهلية أراضي يستغلونها، فجاء أغريقية بالفرقتين المقدونية الخامسة Legio Macedonica والأوغوسطية الثامنة Legio Augusta، وأنزلهما في بيروت وبعلبك، وأوجب عليهما صد غزوات العشائر اللبنانية، وفرض هبّية رومة عليها،⁵⁷ وظلت هذه العشائر تركب هواها وتصرّ على غيها، فاضطر كويرينيوس في السنة ٦-٧ ب.م. أن يجرّد عليها حملة منظمة، وأن يدخل بعض أفرادها في قوات رومة المساندة،⁵⁸ ثم قسّمت رومة الإمارة العيظورية العربية إلى ثلاثة إمارات: إلى إمارة «عنجر Chalcis»، وإمارة «وادي بردي Abila»، وإمارة «عركة Arca»، واستمرت هذه الإمارات مستقلة استقلالاً إدارياً داخلياً حتى نهاية القرن الأول.⁵⁹

(٩) ولاية سورية

وكان الولاة الذين تعاقبوا في الحكم في عهد بومبايوس وقيصر وأنطونيوس قادة جيوش، دأبهم الدفاع عن الحدود وتحديدتها وتوطيد السلطة في داخل الولاية، ولم يمثلوا رومة في الشرق بقدر ما مثلوا بومبايوس أو قيصر أو أنطونيوس.

وتولى السلطة في عهد بومبايوس يمينه «سكوروس Marcus Aemilius Scaurus» و«us» (٦٥-٦٢ ق.م)، ثم «مركيوس Lucius Philippius Marcius» (٦١-٦٠)، و«مركلينوس Gnaeus Cornelius Lentulus Marcellinus» (٦٠-٥٧ ق.م)، وتولى بعدهما «غابينيوس Aulus Gabinius» (٥٧-٥٥)، ثم «كراسوس Licinius Crassus» (٥٤-٥٣)، و«كاسيوس Gaius Cassius Longinus» (٥٣-٥١)، و«بيبولوس Marcus Bibulus» (٥١-٥٠)، و«فينتو Vejento» (٥٠-٤٩)، و«سكيبو Metellus Scipio» (٤٩-٤٨).

وأُسند يوليوس قيصر ولاية سورية إلى كل من «سكستوس Sextus Caesar» (٤٧-٤٦)، و«بسوس Caecelius Bassus» (٤٦)، و«فيتوس Antistius Vetus» (٤٥)،

و«ستاتيوس L. Marcus Staius» (٤٤)، وعاد كاسيوس إلى سورية بعد مقتل قيصر وتولى شئونها (٤٤-٤٢)، وسيطر أنطونيوس على شئون الشرق بعد فيليبى (٤١-٣٠)، فأسند ولاية سورية إلى «سكسة Lucius Decidius Saxa» (٤١-٤٠)، و«فنتيديوس Publius Ventidius» (٣٩-٣٨)، و«سوسيوس Qaius Sosius» (٣٨-٣٧)، و«بلانكوس Lucius Monatius Blancus» (٣٥)، و«بيبلوس L. Calpurnius Bibulus» (٣٢-٣١). أما الولاة في عهد أوغوستوس، فإنهم «ديديوس Q. Didius» (٣٠)، و«مسلة Marcus Tullius Cicero» (٢٩)، ثم شيشرون؟ (٢٨)، و«فارو Varro» (٢٣-)، «فماركوس أغريبة Marcus Agrippa» (٢٣-١٣)، و«تيتيوس Marcus Titius» (١٠-)، و«سترنينوس Gaius Sentius Saturninus» (٩-٦)، و«فاروس Publius Quinctilius Varus» (٦-٤)، و«غايوس قيصر» (١-٤ ب.م.)، و«سترنينوس L. Volsius Saturninus» (٤-٥ ب.م.)، و«كيرينيوس Publius Sulpicius» (٦-٧)، و«سيلانوس Q. Caecilius Creticus Silanus» (١٢-١٧). وجاء بعد هؤلاء في أيام طيباريوس قيصر (١٤-٣٧) «بيسو Gnaeus Calpur-nius Piso» (١٧-١٩)، و«سترنينوس Gaius Sentius Saturninus» (١٩-٢١)، و«لميا Aelius Lamia» (٣٢-)، و«فلاكوس L. Pomponius Flaccus» (٣٢-٣٥)، و«فيتاليوس Lucius Vitellius» (٣٥-٣٩)، وتولى في عهد «غالغيولا Galigula» (٣٧-٤١) «بترونيوس Publius Petronius» (٣٩-٤٢)، وعين كلوديوس (٤١-٥٤) كلاً من «مرسوس Gaius Vibius Marsus» (٤٢-٤٤)، و«كاسيوس Gaius Long-inus Cassius» (٤٥-٥٠)، وهو القاضي الشهير لا قاتل قيصر، وجاء بعده «كوادراتوس Gaius Ummidius» (٥٠-٦٠)، وجاء في عهد نيرون كوربولو (٦٠-٦٣)، ثم «غالوس Gaius Gestius Gallus» (٦٣-٦٦)، ثم «موكيانوس Gaius Lucinius» (٦٦-٦٩) ⁶⁰.

هوامش

- (1) STRABO, 11:520 ff.
- (2) XENOPHON, *Anabasis*, 4:2-3.
- (3) JOSEPHUS, *AJ*, 13:419-421; PLUTARCHUS, *Lasc.*, 21.

(4) STRABO, 11; TACITUS, *Ann.*, 12–15; DIO CASSIUS, 68; ASDOURIAN, P., *Die Politischen Beziehungen zwischen Rom und Arminien*, (1911); BAUM-GARTNER, *Armenia, Real-Encyc.*; STURM, *Persarmenia, Real-Encyc.*

(5) ROSTOVTZEFF, M., *Cam. Anc. Hist.*, XI, ch. III; DEBEVOISE, N.C., *Pol. Hist. of Parthia*, (1938).

(6) ANDERSON, J., *The Parthian and Armenian Problems*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 257.

(7) GILES, P., *Proceedings of the Cambridge Philological Society*, 1929, 1.

(8) *Lex Trebonia, de provinciis consularibus*.

(9) TARN, W.W., *Parthia, Cam. Anc. Hist.*, IX, 606–612; GROEBE, P. *Hermes*, 1907; CICERO, *De Div*, 1:16.

(10) CASSIUS, “*Quaestor pro Praetore*”; DIO CASS., 40:28–29.

(11) DIO CASS. 49:24–31; App. 5:133; Liv. Per. 130.

(12) MOMMSEN, Th., *Provinces of the Roman Empire*, II, ch. IX, GUNTHER, A., *Beitrag zur Gesch. de Kriege zwischen Romer und Parthers*, (1922); DEBEVOISE, N.C., *Pol. Hist. of Parthia*, (1938).

(13) DIO CASS. 51:18.

(14) VIRG. Aen. 7:606; HORATIUS, *Odes*, 1:12, 53 f.

(15) ANDERSON, J., *The Eastern Frontier under Augustus*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 255–257.

(16) STRABO, 14:671.

(17) TAGTTUS, *Ann.* 13:34.

(18) RES Gestae, 27.

(19) DIO CASS. 51:18; JUSTIN 43:5, 6.

(20) DIO CASS. 53:33; MAGIE, D., *Class. Phil.*, 1908, 145 f.

(21) DIO CASS. 54:8; Vell. Pat. 2:91; SUETONIUS, Aug. 21.

(22) *Cam. Anc. Hist.*, Plates IV, 148 a.

(23) *ibid.*, 200 a.

- (24) OVID, *Fasti*, 5:597; *CIL*, I, 229, 318.
- (25) DIO CASS, 54:9.
- (26) RES Gestae, 32; SUET., *Aug.*, 21, 43; TAGITUS, *Ann.* 2:1.
- (27) JOSEPHUS, *Ant.*, 18:41.
- (28) STRABO, 11:496; OVID, *Ex Ponto*, 4-:10, 25 f.
- (29) "Amici Populi Romani", MUNSTERBERG, R., *Jahresh.* 1915, 315 f.
- (30) STRABO, 11:495; PSEUDO-LUCIAN, *Makrobici*, 17.
- (31) DESSAU, *Eph. Epigr.* IX, 394; *Cam. Anc. Hist.*, vol. of Plates, IV, 208 j.
- (32) DIO CASS., 54:24; ROSTOVITZ, M., *Journ. Rom. Stud.*, 1917, 41 f.
- (33) STRABO, 11:495; *Cam. Anc. Hist.*, PLATES, IX, 208 k.
- (34) ANDERSON, J., *The Bosporan Kingdom*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 265-270.
- (35) HOMANADEIS (Strabo), HOMANADENEIS (Tacitus), STRABO 12:569; TACITUS, 3:48; PLIN., N.H., 5:94.
- (36) SYME, R., *Journ. Rom. Stud.*, 1933, 24, KLIO, 1934, 144 f.
- (37) OLBASA, *Comama, Cremno, Parlais, Lystra*.
- (38) *CIL*, III, 12217, 14185, 14401 a-c, *Journ. Rom. Stud.*, 1920, 102 f.
- (39) DIO CASS., 55:28.
- (40) TACITUS, *Ann.* 12:55; AMMIANUS MARCELLINUS, 14:2.
- (41) RES GESTAE, 27; TACITUS, *Ann.* 2:3-4.
- (42) SUET., *Tiberius*, 12; Dio Cass., 55:10, 19.
- (43) VELL., PAT., II, 101; SUET., *Aug.*, 64.
- (44) VELL. PAT., 2:102; PLIN, N.H., 9:118; Tacitus, *Ann.*, 3:48.
- (45) DESSAU, 140, I, 26.
- (46) RES GESTAE, 33; TACITUS, 2:1; JOSEPHUS, *Ant.*, 18:46 f.
- (47) SCHUR, W., *Orientalpolitik des Kaisers, Nero*, 70 ff.
- (48) TACITUS, *Ann.* 4:5; VELL. PAT. 2:112.
- (49) TAGITUS, *Ann.* 13:35.

- (50) TAGITUS, *Ann.* 2:57, 79.
- (51) PLUTARCHUS, *Pomp.* 30:2; VELL. 2:37; JUSTIN, 4:2; App., *Mith.*, 106; BOUCHÉ-LECLERCQ, *Hist. des Séleucides*, I, 443.
- (52) JONES, A.H.M., *Cities of Eeastern Rom. Empire*, 260, 454, n. 42–45; ABEL, F.M., *Hist. de la Palestine*, (1952), I, 263–264.
- (53) JOSEPHUS, A.J., 14:40.
- (54) STRABO, 16:2; EUTROP. 6:14; Jos., A.J., 16:39.
- (55) ANDERSON, J., *Class. Rev.*, 1931, 190, *Eastern Frontier under Augustus*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 279–280.
- (56) STRABO, 16:755–756; JOSEPHUS, *Ant.* 15:10, *Bell. Jud.*, 1:20.
- (57) *CIL*, 161 f.; STRABO, 16:756; PLIN., H.H., 5:17; ECKHEL, *Doctr. Num.* III, 335, 356.
- (58) DESSAU, 2683; MOMMSEN, Th., *Epig.*, IV, 537 ff.
- (59) BEER, *Ituraea*, *Real-Encyc.*; JONES, A.H.M., *Journ. Rom. Stud.*, 1931, 265 f.; JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, 2:18.
- (60) SCHURER, E., *Gesch. des Judischen Volkes*, I, 304–337.

الفصل الثامن

رومة واليهود العرب

(١) السلاقسة واليهود

واستغل أنطيوخوس الثالث العظيم ظروف البطالسة الداخلية فاكتمسح سورية الجنوبية «المجوفة» بأكملها، فأدخل في حوالي السنة ١٨٩ ق.م. فلسطين في طاعته، وخلفه سلقوس الرابع (١٨٧-١٧٥)، فأنطيوخوس الرابع (١٧٥-١٦٥)، ومضى هذا في سياسة التهليل، التي اختطها الإسكندر الكبير وحاول تطبيقها كثيرون من خلفائه، فحُصَّ على التخلق بأخلاق اليونان، وعلى اقتباس الكثير من عاداتهم وعلومهم وفنونهم على احترام آلهتهم وإكرامها، وحاول تهليل اليهود في فلسطين «فخرج من هؤلاء أبناء منافقون، فأغروا كثيرين قائلين: هلموا نعهد عهداً مع الأمم حولنا، فإننا منذ انفصلنا عنهم لحقتنا شرور كثيرة، فحسن هذا الكلام في عيون البعض، وبادروا يصنعون بحسب أحكام الأمم»^١، ونسي أنطيوخوس درجة تمسك اليهود بسننهم وتقاليدهم ودينهم، وفاته ما قاله هامان لاحشوروش الملك الفارسي: أنهم على انتشارهم وتفرقهم لا يحفظون سنن الملك،^٢ فلما كتب أنطيوخوس إلى أورشليم ومدن يهوذا أن يبتنوا مذابح وهياكل ومعابد للأصنام، وأن يذبحوا الخنازير والحيوانات النجسة ويتركوا بنيهم قُلُفًا، ويعذروا نفوسهم بكل نجاسة،^٣ خرج متتيا بن يوحنا بن سمعان من أورشليم وسكن في مودين، ثم قدم إلى مودين من أرسلهم الملك السلوقي؛ ليجبروا الناس على الذبح للآلهة، ولما أقبل رجل يهودي على عيون الجميع؛ ليذبح على المذبح الذي في مودين وثب عليه متتيا الكاهن وقتله على المذبح، وقتل رجل الملك أيضاً، وصاح بصوت عظيم قائلاً: كل من غار للشرعية وحافظ على العهد فليخرج ورائي، وهرب هو وبنوه يوحنا كديس وسمعان بطسي ويهوذا المكابي وأليعازر أوران ويوناثان أفوس إلى الجبال، فبدأت بذلك ثورة المكابيين (١٦٥-١٣٥ ق.م)، وتزعمها

أبناء متتيا يهوذا فيوناثان فسمعان،⁴ وشغلت السلوقيين مشاغل أخرى فتمكن سمعان من تحرير فلسطين واليهود فيها.

وفي السنة الثانية لزعامة سمعان (١٤٢-١٣٥) نادى اليهود به كاهناً أعظم، وقائداً عاماً، وأميراً يورث حقوقه وصلاحياته لأبنائه وأحفاده من بعده، فأسس سمعان بذلك الأسرة الحشمنائية، أي أسرة بني حشمنائي، ويلاحظ هنا، أن هؤلاء لم يكونوا من سلالة داود من حيث الحق في الملك، ولم يتحدروا من هارون ليصلحوا للكهنة، وذكر اليهود هذين النقصين، فجعلوا ملك هؤلاء محدوداً حتى الزمن الذي يظهر فيه نبي أمين، أي حتى الزمن الذي يتدخل فيه الرب الإله.

ولم يرَضَ جميع اليهود عن هذا التدبير لخروجه على التقليد، وازداد عدد هؤلاء المعارضين بتغافل الحشمنائيين وقلة اكتراثهم للناموس، فإنهم ما كادوا يستوون على دست الحكم حتى رغبوا في الدنيا واستبدوا في الناس، فأعلن الفريسيون استيائهم منذ أيام يوحنا هيركانوس بن سمعان المؤسس، وذلك بين السنة ١٣٥ والسنة ١٠٤، وما فتئوا متناكرين حتى عهد الملكة الكسندرة (٧٦-٦٧ ق.م).

وراقب السلوقيون تطور الموقف، فعاد أنطيوخوس السابع (١٣٨-١٢٩) إلى الميدان قبل وفاة سمعان المؤسس، وأكره ابن هذا يوحنا هيركانوس في السنة ١٣٥ على دفع الجزية وعلى هدم أسوار أورشليم، ثم خلف أنطيوخوس سلوقي ضعيف، هو ألكسندروس الثاني زيناس (١٢٨-١٢٣)، فاستعاد يوحنا استقلاله ووسع سلطانه، وأنشأ جيشاً من المرتزقة، وتصرف تصرف أمير زمني بكل معنى الكلمة، فزاد الفريسيين غضباً وكرهاً، وجاء ابنه أرسطوبولوس بعده فأظهر التكبر والتجبر ولبس التاج، فكنط الفريسيون، وتقلص ظل آمالهم، وكان أرسطوبولوس قد قيّد أخاه ألكسندروس وأمه، فلما توفي نزع الجند من أخيه القيد، وأخرجوه من الحبس فتولى الملك بعد أخيه، ولما استقام له الأمر (١٠٣-٧٦) تشوّق إلى المطاعم البعيدة، وأحبّ النزال والقتال، فكان لا ينتهي من حرب حتى يبدأ بغيرها، فاغبر الجو بينه وبين الفريسيين وتقوضت دعائم المودة، وحل عيد المظال ودخل ألكسندروس أورشليم، وصعد إلى المذبح في وقت قربان، فابتدأ قوم من اليهود يلعبون بسعف النخل ورمي الترنج، وهو نوع من الليمون، فأصاب ترنجة الملك فغضب أصحابه، وقالوا للفريسيين: كيف جسرتكم على الملك بهذا؟ فقالوا: ما فعلنا ذلك تهاوناً به، ولا جرى منا بالقصد، فلم يقبل الملك وأصحابه هذا الاعتذار لما في نفوسهم من عداوة للفريسيين، وتردد الكلام بينهم إلى أن شتم بعضهم الملك، فغضب الملك وأمر بالفريسيين فقتل منهم في ذلك اليوم ستة آلاف رجل، وعضد ألكسندروس

الصدوقيين فتأصلت العداوة بينهم وبين الفريسيين، واتصل النزاع بينهم ست سنين، قُتل فيها من الفريسيين خمسون ألف رجل، ثم حاول الملك أن يصلح فلم يتمكن، حينئذ طلب الفريسيون معونة السلوقيين، فسار «ديمترىوس الثالث أفكايروس Eukairos» المالك آنئذ في دمشق في جيشه مع من انضاف إليه من اليهود إلى أن نزلوا على شكيم «نابلس»، فخرج إليه ألكسندروس فهزمه ديمترىوس في حوالي السنة ٩١ ق.م.، وقتل أكثر رجاله، فهرب ألكسندروس إلى بعض التلال، «وجاء إليه كثيرون من اليهود الذين مع ديمترىوس»، فلما صار في عسكر كبير سار إلى ديمترىوس فردّه إلى سورية، ثم عادت الحروب بين ألكسندروس وبين الفريسيين فهزمهم، وقُتل كثيرًا منهم، وأخذ من كبرائهم ووجوههم ثمانمائة رجل فصلبوا وقُتلوا بين يديه، واستولى بعد ذلك على جميع اليهود وقهرهم.⁵

(٢) ألكسندرة ملكة اليهود

ثم اعتلّ ألكسندروس بحمّى الربع، وبلغه أن بعض المدن عصت عليه فسار لمحاربتها وهو عليل، ونزل على راجب بين جرش والأردن، وقويت علته وقرب أجله، فنصح زوجته ألكسندرة بأن تخفي موته إلى ما بعد فتح المدينة، وأن تعود إلى أورشليم، وتحمل جثته إلى قصره سرًّا، وتستدعي وجوه الفريسيين، وتخاطبهم بالجميل، وتكرمهم وتقول أنها عالمة بعداواته لهم، ولكنها لهم من بعده تفعل كما يشاءون، ومات ألكسندروس (٧٦)، ونفذت ألكسندرة وصيته هذه، فأجاب الفريسيون بالجميل ودفنوا زوجها مع آبائه، واستمالوا القوم إلى ألكسندرة، وأشاروا أن يملكوها بعده، فاستقام أمرها حتى السنة ٦٧ ق.م. بمعاونة الفريسيين.

وأطلقت ألكسندرة جميع من كان من الفريسيين في السجون، وردّت إليهم تدبير الناس وتمسكت بمذهبهم، وجعلت ابنها الأكبر هيركانوس كاهنًا أعظم؛ لأنه كان متواضعًا وديعًا خيرًا، وجعلت أخاه أرسطوبولوس — وهو الأصغر — صاحب الجيش، ولما قوي أمر الفريسيين جاءوا إلى الكسندرة، ومعهم ابنها هيركانوس، وطلبوا إطلاق يدهم في قتل رؤساء الصدوقيين؛ لأنهم هم الذين حملوا ألكسندروس على قتل الفريسيين وصلبهم. فقالت: افعلوا، فقبضوا على كبير من الصدوقيين مع جماعة وقتلوهم، فجاء الصديقيون إلى الكسندرة ومعهم ابنها الآخر أرسطوبولوس، وقالوا: إما أن تكفيهم عنّا، وإما أن

تطلقني لنا الخروج من المدينة، والتفرق في الضياع البعيدة، فقالت: اخرجوا، فخرجوا، ثم توفيت في السنة ٦٧ ق.م.⁶

(٣) أنتيباتروس أبو هيرودس

ولما مرضت ألكسندرة وأيس منها أرسطوبولوس ابنها الأصغر، خرج من أورشليم، واستنهض الصدوقيين على أخذ الملك، ففعلوا وجاءوا إليه من لبنان والجليل، فنزل بهم على الأردن، فخرج هيركانوس إليه بجيش الفريسيين فانهزم هيركانوس، فأصبح أرسطوبولوس الملك بالاسم أرسطوبولوس الثاني، وأمسى هيركانوس كاهناً أعظم.

ثم أقسد أنتيباتروس بين هيركانوس وأخيه، وكان أنتيباتروس قد تولى أدوم في عهد ألكسندروس، وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبأس ودهاء وحيلة ومال، فلما مات ألكسندروس عزلته ألكسندرة، فأقام في أورشليم ونشأت مودة بينه وبين هيركانوس، فحرّضه على أخيه أرسطوبولوس قائلاً: إنه يسعى لهلاكه، وأشار عليه أن يخرج ويمضي إلى الحارث ملك الأنباط، فرحب الحارث بالضيّفين، ومشى معهما على رأس خمسين ألفاً قاصداً أرسطوبولوس، فلما التقوا في السنة ٦٤ ق.م. استأمن كثيرون من رجال أرسطوبولوس إلى أخيه هيركانوس، فهرب أرسطوبولوس، ودخل أورشليم وامتنع فيها، فقام الحارث وهيركانوس وانتيباتروس إلى أورشليم ونازلوا المدينة، فاتصلت الحروب وعظمت الفتن، فانتقل كثيرون من أهل الخير والسلام إلى مصر.

وشملت أدوم في العصور القديمة كل ما وقع بين البحر الميت وبين البحر الأحمر، والأدوميون سكان أدوم عرب في الأرجح، سبقوا اليهود إلى تخوم فلسطين وناصبوهم العداء قروناً طويلاً، فلما تمّ السبي وأبعد اليهود إلى ما بين النهرين في أواخر القرن الثامن ق.م.، دخل الأدوميون اليهودية الجنوبية، واحتلوا حبرون الخليل وبيت صور، وغيرها شمالاً وغرباً، ثم كان ما كان من أمر الثورة المكابية والحروب بين اليهود والسلاقس، ومن هجوم أنطيوخوس من الجنوب عبر أدوم، فاضطر المكابيون أن يؤمنوا حدودهم الجنوبية، فزحفوا على الأدوميين في عهد يهوذا المكابي، وأخضعوهم وفرضوا عليهم التهود، ثم أقاموا على الأدوميين أحد أعيانهم انتيباتروس الأكبر حاكماً، فتحدر منه انتيباتروس الأصغر حليف هيركانوس وصديق الحارث وخصم أرسطوبولوس، وتزوج انتيباتروس امرأة أدومية مثله، ولدت له أربعة بنين: فزائيل، وهيرودس، وفيروراس، ويوسف. والقول أن انتيباتروس تحدر من أصل يهودي بابلي قول متأخر، جاء بعد وصول أبنائه إلى الحكم على اليهود؛ ليؤكد قدم عهدهم في اليهودية.⁷

(٤) بومبايوس واليهود

وعرف اليهود الرومان منذ عهد يهوذا المكابي واعتبروهم أصدقاء وحلفاء،⁸ فلما سمع اليهود بوصول «غابينيوس Gabinius» و«سكوروس Scaurus» إلى دمشق في مطلع السنة ٦٣ ق.م، أرسل كل من هيركانوس وأرسطوبولوس المتخاصمين وفداً يفاوض في طلب المعونة، ووصل وفد ثالث يمثل الفريسيين، ورجا إنهاء حكم الحشمنائيين وإعادة السلطة إلى يد الكهنة، ثم وصل بومبايوس نفسه إلى دمشق، ونظر في أمر اليهود فمال إلى جانب هيركانوس لقلّة طمعه وطموحه، ولكنه تظاهر بعدم التحيز، وأعلن رغبته في مطاردة الحارث الثالث «زعيم النهابين السّلاّبين»، ومشى سالكاً طريق الغور، ضامناً مفاجأة أرسطوبولوس وإملاء شروط عليه،⁹ ولما وصل إلى أريحا استدعى أرسطوبولوس إلى مقر قيادته، وأوجب دخول حامية رومانية إلى أورشليم ودفع غرامة معينة، فقدّم أرسطوبولوس مبلغاً من المال ومفاتيح المدينة المقدسة، ولكنه لدى عودته إليها ووصول غابينيوس بالحامية المفروضة امتنع عن السماح له بالدخول، فنجم عن هذا العمل حصار دام شهرين من الزمن، وأدى إلى إخضاع أرسطوبولوس وأعوانه (٦٣ ق.م)، ودخل بومبايوس المدينة حتى قدس أقداسها، وأعلن هيركانوس كاهناً أعظم ومدبراً لشئون ملته، وقبض على أرسطوبولوس وابنيه ألكسندروس وانتيجونوس وابنتيه وابشالوم، وأرسلهم إلى رومة؛ ليزينوا موكب نصره فيها، وهدم أسوار أورشليم، وأسر ألوفاً من اليهود وباعهم أرقاء في أسواق رومة،¹⁰ وحصر بومبايوس سلطة الكاهن الأعظم في اليهودية والجليل والسامرة و«بيراية Peraea» في قلب شرق الأردن، وحرر المدن في الساحل وفي عبر الأردن، كما سبق وأشرنا، وألحقها بولاية سورية، وكان بين هذه المدن «مدينة» السامرة.¹¹

(٥) الحارث الثالث ورومة

ورغب بومبايوس رغبة أكيدة في تدويخ الأنباط والسيطرة على مواردهم التجارية العظيمة، واندفع أمين ماله quaestor سكوروس يعدّ العدة للزحف على البتراء عاصمة الأنباط، فاضطرب أنتيباتروس صديق الطرفين أيما اضطراب، ثم حمل بريد آسية خبر انتحار متراداتس وانتهاء قضيته، وعلم الجنود بذلك فاعتبروا موت متراداتس مؤذناً بإنهاء المهمة الموكولة إليهم، فاستغل أنتيباتروس هذا الظرف الجديد وتوسط بين الحارث وبين بومبايوس، وتوصل إلى حل أرضى به الطرفين، فأقنع الحارث بدفع ثلاثمائة وزنة قصر بها خطى سكوروس وسيده.¹²

(٦) أولوس غابينوس

وعاد بومبايوس إلى آسية ومنها إلى رومة، وأقام أمين ماله سكوروس حاكمًا على سورية ودويلة اليهود، حاملًا لقب Pro praetore، وتبعه واليان بالرتبة نفسها، ثم اهتم السناتوس لشئون سورية، فكَبَّرَ حاميتها، وأَمَرَ عليها في السنة ٥٧ ق.م. «أولوس غابينيوس Aulus Gabinius» برتبة بروقنصل، وكان غابينيوس قد اشتهر منذ السنة ٦٧ ق.م. باهتمامه في شئون الولايات عبر البحار ودفاعه عن حقوق سكانها الآمنين المستأمنين، فما كاد يستلم أزمة الحكم في سورية حتى ضرب العشارين بيد من حديد، وعفا من دفع الضرائب من كان قد نكب في حوادث الفتح وغيرها، وكان الحشمنايون لا يزالون يطمعون في الحكم في فلسطين، ويهددون الأمن في سورية بلجوتهم إلى العنف، فعقد غابينيوس قلبه على تأديبهم وإخضاعهم،¹³ ففرض على أنصارهم الضرائب الثقيلة، وقسَّم دويلتهم إلى خمسة أقضية، وجعل لكل منها مجلسًا خصوصيًا يدبر شئونها، وأحيا عددًا من المدن السورية اليونانية التي دمرها الحشمنايون أو أهملوها، منها: السامرة، وبيسان، ودورة، وغزة، وقوَّى أنتيباتروس على حساب الحشمنايين، ولم يرضَ عن تردد السناتوس في موقفه في سير الأمور والحوادث في الشرق، فتدخل في شئون مصر، وأنهى الفوضى فيها، وأعاد بطليموس الحادي عشر Auletes إلى سابق سطوته متحملًا في ذلك مسئولية شخصية كبرى، واتخذ من برتية موقفًا حازمًا ولا سيما فيما تعلق بشئون أرمينية، ولكن العشارين الذين أوجعهم باللوم، وآخذهم بالذنب واقتص منهم، سوءًا أعماله وجعلوا ألسنتهم مبارد، فأنكروا عليه تدخله في مصر، واتهموه بقبول رشوة كبيرة من بطليموس، وتطور الموقف السياسي الداخلي في رومة، وأبعد أصدقائه عن الحكم فأوجب شيشرون محاكمته لارتكابه جرمًا عظيمًا majestas، وعلى الرغم من دفاعه عنه بعد شهر واحد وسحب الشكوى repetundae، فإنه اعتُبر مجرمًا في السنة ٥٤، وأبعد عن رومة.¹⁴

(٧) كراسوس والهيكل

وكان ما كان من أمر التحالف الثلاثي بين الثلاثة الكبار: بومبايوس، وقيصر، و«كراسوس Dives Crassus»، وأحب كراسوس أن يزهو بنصر عسكري كحليفه الآخرين، وطمع بأموال الشرق وعلق الآمال عليها، فعين في السنة ٥٥ ق.م. واليًا بروقنصلًا على سوريا وخلفًا لغابينيوس فيها، وقائدًا عامًا للحملة على برتية وما وراء الفرات، وما إن وصل إلى ولايته حتى بدأ بنهب «الهيكل hiersylia»، فسلب آلهة مبنج Bambice أموالها وجواهرها،

ودخل أورشليم فاستولى على كل ثمين في قدس أقداس الهيكل، ثم وقع في يد أعدائه في ميدان القتال بالقرب من حرّان في السنة ٥٣ ق.م.، فاستغل الحشمنوايون الكارثة التي حلّت بقوات رومة في الشرق فأعلنوها ثورة جديدة، وجعلوا من الجليل مسرحاً للقتال وحرب العصابات، ولكن أنتيباتروس ظل موالياً لرومة وتعاون مع كاسيوس، فقضيا على العصيان، وقبضا على ثلاثين ألفاً من أنصار الحشمنوايين في الجليل، وأمرا بـ «فيثولوس Pitholaus» زعيم الثورة فُضرب عنقه.¹⁵

(٨) قيصر واليهود

وتقاطع بومبايوس وقيصر بعد مقتل كراسوس وتصارما، وزحف قيصر على رومة في مطلق السنة ٤٩ ق.م.، واستولى على أزمة الحكم فيها، وفرّ بومبايوس إلى الشرق، وعلم قيصر أن السناتوس كان قد عين «متلوس سكيبيو Metellus Scipio» نسيب بومبايوس والياً على سورية، فأفرج عن أرسطوبولوس الحشمنائي، ووضع تحت تصرفه فرقتين من الجند، وأمره بالرجوع إلى فلسطين، ولكن أنصار بومبايوس دسوا لأرسطوبولوس سمّاً فمات، وأوعز بومبايوس نفسه إلى نسيبه سكيبيو أن يقضي على حياة ألكسندروس بن أرسطوبولوس، فاستدعى سكيبيو ألكسندروس وحاسبه على ما مضى من عصيان ذويه وحكم عليه بالإعدام، ثم انتصر قيصر في فرسلوس في صيف السنة ٤٨ ق.م.، ولجأ بومبايوس إلى مصر وقتل فيها، وتأثره قيصر فوصل إلى مصر بعد مصرعه ببضعة أيام، وتدخل في شئون مصر ومال إلى كليوبترة، فعارضه أخيلاس مناظرها وحصره في أحد القصور، فكتب قيصر إلى متراداتس برغاموس يطلب المدد، فاستصعب متراداتس النزول في ساحل مصر الشمالي.

ولم يلقِ أنتيباتروس اليهودي صديق بومبايوس أزمة أموره إلى أيدي المقادير، فإنه ما كاد يلمس تهلل وجوه اليهود لمصرع بومبايوس، واعتبار هذا المصرع جزاء اضطهادهم وتضييقه عليهم حتى انبرى يؤيد قيصر ويقول قوله. وهكذا فإنه عندما علم بما جرى لقيصر في الإسكندرية اتصل بأميري حمص وعنجر وبمالك ملك الأنباط، واستعان برجالهم وجيش ثلاثة آلاف يهودي، وقام إلى مصر عبر صحراء سينا، وكان قد خبر الصحراء في أثناء زحف غابينيوس عليها فوفّق إلى الاستيلاء على «الفرمة Pelusium»، وأنفذ هيركانوس الكاهن الأعظم إلى الأوساط اليهودية خارج الإسكندرية؛ ليحضهم على التعاون مع قيصر ففعلوا، وأعلنوا عدم الرضى عن أخيلاس رغم موقف يهود الإسكندرية،

ثم التقت قوات متراداتس البرغامي وقوات أنتيباتروس بجيش أخيلاس فانكفأ البرغاميون، ولولا حزم أنتيباتروس وبأس رجاله لما تمكن أصدقاء قيصر من التغلب على خصمه المصري،¹⁶ فأثنى قيصر على أنتيباتروس وأوصى به، ولما جلس في أنطاكية يدبر شئون سورية قبل قيامه إلى البونط لإخماد الثورة فيه اعترف بهيركانوس كاهناً أعظم، ومنح أنتيباتروس حقوق المواطن الروماني، وكان منحها عبر البحار لا يزال نادراً، وأعفاه من دفع الضرائب، واحتج أنتيغونوس بن أرسطوبولوس، وادعى أن أنتيباتروس لم يكن سوى مخادع مراوغ يعمل لصالح نفسه، فأجاب أنتيباتروس بالإشارة وأوماً إلى الجروح التي أصابته في حرب مصر، وأسكت قيصر أنتيغونوس وجماعته بأن أعلن هيركانوس كاهناً أعظم، وجعل الكهنوت الأعظم وراثياً لأولاده وأحفاده من بعده، وأطلق يد أنتيباتروس في حكم فلسطين، وسمح له بأن يحكمها كما يشاء، فترك أنتيباتروس نوع الحكم ومقدار السلطة لقيصر فعينه «محصلاً procurator»، وأمر بأن ترسل إلى الكبيتول في رومة وإلى هياكل صور وصيدا وعسقلان نسخ عن هذه الأحكام؛ تُتحفر على لوحات من البرونز، وتُعلق على جدرانها، وفي الثامن عشر من تموز من هذه السنة نفسها ٤٧ ق.م.، نهض قيصر من أنطاكية إلى البونط لتأديب العصاة، وعين والياً على سورية نسيبه وصديقه «سكستوس قيصر Sextus Caesar»، وفي هذه السنة نفسها أيضاً حدد قيصر كمية الضريبة على يهود فلسطين، فجعلها ربع مزروعات الحبوب، وأوجب تسليمها في صيدا لتُنقل منها إلى رومة، وفي السنة ٤٤ ق.م. سمح بترميم الأسوار في أورشليم وإعادة ثباتها إلى سابق مناعتها، وكبر هيركانوس الكاهن الأعظم وبرى الدهر عظمه فوافق على جعل فزائيل بن أنتيباتروس «ناظرًا praefectus» على مدينة أورشليم، وأخاه هيرودس والياً على الجليل.¹⁷

(٩) هيرودس والمجمع

وما كاد هيرودس يمارس صلاحياته في الجليل حتى اصطدم بـ «المجمع synedrion»، والمجمع في عرف اليهود آنئذٍ تألف من طبقات ثلاث: من وجوه الأسر الكريمة، ومن كهنة الكاهن الأعظم، ومن الكتبة أو الفقهاء الماهرين في علوم الناموس، ومعظمهم من الفريسيين،¹⁸ وسبب الاصطدام أن هيرودس ضرب بيد من حديد أفراد عصابة يهودية هددوا الأمن في الجليل وفي الأراضي السورية المتاخمة، وأنه قبض على زعيمهم حزقياً وأمر به فُضرب عنقه، فثار ثائر المجمع لإقدام هيرودس على الحكم بالإعدام وتنفيذه

قبل عرضه على المجمع وقبل موافقته، فنصح أنتيباتروس ابنه بأن يمثل أمام المجمع في أورشليم، وأن يجيء مستعداً متأهباً للدفاع عن سلامة شخصه في أثناء السفر، وألا يكثر من هذا الاستعداد؛ كي لا يثير الظنون في أنه جاء مهدداً ضاغطاً، ومثل هيرودس أمام المجمع في الهيكل، فخشي الفقهاء سطوته ولزموا الصمت، ولم يجرؤ على الكلام سوى شومية المحترم، الذي طلب الحكم بالموت على هيرودس، فنصح هيركانوس الكاهن الأعظم هيرودس أن يخرج من أورشليم ففعل، ولجأ إلى والي سورية سكستوس قيصر، وأخبره أن اجتهداه في تأمين الجليل أدى إلى الحكم عليه بالموت، فكافأه سكستوس بأن جعله والياً على سورية المجوفة «المدن العشر» والسامرة، بالإضافة إلى الجليل، وأطلق له عنانه فركب هيرودس سَجِيحَةً رأسه، ونهض إلى أورشليم نفسها على رأس قوة كبيرة، فخرج والده وأخوه وأكدا له أن يروم مراماً قصياً، فثنياه عن عزمه وقطعا عليه وجهته، فعاد هيرودس إلى الجليل مقتنعاً أن اليهود لا يراعون ميثاقاً ولا يثبتون على عهد، وأن مصلحته ومصلحة أسرته مربوطتان بمصلحة رومة.¹⁹

(١٠) كاسيوس يستأثر بالسلطة

ولجأ إلى صور بعد موقعة فرسلوس (٤٨) قائد روماني اسمه «كيكيلوس باسوس Caecilius Bassus» وقبع فيها، وكان من أنصار بومبايوس يحمل على قيصر حقداً لا ينحل، فلما غادر قيصر أنطاكية إلى آسية الصغرى؛ ليخمد الثورة في البونط، بدأ باسوس يخشن صدور الجنود والضباط على قيصر ويُشربهم عداوته، ثم نصب لسكستوس قيصر والي سورية الحبائل الخفية، فحالف أميراً عربياً اسمه الخيدون أو القيدون، كان يسيطر على عشائر عربية في غرب الفرات،²⁰ وإلى البرت في الشرق وفتك بسكستوس في خريف السنة ٤٥ ق.م.، وتسلم قيادة الجنود الذين كانوا بإمرة هذا الوالي، ولما جاءه «أنتيسيتوس Antistius Vetus» بجنود قيصر امتنع في أبامية في شمال سورية، وجاء الخامس عشر من آذار السنة ٤٤، وقتل قيصر ولجأ القتلة إلى الشرق، وشرعوا يستعدون للدفاع عن النفس، فتسلم زمام الأمور في سورية، أحدهم غايوب لونجينوس كاسيوس، وكانوا بأشد الحاجة إلى المال، ففاوض كاسيوس باسوس ورفع الحصار عن أبامية، وفرض المال في جميع أنحاء الولاية وأوجب أداءه، وخص اليهود بقسط وافر منه؛ لأنهم كانوا قد مالوا إلى قيصر وحزنوا على مقتله أينما كانوا، فجعل المال المفروض عليهم سبعمائة وزنة ... فنصح أنتيباتروس لابنيه أن يجمعا ما توجب عليهما، وأن يؤدياه في أقصر

وقت ففعلاً، ودفع هيرودس مائة وزنة حالاً وسريعاً، وكان هيركانوس الكاهن الأعظم قد قرَّب شخصاً يدعى مالكا؛ ليحد من نفوذ أنتيباتروس وولديه، وليرضي بذلك بعض الأوساط اليهودية، فتلکأ مالک في جمع المال وتقديمه، فغضب كاسيوس فباع سكان جفنة وعمواص ولدة وثمنه في أسواق الرقيق، وأمر بقطع رأس مالک، فدفع أنتيباتروس خمسين وزنة من ماله الخصوصي، وتشفع إلى كاسيوس في مالک، فقبل كاسيوس فظن مالک أن أنتيباتروس إنما فعل ذلك خوفاً واسترضاءً فركب رأسه وتآمر، فاضطر أنتيباتروس أن يلجأ إلى شرق الأردن وشرع يجند، وهبَّ ولده إلى معونته، فخشي مالک عاقبة الأمر، فمالق وداهن، وفي صيف السنة ٤٣، استمال مالک أمين الخمر في قصر هيركانوس ففسد هذا السم لأنتيباتروس فمات لساعته، وانتصر كاسيوس على دولابلة في تموز هذه السنة نفسها في اللاذقية، وضم جنوده إلى جيشه، وعاد إلى صور يدبر شئون الجنوب ويتقبل التهاني، وعلم بمصرع أنتيباتروس فأمر الترابة بإنزال العقوبة بالجاني، وأمَّ صور كل من هيرودس ومالك لتقديم الهدايا ورفع التهاني، فخرج الترابة لاستقبالهما، فطعنوا مالكا طعنات أتت على نفسه فخرَّ صريعاً على رمال صور.²¹

(١١) اليهود وأنطونيوس وكليوبتره

ونجح أصدقاء قيصر في الغرب، ووصل الثلاثة إلى الحكم في خريف السنة ٤٣ ق.م.، واضطر كاسيوس أن ينضم إلى بروتوس في سبيل الدفاع عن النفس، وكان بطليموس أمير عنجر العربي قد تزوج أخت أنتيغونوس بن أرسطوبولوس الحشمنائي، وكان أنتيغونوس مقيماً عند صهره في عنجر، فأحب هو وصهره أن يستغلَّ الظرف الجديد للوصول إلى منصة الحكم في أورشليم، وتفاهما ومريون حاكم صور لهذه الغاية، فهبَّ هيرودس وأسرع، ففاجأ مريون قبل اتصاله ببطليموس وكسره شر كسرة، ثم انتصر على بطليموس وأنتيغونوس عند حدود فلسطين الشمالية، وعاد إلى أورشليم «بطلاً مغواراً»، ورأى أن يستغل انتصاره ويربط بشخصه أسرته الحشمنائيين بزواج جديد، فخطب مريم بنت ألكسندروس بن أرسطوبولوس، ذاك الذي أُعدم في أنطاكية بأمر بومبايوس من زوجته ألكسندرة بنت هيركانوس، وكان قد تزوج «دوره Doris» بنت كاهن عادي. وجاء يوم فيليبي في خريف السنة ٤٢ ق.م.، وخلا الجو للثلاثة الكبار، فكان الشرق من نصيب أنطونيوس، وكان أنطونيوس قد عرف الشرق يوم كان لا يزال في السادس والعشرين من عمره مواكباً غابينيوس، وكان أيضاً قد عرف هيرودس وهو لا يزال غلاماً في

السادسة عشرة فأحبه وأعزّه، وما إن وصل أنطونيوس إلى بيتينية في أسية الصغرى حتى ضاق معسكره بالوفود المهنئة المباركة، وكان بين هذه الوفود وفدان يهوديان: هيرودس وجماعته، وعدد من الوجوه المخاضمين المناوئين، الذين شكوا فزائيل وأخاه هيرودس، وما كاد أنطونيوس يخرج من أفسس متجهاً شطر أنطاكية حتى أوقفه وفد هيركانوس الكاهن الأعظم، فقدّم هذا الوفد إكليلاً من ذهب ورجا أنطونيوس أن يعتق من استرقه كاسيوس من سكان المدن الفلسطينية الأربع، وأن يعيد إليهم أملاكهم، فقبل أنطونيوس الهدية، وأمر بالعق، وكتب بذلك إلى صور وصيدا وأرواد وأنطاكية، ثم وصل أنطونيوس إلى أنطاكية واستقر في دفنة، واستقبل فيها هيركانوس نفسه، وكان أخصام هيرودس لا يزالون يطالبون بإبعاده عن الحكم، فسأل أنطونيوس الكاهن الأعظم: «من أفضل قادة الأمة؟» فأجاب الكاهن: «هيرودس وجماعته»، فجعل أنطونيوس هيرودس وأخاه فزائيل تترارخين على فلسطين، وقبض على خمسة عشر وجيهاً من وجوه المعارضة، وكاد يفتك بهم لولا توسط هيرودس وشفاعته، ونهض أنطونيوس بموكبه إلى صور فتبعه إليها وفد المعارضة، واستقروا ألفاً خارج أسوارها، فخرج إليهم هيرودس وهيركانوس ونصحا إليهم بالرضوخ لأمر أنطونيوس وبالتفرق والعودة إلى أعمالهم، فأبوا، فانقض الجنود عليهم، وقتلوا منهم عدداً وجرحوا كثيرين، وظلّ الباقيون يتذمرون ويتضجرون فأمر أنطونيوس بمن قبض عليهم فقتلوا.²²

وجعل أنطونيوس «هيركانوس اثنارخسا ethnarches»، أي حاكم الشعب، ورفع كلاً من فزائيل وهيرودس إلى رتبة الإمارة فجعلهما تتراخسين، وكان اللقب «تترارخس tetrarches» يطلق أولاً على حاكم الربع من اتحاد رباعي، ثم أسمى في عهد الرومان يطلق على بعض الأمراء الذين دخلوا في طاعة رومة، وأضاعوا سيادتهم واستقلالهم، ولم يشترط أن يكونوا حكام أربع من اتحاد رباعي²³ ... ولم يبق لهيركانوس سوى اللقب، فإن كلاً من التترارخسين أصبح يتمتع بجميع صلاحيات الحاكم في ظل رومة.²⁴

ثم كان ما كان من أمر بكوروس البرتي وهجومه في السنة ٤١ على سورية وعلى أسية الصغرى، كما سبق وأشرنا، وتعاون أنتيغونوس الحشمنائي معه، وفرار هيرودس إلى مصر فرومة وتأييد أنطونيوس له، ورضي أوكتافيانوس عليه، وعودته من رومة ملكاً على اليهود بقرار من السناتوس، ونزل هيرودس في عكة في مطلع السنة ٣٩ ق.م.، وشرع يدوِّخ البلاد مبتدئاً من الجليل مستعيناً بأنصاره فيها، وتراجع البرت أمام قوات رومة، وعاد أنطونيوس إلى الشرق (٣٨ ق.م) وأمدّ صديقه بالمعونة، فكان قتال حاسم في

«وادي الحرامية» بين نابلس وبين أورشليم، وكان حصار جديد لمدينة القدس انتهى في السنة ٣٧ بتسليم أنتيغونوس، وقتله وبزواج هيرودس من خطيبته مريم الحشمتاوية.²⁵ وتزوج أنطونيوس كليوبترا (٣٨ ق.م.)، ورأى في التعاون معها مصلحة لرومة في الشرق، وطمحت هي إلى إعادة مجد أسلافها، فطمعت في سورية وقيليقية وقبرص، فألحق أنطونيوس بمصر قبرص وقيليقية الغربية وإمارة عنجر في البقاع اللبناني ومدن الساحل الفينيقي حتى مصب النهر الكبير ما عدا صور وصيدا، وأضاف عسقلان إلى مصر وشيئاً من شرق الأردن وأريحا وبساتينها؛ لتضمن قار البحر الميث الضروري لتحنيط المو وطلاء المراكب، ولبسم أريحا وتمرها الممتاز، ولولا حب أنطونيوس لهيرودس القديم لضمّت كليوبترا اليهودية بأسرها إلى مصر.²⁶

(١٢) هيرودس الملك

واستوى هيرودس بلقبه الملكي الجديد على عرش أورشليم اعتباراً من أول نيسان سنة ٣٧ ق.م.، وعالج قضية ملكه وموقف اليهود منه، فصعب الأمر عليه وقاصى فيه نصباً، وتفصيل ذلك، أنه لما شرع في توطيد دعائم عرشه، بدأ بالمجمع السينيذرون، فأمر بإعدام من أيد أنتيغونوس، فبلغ عددهم خمسة وأربعين من مجموع واحد وسبعين، وصادر أملاكهم وعين محلهم وجوهاً وكهنة موالين له، ولما كان لا يجوز له أن يتولى الكهنوت الأعظم؛ لأنه لم يتحدر من نسل هارون، رأى أن يستدعي هيركانوس من بابل؛ لأنه كان قد أمسى شيخاً كبيراً خذلته قوته وولّت شدته، ولأن البرت كانوا قد صلّموا أذنيه؛ ليشوهوا جسده، ويجعلوه غير لائق بالكهنوت، فرجا ملك البرت في ذلك فقبل فرأتس الرابع، فعاد هيركانوس واستقر في أورشليم موقراً معظماً، واستقدم هيرودس في الوقت نفسه كاهناً محترماً من يهود بابل كان يدعى حننايل، فجعله الكاهن الأعظم، ولكن ألكسندرة ومريم بنتها زوجة هيرودس لم ترضيا عن هذا التدبير، فطالبتا بالكهنوت الأعظم لأرسطوبولوس ابن الأولى وأخي الثانية، ووافقهما في ذلك المتطرفون من اليهود، وكتبت ألكسندرة إلى كليوبترا ورجت معونتها، ففاتحت كليوبترا أنطونيوس كلاماً في هذا الموضوع، فرفض أن يتدخل في شئون هيرودس إلى هذا الحد، فاستعانت كليوبترا بـ «ديليوس Dellius» أحد دهاة حاشية أنطونيوس وعشيقها السري، وأوفدته إلى أورشليم لعله يوفق إلى إفساد الجو فيها وإزعاج هيرودس، فأعجب ديلوس بجمال مريم الملك ونضارة أخيها أرسطوبولوس، وكان هذا لا يزال في السادسة عشرة متسرّبلاً بالملاحة والظرف، فنصح ديلوس ألكسندرة

بأن ترسل إلى أنطونيوس صورة ابنها وبناتها، ففعلت، فكتب أنطونيوس إلى هيرودس كتاباً لطيفاً رقيقاً يرجوه فيه إرسال أرسطوبولوس إليه، فاعتذر هيرودس مدعياً أن خروج الغلام من أورشليم يؤدي حتماً إلى الشغب والمتاعب، فألحت مريم وأنها أنه إذا كان لا بد من بقاء أرسطوبولوس في أورشليم فليُنصَّب كاهناً أعظم، فقبل هيرودس، فنحى حننايل وأقام أرسطوبولوس كاهناً أعظم، ثم كتبت كليوبترا إلى ألكسندرة أن تخرج وابنها من القصر في تابوتين، وأن يفرا إلى مصر، ففعلت ألكسندرة فاكتشف أمرها وقُبض عليها وعلى ابنها في الجرم المشهود، فارتاب هيرودس ونغل قلبه، وكان أحقر من جمل فنصب الحباط الخفية وأوعز إلى أخصائه، فأغرقوا الغلام وهو يستحم معهم في أريحا في بركة القصر لمناسبة الاحتفال بعيد المظال، وتدخلت كليوبترا للمرة الثالثة وأوجبت التحقيق في قضية مقتل الغلام ونقرت رأس أنطونيوس، فاستدعى هيرودس إليه في اللاذقية (٣٤ ق.م) واستوضحه الأمر، فلم يرَ ما يوجب العقاب، فأعادته إلى أورشليم نظيف اليدين عالي الجبين، وكان قد وكل أمور المملكة إلى عمه يوسف، وكان يوسف قد تزوج سلومة أخت هيرودس، وكانت سلومة قد سئمت العيشة مع زوجها، وزهدت فيه لل تفاوت بينها وبينه في السن، فاتهمته بحب مريم ومخادنتها في أثناء غياب هيرودس، فأمر هيرودس بعمه أخي أبيه فقتل، وكاد يأمر بمريم أيضاً، ولكن حبها ملك عنانه.²⁷ ثم حَسَرَ كل من أنطونيوس وأوكتافيانوس اللثام وتصارحا وتجالحا، فكان لا بد من لقاء حاسم في أكتيوم في الثاني من أيلول سنة ٣١ ق.م.، وعرض هيرودس خدماته لصديقه القديم أنطونيوس، ولكن كليوبترا التي كانت تغار على أنطونيوس من هيرودس مانعت، فمنعت ونصحت أنطونيوس بأن يعهد إلى هيرودس بالاقتصاص من مالك ملك الأنباط لتلكؤه عن دفع ما توجب عليه، وأعزت إلى ممثليها في البقاع وسورية القائد «أثينون Athenion» إلا يسمح لأحد الطرفين هيرودس ومالك بسحق الآخر، وكان هيرودس لا يزال حاقداً على مالك لامتناعه عن حمايته في وقت ضيقه، فجرد على مالك حملة، وانتصر عليه عند «ديون Dion» في حوران بين فيق والقنوات، وطارد اليهود الأنباط فتأثر أثينيون اليهود وضربهم ضربة أليمة! (٣٢ ق.م.)، وبينما كان هيرودس يعيد تنظيم صفوفه زلزلت الأرض زلزلاً في ربيع السنة ٣١ ق.م.، فهلك عدد كبير من اليهود قدر بثلاثين ألفاً، ولم يُصَب هيرودس وجيشه بأذى؛ لأنهم كانوا معسكرين في خيامهم في وادي الأردن، وعلم الأنباط بالكارثة فذبخوا الوفد اليهودي المفاوض عندهم، فتأجج هيرودس غضباً وتحرق، ثم عبر الأردن إلى السهل المنبسط في جنوب عمان Philadelphia، واستحوذ على الحصن الذي حمى الأنباط، ثم أعمل السيف فيهم فقتل خمسة آلاف وتشتت الباقون، ثم امتنعوا في

بعض المخابئ، ولكنهم اضطروا أن يستسلموا لقلعة الماء، ونادوا بهيرودس حامياً محامياً، وهكذا، فإنه عندما انقضت غيوم أكتيوم ووضح النهار بعدها ظهر هيرودس في عداد أعداء كليوبتره لا أصدقائها.²⁸

وفرّت كليوبتره، وعادت إلى مصر، ولحق بها أنطونيوس، وحاول بعض المجالدين من أنصار أنطونيوس الذين كانوا يتمرسون في كيزيكوس أن يلتحقوا بسيدهم عبر سورية وفلسطين، فتعاون هيرودس و«كونتوس ديدوس Quintus Didius» وإلى سورية، وقبضا على هؤلاء ومنعاهم من الوصول إلى مصر، ولكن هيرودس ظلّ على حيرة من أمره خابط ليل، لا يدري ما قد يحل به، وظنت ألكسندرة أن رياح النصر قد هبّت، وأن أشراط الفوز قد لاحت فاتصلت بمالك ملك الأنباط، ووصلت حبلاها بحبله، فخانها أحد الوسطاء، وأطلع هيرودس على جواب مالك، فإذا به ما يؤدي هيركانوس والحشمناوين على هيرودس، فاتهم هيرودس هيركانوس بالخيانة العظمى، وطلب إلى السينيذرون أن ينظر في الأمر، فحكم هذا المجمع على الشيخ المسن بالموت، فأعدم في أوائل السنة ٣٠ ق.م. وجلس أوكتافيانوس في ساموس، ثم في رودوس يدبر شئون الشرق، فرأى هيرودس أن يمثل بنفسه أمام سيد رومة فيعرض قضيته وخدماته، فأقام أخاه «فيرور Pheroras» نائباً عنه في غيابه، وأرسل والدته إلى قبرص، وشقيقته سلومة والأولاد إلى حصن «المسدة Massada» المطلة على البحر الميت عند طرفه الجنوبي، وأرسل مريم وأمها ألكسندرة إلى حصن «الإسكندريون Alexandrion» «قرن سرطبه» حالياً، ووكل المراقبة عليهما إلى يوسف أمين الخزنة وسهيم الأدومي، وأوصى بقتلهما في حال إخفاقه في مسعاه وإعدامه.

(١٢-١) فوزه في رودوس

ومثل هيرودس أمام أوكتافيانوس في جزيرة رودوس في ربيع السنة ٣٠ ق.م.، ولم يزين رأسه بالديانمة، ولم يعتذر ولم يستغفر، ولكنه صدق القول فذكر ولاءه لأنطونيوس وما قدّم له من خدمات، وقال: إنه لو لم يشغله أنطونيوس بحرب الأنباط لكان محارباً معه، وأكد أنه قدّم لأنطونيوس المال والحبوب أيضاً، وأنه ظل يؤيده حتى النهاية، ولكنه نصح له أن يبتعد عن كليوبتره بعد أكتيوم، وأن يقترب من أوكتافيانوس، وأضاف أنه يشارك صديقه أنطونيوس في الهزيمة، وأنه لا يستحق أن يلبس الديانمة. ثم قال: إني أرجو لا تذكر من صادقت، بل كيف صادقت من صادقت!

وكان أنطونيوس لا يزال حياً في مصر، وكان لا بد من القضاء عليه نهائياً، وكان هيرودس قد قرن أقواله بالفعل بتعاونه مع ديدوس، ومنع المجالدين من الوصول إلى

مصر والالتحاق بأنطونيوس. فوضع أوكتافيانوس نفسه الذازمة على رأس هيروُدس، وأكد له أنه لن يخسر شيئاً بانتهاء صداقة أنطونيوس. وقبل أوكتافيانوس دعوة هيروُدس، وعزم على دخول مصر عن طريق فلسطين.

(١٢-٢) تعاظم قدره بين قومه

وقبل أوكتافيانوس دعوة هيروُدس والتقى الاثنان في عكة، وواكب هيروُدس سيد رومة، وسار معه عبر الساحل الفلسطيني حتى حدود مصر محتفياً مجاً معظماً، وقدم المؤنة والماء للجيش المظفر وبات ينتظر النتيجة، ولم يعرّج أوكتافيانوس على أورشليم، ولم يشارك خاله العظيم في عطفه على اليهود، ولعل السبب في ذلك يعود إلى ما غرسه في نفسه أستاذه أثينودوروس، الذي نشأ في البتراء، وتشرب فيها شيئاً من الكره لليهود، والنفور من كبريائهم وتصلفهم، وقلة احترامهم لثقافة غيرهم.

وعلم هيروُدس بمصرع أنطونيوس، ثم سمع بمقتل قيصر و أنتيلوس بن أنطونيوس من زوجته الأولى، ثم استطار خبر انتحار كليوبترة، فقرّ باله وذهب مخاوفه، فنهض إلى مصر مهتئاً، وقدم ثمانمائة وزنة هدية من مملكته الصغيرة، أي ما يوازي نصف مليون ليرة استرلينية! فمأحضه أوكتافيانوس الود، ولمس أغريبة الرجل العظيم مواهب هيروُدس فقدره حق قدره، ورسخت بين الاثنين قواعد المحبة.

وأعاد أوكتافيانوس إلى هيروُدس سيطرته على أريحا ومواردها، وضم إلى مملكته «منطقة» السامرة، وأم قيس Gadara، وفيق Hippos، وغزة، ويافة، و«رأس استراتون Straton» على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب من حيفا، ثم منحه أربعمائة غلطي من حرس كليوبترة، وأضاف إليهم مربي أولادها نقولالوس الدمشقي،²⁹ ونقولالوس هذا كان يونانياً مثقفاً مهذباً لطيفاً رقيقاً، فاتخذه هيروُدس معلماً له، وأخذ عنه شيئاً من الفلسفة والبيان والتاريخ، وجعله مستشاراً يرجع إليه في كثير من الأمور، وممثلاً ينوب عنه في المفاوضات والعلاقات الخارجية، ولعله هو الذي عاون هيروُدس في تدوين ذكرياته التي استعان بها يوسيفوس في تاريخه المشهور.³⁰

(١٢-٣) أوغوسطوس والأنباط والعرب

ومات في السنة ٣٠ ق.م. مالك ملك الأنباط، وخلفه ابنه «عبيدة الثالث Obodas»، وكان هذا واقعياً أكثر من سلفه، فخضع وسالم، فتركه أوغوسطوس وشأنه.

واستدعى أوغسطس في السنة ٢٦ ق.م.³¹ كورنيليوس غالوس، ناظر مصر، للإجابة عما اتُّهم به من طموح وطمع، وعين سميّه «أليوس غالوس Aelius Gallus» ناظرًا محله، ثم أمر هذا بإعداد حملة على مملكة سبأ في جنوب الجزيرة العربية، وأسند نظارة مصر إلى «بترونيوس Petronius»،³² ويُسْتدل مما أدلى به قائد الحملة أليوس إلى صديقه سترابون³³ أن الأنباط لفتوا نظر أوغسطس إلى موارد سبأ التجارية العظيمة، وحسنوا له أمر إخضاعها، مؤكدين اشتراكهم وتعاونهم في ذلك، وكان تجار سبأ آنئذٍ يحصرون التجارة مع الهند عبر البحار فيبيعون سلعها بأعلى الأثمان، وكانوا يصدرون من بلادهم اللبان والمر والبخور، ويضيفون إليها التوابل على أنواعها والذهب، ويمتنعون عن التبادل التجاري، فلا يرضون إلا النقود بديلاً.³⁴

ويقول سترابون: إن غالوس أنشأ بالقرب من السويس في حوض أرسنوة ثمانين بارجة حربية، ثم علم أن ليس لدى خصمه المنتظر سفن حربية، فأنشأ مائة وثلاثين ناقلة للجنود، وأنه أقلع بعشرة آلاف إلى «الحوراء Leuke Kome» المرفأ النبطي، الذي كان يقع آنئذٍ عند مدخل وادي الحمد في أقصى حدود الأنباط الجنوبية،³⁵ وانضم إلى هذه الحملة خمسمائة يهودي، أنفذهم هيرودس لهذه الغاية، وألف نبطي بقيادة سلاوس وزير عبيدة، وما كاد الجنود الرومانيون يطؤون أرض الجزيرة حتى ألم بهم داء الاسكريبوت لقلة الخضار والماء الصالح للشرب، فاضطر غالوس أن يبقى وجنوده في الحوراء طوال صيف السنة ٢٥ وشتائها، وفي ربيع السنة ٢٤ نهض إلى الجنوب محملاً الماء على ظهور الجمال، وبعد سير دام أياماً عديدة، وصل إلى أرض الحارث نسيب عبيدة، فزوده بالحبوب والتمر والسمن، ويقول سترابون: إن سير غالوس في أرض الحارث استغرق ثلاثين يوماً، ثم وصل إلى نجران فأخذها عنوة، واستولى بعد ذلك على «نشك Nasca» و«براكش Athrula»، ثم وصل إلى مرياما لا مريابا «مأرب» التاريخية فامتنعت، فحُزب الحصار، فاضطر أن يتراجع لقلة الماء، وعاد إلى نجران، ومنها إلى مرفأ «إغرة Egra» النبطي فشاطئ مصر الشرقي، فمدينة قفط.³⁶

وهكذا، فإن أليوس غالوس لم يتمكن من فرض سلطة رومة على جنوب الجزيرة العربية، ولكنه بسط نفوذها وأوجب صداقتها كما يُستدل من نصوص سترابون،³⁷ والتاجر المصري المجهول صاحب الرحلة البحرية حول البحر الأريترى في منتصف القرن الأول بعد الميلاد،³⁸ وروى بلينيوس في أخبار السنة الأولى قبل الميلاد أن أوغسطس عاد فرغب في فرض سلطته على جنوب الجزيرة العربية بعد أن قرأ ما أعده «يوبة Juba» ملك موريتانية عن بلاد العرب، وأنه أدخل في برنامج غايوس قيصر حملة على البلاد

العربية،³⁹ وهو أمر مستبعد؛ لأنه لا يتفق وامتناع أوغسطس عن التوسع، ولا سيما في «العربية السعيدة» بعد خبرة آليوس غالوس، ولعل الهدف كان «العربية الصخرية Arabia Petraea» لاستخفاف حكومتها بولائها لرومة.⁴⁰

ويلاحظ أن وصول جيش روماني إلى جنوب الجزيرة العربية بقيادة آليوس غالوس، وإقامة حكومة قوية في مصر، سهلاً نقل السلع عبر البحر الأحمر إلى مصر والمتوسط، وشجعاً الملاحة في البحر الأحمر والخروج من باب المندب إلى المحيط الهندي، ولكننا نجهل ما إذا كان أوغسطس أنشأ أسطولاً في البحر الأحمر لحماية السفن الماخرة فيه؟ وجل ما نعلم، هو أن مثل هذا الإجراء لم يُتخذ قبل عهد تريانوس.

(١٢-٤) هيرودس يهْلَن اليهود

ولم يكن هيرودس يهودياً إسرائيلياً حشمناًوياً — كما سبق وأشرنا — وإنما كان يهودياً أدومياً عربياً، لا يرى في ابتعاد اليهود عن حضارة العصر مصلحة لهم، وكان سياسياً بالفطرة يحب المواصلة ويخشى القطيعة، ويسعى لتمكين أوأصر الألفة بين اليهود وبين رومة، والرومانيين أسياد العالم المتمدن آنئذٍ، وقال الرومان بالمدينة الهلينية السائدة، فرغب هيرودس في تهلين جماعته؛ ليضمن عطف رومة، ويحافظ على استقلال بلاده وقيامها بدور المملكة الموالية التي تعطي قيصرًا ما له وتبقي لليهود ما لهم، وكان قد ضرب وجوه المعارضة في السنة ٤٧ ضربة قاضية، فقتل منهم خمسة وأربعين وجيهاً وصادر أملاكهم، وأغرق في السنة ٣٤ أرسطوبولوس الصغير الكاهن الأعظم، ثم أمر بإعدام هيركانوس الكاهن الأعظم السابق في السنة ٣٠ كما سبق وأشرنا، وفي السنة ٢٩ أمر بمريم زوجته الحشمناءية فُقتلت، وألحق بها أمها ألكسندرة في السنة ٢٨، ومال إلى الصدوقيين، وجعل أحدهم «سمعان بن بويثيوس Boethius» الإسكندري كاهناً أعظم وتزوج بنته، فأيد الصدوقيون برنامج هيرودس الإصلاحى، وسعوا معه إلى التعاون مع رومة وتقبل الحضار الهلينية والابتعاد عن الأخذ بظاهر نصوص الناموس والتقييد بها.

وهكذا، فإننا نرى السينذرون يتحول من مجمع دولة ثيوقراطية إلى مجلس ملكي، فينظر مع الملك في الشئون الإدارية والسياسية، وتنحصر صلاحيات الكهنة في النظر في الأمور الدينية فقط، ونرى بلاط هيرودس يضم «الأقرباء والرفقاء والأصدقاء» كما كان يجري في دور الحكم الهلينية، ونرى بعض الوظائف الكبرى تسند إلى يونانيين، أو متهلنين من غير اليهود، وتُسك النقود فتحمل الكتابات اليونانية وتهمل التقاليد العبرية، ويؤم

العاصمة عدد من رجال الفكر اليوناني لتثقيف هيرودس نفسه ولتهديب أولاده، وقد سبقت الإشارة إلى نيقولاوس الدمشقي وتعاونه مع هيرودس، ولكن لا بد من الإشارة إلى مقدم رجال البيان اليوناني «إيريناوس Irenaeus» و«أنذروماخوس Andromachus» و«عميلوس Gemellus»، الذين عنوا بأبناء هيرودس، وعاونوا في خلق جو من الفكر اليوناني في عاصمة اليهود، وكان هيرودس يقول في أثناء هذا كله: أنه يشعر في قرارة نفسه أنه أقرب إلى اليونان منه إلى اليهود، ومن هنا، تدوين ذكرياته باللغة اليونانية، ومن هنا أيضاً، إرسال بعض أولاده إلى رومة وإقامتهم فيها، وشيد هيرودس المسارح والملاعب وميادين السباق على الطريقة اليونانية، ورحب بالضيوف اليونانيين وأكرمهم، ومن هؤلاء «افريكلس Eurycles» الإسبارطي.⁴¹

وحرص هيرودس على إبقاء جيشه خالياً من العناصر اليهودية الفلسطينية، ولم يقبل اليهود في صفوف هذا الجيش إلا إذا كانوا من «يهود الشتات Diaspora»، ولا سيما البابليين منهم، ولكن معظم جنوده كانوا إما من العرب الأدوميين، وإما كلتيين وتراقيين وألمان، وإما من أبناء المدن اليونانية، ولعله استعان بخبرة مدربين رومانيين، ولعله لم يفعل، ولكن لا يختلف اثنان — فيما نعلم — في كثرة الموظفين الحكوميين اليونانيين، نظراً إلى الاحتجاج الشديد الذي ظهر ضدهم عند وفاة هيرودس.⁴²

وأنفق هيرودس بسخاء للدعاية في الأوساط اليونانية والهلينية في اسبارطة وأثينة وفي رودوس، حيث أعاد بناء هيكل أبولون، وفي خيوس وبرغامة واللاذقية وطرابلس وجبيل وصيدا وصور وعكة وعسقلان ودمشق، وأعاد رصف الشارع الرئيس في أنطاكية، وأنشأ الأروقة على جانبيه، ولما رأى محبة أوغسطس لبيروت سعى إلى تحسينها، فقد روى يوسيفوس في تاريخ الحرب اليهودية⁴³ أن هيرودس شيد في بيروت النوادي الواسعة والأروقة الرحبة والهيكل والأسواق والحمامات والمخازن، وقبل أن يكون مدير الألعاب agonothes الأولومبية فخصص مبلغاً من المال لها، وتشفع لجزيرة خيوس «ولاليوم Ilium» لدى أغريقية.

وتجلى ولاء هيرودس لرومة — ولا سيما لأوغسطس ونذويه — في مناسبات عديدة، منها تبرعه بسخاء لإنشاء «مدينة النصر Nicopolis» في ميدان أكتيوم، ومنها إنشاء «مرفأ أوغسطس Portus Augusti» في قيصرية فلسطين، ومنها تعميم إكرام أوغسطس في معابد المدن غير اليهودية، وتشديد هيكل خصوصي لهذه الغاية في سبسطية فلسطين،⁴⁴ وتنظيم الألعاب الأوغوسطية في أورشليم نفسها، ومنها أن هيرودس اتخذ لنفسه لقب

صديق الإمبراطور وصديق الرومانيين، وأوجب تقديم اسم الإمبراطور على اسمه في قَسَم الولاء له.⁴⁵

(١٢-٥) حقد كمين

وتوقع هيوردس مقاومة من المعارضة، فحاذرها وأنشأ شبكة من القلاع والحصون وشحنها بجنوده المرتزقة، وأهم هذه القلاع حصن حسان، حشبون الأسفار، في شرق الأردن، وحصن «جابه Gaba» في الجليل، وحصنان مجهولا الاسم، أحدهما في البثنية، والآخر في اللجا، وحصن «المكاور Machaeros» بالقرب من بحر الميت في شرق الأردن، وحصن «الإسكندرويون Alexandrion» في غرب الأردن وشمال أريحا، والهيروديتين، إحدهما على بعد بضعة كيلومترات عن بيت لحم وفي جنوبها، والأخرى عند حدود الأنباط في شرق الأردن، وقبرص حصن أريحا والمسدة المطلة على البحر الميت عند صبة الحديثة، وأورشليم بأسوارها وقلاعها، ويجوز اعتبار سبسطية السامرة الجديدة التي جدد بناءها هيوردس في السنة ٢٧، وقيصرية الساحل، التي بدأ إنشائها في السنة ٢٢ مدينتين عسكريتين أيضًا.⁴⁶

وأدركت عناصر المعارضة هذا الواقع، ولمست عطف رومة على هيوردس وتأبيدها له لمس اليد، فطوت صدورها على ضغن وحزاة، فباتت تتربص وترتقب، ولا سيما وأنه لم يكن لديها شخص حشمتاوي يمكن الاعتماد عليه، وكان هيوردس قد تزوج بيهودية عادية اسمها «دوريس Doris»، فرزق ابناً أسماه أنتيباتروس على اسم جده، ثم تزوج مريم الحشمتاوية، فولدت له ألكسندروس وأرسطوبولوس و«سلمبسيو Salampsio» وقبرص، وولداً آخر مجهول الاسم، وتزوج بعد ذلك مريم الصدوقية بنت الكاهن الأعظم سمعان بن بويشويوس، فجاءه منها هيوردس الثاني، وتزوج من «ملثقة Malthace»، فولدت أرخيلوس وأنتيباس وأوليمبياس، وتزوج كذلك بكليوبتره، فولدت فيليبوس، وب «بالاس Pallas»، فولدت «فسائيل Phasaelus»، وب «فيدرة Phaedra»، فولدت روكسانة، وب «إليس Elpis»، فولدت سلومة،⁴⁷ فتحاسدن وتناظرن وتخالفن، وعلت الأصوات واشتد الضجيج.

وأرسل هيوردس في السنة ٢٣ ق.م. ألكسندروس وأرسطوبولس ابني مريم الحشمتاوية إلى بلاط الإمبراطور في رومة، فأظهر بذلك رغبته في أن يخلفاه، فتلظت الأكباد حسداً، وكثر القيل والقال، فأدرك هيوردس أن لا بد من تقسيم ملكه، فعين في

السنة ٢٠ ق.م. أخاه فيرور تتراخًا على «بيرية Peraea» في شرق الأردن، ولعله رمى إلى تقسيم المملكة إلى إمارات وإقامة كل من أولاده تتراخًا على واحدة منها، شرط خضوعهم لأحدهم يتمتع بعده بلقب ملك، ولكن ما كاد ألكسندروس وأرسطوبولس يعودان من رومة في السنة ١٧ ق.م. ويتزوجان، حتى شكاهما فيرور عمهما وسلومة عمتهما واتهماهما بالصلف، فأعاد هيرودس زوجته الأولى درويس وابنها أنتيباتروس إلى البلاط، وألحق هذا بأغربية لدى عودته من أورشليم إلى رومة، وأبقاه فيها مشيرًا بذلك إلى تقدمه على جميع إخوته، ففارت قِدرُ الأخوين ألكسندروس وأرسطوبولس، ورعف أنف أنتيباتروس ونَصَبَ الحباطل من رومة، وأقنع والده أن أخويه من مريم الحشمتاوية كانا يتآمران عليه، فشكا هيرودس ابنه إلى أوغسطس، وحوكما في «أكويلية Aquilea» في السنة ١٢ ق.م.، وتدخل أوغسطس شخصيًا في الأمر، وأصلح بين الابنين ووالدهما، وتم الاتفاق على أن يصبح الأخوة الثلاثة ملوكًا بعد وفاة والدهم، شرط تقدم أنتيباتروس على الآخرين، أي أن يكون الأول بين متساوين، ثم تخشن صدر هيرودس على أخيه فيرور؛ لأنه أراد أن يزوجه إحدى بناته، ولكن فيرور لم يبتعد عن إحدى خليلاته، وتواصل فيرور وألكسندروس بن مريم الحشمتاوية، واتهما بالتآمر على شخص الملك، ولولا تدخل أرخيلوس ملك قبدوقية وحمو ألكسندروس لكانت العاقبة وخيمة.

وشوّهت هذه المشاكل إلى أوغسطس وجوه آماله، وجاءت السنة التاسعة قبل الميلاد، فإذا بهيرودس يجرد حملة على الأنباط؛ ليقترض من سلاوس وزيرهم، الذي آوى بعض العصاة من منطقة اللجا، وماطل في دفع دين السنة ١٢ ق.م.، وأوغر سلاوس صدر أوغسطس، فأنذر هذا هيرودس بأن عهد الصداقة ولى، وأنه أمسى يعتبر هيرودس تابعًا خاضعًا لا صديقًا متعاونًا، فهبَّ نيقولاوس الدمشقي يسترضي أوغسطس بما أوتي من فصاحة ولباقة، وعاون الحارث الرابع نيقولاوس في ذلك؛ لأنه لم يرخص عن سلاوس وزير عبيدة الثالث، فتحسنت العلاقات بين هيرودس وبين أوغسطس، ولكن المياه لم تعد إلى مجاريها القديمة، وعلى الرغم من جعل قسم الولاء لشخص الإمبراطور إجباريًا في حوالي السنة ٧-٨ ق.م.، فإن أوغسطس ظل يقول: إنه يفضل أن يكون أحد خنازير هيرودس من أن يكون ابنه!⁴⁸

وجاء «إفريكلس Eurycles» الإسبارطي في السنة ٧ ق.م.، فكشف عن مؤامرة جديدة كان يحيك حبالها ألكسندروس وأرسطوبولس، ولدا هيرودس، ولمس أوغسطس صحة الادعاء، فسمح بالتحقيق والمحاكمة، شرط أن يتم ذلك خارج حدود هيرودس في بيروت،

وشرط أن يشترك قضاة رومانيون في ذلك، فتألف مجلس لهذه الغاية في بيروت برئاسة «سترنينوس Saturninus» الوالي، ونظر في شكوى هيرودس، وحقق فجرّم ابنه وحكم عليهما بالإعدام، فظهرت علائم التمرد في بعض الأوساط العسكرية، فأسرع هيرودس وأعدم ابنه في سبسطية، وأمر بدفنهما في الإسكندريون.⁴⁹

(١٢-٦) الفريسيون والولاء لأوغسطس

ولم يرضَ الفريسيون عن قسم الولاء لأوغسطس، وامتنع ستة آلاف منهم عن القسم، ففرض هيرودس عليهم جزاء نقدياً، فدفعته عنهم امرأة أخيه فيرور! فأقام هو النسر الروماني فوق مدخل الهيكل الرئيس،⁵⁰ وكان النسر في سورية المجاورة شعار بعليم السوري، فازداد حنق الفريسيين واشتد كيدهم، وبعد أن قضى هيرودس على أخيه فيرور (٥٠ ق.م) وابنه أنتيباتروس (٤٠ ق.م)، هجم جماعة من الفريسيين على النسر الروماني، واقتلعوه من مكانه فوق مدخل الهيكل، فأمر هيرودس بهم فأحرق بعضهم أحياء، وقُتل غيرهم، وقُبض على آخرين وحجزوا في محل سباق الخيل في أريحا لتأمين وصول الخلف هيرودس أرخيلولوس إلى العرش بعده، وهو ابنه من زوجته ملثقة، وتوفي هيرودس الكبير في ربيع السنة ٤٠ ق.م.، ودُفن في اليهودية بالقرب من بيت لحم عند حدود بركة اليهودية.⁵¹

(١٣) الاكتتاب المسكوني

ورغب أوغسطس رغبة أكيدة في سلم روماني دائم حقيقي، وعلم العلم اليقين أن الولاة والمليّمين والعشارين كانوا يُثقلون كاهل السكان في الولايات فيببتزون المال ابتزازاً، فرأى أن يحصي سكان الولايات، وأن يتعرف إلى مواردهم؛ ليعلم مقدار ما يجب أن يفرض من ضرائب،⁵² فأمر بإحصاء شامل دقيق في غالبية في السنة ٢٧ ق.م.، وقام بذاته إليها ليشرف على أعمال الإحصاء (١٦-١٤ ق.م)، وأجرى مثل هذا في إسبانية وولايات الدانوب وسائر ولايات الدولة.⁵³

وعني العلماء عناية خصوصية بالإحصاء، الذي جرى في فلسطين لورود خبره في إنجيل لوقا، ولارتباطه بمولد السيد المسيح، فقد جاء في الفصل الثاني من إنجيل لوقا؛ أنه في تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بإحصاء جميع المسكونة (أي الإمبراطورية الرومانية)، وأن الإحصاء الأول جرى إذ كان كيرينئوس والياً على سورية، وأن الجميع

أخذوا ينطلقون كل واحد إلى مدينته؛ لكي يكتتبوا، وأن يوسف صعد أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم؛ لأنه كان من بيت داود ومن عشيرته؛ لكي يكتتب مع مريم امرأته التي كانت حبلى، وأنه فيما كانا هناك تمت أيام وضعها فولدت ابنها الوحيد، وجاء ليوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر أن «كيرينيوس Cyrenius» الشيخ الروماني كان قد تولى عدة مناصب قبل منصب القنصلية، وأنه كان رجلًا وقورًا جدًّا، وأنه جاء سورية مع آخرين بأمر من قيصر؛ ليتولى القضاء في سورية، وليحصى مع غيره مادة السوريين، وأن «كوبونيوس Coponius» أنفذ معه؛ ليتولى السلطة على اليهود،⁵⁴ وذكر تكيثوس المؤرخ الروماني الذي دوّن في أوائل القرن الثاني أن كيرينيوس دوّن الهومانيين، وأنه كان مستشار غايوس قيصر في حملته على أرمينية.⁵⁵

والثابت الراهن، هو أن كيرينيوس تولى القنصلية في السنة ١٢ ق.م.، وأنه قام بعد ذلك في حوالي السنة ٩ ق.م. إلى جبال سورية لتدويخ الهومانيين، وأنه كان مستشار غايوس قيصر في الشرق بين السنة ١-٣ ب.م.، وأنه تولى ولاية سورية في السنة ٦ ب.م.، «السنة السابعة والثلاثين بعد أكتيوم».⁵⁶

ومما يُقره العلماء اليوم، أن أوغسطس أمر بإحصاء مسكوني شمل جميع الولايات بين السنة ١٢ والسنة ٧ قبل الميلاد،⁵⁷ وأن الإحصاءات توالى بعد ذلك مرة في كل أربع عشرة سنة، فتم واحد آخر منها في فلسطين في السنة ٦ ب.م.، وغيره في السنة ٢٠ ب.م.، والسنة ٣٤ ب.م.، والسنة ٤٨ ب.م.، وهكذا دواليك، حتى السنة ٢٠٢ ب.م.⁵⁸ ومن الثابت في الأوساط العلمية أيضًا أن بعض ولاء رومة تولى الولاية نفسها أكثر من مرة، وأن مثل هذا حدث في ولاية سورية،⁵⁹ وأن أكثر من واحد تولوا الولاية نفسها في وقت واحد،⁶⁰ ومما لا يجوز إغفاله قول ترتليانوس: أن «سنتيوس سترنينوس Sentius Saturninus» أشرف على أعمال الإحصاء في فلسطين وقت ولادة المسيح.⁶¹

فلا تُستبعد — والحالة هذه — الإمكانات التالية: أن يكون كيرينيوس قد تولى الولاية مرتين، الأولى بالتعاون مع سترنينوس (٩-٦ ق.م.)، وأن يكون المعنى المقصود في نص لوقا هكذا: «وكان هذا هو الإحصاء الأول، الذي جرى حينما كان كيرينيوس واليًا على سورية»، وذلك للتأكيد أن لوقا كان يعلم أنه تم إحصاء ثان في عهد هذا الوالي في السنة ٦ بعد الميلاد، ويلاحظ هنا فرق بين الترجمة اليسوعية البيروتية وبين الترجمة الأرثوذكسية الأورشليمية، وأن هذه أقرب كثيرًا إلى النص اليوناني من تلك، ومن هذه الإمكانات أيضًا،

قول السر وليم رمزي: أنه من الممكن أن يكون كيرينيوس قائد الحملة على قبائل هومانة قد فُوِّض إجراء أمور أخرى في الشرق، فلما ارتاح إلى نتيجة أعماله الحربية في جبال اسورية (٨ أو ٧ ق.م.)، تولى الإشراف على الإحصاء في فلسطين، نظرًا لصعوبة مراس اليهود.⁶²

ومما يعاون على التثبت من تاريخ هذا الإكتتاب المسكوني الإشارة إلى النجم الذي هدى المجوس من المشرق إلى فلسطين في السنة التي وُلد فيها المسيح، فقد قال أوريجانس الإسكندري (١٨٥-٢٥٤ م.) في مقاله الثاني ضد كلسوس: إن هذا النجم كان من ذوات الأذنان، هدى الله به المجوس إلى المخلص، والله يهدي من يشاء بما يشاء بظاهرة طبيعية، وبظواهر غير طبيعية، فإذا ما اعتبرنا هذا النجم ظاهرة طبيعية، وعدنا إلى الحسابات الفلكية الدقيقة، قلنا مع كبلر وعلماء اليوم: أن «المشتري Jupiter» و«زحل Saturn» اقترنا في السنة السابعة قبل الميلاد ثلاث مرات، مرة في التاسع والعشرين من آيار، ومرة في التاسع والعشرين من أيلول، ومرة في الرابع من كانون الأول، وقلنا: إن المريخ اقترن معهما في شباط السنة التالية، فتألق في سماء الشرق مثلث منير مبهج يلفت الأنظار ويحير العقول، وقلنا أيضًا: أن هذا الحدث الفلكي النادر تمّ في برج الحوت، الذي كان يدعى عند المنجمين القدمين «بيت إسرائيل»، فأثار الدهشة في المشرق، ووجه الأفكار نحو فلسطين.⁶³

ولا يخفى أن الراهب الروماني «ديونيسيوس Dionysius Exegus»، الذي اقترح في السنة ٥٣٣ بعد الميلاد العدول عن التأريخ من تأسيس رومة، والاستعاضة بالتأريخ من مولد المسيح لم يكن مستعدًا استعدادًا كافيًا لضبط السنة التي وُلد فيها المسيح، فإنه اعتمد بُسُط اقليمس الإسكندري،⁶⁴ حيث قرأ أن المسيح وُلد في السنة الثامنة والعشرين من ملك أوغوستوس، حينما صدر الأمر بإجراء الاكتتاب الأول، ولما كان أوغوستوس قد اتخذ هذا اللقب في السادس عشر من كانون الثاني من السنة ٧٢٧ لتأسيس رومة، فإن ديونيسيوس جعل مولد السيد يقع في مطلع السنة ٧٥٤ لتأسيس رومة، وفاته ما رواه اقليمس قبل ذاك عن حكم أوغوستوس، حيث قال: إنه حكم ستة وأربعين عامًا وأربعة أشهر ويومًا واحدًا، وأنه لو عدنا القهقري من تاريخ وفاة أوغوستوس في التاسع عشر من آب سنة ١٤ ب.م.، ثمانية وعشرين عامًا نجد أنفسنا عند بدء حكم أوغوستوس في الثامن عشر من نيسان سنة ٣٣ ق.م.، وأنه لو بدأنا من هذا التاريخ لوقع بدء العام الثامن والعشرين من حكم أوغوستوس في الثامن عشر من نيسان سنة ٦ قبل الميلاد.

(١٤) اليهودية ولاية رومانية

وما كاد يخلو مكان هيروُدس، ويتولى أرخيلالوس بن ملثقة الحكم بعده حتى نشب نزاع بين أرخيلالوس وبين أخيه أنتيباس، فطالب هذا بتنفيذ وصية سابقة كان أبوه هيروُدس قد عينه فيها ملكاً بعده، فوكل أرخيلالوس الدفاع عن حقوقه إلى نيقولاوس، وأنفذه إلى رومة لهذه الغاية، ووعد اليهود بعفو عام وبتخفيض الضرائب، ولكن الجماهير لم ترضَ بهذا فقط، بل طالبت بتسريح اليونانيين من وظائفهم، فأُمسى فصح السنة ٤٤ ق.م. فصحاً صاحباً، وقام وفد إلى رومة يطالب بإلغاء المملكة وإعادة المشيخة الثيوقراطية في ظل رومة،⁶⁵ ولكن أوغسطس أثر التجزئة، فجعل أنتيباس تترارخوساً مستقلاً على الجليل والبيرية في شرق الأردن، وأقام فيليبوس أخاه تترارخوساً مستقلاً على الجولان واللجا والبتنية وبانياس، ونزع لقب الملك على أرخيلالوس، وجعله أثنارخوساً على اليهودية وأدوم والسامرة، وسلخ غزة و«أم قيس Gedara» و«فيق Hippos»، وضمها إلى ولاية سورية؛ ليرضي سكانها المتنهلين، ويخرجهم خارج حكم اليهود.

ولما عاد الوفد المفاوض في رومة فارغ اليدين، غضب اليهود وتفجروا في عدة أماكن، فاضطر أوغسطس أن يأمر «فاروس Varus» والي سورية بالزحف على فلسطين وإخماد الفتنة فيها، فقام فاروس في صيف السنة ٤٤ ق.م. على رأس فرقتين إلى عكة، واستعان بألف وخمسمائة مقاتل من بيروت، وبعده من الأنباط العرب، وزحف على الجليل واليهودية، فصلب ألفين وأرسل زعماء الفتنة إلى رومة، ونفذ رغبة أوغسطس فأعاد كلاً من أولاد هيروُدس إلى إمارته،⁶⁶ ولكنهم ظلوا يتسatron العداوة، ولا سيما أرخيلالوس وأنتيباس، فأضاف كل منهم اسم هيروُدس إلى اسمه، فعُرف الأول بهيروُدس أرخيلالوس، والثاني بهيروُدس أنتيباس، ولم يحسن هيروُدس أرخيلالوس السياسة، ولم يتمكن من استرضاء الجماهير، وتزوج من «غلافيرة Glaphyra» أرملة أخيه ألكسندروس، فخالف الناموس وزاد الطين بلة؛ لأنها كانت قد ولدت لأخيه أولاداً، وكانوا لا يزالون في قيد الحياة، وثبت ضعف هيروُدس أرخيلالوس لدى أوغسطس، فلما أمَّ رومة في السنة ٦٠ ق.م. وفدان يهودي وسامري، وطالبا بإلغاء المملكة، وافق أوغسطس، ونفى هيروُدس أرخيلالوس إلى فيينة، فغالية، وجعل اليهودية وأدوم والسامرة ولاية رومانية يحكمها «محصل procurator»، يتمتع بصلاحيات الموت والحياة ius gladii، ثم استنقل اليهود الحكم الجديد، فعادوا يسعون لإحياء المملكة الهيرودية، وانتظم بعضهم لهذه الغاية فعُرفوا بالهيرودوسيين، وهؤلاء هم الذين أشار إليهم متى (٢٢: ١٦) ومرقس

(٣:٦ و ١٢:١٣)، الهيرودوسيون الذين أرسلهم الفريسيون إلى المسيح ليصطادوه بكلمة، وهم الذين تأمروا مع الفريسيين ليهلكوه.

(١٥) المحصلون الرومانيون

وتولى إدارة الولاية الجديدة «كوبونيوس Coponius» أولاً (٦-٩ ب.م.)، ثم «مركوس أمببوس Ambivius» (٩-١٢)، ف «أنيس روفوس Annius Rufus» (١٢-١٥)، ف «فاليريوس غراتوس Valerius Gratus» (١٥-٢٦)، ف «بونطيوس بيلاطوس Pontius Pilatus» (٢٦-٣٦)، ف «مركلوس Marcellus» (٣٦-٣٧)، ف «مرولوس Marullus» (٣٧-٤١).

هوامش

- (1) MACC., I, 1:12-13.
- (2) ESTER, 3:8.
- (3) MACC., I, ch. 2.
- (4) MACC., I, 1:46-56, ch. 2.
- (5) JOSEPHUS, *Ant.*, 13; ABEL, F.M., *Hist. de la Palestine*, I, 232-234.
- (6) JOSEPHUS, *Ant.*, 13; ABEL, F.M., *op. cit.*, I, 239-242.
- (7) PEROWNE, S., *Life and Time of Herod the Great*, (1957), 19-23.
- (8) MACC., I, 8:12-23.
- (9) GINSBURG, M., *Rome et la Judie*, (1928), 26, 40, 78 ff.; JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, 1:120-122; App., *Mithr.*, 106; DIO CASS. 37:15.
- (10) JOSEPHUS, *Ant. Jud.* 14:29-33, 34-36, 53-59; *Bell. Jud.*, I, 134-140; DIO CASS., 37:16; PLUTARCHUS, *Pomp.* 39.
- (11) JOSEPHUS, *Ant. Jud.*, 14:73, *Bell. Jud.*, 1:153; DIO CASS. 37:16.
- (12) APP., *Syr.*, 51; JOSEPHUS, *Ant. Jud.*, 14:79-85; ARETAS III, *Real-Encyc.*
- (13) PEROWNE, S., *Life and Times of Herod the Great*, 37-39.

(14) CICERO, *Att.* 5:20, 12:6, *Red. Sen., Sest., Prov. Cons.*; CAESAR, *Bell. Alex.* 41–43; PLUTARCHUS, *Pomp.* 25; STRABO, 796.

(15) JOSEPHUS, *Ant. Jud.*, 14; DIO CASS. 40–47; TYRRELL and PURSER, *Corresp. Of Cicero*, VI, 102–108; DRUMANN–GROEBE, *Gesch. Roms.*, II.

(16) DIO CASS. 42:7–44; JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, I, 187–194, *Ant.*, 14; GRAINDER, *La Guerre d'Alexandrie*, (1931).

(17) JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, I, 194–201, *Ant.* 14; JUSTER, *Les Juifs dans d'Empire Romain*, I, 138–140; ABEL, F.M., *Hist. de la Palestine*, I, 307–313; PEROWNE, S., *op. cit.*, 41–44.

(18) SCHURER, E., *Gesch. des Judischen volkes im zeitalter Jesu Christi*, II, 188–214; SCHMIDT, J., *Synedrium, Lex Theol. Kirche*, (1937) IX, Cols. 940–943.

(19) JOSEPHUS, *Ant.* 14, *Bell. Jud.* I, 203:–212; ABEL, F.M., *op. cit.*, I, 315–316; PEROWNE, S., *op. cit.*, 46–47.

(20) “Alchaudonius, Alchidamnus”.

(21) JOSEPHUS, *Ant.* 14, *Bell. Jud.*, I, 227–235.

(22) JOSEPHUS, *Ant.* 14, *bell. Jud.*, I, 245–247.

(23) CHAFOT, V., *Diet. des Antiq.*, V, 163; V, 163; DOBSCHUTZ, *Real-Encyc.*

(24) CHAFOT, V., *Diet. des Antiq.*, V, 163; V, 163; DOBSCHUTZ, *Real-Encyc.*

(25) JOSEPHUS, *Ant.*, 14, *Bell. Jud.*, I, 327–347; ABEL, F.M., *op. cit.*, I, 344–346; PEROWNE, S., *op. cit.*, 59–65.

(26) DIO CASS., 49:24–31; PLUT., *Ant.*, 37–50; JOSEPHUS, *Ant.* 15, *Bell. Jud.* I, 360.

(27) JOSEPHUS, *Ant.* 15, *Bell. Jud.*, I, 431–444; ABEL, F.M., *op. cit.*, I, 347–350; PEROWNE, S., *op. cit.*, 66–73.

(28) JOSEPHUS, *Ant.* 15, *Bell. Jud.*, I, 365–369; *Plut.*, *Ant.* 61.

(29) JOSEPHUS, *Ant.*, 15, *Bell. Jud.*, I, 386–397.

- (30) PATSCH, C., *Zu Nicolous von Damascus*, *Wien St.*, 1890, 231; WITTE, K., *Die Nicolai Damasceni Fragmentorum Romanum Fontibus*, (1900).
- (31) KAMMERER, A., *Petra et la Nabatène*, I, 177.
- (32) MEYER, E., *Berliner Philologische wochenschrift*, 1907, col. 462; Orro, W., *Herodes, Real-Encyc.*, Supl. II, col. 67 n.
- (33) STRABO, 16:780–782; PLIN., N.H., 6:160 ff.
- (34) PLIN, N.H., 6:162. 101, 12:63–65.
- (35) KAMMERER, A., *op. cit.*, I, 201–204.
- (36) ANDERSON, J., *Romans and Arabia*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 250–251.
- (37) STRABO, 16:779.
- (38) *Periplus maris Erythraeri*, 23; *Cam. Anc. Hist.*, X, Appendix 6, 881–882.
- (39) PLIN., N.H., 2:168, 6:141, 160, 12:55–56, 32:10.
- (40) DESSAU, *Gesch. der Rom. Kaiserzeit*, I, 379 f.; KAMMERER, A., *op. cit.*, I, 205–206.
- (41) Orro, W., *Herodes, Real-Encyc.*; CORRADI, G., *Studi Ellenistici*, 231–255; WILLRICH, H., *Das Haus des Herodes Zwischen Jerusalem und Rom*; JOSEPHUS, *Ant.*, 15, 17, 19.
- (42) NICOL. Damasc. frag. 136, 8 (Jacoby) — *Cam. Anc. Hist.*, X, 327 n. 6.
- (43) JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, 21:11.
- (44) HARVARD Excav. at Samaria, I, 170 ff.
- (45) JOSEPHUS, *Ant.*, 15:10, 17:2; SCHURER, E., *Gesch. d. jud. Volkes*, I, 399; Orro W., *op. cit.*, cols. 61–62.
- (46) SCHULTEN, A., *Mesada, Zeit Deutsch. Palest. Ver.* 1933; MOMIGLIANO, A., *Herod of Judaea*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 327–328.
- (47) *Cam Anc. Hist.*, X, Genealog. Table of Family of Herod.
- (48) MACRABIUS, *Sat.*, 2:4.
- (49) PEROWNE, S., *op. cit.*, 158–166.

- (50) JOSEPHUS, *Ant.* 17–6.
- (51) PEROWNE, S., *op. cit.*, 173–175.
- (52) GREENIDGE, A.H.J., *Census, Ox. Class. Dict.*
- (53) STEVENSON, J.H., *Cam. Anc. Hist.*, X, 129–194.
- (54) JOSEPHUS, *Ant.*, 18:1.
- (55) TACITUS, *Ann.* 3:48, JACKSON TRANS., II, 597–599.
- (56) JOSEPHUS, *Ant.*, 18:2.
- (57) CORBISHLY, *Quirinius and the Census, Klio*, 1936, 89–91; ABEL, F.M., *Hist. Palest.*, I, 415.
- (58) Oxyrhynchus Papyri, II, 207, 209–211.
- (59) SCHURER, E., *op. cit.*, I, 354, n. 25.
- (60) JOSEPHUS, *Ant.*, 16:10.
- (61) TERTULL. *Con. Marc.*, 4:19; ANTE-NICENE FATHERS, III, 378.
- (62) RAMSAY, W.M., *Was Christ Born at Bethlehem*, 238.
- (63) THE Star of Bethlehem, Alder Planetarium, Chicage; The Chistmas Star, Morrison Planetarium, California, Academy of Sciences, San Francisco.
- (64) STROMATA, 1:21.
- (65) ASSUMPTIO Mosis, ch. VI; CHARLES, R.H., *Apocrypha and Pseudoepigrapha*, II, 41; Book of Enoch (Ethiopie), ch. 103; MOMIGLIANO, A., HEROD, *Cam. Anc. Hist.*, X, 337–338.
- (66) JOSEPHUS, *Ant.*, 17, *Bell. Jud.*, 2:16–19, 39–54, 101–110; ABEL, F.M., *op. cit.*, I, 411–414.

الفصل التاسع

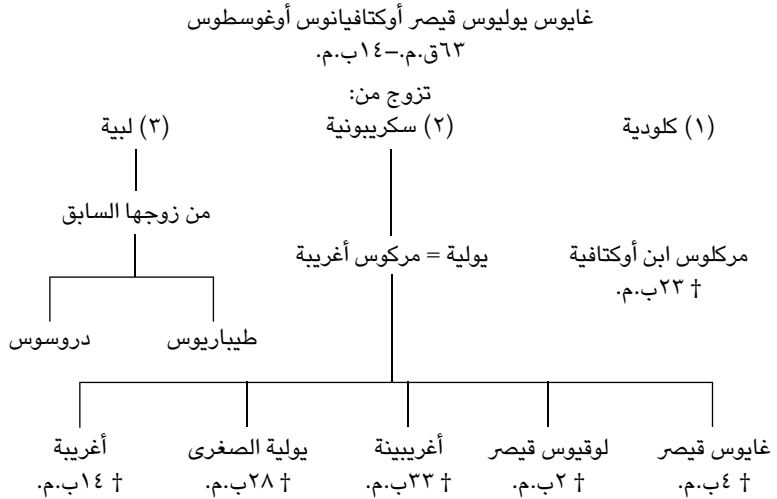
خلفاء أوغسطس الأقربون

وقدر الرومانيون أوغسطس حق قدره، واعترفوا بفضلته، فوالوا أقرباءه وانصاعوا إليهم، وكان الجيش أشد الأوساط الرومانية وفاءً وأصدقها عهدًا لأوغسطس، فشدَّ أزر خلفائه الأقربين، ومكنهم من الحكم نصف قرن من الزمن، وعُرف هؤلاء الخلفاء الأقربون بالأسرة اليوليوسية الكلودية؛ لأنهم انتسبوا إما لأوغسطس مباشرة، وإما لزوجته الثالثة لبية وولديها من زوجها السابق طيباريوس كلوديوس نيرون.

(١) مشكلة الخلافة



النسر الروماني



وأحب أوغسطس أن يضمن سلامة ما جنى لرومة واستمراره بعد وفاته، ورغب في أن يكون خليفته في المنصب من ذريته، ولم يرَ في هذه الرغبة ما لا يتفق وعُرف الرومانيين والمحافظة على التقليد، ولم ينفر وجوه رومة وشعبها من هذه الرغبة، فالشيوخ كانوا قد سبقوه إلى ذلك فيما تعلق بوظائفهم، وتوَّاد أوغسطس وتأنَّى كعادته، ولم يعجل البت في ذلك، ولم يتسرع.

ولم يرَ قبل زواج وحيدته يولية، أي قبل السنة ٢٣ ق.م. سوى حل واحد، هو تبني ابني زوجته الثالثة لبية من زوجها الأول طيباريوس كلوديوس نيرون، وهما طيباريوس ودرسوس، ورأى لهذه المناسبة أن لا بد من الاستعانة بحكمة يمينه أغربية ودرائته، ولا سيما وأن الربيبين كانا لا يزالان صغيرين، وهكذا، فإنه عندما شقَّ عليه مرضه في السنة ٢٣ ق.م.، وأعضل الأطباء وأعيانهم سلَّم خاتمه إلى أغربية، وبعد أن صحَّ جسمه وتعاوى استصدر لأغربية «سلطة بروقنصلية *imperium proconsulare*» على جميع الولايات الإمبراطورية، فأكد بذلك عزمه على أن يكون أغربية خليفته بعد وفاته، ثم أزوج أوغسطس في السنة ٢٣ ق.م. بنته يولية من ابن أخته غايوس كلوديوس مركلوس، فأدرك أغربية مغزى ذلك، وقام إلى الشرق يشرف على إدارة ولاياته، ثم توفي ابن الأخت فجأة، فعاد أغربية إلى رومة في السنة ٢١ ق.م.، وتزوج من يولية الأرملة بنت أوغسطس، وفي السنة ١٨ ق.م.، قُلِّد أغربية «السلطة الكبرى *maius imperium*» على جميع الولايات السناتوسية في الشرق، ثم في الغرب، ومنح «سلطة التربة *trubincia potestas*» فأصبح معاون أوغسطس في الحكم، وفي السنة ١٧ ق.م.، تبني أوغسطس حفيديه ولدي أغربية ويولية، غايوس ولوقيوس، فاستتب أمر الخلافة لجيلين متتاليين.

ثم مات أغربية في السنة ١٢ ق.م.، وكان الحفيدان لا يزالان صغيرين، فاتجهت أنظار أوغسطس مرة ثانية إلى ربيبيه طيباريوس ودرسوس، فأكره أوغسطس ربيبه طيباريوس في السنة ١١ ق.م. على حل عقد زواجه من بنت أغربية من امرأته الأولى، وعلى الزواج من يولية أم الحفيدين، وأزوج درسوس أخاه من أنطونية بنت أنطونيوس من أوكتافية أخت أوغسطس، ثم توفي درسوس في السنة ٩ ق.م.، فانفرد طيباريوس بولاية العهد، فجاءته سلطة التربة، ولكنه أثر العزلة بعيداً عن رومة، فأقام في جزيرة سبع سنوات متتالية، ولعل السبب في ذلك أن أوغسطس مال إلى حفيديه أكثر فأكثر، وأن أهمها يولية زوجة طيباريوس وبنت أوغسطس شذت في سلوكها الشخصي وقلَّ حياؤها، فأمست مضغة في أفواه القارضين.



دروسوس ربيب أوغسطسوس.

وتناسى أوغسطسوس ربيبه طيباريوس، فجعل حفيده غايوس قيصر في السنة ٥ ق.م. الأول بين «الفرسان الشبان princeps juventutis»، ثم قنصلًا حين أكمل العشرين من عمره، وذلك في السنة ١ ب.م.، ومنح أخاه لوقيوس بدوره مثل هذا أيضًا، ومع أنه سمح لطيباريوس بالعودة إلى رومة في السنة ٢ ب.م.، فإنه أبقاها بعيدًا عن السياسة والحياة العمومية، ثم أنشبت المنية أظفارها، فاختلفت لوقيوس في السنة ٣ ب.م.، وغايوس في السنة ٤ بعده، وكان «أخوهما أغريبة Agrippa Postumus» عنيدًا لا يكبح جماحه، فاضطر أوغسطسوس أن يعود إلى طيباريوس، ويعيد له سابق نعمه.

(٢) طيباريوس قيصر أوغسطسوس (١٤-٣٧)

وحلَّ بأوغسطسوس أصدق المواعيد في «نولة Nola» في التاسع عشر من آب من السنة الرابعة عشرة بعد الميلاد، وامتنع طيباريوس عن البحث في السلطة والحكم ما دام جثمان أوغسطسوس مسجى على سريرته، ووصل الجثمان إلى رومة بعد خمسة عشر يومًا، واحتفل بحرقه، وأُفلت نسر ليؤذن بانطلاق نفسه إلى مواطن الآلهة، وفي السابع عشر من



طيباريوس قيصر.

أيلول التأم السناطوس فأله أوغسطس،¹ وأوجب تشييد هيكل على اسمه، وتخصيص كهنة لخدمته، وتليت وصية الراحل الكبير، فإذا بها تخص طيباريوس بثلاثي أمواله المنقولة وغير المنقولة، وبالتمتع باللقب أوغسطس، وتهب لبيه الثلث الباقي من أمواله، وإذا بها أيضًا توجب اعتبار لبيه من الأسرة اليوليوسية بالاسم «يوليه أوغوسطة Julia Augusta»، وأراد السناطوس أن يخصصها برتبة عالية الذروة باذخة الشرف، ولكن طيباريوس لم يرَضْ، ومع أنها ظلت يوليه أوغوسطة في إيطالية، فإنها تمتعت في إسبانية بلقب «والدة الأرض وما عليها Genitrix Orbis»، وفي أزمير بلقب «الأم الأوغوسطية Augusti mater»،² وأمست في بعض مدن الشرق إلهة تستحق العبادة، مقترنة بإلهات محلية.³

وأقسم الشيوخ والفرسان والشعب يمين الولاء لطيباريوس، واقترح الشيوخ أن يستمر طيباريوس في ممارسة سلطتي التربة والبروقنصلية اللتين كانتا بيده مدى الحياة، وأن يتمتع بجميع الصلاحيات الأخرى التي كان أوغسطس قد تمتع بها، فأبى طيباريوس مؤثرًا — على حد قول المؤرخ فيليوس — أن يظل «مواطنًا مساويًا لغيره aequalis civis» على أن يصير «مواطنًا ممتازًا eminens princeps»، ثم حمل نفسه

على ما كرهه، وقبل راجياً أن يعفى من تحمل أعباء الوظيفة عندما يبلغ الكبر، فأكبر أصدقائه ومؤيدوه هذا التواضع والتردد، أما أخصامه، فإنهم رأوا في جميع ذلك مداينة وخداعاً لا إباءاً وتواضعاً،⁴ ومهما يكن من أمر هذا التردد في قبول اقتراحات الشيوخ، فإنه يجب ألا يغيب عن البال أن طيباريوس كان قد بلغ الخامسة والخمسين، وأنه كان قد مارس السياسة والحرب، وعرف رجالهما حق المعرفة، فاستثقل العبء وأراد ألا يكون هو الراغب الطامع، بل أن يكون مدفوعاً إلى الأمر من السناتوس نفسه محمولاً عليه، وقد يكون أوغوسطوس قد دبر كل هذا مع أصدقائه وأخصائه من رجال السناتوس في الجلسة الأخيرة التي عقدها معهم قبل وفاته بيوم واحد، فيكون أصدقاء طيباريوس على حق فيما فاخروا به، ويكون أخصامه على حق أيضاً فيما ادعوا به،⁵ ويرى رجال الاختصاص أن عهد طيباريوس في الحكم كان عهد «إمبراطور عسكري دائم imperator perpetuus»، وأنه بدأ في السابع عشر من أيلول سنة ١٤ ب.م.⁶

(٢-١) تعاونه الوثيق مع السناتوس

وجرى طيباريوس على منهاج أوغوسطوس، فأشرك السناتوس في الحكم وتعاون معه،⁷ وكان الشيوخ أعضاء هذا المجلس رجالاً مجربين، خبروا السياسة، ومارسوا الحكم في الولايات، وكان مجلسهم ذا سلطة تشريعية في الحقلين الاجتماعي والديني في إيطاليا، وذا صلاحية قضائية في الدعاوى الكبيرة، وكان أوغوسطوس قد أوجب حصر الانتخابات الشعبية بالمجلس السناتوسي، ورسم الخطط لذلك، فنفذ طيباريوس رغبة سيده الراحل، فزاد السناتوس قوةً، وازدادت الحاجة إلى التعاون معه.

وواظب طيباريوس على حضور جلسات السناتوس في أوائل عهده، واستشاره في شئون الدولة، وأكثر الاستشارة، ولجأ إليها في أمور لم تقع ضمن صلاحيات المجلس المستشار، وتحاشى التأثير على الأعضاء، فلم يبد رأيه بسرعة وشجع حرية المناقشة، ودخل المجلس بدون مرافقة أو حماية، ونهض لاستقبال القناصل وأكرمهم — في بعض الأحيان — بإجلاسهم في محله، وكثرت القرارات التي اتخذها السناتوس إما لتفسير بعض القوانين، أو لاشتراء غيرها، كتلك التي حرمت زنى نساء البيوتات الكبيرة، وتلك التي منحت المجرم الذي حُكم بالإعدام مهلة أيام عشرة،⁸ وحرص طيباريوس على أن يشرك السناتوس إشراكاً علنياً في بعض القضايا الهامة، فأشرفت هيئة سناتوسية على كرى نهر التيبر وتدعيم ضفافه، وتولت لجنة سناتوسية أخرى ضبط عقارات الدولة والنظر

في المشاكل القضائية المتعلقة بها، وتألفت ثالثة للنظر في الكتابات العمومية وإعادة نقش المحو أو الضائع منها، وتولت رابعة إسعاف المنكوبين بالزلازل في آسية الصغرى، وشاء طيباريوس في السنة ٢٢ ب.م. أن يقلد ابنه دروسوس «سلطة الترينة tribunicia potestas»، فلجأ إلى السناتوس، وجعل ابنه يتولى السلطة من المجلس، مقتفياً بذلك عمل أوغسطس، وظل السناتوس المرجع الأعلى في شئون الولايات السناتوسية، ينظر فيها ويبت في أمرها، كما جرى حين حاولت مدينة مسالية ومدينة تريبية أن تنتفعا من وصيتين معينتين،⁹ أما الخلاف الذي نشب بين صيدا ودمشق حول الحدود بينهما، فإنه رُفع إلى «الوالي legatus» ليحكم فيه؛ لأن سورية كانت ولاية إمبراطورية،¹⁰ وحافظ طيباريوس على كرامة العائلات السناتوسية، فأقرّ مساعدتها مادياً بعد التثبت من حاجتها بواسطة السناتوس نفسه.¹¹

واحترم طيباريوس الدين الروماني، وحافظ على تقاليده، وحارب تسرب العقائد الغريبة وطقوسها، فطلب إلى السناتوس أن يحله من الخطيئة التي اقترفها حينما لمس جثمان أوغسطس بعد الوفاة، واهتم في السنة ١٩ ب.م. اهتماماً بالغاً لأمر الفضيحة التي حلت بكهنة إيسيس المصرية، وبعد التثبت مما جرى أمر بصلب الكهنة المجرمين، وبطرح تمثال إيسيس في التبر وبرد هيكلا، وأكره أتباع إيسيس وعبادها أن يحرقوا بأيديهم ما تبقى، واحتال بعض اليهود على سيدة رومانية فسلبوا أموالها، فأقنع طيباريوس السناتوس بوجوب طرد اليهود من إيطالية ومنع عباداتهم، ثم جند أربعة آلاف منهم، وأنفذهم إلى سردينية للمحافظة على الأمن فيها.¹²

ولم يرض طيباريوس عن المجالدات والألعاب والمهرجانات وما شاكلها، ورأى فيها إسرافاً لا مبرر له، وخلاعة لا تليق بالخلق الروماني، فشكا من سلوك الممثلين مراراً أمام السناتوس، وطرده المسئولين أصحاب العلاقة من إيطالية، وحدد عدد المجالدين، وأظهر امتعاضه من بناء الملاعب وإنشاء المسارح، وشدد في ذلك، فاحتج المجالدون أنفسهم، مدعين أن طيباريوس لم يفسح لهم المجال لإظهار قوتهم وبسالته.¹³

(٢-٢) علو همته في الإدارة

واضطلع طيباريوس بأعباء مهماته الإدارية، وذلّل العقاب وروّض الصعاب، فانتهى للوظائف أصحاب اللياقة والكفاءة، وأيدهم في تنفيذ القوانين، وشملهم برعايته وعنايته، وأطال بقاءهم في وظائفهم، ورعى الرعايا في الولايات بعين ساهرة، ومنع المصادرات،

وحرّم الضرب والتعذيب، وخضع للقانون، وجعل القضاة يحكمون بالعدل في الدعاوى التي كانت تقام على عملائه الخصوصيين الذين كانوا يديرون أرزاقه الشخصية، ولم يخش في كل ذلك لوم لائم، ولم يبال بانتقادات أخصامه ومناظريه، وكان يقول: لا أبالي بغضهم ما داموا يخشونني ¹⁴.oderint dum probent

ولكن طيباريوس كان قليل الثقة بنفسه، متأنياً بارداً، وكان أوغسطس قد زاده ريبة في مواهبه بتقريبه تارة وإبعاده تارة أخرى، فلما قُدّر لطيباريوس أن يخلف سيده قبل الحكم مضطراً مسيراً، ثم لمس تصنعاً من الشيوخ وتملقاً، وتكشف بعضهم عن ود كاذب وتأمروا، فاشمأز من الحكم وعافه، ¹⁵ ولكن الذي شغل قلبه وضيق صدره لم يأت إلا من الأقرباء والأخصاء من أفراد أسرته، ومن ماذق وده سيانوس.

(٢-٣) جرمانيكوس وأغريبينة

وأوجب أوغسطس وصول جرمانيكوس ابن دروسوس أخي طيباريوس إلى السدة بعد طيباريوس لا دروسوس ابن طيباريوس من زوجته الأولى «قُفسانية Vipsania» بنت أغريبة، وكان جرمانيكوس صبيح الوجه مشرق الجبين، محبوباً من الشعب والجيش، ¹⁶ وكان لا يزال في الثامنة والعشرين من عمره، وقد تزوج من أغريبينة حفيدة أوغسطس من بنته يولية وزوجها أغريبة، ولم يرغب جرمانيكوس في تعجيل وصوله إلى الحكم؛ لأن عمه كان في الخامسة والخمسين من العمر، ولم يصغ لدس الداسسين، ولم يلجأ إلى العنف لتعجيل الوصول، ولم يخن طيباريوس عهده لأوغسطس، ولم ينكث ولم يسعَ لإيصال ابنه دروسوس إلى الحكم قبل ابن عمه جرمانيكوس.

وكان جرمانيكوس معجباً بوالده دروسوس مفاخرًا به، فأراد أن يتشبه به ويجري على أسلوبه، وكان قد تولى ولاية الغاليات الثلاث وقيادة الجيش فيها، فلما تمرّد الجنود عند الرين والدانوب، مطالبين بجمالية أكبر وخدمة أقصر وضباط أليين وألطف، رأى جرمانيكوس أن يشغل جنوده بحملة على القبائل الألمانية عبر الراين، وأن يصل بهم إلى نهر الألب، ويجعله حد رومة الشرقي في ألمانية، ونهض على رأس جنوده منفذاً، فحارب القبائل ثلاث مرات في السنوات ١٤ و ١٥ و ١٧ ب.م.، ولكنه لم يتمكن من احتلال ما افتتح احتلالاً دائماً، فرأى طيباريوس أن الجلاء عن ألمانية والوقوف عند الرين أجدي وأنفع، وأن الابتعاد عن القبائل الألمانية وعدم التدخل في شئونها يعيد البلبلّة إلى صفوفها، فاستدعى جرمانيكوس ابن أخيه ووكّل إليه مهمة الإشراف على شئون أرمينية في الشرق

بعد أن تدخل ملك البرت في شئونها، وطرد ملكها صديق رومة منها، واحتفلت رومة احتفالاً رسمياً بعودة جرمانيكوس واعتبرته منتصراً، ثم انتخبه السناطوس قنصلاً للسنة الثامنة عشرة بعد الميلاد، وخوّل «السلطة الكبرى maius imperium»، وفوّضه النظر في أمور الشرق، وأحب طيباريوس أن يكرم ابن أخيه، فاقتراح أن يكون هو نفسه القنصل الثاني للسنة نفسها، وخشي طيباريوس أن يدفع حماس الشباب ابن أخيه إلى الدخول في حرب مع البرت، فاحتاط للأمر واستبدل «كريتيكوس سيلانوس Creticus Silanus» والي سورية وصديق جرمانيكوس بكورنيليوس كلبورنيوس «بيسو Piso»؛ ليرقب جرمانيكوس ويحد من حماسه وطموحه العسكريين، ونهض جرمانيكوس إلى الشرق فحوّل قبضوقية وقوموجينة الحليفتين الصديقتين إلى ولايتين رومانيتين، ونصّب ملكاً جديداً على أرمينية، ثم رغب في زيارة مصر لتفقد آثارها، ونهض إليها بدون موافقة طيباريوس، فخالف بذلك التقليد الأوغوسطي، الذي حرّم دخول مصر على أعضاء السناطوس بدون إذن الإمبراطور، وأغاث الجياع في الإسكندرية، فوزع عليهم من الحبوب ما كان في بعض أمراء الدولة، ولقي فيها ترحيباً حاراً فأصدر بياناً استنكر فيه هذا الترحيب، فزاد خبره انتشاراً،¹⁷ ولدى عودته إلى سورية لمس تدخل بيسو في شؤونه وفي الترتيبات التي أجراها، فأمره بالخروج من سورية، وما كاد بيسو يغادر سورية حتى توفي جرمانيكوس في أنطاكية، واثقاً من أن بيسو سقاه سماً زعافاً (١٩ ب.م.)، فحملت أغريبيينة أرملته رماده وقامت إلى رومة، فما كان من بيسو إلا أن عاد إلى سورية، فأثار بعودته الظن والقلق والقال، واضطر وكيل الوالي فيها أن يكرهه على الخروج منها، وعاد بيسو إلى رومة فمثل أمام السناطوس بدعوى القتل والدخول إلى ولاية سورية بالقوة، ومع أنه نجح في دفع تهمة القتل عن شخصه، فإنه ظل مسؤولاً عن عودته إلى سورية غير المشروعة فانتحر، وتهامس الناس ولغطوا بأن لطيباريوس يداً في مقتل ابن أخيه، وأنه أراد أن يضمن بذلك وصول ابنه دروسوس إلى سدة الحكم بعده بدلاً من ابن أخيه جرمانيكوس، ومما زاد في الطين بلة، أن لا طيباريوس ولا أمه لبية اشتركا في مآثم جرمانيكوس، وأن لبية حمت بلانكينة أرملة بيسو من ثورة أغريبيينة أرملة جرمانيكوس، فاشتد سخط أغريبيينة على طيباريوس، وزادت نقيمتها، وأعلنتها حرباً شعواء عليه لا هوادة فيها.¹⁸

(٢-٤) دروسوس وسيانوس

وأفسح موت جرمانيكوس المجال لدروسوس بن طيباريوس، ليخلف والده في الحكم، وكان قد انتُخب قنصلاً في السنة ١٥، فلما مات جرمانيكوس انتُخب قنصلاً مرة ثانية

مع والده في السنة ٢١، ثم مُنح في السنة التالية سلطة التربية، وتزوج في السنة ١٩ من «لويلا Livilla» أخت جرمانيكوس، فَرُزق منها توأمين ذكرين، وضمن بهما الخلافة بعده،¹⁹ ثم توفي دروسوس فجأة في السنة ٢٣، فتبنى طيباريوس نيرون ابن أغريبينة وأخاه دروسوس، راجياً أن يرضي بذلك أمهما أغريبينة، ويبرّد غيظها ويردّ جماحها، ولكن طيباريوس كان قد استسلم إلى سيانوس بثقته وأُنس بناحيته، وكان هذا قد بدأ يطمع بالحكم، فأوغر الصدور واستوقد الغيظ، وأثار كمين الضغن بين أفراد الأسرة الحاكمة، وهو «لوكيوس أيليوس سيانوس Lucius Aelius Sejanus» ابن «لوكيوس سيوس سترابو Lucius Sejus Strabo» ناظر الحرس البرياتوري، أحبه طيباريوس منذ بدء عهده في الحكم لما توسم فيه من مقدرة في السياسة والإدارة، فأشركه في نظارة الحرس مع والده (١٤)، ثم جعله ينفرد بها لدى قيام والده إلى مصر ليتولى أمورها (١٣)، ثم خصه بمودته بين السنة ٢١ والسنة ٢٣، فسمح له بحشد الحرس في ثنكات قريبة من أحد «أبواب رومة Porta Viminalis» فعظم شأنه، واشتدت هيبته، وأمسى «الرفيق المجاهد socius laborum» الذي لا يُتَّهم وُدّه ولا يُخشى غدره، فمقته دروسوس بن طيباريوس، واضطر أن يصفعه صفعاً، وتوفي دروسوس فجأة، ف قيل أن سيانوس أغوى زوجة دروسوس فدست له السم فمات، وفي السنة ٢٥ طلق سيانوس زوجته، وأحب أن يتزوج من لويلا أرملة دروسوس، فلم يسمح طيباريوس بذلك، وظل سيانوس يطمع في الحكم، وظل يستغل نفور أغريبينة وأولادها، ثم استغل ضجر طيباريوس من الحكم وخيبة رجائه بوفاة ابنه دروسوس وكثافة ظل والدته لبية في تدخلها في أموره، فحسن له تجنب رومة وجوهاً والابتعاد عنها، فانتبذ طيباريوس مكاناً قصياً، وأقام منذ السنة ٢٦ في جزيرة «كابري Caprae» القريبة من ساحل نابولي، فأمسى سيانوس صلة الوصل الرئيسة بين السناتوس وطيباريوس، وتعدّر على الشيوخ مناقشة طيباريوس، وتعدّر عليه سماع أصواتهم، واكتفى الطرفان بمبادلة الرسائل على ضوء ما رآه سيانوس حقاً. وماتت لبية أرملة أوغسطس ووالدة طيباريوس في السنة ٢٩، فانقطع إرشادها وردعها فأبهل طيباريوس يمينه سيانوس، فتمادى هذا في غروره، وأقنع طيباريوس أن أغريبينة ومن شد أزرها من الشيوخ يتآمرون على سلامة شخصه، فاستعان طيباريوس بنص قانون «الخيانة العظمى Lex Julia de maiestate»، الذي اشترعه أوغسطس في السنة ٢٣ ق.م.، وأوجب إبعاد أغريبينة وابنها نيرون، فاتخذ السناتوس قراراً بذلك ونفاهما، وفي السنة ٣٠ دخل دروسوس بن أغريبينة السجن في رومة، واستغل سيانوس بعض الظروف وخلق غيرها خلقاً فاستبدل بعض القادة العسكريين بغيرهم من أخصائه،

وحظي بموافقة طيباريوس على الزواج من إحدى نساء الأسرة الحاكمة، وانتُخب في السنة ٣١ قنصلًا مع طيباريوس، فاتضح للملأ اتجاهه نحو السدة، فهرعت أنطونية بنت أنطونيوس وأرملة دروسوس والدة جرمانيكوس تصارح سلفها طيباريوس في أمور سيانوس وخداعه ونفاقه، ولا سيما فيما تعلق بأغربيينة وأولادها، فأفاق طيباريوس من سكرته بخمرة سيانوس ولوى عنانه فأبصر رشده، فاستدعى غايوس أصغر أولاد أخيه جرمانيكوس إلى كابري ليضمن سلامته، واستعفى في آيار السنة ٣١ من القنصلية؛ ليكره سيانوس على الاستعفاء أيضًا ففعل، ثم عين «سرتوريوس ماكرو Sertorius Macro» ناظرًا للحرس، وفي الثامن عشر من تشرين الأول، جاء سيانوس إلى مجلس الشيوخ؛ ليسمع تلاوة رسالة طيباريوس الطويلة العظيمة *verbose et grandis epistula* الرائعة، ويحظى بسلطة التربة، فخاب رجاؤه وطاش سهمه، عندما اطلع قبيل نهايتها على ما حملته له، وأدرك أنه أمسى خائنًا في نظر طيباريوس، فحكم السناتوس على سيانوس بالإعدام، فحُنف في سجنه، ومُرَّق تمزيقًا.²⁰

(٢-٥) سنوات طيباريوس الأخيرة

وعقد طيباريوس بسيانوس حبل أمانيه فأخلف الدهر ظنه، وشوّه وجوه آماله، واعترفت زوجة سيانوس قبل انتحارها أن زوجها هو الذي أغوى لويلا لتدس السم لدروسوس، فخفف هذا الاعتراف حدّة الخيبة، ولكن طيباريوس ظل كاسفًا كئيبيًا، ولزم قصره في جزيرة كبري تسعة أشهر متتالية ولم يخرج — بعد ذلك — من الجزيرة إلا مرات معدودة، وقضى ساعات فراغه مع رجال الفقه والعلم والأدب، أو انزوى منجمًا، ولا صحة في القول أنه انغمس في الملذات الشهوانية وفي الفسق والفحش، ولم يهمل واجباته الإدارية، ولكنه لم يقم في رومة ولم يحضر جلسات مجلسها، وازداد شكه واشتد نكدّه، ولكنه لم يُمس ذاك الطاغية الذي أنهى أيامه بالشدة والإرهاب، وجل ما هنالك أنه لاحق جماعة سيانوس وضربهم بقساوة، ولكنه لم يأمر بإعدام أحد منهم بدون تحقيق ومحاكمة، فإنه في السنة ٣٢ أطلق راح سبعة ممن وقعت عليهم الشبهة، ولم يقدم سوى تسعة من مجموع ستة عشر، وكان دروسوس بن جرمانيكوس أحد الضحايا الذين لاقوا حتفهم على يد طيباريوس، ويجوز اعتبار أغربيينة إحدى هؤلاء الضحايا؛ لأنها امتنعت عن الطعام في منفاها، وماتت جوعًا.

ولم ينم طيباريوس عن أمور الدولة في سنواته الأخيرة، ولم يتركها رهن الطوارق، فإنه عندما حلت الضائقة في رومة في السنة ٣٣ وقلّت النقود فيها فتح اعتمادًا للتسليف

بدون فائدة قدره مائة مليون سيستركس، وفي السنة ٣٦ قدم مبلغًا كبيرًا لإغاثة المتضررين من حرائق مرتفع «الأفنتين Aventine»، ومكنه اقتصاده في نفقات البلاط وإحجائه عن إنشاء الأبنية العامة وتشجيع التمثيل والممثلين من تنزيل ضريبة البيع من واحد في المائة إلى نصف واحد في المائة، ومن إبقاء ألفين وسبعمائة مليون سيستركس في الخزينة حتى وفاته.

وارتفعت سن طيباريوس ومسه الكبر، وكان حفيده «غميلوس Gemellus» ابن دروسوس لا يزال صغيرًا، وكان ابن أخيه كلوديوس طائشًا أحمق في نظر عمه، فاتجهت أنظار طيباريوس نحو حفيد أخيه غايوس بن دروسوس بن جرمانيكوس، وجعله هو وعمليوس الصغير وريثه معًا، ومن يدري فلعله ترجى أن يطول عمره إلى أن يبلغ عمليوس أشده، ولكنه توفي عند «رأس ميسينوم Misenum» في السادس عشر من آذار سنة ٣٧، وكان «ماكرو Macro» ناظر الحرس قد تودد إلى غايوس وتقرب منه، فقيل: إن الاثنين معًا عَجَلًا موت طيباريوس تعجيلًا، وقيل أيضًا: إن الجماهير ارتاحوا لموته فصاحوا: «أعطوا طيباريوس للتير».²¹

(٣) غايوس قيصر أوغسطس (٣٧-٤١)

هو غايوس بن جرمانيكوس وأغربيينة ابن دروسوس وأنطونية، هو حفيد أخي طيباريوس، وهو حفيد أنطونية بنت أنطونيوس، وهو حفيد يولية بنت أوغسطس، وُلد في «أنتيوم Antium» أنتزيو الحديثة مرسى لاتيوم القديمة في الحادي والثلاثين من آب سنة ١٢ ب.م.، قضى الثالثة والرابعة من عمره (١٤-١٦) في وادي الرين مع والديه، ولفت حذاؤه العسكري الصغير أنظار مغنجه من الجند، فعُرف به caligula، وجاء إلى الشرق مع والديه في السنة ١٨-١٩، وبعد وفاة والده في السنة ١٩ أخذته أمه إلى رومة، وبقي في كنفها حتى نفيها في السنة ٢٩، ثم عاش مع جدته لبية وأنطونية الصغرى حتى استدعاه طيباريوس إلى جزيرة كبري في السنة ٣٢.

وكان غايوس ذكيًا فطنًا معلمًا جذابًا لسنًا لطيف المعاشرة، ولكنه كان قليل الاتزان جسمًا وعقلًا، فإنه أصيب منذ حادثته بداء النقطة، فأمسى كسولًا متقلب الأهواء، كثير الوسائس غريب الأخلاق، فكنت تراه يتلذذ بمشاهد العذاب والأذى، وينغمس بملذات الجسد فيتردد على المحلات العمومية متنكرًا بقبع غريب من الشعر، مشتملاً بمعطف يغطي معظم جسده، ومن هنا قول طيباريوس: «إنني أتغاضى عن بقاء غايوس؛ ليشقى

ويتعس الجميع معه»، وقوله أيضًا: «إني أربي أفعى للشعب و«فايتونا Phaeton» آخر للكون».²²

وارتاح الرومانيون لوفاة طيباريوس، واستبشروا بوصول غايوس إلى الحكم بعده، ولم يتقيد السناتوس بوصية طيباريوس، واعتبره غير صحيح العقل، فمنع غميليوس عن مشاركة غايوس في الحكم، ووضع جميع أموال الموصي تحت تصرف غايوس،²³ وشمل السرور سكان الولايات أيضًا، فشيدت المذابح، وزُينت وذُبحت الذبائح، فبلغ عددها في ثلاثة أشهر مائة وستين ألف ذبيحة، وحيّت المدن الشرقية الإله الشمس الجديد «غايوس قيصر أوغسطس جرمانيكوس»، وسكت نقود جديدة في الإسكندرية تحمل على وجهها رسم غايوس متوجًا بتاج «الإشعاع» وعلى ظهرها «نصف بدر»،²⁴ وحيّا السناتوس أغريبينة الكبرى وسك النقود باسمها.

وبدأ غايوس حكمه بتحرير رومة والولايات من قيود طيباريوس، فتنى غميليوس وجعله الأول بين الشباب Princeps Juventutis، وأشرك عمه كلوديوس فجعله قنصلًا معه، ووضع حدًا للتحريات في مسائل الخيانة العظمى وإعادة المنفيين، وسمح بنشر بعض الكتب المحرمة، وألغى ضريبة البيع، وأجزل العطاء للجند.²⁵

(١-٣) حماقته وسوء سلوكه

ثم تألم غايوس، وتشكى في السابع والعشرين من تشرين الأول من السنة الأولى (٣٧) لحكمه، ولما تماثل وأشكل عاد إلى عمله مسرفًا متجاوز الحد، أحقق، طماعًا، شرهًا، قاسيًا ضارياً، فأمر باستحضار تماثيل أشهر الآلهة من بلاد اليونان؛ ليستبدل رؤوسها برأسه،²⁶ وابتلع اللالئ الثمينة محلولة بالخل، ونثر على الجماهير من شرفة باسيليقية يولية مقادير هائلة من النقد الصغير،²⁷ فبذر قبل انتهاء السنة ٢٨ كل ما اختزنه طيباريوس في عهده، وقد بلغ — كما سبق وأشرنا — ألفين وسبعمائة مليون سيستركس!

ولما فرغت خزينته من المال، أعاد ما ألغى من الضرائب، وفرض الجديد منها، وابتزّ الأموال ابتزازًا بما أوتي من سلطة وفن، وزاد طمعه فأمر بتغطية أرض قاعة من قاعات قصره بالقطع الذهبية ليطنها هو حافي القدمين، أو لينحدل عليها، ويتمرّغ فيها.²⁸ وقسى قلبه وخشن جانبه، فأمر بقتل ابن عمه غميليوس، وعمه سيلانوس، وأكره صديقه ماكرو وزوجته على الانتحار، وكان يأمر الجلادين بتحاشي الضربات السريعة القتل، فيقول لهم: «اضربوا بشكل يجعل فريستكم تشعر بالموت»،²⁹ وكان يتلذذ بمشاهدة

المساجين يتعذبون، ويحتفظ بجندي حاذق في فن التعذيب،³⁰ ولما جاء يدشن جسر القوارب الكبير بين «بوزولس Pouzzoles» و«بولي Bauli»، طلب إلى جميع المشاهدين أن يأتوا إليه إلى الجسر، فلما اكتمل عددهم انقلبت بهم القوارب فغرقوا، ثم أمر غايوس بمن نجا،³¹ ودعا الوجوه والحكام إلى مأدبة فاخرة وأجلس القنصلين إلى جانبه، ثم فاجأ الحضور بقهقهة قوية جلق لها فمه، فسأله القنصلان عن السبب فقال: «لقد لاح لي أنه بإمكانني أن أدبكما معًا بإشارة واحدة».³²

(٢-٣) رأيه في الحكم

ولم تكن أقوال غايوس وأفعاله كلها من ظواهر الحمق وفساد العقل، فإنه قال بالملكية المطلقة، متأثرًا برأي يوليوس في الحكم وبما طبقه أنطونيوس في الشرق وما نقلته إليه جدته أنطونية وربته عليه،³³ فيكون — والحالة هذه — أول من حاول الحكم المطلق في رومة، ولعله قال بحكم ثيوقراطي من النوع الذي شاع في الشرق في عهد خلفاء الإسكندر في مصر وسورية، فالحاكم في نظره كان سيد شعبه وإلههم في آن واحد، ومن هنا قوله للملوك والأمراء الذين أموا رومة ليؤكدوا ولاءهم لسيدها، حينما اجتمعوا حول مائدة واحدة بدءوا يفاخرون ويتفاخرون بحسبهم ونسبهم: «لم يبق سوى سيد واحد وملك واحد»،³⁴ ومن هنا التشريعات الملكية في قصره ووجوب السجود له،³⁵ ومن هنا أيضًا تفكيره الجدي في تنويع رأسه بالدياظمة وفي اتخاذ جميع شارات الملك لنفسه، ثم عدوله عن ذلك واتخاذها شارات الآلهة؛ لأنه أعلى وأسمى من جميع الملوك والأمراء، والواقع أنه تردى برداء باخوس ونبتون وأبولون أو يوبتر، وأخذ على اليهود، لدى مثل وفدهم أمامه في السنة ٣٩، أنهم لم يعبدوه إلهًا،³⁶ ثم فرض عبادة شخصه فرضًا على الرومانيين وسكان الولايات منذ السنة ٤٠.³⁷

(٣-٣) مقتله (٤١)

ودكَّ التهتك غايوس فأضعفه وهذَّه هذًا، ولعله ابتلي بداء الزهري أيضًا، فوقف على ثنية الوداع، وهو لا يزال في التاسعة والعشرين من عمره، وكان سمين الضواحي صغير الرأس أصلعه، كالح الوجه، غائر العينين ينظر شزراً وغدراً، وعاب في مطلع السنة ٤١ «كاسيوس خيارية Cassius Chaerea» أحد كبار ضباط الحرس وعوّج فمه عليه، وأساء إليه وأتبع

السيئة السيئة، فاغتاله كاسيوس في أحد دهاليز القصر، ثم قتل زوجته وبنته أيضًا، فثبت لغايوس عندئذ أنه لم يكن إلهًا!³⁸

(٤) كلوديوس قيصر (٤١-٥٤)

وخلا مكان غايوس وتقلص ظله، وتسدلّ ليل الرابع والعشرين من كانون الثاني من السنة الحادية والأربعين على عاصمة واجمة وسناتوس ذابل وخزينة فارغة، فلما أشرقت شمس الخامس والعشرين التأم السناتوس ليتدبّر الأمور بحكمته، فقال بعض الشيوخ بالعودة إلى النظام الجمهوري بكامله، وقال آخرون بوجوب المحافظة على النظام الأوغوستوسي السائد، واستعرض هؤلاء أسماء الأكفاء ليختاروا منهم خلفًا لغايوس، وفيما هم يبحثون ويتناقشون فاجأهم الحرس مناديًا بكلوديوس امبراطورًا خلفًا لغايوس، فانصاع الشيوخ لنداء الحرس، فتسلم كلوديوس أزمة الحكم وسياسة الدولة،³⁹ وظل الشيخ «أنبيوس فينيكيانوس Annius Vinicianus» طامعًا في الحكم فاتصل بـ «غوريوس سكريبونيانوس Furius Scribonianus» والي دلماتية وتأمرا معًا، فتمرد الجند في دلماتية على الإمبراطور الجديد، ولكن تمردهم لم يدم أكثر من أربعة أيام، فنالوا اللقب Claudia Pia Fidelis.

هو ابن دروسوس أخي جرمانيكوس من زوجته أنطونية، وُلد في «ليون Lugdunum» من أعمال غالية في السنة العاشرة قبل الميلاد، وأصيب بشلل الأطفال أو غير ذلك من الأمراض، فنشأ ناحل الساقين ومشى متوركًا متميلاً، وأحب الخمرة وأفرط الشهوة في الطعام فشكا من داء النقرس، وتعتع في الكلام وتصحب في الضحك، وأرغى إذا غضب وأزبد وسال أنفه وتقطر، ورقّ ذووه لحاله، ولكنهم أهملوه واستخفوا به، فنشأ حساسًا وجلاً، وعاش منزويًا مبتعدًا عن معترك الحياة، لاهيًا بالقمار والكتب والخمر، وأتقن اللاتينية واليونانية وعني بفقهِ اللغتين، وصنّف رسالة في الحروف الأبجدية اللاتينية، مقترحًا إضافة حروف ثلاثة منها: الحرف v بلفظه في اللغات الحديثة، واستقصى أخبار الرومان عاملاً بإشارة لبيوس، فصنّف في تاريخ اتروية ورومة وقرطاجة وعصر أوغسطس، ودوّن سيرته الشخصية أيضًا، وأحاط بالعلوم والفلسفة والدين، وقدره العلماء والأدباء واستشاروه في بعض الأمور وقدموا بعض مصنفاتهم له، ولعله كان على حق حين قال: إنه تظاهر بالبله ليضمن سلامة رأسه.⁴⁰



كلوديوس قيصر.

(٤-١) رأيه في الحكم وأسلوبه

وحاول كلوديوس يوم مقتل غايوس الاختباء في جملون القصر بين السقف والسطح، أو وراء حجاب عند إحدى الشرفات، أو في محل آخر، ولكن الجنود الذين كانوا يجدون في التفتيش للنهب والسلب، عثروا عليه وعرفوه فأخذوه إلى معسكر الحرس، وجرّت مفاوضات بينه وبين كبار الضباط، فأثر هؤلاء حفيد دروسوس وابن جرمانيكوس العسكريين على غيره ممن لم يعرفوا، ووعد كلوديوس بهبة قدرها خمسة عشر ألف سستركس لكل واحد من الرجال، فنادوا به إمبراطورًا، واتخذ هو الاسم «طيباريوس كلوديوس قيصر أوغسطس جرمانيكوس»،⁴¹ فاعترف بعمله هذا بسيادة الجيش، وعبث بحق المجلس في انتخاب المواطن الأول، ولكنه لم يقل قول غايوس بالحكم المطلق، ولم يفرض تأليهه فرضًا، بل اعترف بحق السناتوس بالاشتراك في الحكم، ووعد وعدًا أكيدًا باحترام هذا الحق، وسك نقودًا تحمل العبارة Libertas Augusti، فأعلن رغبته الأكيدة في العودة إلى النظام الأوغوسطي.⁴²

وأحاط كلوديوس بتاريخ رومة بجملته وتفصيله، وعرف تقاليدها ظاهرها وباطنها، وفاخر برومة وشعبها، فأحب أن يُحسن السياسة، وحقق رغبته أكثر من مرة، ولكن

أدب عصره يصوره سهل الانقياد مستسلماً لرجال بطانته ونسائه، ولا سيما «مسالينة» (Messalina) زوجته الثالثة، التي صُرعت في السنة ٤٨، وخليفتها أغريبيينة الصغرى،⁴³ ولولا وفرة النصوص الباقية من أوامره، إما على الحجارة، وإما على الأوراق البردي لاضطررنا أن نجاري أدباء عصره فيما صوّروه، والواقع أن أوامره الصادرة عنه الباقية حتى يومنا تظهره إدارياً موهوباً، فإنه نجح — فيما يظهر — في انتقاء معاونيه وقادة جيوشه وسيّر الأمور بموجب خطة رشيدة اختطها لنفسه أو وافق عليها، ثم خارت قواه في أيامه الأخيرة فخضع لمن حوله، كما جاء في بعض النصوص المعاصرة.

وهكذا، فإننا نراه يستهل أعماله الإدارية القضائية بإنزال العقاب اللازم بخيارية قاتل غايوس، وبيعض المتآمرين أيضاً، ولكنه لا يمس المتآمرين من أعضاء السناطوس بسوء، ونراه يلغي قرارات غايوس الشاذة أو المتطرفة، ويسمح بعودة المنفيين ويصدر عفواً عاماً، ومن هنا أيضاً، إشارته العلنية إلى سخف غايوس وضعف عقله، وإضافة الاسم قيصر إلى اسمه؛ ليثبت احترامه ليوليوس ومن تحدر منه، وليؤكد استمراره في سياسة أوغسطس الرشيدة.

(٢-٤) كلوديوس والسناطوس

وابتعد كلوديوس عن استئثار غايوس بالسلطة، وحاول مخلصاً أن يتعاون والسناطوس على طريقة أوغسطس، فأعاد للسناطوس صلاحياته الانتخابية، وأحال عليه القضايا ليبت فيها بقرار صادر عنه *Senatus Consultum*، ولم يرشح نفسه لمنصب القنصلية أكثر من أربع مرات، وحافظ على مكانة الشيوخ الاجتماعية، وأجلسهم في أفضل المقاعد في ميادين السباق، وأعاد إليهم في السنة ٤٤ ولايتي آخية ومقدونية، وبعد إخضاع بريطانيا أشركهم في إدارة أمورها، وواظب على حضور جلسات السناطوس، وأظهر لأعضائه كل إكرام واحترام، ولكنه أحيى في السنة ٤٧-٤٨ وظيفة «المراقب» (*ensor*)، ومارس بنفسه صلاحياتها، فرقى إلى عضوية السناطوس من رآه أهلاً لذلك، غير مكترث بالطريقة التقليدية المألوفة *adlectio*، فطرد بعض الأعضاء القدماء، وأدخل عدداً من سكان الولايات، ولا سيما الزعماء الغالين.

وأصرّ كلوديوس على العمل المجدي، فأوجب على الشيوخ حضور الجلسات والاشتراك في بحث القضايا والابتعاد عن الموافقة بدون ترو وقناعة، فهو يقول في كلمة وجهها إلى الأعضاء لمناسبة اقتراح قدمه لإصلاح أصول المرافعة أمام السناطوس: «إذا كنتم لا

توافقون، فأوجدوا حلًّا آخر؛ لأنه لا يليق بجلال هذا المجلس ووقاره أن يقول المرشح للقنصلية قول القناصل كلمة كلمة متبنيًا اقتراحهما، وأن تقولوا جميعكم بعد ذلك «إني أوافق»، ثم تخرجوا زاعمين أنكم بحثتم القضية التي عُرضت أمامكم»⁴⁴ ولعل هذا الشعور بقعود الشيوخ عما تسمو إليه النفوس العزيزة، وعجزهم عن القيام بالواجب دفع كلوديوس إلى الإنقاص من حقوقهم وصلاحياتهم، وإلى توسيع صلاحيات غيرهم من موظفي الدولة، وهكذا، فإننا نراه يستعيز عن أميني المال لدى «الأسطول classici» في «مسينة Misenum» و«ربينة Ravenna»، اللذين كانا يعينان من قبل السناتوس بناظري هذين الأسطولين، ونراه أيضًا يعين محصلًا إمبراطوريًّا في «مرفأ أوستية procurates portus Ostiensis» محل أمين المال فيها، ونراه كذلك يعين في السنة ٤٤ أمينين لإدارة شئون الخزينة و«المحفوظات Aerarium» في رومة لمدة ثلاث سنوات، ويولي موظفين إمبراطوريين الإشراف على الطرقات فيها بدلًا من الأمناء، الذين شغلوا هذه الوظيفة باسم السناتوس، ولعله عالج توزيع الحبوب بالطريقة نفسها،⁴⁵ ولا يختلف اثنان — فيما نعلم — في أن رائد كلوديوس كان إصلاح الإدارة وضبطها، ولكن إجراءاته لم تحسن علاقاته مع السناتوس، وأدى تدخله في شئون المجلس، ولا سيما في عضويته إلى الاصطدام بعدد من الشيوخ، وإلى إعدام خمسة وثلاثين منهم، ومع أن موقف كلوديوس من الشيوخ في إصلاحاته أفسح المجال لطبقة الفرسان، فإن هؤلاء استنقلوا ظله وشعروا أنهم يتحولون تدريجيًّا إلى عملاء للإمبراطور، فتآمر بعضهم، وأعدم كلوديوس منهم حوالي الثلاثمائة.⁴⁶

(٣-٤) إدارته المركزية الجديدة

وكان كلوديوس ضعيف البنية سقيمًا كما سبق وأشرنا، فلما كثرت مشاغله وتعددت متاعبه وهمومه بأن عييه، فكان عقله يشرد أو يكل في أثناء العمل، وكانت جلساته القضائية تمتد وتطول، فيثني النعاس رؤوس القضاة الجالسين، وينتهي كلوديوس في بعض الأحيان إلى حكم أعوج، وأدرك كلوديوس هذا النقص فتداركه بملقن يجلس معه ويرده إلى نقطة الانطلاق في البحث، وبمستشارين ينظرون معه في القضايا الماثلة. ونهج كلوديوس نهجًا جديدًا في انتقاء هؤلاء المستشارين، فإنه أثر الاستعانة بالبارزين من طبقة العتقاء على طلب المعونة نفسها من طبقة الشيوخ أو طبقة الفرسان، ومع أن أوغسطس وطيباريوس كانا قد استعانا بخدمات العتقاء، فإنهما لم يجعلهما منهم

مستشاري ذوي حول وطول، بل حصرا عملهم في أمورهما الشخصية أو المسائل الكتابية العادية، كما كان يفعل سائر الرومانيين من ذوي اليسار والثراء، أما كلوديوس، فإنه استشار هؤلاء العتقاء في سياسة الدولة العليا، وفي التعينات الكبرى، فأسمى «كليستوس Callistus» العتيق الذي كان يتولى منصب «الناظر في الطلبات والعرائض praepositus a libellis» أنفذ النافذين في الدولة، وقل الأمر نفسه عن «نركيسوس Narcissus» (رئيس القلم praepositus ab epistulis)، وعن «بلاس Pallas» «المحاسب الأول praepositus a rationibus». ⁴⁷ ولم يكتف هؤلاء العتقاء بالنفوذ، بل جعلوا من القصر الإمبراطوري سوقاً مفتوحة، يسامون فيها بأكبر الوظائف وأهم الالتزامات، فجمعوا ما لم يفز به كراسوس في حياته. ⁴⁸

وعني كلوديوس وعتقاؤه بإدارة المال عناية خصوصية، فضبط «المحاسب الأول a rationibus» مال الولايات الإمبراطورية fiscus أكثر من ذي قبل، وأنشأ وظيفة «محصل الخاصة procurator a patrimonio»، ووظيفة «محصل ضريبة الإرث procurator vicesimarum hereditatum»، ووسع صلاحيات المحصلين في الولايات الإمبراطورية الخاضعين له، فشملت في بعض الأحيان بعض الولايات السناتوسي، وضبط «خزينة الدولة Aerarium» كما سبق وأشارنا، فعين هو أمناءها، وتمكن بذلك من سحب ما أراد من المال بدون قرار سابق من السناتوس؛ لأن صلاحيات الإمبراطور كانت قد أصبحت منذ عهد طيباريوس سارية المفعول طوال حياة الإمبراطور.

واهتم كلوديوس لسير العدل في الدولة، فخصص الساعات الطويلة من وقته لمراقبة المحاكم وحض القضاة على العمل بانتظام، ولكنه رغب في أن ينظر هو بنفسه في الجنايات بدلاً من إحالتها على السناتوس كما فعل سلفاؤه، فنظر فيها في قصره intra cubiculum principis، فاستغله واستغلها عتقاؤه ونساؤه، فأمست مفسدة من مفاسد حكمه، وظل هو يهدف إلى العدل ويرمي إلى الإصلاح بواسطة القضاء، فإنه منع — مثلاً — المرابين من تسليف الأموال إلى الأبناء بانتظار وفاة والديهم الثرين، ولم يرص أيضاً عن إهمال الأرقاء المرضى بطرحهم في أروقة هيكل «أسكولابيوس Aesculapius» إله الطب، فأوجب اعتبارهم أحراراً عتقاء في حال الشفاء.

ومن مآثر هذا الإمبراطور العليل، أنه حرّم ابتياع الأبنية في الريف لأجل هدمها؛ كي يحافظ على المزارع، ويمنع تحويل الأراضي الزراعية إلى مراعى، وشجع الغرباء على بناء السفن، وضمن المراكب ومحمولها في حال الإعصار والغرق؛ ليؤمن استيراد الحبوب وسد حاجة المواطنين إليها، وكانت رواسب الطين التي يجرفها التيار تعرقل الملاحة عند

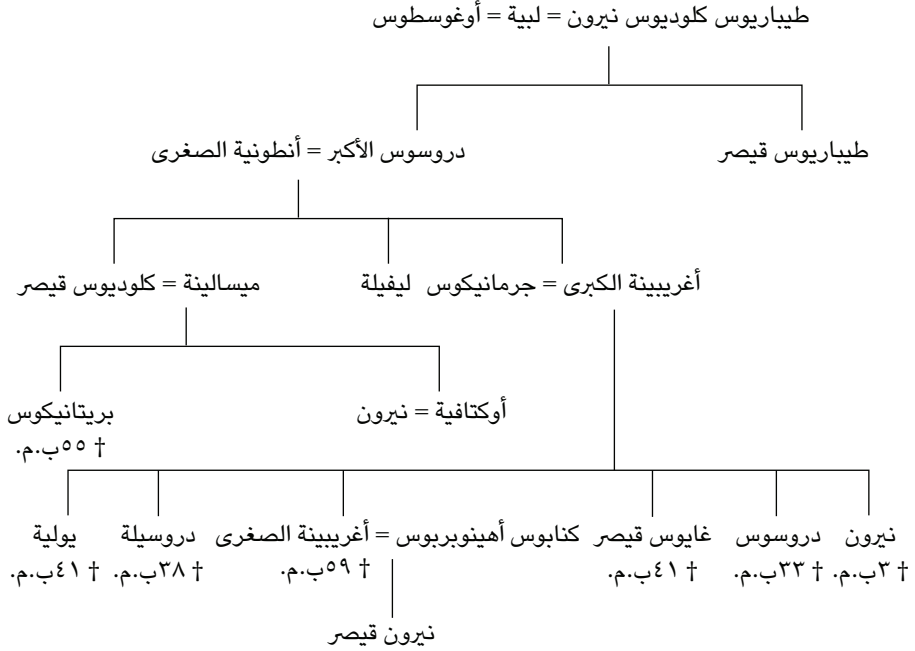
مصبه في «أوستية Ostia»، فأنشأ مرفأً جديدًا على بعد ثلاثة أميال في شمال المصب، وربط هذا المرفأً بالتبر بترعة خصوصية، كما أنشأ منارة جديدة ومستودعات لخزن الحبوب،⁴⁹ وأكمل قناتين لجر المياه إلى رومة، ولا تزال آثارهما ظاهرة للعيان حتى يومنا هذا،⁵⁰ وأشغل ثلاثين ألف عامل زهاء إحدى عشرة سنة في حفر نفق لتخفيف بحيرة «فوكينة Fucine»، وجعل أراضيها صالحة للزراعة، وأنشأ الطرق في إيطاليا، فأوصل طريق «فاليرية Via Valeria» حتى الأدرياتيك، وأسماهـا Via Valeria Claudia، وفعل مثل هذا في خارج إيطاليا في مقاطعات الألب وفي بعض الولايات.⁵¹

(٤-٤) نساؤه

وتزوج كلوديوس أربع مرات، فماتت الأولى يوم الاقتران، وولدت له الثانية دروسوس وكلودية ثم طلقها، وتزوج من الثالثة فرزق منها بنته أنطونية ثم طلقها، وبعد أن بلغ الثامنة والأربعين تزوج من «فاليرية ميسالينة Valeria Messalina»، وهي لا تزال في السادسة عشرة من عمرها، وولدت له ابنًا في السنة ٤١ أسماه طيباريوس كلوديوس جرمانيكوس، ثم بريتانيكوس بعد فتوحات بريطانية، ولم تكن ميسالينة جميلة، فإن رأسها كان مفلطحًا، ووجهها متورّدًا، وصدرها سيئ التركيب مشوهًا، ولما تسلّم زوجها أزمة الحكم تصرفت تصرف الملكة، فاشتركت في مواكب النصر، وأوجبت الاحتفال بمولدها في جميع أنحاء الإمبراطورية، ولكنها كانت شهوانية خليعة، فأحبت الرقاص «منستر Mnester» وراودته فامتنع، فطلبت إلى زوجها أن يأمره بالطاعة ففعل فامتثل! فقلّ حياؤها وطمحت إلى غيره، أمة بالطاعة متجنبة على الراضين، سالية حقوقهم وأرواحهم في بعض الأحيان، واشتدّ جَلْعُها وتعددت مداعباتها، فكثُر إنفاقها، فساومت على الوظائف والالتزامات، ثم تعلقت بشاب جميل اسمه «غايوس سيليوس Silius»، فعقدت زواجًا معه في أثناء غياب كلوديوس عن رومة، فقُتلت في حضان أمها في السنة ٤٨ ب.م.⁵²

وتردد كلوديوس فيما إذا كان يتزوج من «لولية بولينه Lollia Paulia» أو أغريبينة الصغرى، وكانت لولية زوجة فيما مضى لـ «كاليغيولا Caligula» غنية جدًا، تتحلّى بجواهر تقدر بأربعين مليون سيستركة،⁵³ وكانت أغريبينة الصغرى بنت جرمانيكوس أخي كلوديوس من زوجته أغريبينة الكبرى، فلما أبعدت هذه في عهد طيباريوس تركت أولادها كاليغيولا وشقيقاته أغريبينة ودروسيلا ويولية في كنف جدتهن أنطونية الصغرى أرملة دروسوس، فعبث كاليغيولا بشقيقاته الثلاث، وعلم طيباريوس بالأمر فأقامه في قصره

عصر أوغسطس قيصر وخلفائه



ودبر أزواجاً للبنات، فأزوج أغريبينة الصغرى من «كنايوس دوميتيوس أهينوبربوس Ahenobarbus» ذي اللحية البرونزية، وعلى الرغم من تحدر «كنايوس Cnaeus» من أسرة عريقة في الشرف أسرة دوميتية، فإنه كان خليعاً متهتكاً قاسياً قليل الأمانة، ومما يروى عنه أنه قتل عتيقاً؛ لأنه امتنع عن تجرع المسكر بالكمية التي أرادها له، وكان يروى عنه أيضاً، أنه قلع عين أحد الفرسان في الفوروم؛ لأنه تفوه بما لم يرص عنه، وأنه تعمد دهن طفل في الشارع، وأنه اختلس أموال الدولة، هذا هو الرجل الذي انتقاه طيباريوس لحفيدة أخيه أغريبينة، وأكرهها على قبوله زوجاً لها، ولا نعلم شيئاً عن السنوات الأولى من زواجها، ولكن يجوز الافتراض أنها لم تكن سعيدة، وهناك ما يبرر القول أنها لم تكن أمينة له، ولكنها عرفت كيف تستتر عند سقوطها في المعصية،⁵⁴ ورزقت ابناً منه هو نيرون الشهير، ثم توفي زوجها فتزوجت من «غايوس كريسبوس Crispus» المثرى الكبير، وتوفي هذا بعد مقتل ليسالينة، تاركاً لأغريبينة مالا كثيراً، فقليل: إن أغريبينة دست له السم دساً.⁵⁵

وترددت أغريبيينة على عمها الأكبر الأرملة وتوددت، وكانت لا تزال في الثانية والثلاثين، وقد ورثت جمال أمها ومقدرتها وعزمها، وعقدت قلبها على إيصال ابنها نيرون إلى سدة الحكم، فسُحر كلوديوس بفتور أجفانها، وافتتن بسحر عينيها، فهب يعلم السناتوس بعزمه على الزواج لمصلحة الدولة، ويطلب موافقتهم على زواجه من حفيدة أخيه لما في ذلك من خروج على التقليد، فوافق الشيوخ، وتغامز الشبان من طبقة الحراس، وتم الزواج.⁵⁶ وما كادت أغريبيينة تصل إلى البلاط حتى بدأت تتملق زوجها؛ ليتبنى ابنها نيرون، ويزوجه من بنته أوكتافية، وكان كلوديوس قد خطب «أوكتافية يونيوس سيلانوس L. Junius Silanus»، الذي انتسب عن طريق أمه إلى أوغسطس، فاستعانت أغريبيينة بـ «فيتيليوس Vitellius» المراقب المحصي، فادعى هذا أمام السناتوس أن سيلانوس عبث بشقيقته، ففسخ الشيوخ الخطبة، فأزوج كلوديوس نيرون من بنته أوكتافية، ثم تنباه في الخامس والعشرين من شباط سنة ٥٠ م.⁵⁷ فأصبح يُدعى Tiberius Claudius Nero Drusus Germanicus.⁵⁸

وكانت ميسالينة قد اتهمت «سنكة Seneca» الفيلسوف الرواقي بمضاجعة يولية أخت أغريبيينة، فنجحت في إبعاده في السنة ٤٢ إلى جزيرة كورسيكة، وكان قد سئم هو العزلة، على الرغم من رواقيته، وتوسل إلى كلوديوس ليعفو عنه ويعيده إلى رومة، فلم يفلح، فلما وصلت أغريبيينة إلى البلاط رأت أن لا بد من الاستعانة بهذا الفيلسوف؛ لبث الدعاية لابنها عند الحاجة، وللقول أن ابنها تهذب على يد أعلم علماء رومة، فألحت على كلوديوس بوجوب العفو عن سنكة، وإعادته إلى العاصمة ليتولى تربية ابنها بنفسه، فعاد سنكة في السنة ٤٩، وتزوج من بنت بولينوس أحد كبار رجال المال، والتحق بالبلاط معلمًا مهذبًا، ورأى أن يدرب نيرون في البيان والفلسفة، ولكن أغريبيينة اعترضت، مدعية أن الأباطرة ليسوا بحاجة إلى الفلسفة، بل إلى العلوم العملية، وطلبت إلى سنكة أن يعلم ابنها كيف يتكلم.⁵⁹

ثم احتاطت أغريبيينة لأمر الحرس الإمبراطور فوحدت قيادتهم، وجعلت ناظرهم واحدًا بدلًا من اثنين، وانتقت لهذه الوظيفة الحساسة مدير الخاصة «افراننيوس Burrus L. Afranius Burrus».⁶⁰

(٤-٥) بلوغ نيرون

وفي أواخر السنة ٥٠، دخل نيرون في الرابعة عشرة سن البلوغ عند الرومان، فألحت أمه على كلوديوس أن يسمح له بلبس الطوغة؛ ليتدرب في ممارسة الأعمال العمومية،



سنكة.

فوافق كلوديوس وقدم ابنه بالتبني نيرون إلى السناتوس في الثاني عشر من آذار سنة ٥١، فنادى الشيوخ به «الأول بين الأحداث princeps juventutis» والمرشح لمنصب القنصلية، واستعرض كلوديوس وأغريبيئة الجنود بقيادة نيرون، فظهر المرشح الجديد بقميصه المزركشة بالذهب، وبترسه الذهبي هدية طبقة الفرسان، وما إن وصل أمام المنصة الإمبراطورية حتى انحنى تأدباً واحتراماً، ثم استل سيفه وهز ترسه عالياً، وظهر بعد ذلك في ميدان السباق مرتدياً الطوغة الأرجوانية المزينة بالنجوم الذهبية، طوغة البروقنصلية المقبلة، وظهر بريتانيكوس ولكن بيثاب الصبية، ليتراءى للرومانيين أن الأول هو السابق إلى المنصة بعد كلوديوس، وجاء بعد هذا كله قرار سناتوسي يوجب على الكهنة في كلياتهم الأربع أن يعتبروا نيرون «عضواً فوق العادة supra numerum»، وهو شرف غير عادي، وذكره «الأخوة الأرفاليون Fraters Arvales» في صلواتهم، وسُكت النقود، وأقيمت التماثيل على شرفه!⁶¹

واحتُرقت بونونية، وهي في بولونية الحديثة، وتقدم سكانها من مجلس السناتوس يلتمسون معونة مالية لبناء منازلهم، فرأت أغريبيئة أن تستغل الظرف لصالح ابنها، واقترحت على سنكة أن يُعَدَّ ابنها للدفاع عن حقوق البونونيين أمام السناتوس، فوافق

سنكة وأعد الدفاع ودرب نيرون عليه، وجعله يستظهره استظهارًا، فأقر السناتوس معونة قدرها عشرة ملايين سيستركة، وشاع الخبر في رومة، فدخل نيرون في عداد الخطباء، وتهامس الراسخون في العلم، فأثنوا على مقدرة سنكة في التدريب، وعلى قابلية نيرون واستقراره، وتناسى الناس بريتانيكوس، ثم بدأوا يتناقلون أخبارًا مؤداها أن بريتانيكوس عليل يشكو من داء النقطة، ولا يصلح للحكم بعد والده.⁶²

وشكا بعض المواطنين الرومانيين قساوة السلطات الرودوسية في معاملتها، عندما حاولوا الإقامة في الجزيرة، فخرس الرودوسيون حقهم في تدبير أمورهم، فشكوا أمرهم إلى السناتوس، فأعد سنكة دفاعًا مجيدًا باللغة اليونانية، وحث نيرون على استظهاره، فدافع نيرون عن رودوس باليونانية وريح الدعوى، وأعاد لسكان الجزيرة سابق حريتهم، فتغنّى «انتيفيلوس Antiphilos» البزنطي بفضل نيرون، مؤكدًا أنه إذا كان الإله الشمس قد انتشل رودوس من المياه، فإن نيرون منع المياه من غمرها.⁶³

(٦-٤) الأعياد اللاتينية

واقترب موعد «الأعياد اللاتينية Feriae Latinae»، واضطر كلوديوس أن يقيم على تلال «ألبانوس Albanus» طوال أيام الأعياد، فكان لا بد من نائب ينوب عنه في أثناء غيابه، فاقتربت أغريبيينة أن يكون النائب ابنها نيرون؛ ليتسنى له اختبار الحكم، ويكتمل تهذيبه، فعينه كلوديوس قبيل خروجه من رومة نائبًا عنه باللقب Praefectus Urbi Feriarum Latinarum، ومنحه صلاحية النظر في الدعاوى الصغرى في الفوروم، ولكن المحامين استغلوا الظرف، فجابها نيرون ببعض دعاويهم المعقدة، فأسرع الجمهور إلى الفوروم؛ ليروا كيف يعالج هذا الشاب الحاكم القضايا الشائكة، وسانده معلمه — بطبيعة الحال — ولكن نيرون أظهر من المقدرة ما أدهش الحضور.⁶⁴

(٧-٤) وفاء نيرون وزواجه

وكان كلوديوس شديد الشهوة للطعام، مسحوت الجوف لا يشبع، فأكثر منه يومًا فلم يستمره فأتخم، فدفعت أغريبيينة ابنها إلى مجلس الشيوخ؛ ليؤكد لهم استعدادة لإقامة الألعاب في ميدان السباق على نفقته، وعن صحة والده بالتبني، وأفاق كلوديوس وتعافى، وتمت الألعاب على نفقة نيرون، فقدر الجمهور وفاءه، وأخذوا على بريتانيكوس قعوده، وارتفع سعر الخبز في رومة، فوقع الشغب وضج الناس، فأعلم كلوديوس الشيوخ والشعب

معاً أن نيرون قادر على القيام بأعباء الحكم في حال وقوعه في الخطر،⁶⁵ وتهالكت أغريبيينة في أمرها فاستعجلت زواج ابنها من أوكتافية، ففاتحت كلوديوس الكلام في ذلك، حالما أكمل نيرون الخامسة عشرة، أي في منتصف كانون الأول من السنة ٥٢، وتم الزواج في السنة التالية، وباتت أغريبيينة تنتصر النصر النهائي.

(٤-٨) أغريبيينة ونركيسوس

وأسمى مطلب أغريبيينة بعد هذه المرحلة شديداً كُتُوداً، فإن تعاونها مع «بلاس Pallas» دفع «نركيسوس Narcissus» إلى الحذر والمعارضة، وجمعت هذه المعارضة بينه وبين «دوميتية Domitia» والدة ميسالينة، فقالا بحق بريتانيكوس في الحكم بعد والده، وراحا يحاربان أغريبيينة وأنصارها.

وحسبت أغريبيينة لمعارضة نركيسوس ألف حساب، لما جمعه في شخصه من مقدرة ودهاء ومكر، فبدأت هجومها عليه باتهامه بالتبذير والاختلاس، ولا سيما بعد أن أخفق في تجفيف بحيرة فوكينة،⁶⁶ وأمر كلوديوس بالتحقيق فخرج نركيسوس بريئاً، فاتهم أغريبيينة «بالمطامع العالية» وأظهر التفاتاً خصوصياً نحو بريتانيكوس، ونُقل عنه أنه قال لهذا الفتى: نرجو لك النمو السريع؛ لتتمكن من طرد أعداء والدك والاقتصاص ممن قتل أمك ميسالينة،⁶⁷ ونقل عن كلوديوس أنه قال: لقد قُدر علي أن أتحمّل خلاعة زوجاتي وفجورهن، وأن أعاقبهن بعد ذلك،⁶⁸ فخشيت أغريبيينة سوء العاقبة، واتهمت دوميتية بالدس عليها، ثم انطلقت تحاربها، فادعت أن دوميتية تمارس السحر لتوقع الأذى بزوجة الإمبراطور، وأنها تجمع الأرقاء في مزارعها الكبيرة؛ لتبدأ حرباً سباركتوسية ثانية، فحُكم على دوميتية، وطلب إليها أن تنتحر، ففعلت،⁶⁹ وألم بنركيسوس داء النقرس، فأشار الأطباء بوجوب الإقامة بسنوسة والاستحمام بمائها، ففعل وابتعد.⁷⁰

(٤-٩) اغتيال كلوديوس

وخلا الجو لأغريبيينة، فلجأت إلى «لوكوستة Locusta» الغالية الحاذقة في إعداد السم ودسه، فأعدت هذه لأغريبيينة جرعة قاتلة، وكان كلوديوس يحب الفطر، فطهته أغريبيينة ودست سمها فيه، فأعياه وغاب رشده، ثم استفرغ وبدأ يتماثل، فأُنذرت أغريبيينة الطبيب المعالج بوجوب تعجيل الوفاة، وكان الطبيب قد استعان بريشة وزه؛ ليعجل الاستفراغ،

فبدأ يدهن حلق كلوديوس بما تبقى من السم بالريشة نفسها، فلفظ الإمبراطور أنفاسه قبيل الضحى في الثالث عشر من تشرين الأول سنة ٥٤ ب.م.⁷¹

(٥) وصول نيرون إلى الحكم

وطوت أغريبينة خبر الوفاة؛ لتمهد السبيل لوصول ابنها إلى السدة، فأذاعت بين الناس أن كلوديوس في حالة مرضية، واستدعت إلى البلاط رجال المجن؛ ليروحوا عن نفس الإمبراطور، فقاموا بأدوارهم في غرفته وأمام جثمانه، واهمين أنه حي يسمع ما يقولون ويغنون، وجلست أغريبينة مع بلاس وسنكة وبوروس تعد الخطط، فاستدعى بوروس فرقة من الحرس؛ لتحمي مداخل القصر، وفاوض كبار الضباط في أمر نيرون، فألح الجند على «عطاء donativum» مماثل لما قدمه كلوديوس عند وصوله إلى الحكم، أي بخمسة عشر ألف سيستركة لكل نفر، فوافق الكبار الأربعة على ذلك، ووكلوا إلى بلاس أمر العطاء، ومنع الشيوخ الأعضاء عن تقاضي الأجور للدفاع عن الدعاوى الماثلة أمام المجلس، اغتازت أغريبينة، وقامت تدافع عن اشتراخ زوجها كلوديوس، وأعلنت رغبتها في الاشتراك في مناقشات المجلس، فرفض الشيوخ ذلك، مؤكدين أن العرف قضى بعدم السماح لأية امرأة بحضور جلسات المجلس،⁷² ثم وصل إلى رومة وفد أرمني مفاوض، يطلب المساعدة ضد البرت، وتوجب على نيرون أن يستقبل هذا الوفد استقبالا رسمياً، وكانت أغريبينة تصر على الجلوس إلى جانب ابنها في مثل هذا الظرف، ورأى سنكة أن وقار رومة قضى بأن يكون ممثليها الرسمي ذكراً لا أنثى، فضرب موعداً للمقابلة الرسمية، ولم يُعلم به أحداً، وجاء الوفد الأرمني في الموعد المعين، واستقبله نيرون وحده، فعلمت أغريبينة بوجود الوفد في البلاط، فأسرعت في إعداد نفسها للمقابلة، وذهبت إلى القاعة التي جلس فيها نيرون وضيوفه، وما إن أطلت من مدخل القاعة حتى ارتج على نيرون، فنصح إليه سنكة همساً أن يسرع للقائها وتقبيلها، ثم ضرب سنكة موعداً آخر لإتمام المقابلة، فخرج الأرمن مكبرين محبة نيرون لوالدته واحترامه لها، وخسرت أغريبينة هذه الجولة في التسابق للنفوذ والأبهة.⁷³

وظل نيرون يظهر الإكرام والاحترام لوالدته، فكان يواكبها في الموكب الرسمية، ماشياً إلى جانب هودجها، وكان يجلس في المآدب عند مواطئ قدميها، ولكنه كان قد بدأ يستثقل ظلها، ولا سيما الناس تظهر له كل احترام وتقدير، وكبارهم يسجدون أمامه سجوداً،⁷⁴ والتقى في يوم من الأيام في ممرات البلاد ببنت ذات حسن بارع وجمال رائع، فافتتن بها،

وأحب أن يعرف من هي، فقيل له: إنها إحدى عتيقات زوجته أوكتافية، يونانية سورية تُدعى Acte (أختي؟) كلودية، وكان لا يزال في السابعة عشر، فسُحر بفتور أجفان هذه السورية، وملك حبها عنانه، فواصلها سرًا وأجزل العطاء، ورغب في التزوج منها زواجًا شرعيًا، وعلمت أغريبيينة بذلك فأنكرت عليه فعله، وشدت عليه النكير وجعلت لسانها مبردًا، فاستقل نيرون برأيه لأول مرة، وافترز أمره، وهدد بالتنازل عن مركزه، والابتعاد عن رومة والإقامة في رودوس مع حبيبته، فانقادت أغريبيينة وأذعنت، وأكدت أن كل ما لديها هو لابنها، ثم سمحت للحبيين باللقاء في مخادعها، وسكت سنكة الفيلسوف الرواق المذهب المستشار عن هذه الخلاعة، ولكن بعض خلان نيرون حذروه من تطرف والدته في الرضى.⁷⁵ ولم يرغب سنكة وبوروس في حكم «التنانير»، ولم يرضَ نيرون نفسه أن يكون آلة بيد غيره، وكان بلاس حبيب أغريبيينة ويمينها لا يزال مدير المال، فلما بدأ يتردد في إجابة طلبات نيرون وتقديم المال للإنفاق على الأخت كلودية ثار غضب نيرون، فصرف بلاس عن وجهه، وعزله وأخرجه من البلاط، واستبدله بعتيق آخر هو في الأرجح «فاون Phaon»،⁷⁶ وثار ثائر أغريبيينة، وكان عتاب شديد بينها وبين ابنها، أدى بها إلى القول أن بريتانيكوس لم يعد طفلًا، وأنه أحق بملك أبيه، فصمت نيرون وعاد إلى نفسه، فذكر أن لبريتانيكوس أنصارًا، وأن أمه لا ترعى ذمًا، ففس السم لبريتانيكوس في مساء السابع عشر من كانون الأول سنة ٥٥.⁷⁷

وجاء بعد ذلك دور أغريبيينة نفسها، فاثَّمت بالتآمر على نيرون مرتين بعد خروجها من القصر وإقامتها في فيلة أنطونية، ولكنها دافعت عن نفسها ونجحت في دفع التهمة عنها، أما نيرون، فإنه ظل يخشى مكرها، وجاءت «بوبية سبينة Poppaea Sabina» زوجة «أوتو Otho» الصديق الرفيق وخليلة نيرون الجديدة توغر صدر نيرون وتستوقد غيظه، فأضمر لوالدته العداوة، وبات يتربص بها الغوائل، وكان شتاء السنة ٥٨-٥٩ قائمًا ممطرًا باعًا على الكآبة، فلما جاء الخامس بعد منتصف آذار Quinquatria عيد مولد مينرزة إلهة الصناعات والعمال، أحب نيرون الخروج إلى «باية Baiae» إلى أفضل فيلاته، وخرج معه عدد كبير من العائلات الشريفة للاستضحاء والتمتع بمقدم الربيع، ولدى وصول الإمبراطور إلى باية استقبله فيها استقبالًا رسميًا ناظر أسطول مسينوم، معلمه القديم «أنيكيتوس Anicetus»، وكان بين الألعاب المختلفة التي تلهي بها الرومان في أيام العيد الأربعة ١٩-٢٣ آذار لعبة بحرية naumachia جديدة، لفتت الأنظار في تلك السنة، كان يُعد قارب لنقل بعض الحيوانات المفترسة، فيحملها ويمخر البحر بها، ثم ينقصف فتقلت الحيوانات في مياهه محاولة النجاة، فلا تلبث أن تغرق أمام الجمهور، وتراءى لاوتو

ولنيرون أن يتخلصا من أغريبيينة بهذه الطريقة نفسها، فاستدعيا أنيكييتوس، وأفضيا إليه بما استقر رأيهما عليه، وطلبا إعداد قارب من هذا النوع للنمرة المفترسة أغريبيينة،⁷⁸ وراح نيرون يتودد لوالدته ليطمئننها، استعدادًا لما سيكون، فتكلم أمام الشرفاء كلًا ما جميلًا،⁷⁹ وكتب إليها إلى «أنتيوم Antium» كتابًا رقيقًا يستدعيها فيه إلى باية للاشتراك في الحفلات القائمة،⁸⁰ واستقبلها نيرون نفسه لدى وصولها، وواكبها حتى فيلتها في باية، وقبل الانصراف دعاها إلى حضور مأدبة على شرفها في فيلة أوتو، فقبلت الدعوة وراحت تستعد للسهرة، ثم جاءها من يقول: إن الإمبراطور وضع تحت تصرفها بارجة مزينة لنقلها إلى المأدبة، فشكرت، ولكنها أثرت الذهاب بالهوج، ووصلت الوالدة فاحتلت مقعد الشرف في المأدبة، وتظاهر نيرون بالمحبة والود والوفاء، وشرب المجتمعون كثيرًا، ولا سيما نيرون وأتو، وتجرعت أغريبيينة من الخمرة أكثر من عاداتها في ذلك، وعند انتهاء المأدبة في آخر الليل واكب نيرون والدته حتى القارب المعد لنقلها، ورجاها عند الوداع أن تعنى بصحتها، وأكد استعداداه للتعاون معها، وبعد أن ابتعد القارب عن الشاطئ سقط سقف دكة القارب بما كان يحمله من الرصاص الثقيل على أغريبيينة ومن حولها، فقتل بعضهم، ولكن أغريبيينة نجت بنفسها مجروحة الكتف، ولم ينقص المركب، فسبحت أغريبيينة ووصلت سالمة إلى بيتها بعد عناء كبير، ثم تجاهلت ما جرى، وأرسلت عتيقها «اغرموس Agermus» إلى ابنها؛ ليطمئنه بسلامة والدته، وما كاد يمثل هذا الرسول بين يدي الإمبراطور حتى رمى هذا خنجرًا على الأرض، وادعى أن اغرموس جاء ليغتاله، وقام انيكييتوس واثنان آخران من رجاله إلى فيلة اغريبيينة، وقتلوا قتلًا، ثم أحرقوا جثتها.⁸¹

(١-٥) السنوات الخمس

ويروى أن الإمبراطور تريانوس قال فيما بعد: إن حكم «نيرون في السنوات الخمس quinquennium Neronis» فاق بجودته حكم جميع الأباطرة الآخرين،⁸² ومع أن هذا القول — إذا صح عزوه إلى تريانوس — كان القصد منه الإشادة بسياسة نيرون العمرانية في سنواته الأخيرة، فإن السنوات الخمس التي جاءت بين السنة ٥٦ والسنة ٦١ تميزت بما أراد سنكة أن يدعوه الرأفة والرحمة clementia، وهو اسم الكتاب الذي أهدها لنيرون. وكان نيرون — كما سبق وأشرنا — قد أعلن في خطابه أمام السناتوس في بدء عهده أنه سيتبع الخطة التي رسمها أوغسطس نفسه، وأنه سيبتعد عن النظر في دعاوى «في قصره intra cubiculum»، وسيقضي على الفساد الذي دب إلى القصر على

أيدي الرفاق والعقلاء، وأنه سيحترم حقوق السناتوس وامتيازات أعضائه، والواقع أنه رفض اللقب «أبا الوطن pater patriae»، الذي منحه إياه السناتوس، وقاوم بشدة أولى الدعاوى بالخيانة «العظمى maiestas»، وأعفى معاونه في القنصلية في السنة ٥٥ عن «القسم العادي inacta principis»، وتجنب البدء في الإشارة إلى نفسه باللفظ إمبراطور، واتخذ لنفسه إكليل العفص الذي رمز إلى الحرية، وأعاد إلى السناتوس صلاحية سك النقود الفضية والذهبية EX S.C، فاستحق بذلك مدح الشاعر «كلبورنيوس سيكيلوس Calpurnius Siculus» في أن⁸³ Bucolics، وإشادة «لوكان Lucan» في الكتاب الأول من «الفرسالية Pharsalia».

وعني سنكة بمالية الدولة، فزاد دخلها وسهّل مقاضاة الولاة المتهمين بالبلص، وأعد مشروعاً لتحرير التجارة، وأمن الحبوب الواردة إلى العاصمة وإيطالية بتعيين ناظر قدير، وبإكمال إنشاءات كلوديوس في مرفأ أوستية الجديد، وحارب النزوح من الريف إلى المدن، ولا سيما إلى العاصمة بإنشاء مستعمرات عسكرية في «كابوة Capua»، و«نوكيرية Nuceria»، و«ترنتوم Tarentum»، و«أنتيوم Antium»، و«بومباي Pompeii» بعد الزلزلة في السنة ٦٣.

(٢-٥) تغلينوس العيَّار

وتوفي بوروس في السنة ٦٢، فعين نيرون ناظري حرس محله «فاينيوس روفوس Facnius Fufus» و«أوفونيوس تغلينوس Ofonius Tigellinus»، وكان هذا صقلياً شريراً عيَّاراً، فتملق نيرون وغمسه في المعاصي واكتسب ثقته، فتقاعد سنكة وابتعد عن القصر؛ فخلا الجو لتغلينوس، واسترسل في الجهالة، وألحت بوبية الخليفة المشار إليها سابقاً بالزواج، فتم طلاق أوكثافية وإبعادها، ثم سرت إشاعة بأنها ستعود إلى البلاط، فاتهما نيرون بالزنى مع أنيكييتوس فماتت، وأبعد الزاني شريكه في مصرع أغريبينة.⁸⁴

(٣-٥) حريق رومة

وفي ليل الثامن عشر من تموز سنة ٦٤ شبت النيران في رومة، واستمرت أسبوعاً كاملاً، فدمرت عشر مناطق من مناطق أوغسطس الأربع عشرة، وكان نيرون عند شبوبها في أنتيوم، فأسرع إلى العاصمة، وأشرف بنفسه على أعمال الإخماد والإنقاذ والمواساة، ثم أحب أن يستغل ظرف الخراب لصالح رومة وصالح نفسه، فخطط الشوارع المستقيمة، وحضَّ

على البناء الحديث؛ لينشئ في قلب العاصمة مجموعة جميلة من الأبنية العالية، «ناطحات السحاب insulae»، واحتفظ بالمرتفع «الإسكويلي Esquilia»، فشيّد فيه «قصره الذهبي Domus Aurea» بحدائقه وبركه وأروقته، وأقام تمثاله الجبار، الذي بلغ علوه حوالي أربعين مترًا، وأحاطه بما سلب عملأوه من آثار اليونانيين القدماء، وجمعه له، ونقلوه إلى رومة.⁸⁵

وشاهد الخاسرون البائسون من سكان رومة هذا الإنفاق والبذخ، فامتعضوا واضطربت صدورهم، فقالوا: إن الحريق كان مفتعلًا، وأن نيرون دبره؛ ليصادر ما صادر، ويهدم ما هدم، تمهيدًا للإنشاء والبنيان، وأضافوا أنه شاهد النيران تلتهم بيوت الشعب من برج «ماكيناس Maecenas»، ففرح وتهلل وأنشد ما كان قد صنّف في خراب طروادة، فاضطر نيرون البريء من هذه التهمة أن يوجد من يتحمل الذنب، وكان بإمكانه أن يتهّم اليهود بذلك؛ لأنهم لم يكونوا محبوبين عند الجماهير، ولكن زوجته بوية كانت تهتم لأمرهم، فأطال على المسيحيين السنة الجماهير، فتناولوهم بالقبيح وقالوا: إنهم من «أكلة البشر humani generis odium»، وأن اجتماعاتهم السرية كانت لهذه الغاية، والإشارة هنا إلى سر الافخارستية وأقفال الأبواب! وقسا قلب نيرون، فأنزل بالمؤمنين أفظع ألوان العذاب، فرمى بعضهم إلى الوحوش الضارية، وطلّى آخرين بالزفت والقار، وأحرقهم جاعلاً منهم مشاعيل تضيء ليلاليه اللاهية في الحدائق وميدان الفاتيكان،⁸⁶ ويفيد التقليد أن بطرس وبولس كانا بني هؤلاء الشهداء،⁸⁷ ولكن هذه المحاولة لدفع التهمة — وما تبعها — عن شخصه عادت عليه بسوء العاقبة، ذلك أن أساليبه الوحشية أثارت العطف والشفقة في قلوب الجماهير على المسيحيين، بدلاً من الشعور بأن العقاب الذي أنزله جاء في صالح الأمة جمعاء!⁸⁸

وإعادة بناء المتهدم في رومة بموجب تصاميم نيرون تطلبت نفقات باهظة، وكذلك مشروعه لربط أوستية ببحيرة «أورنوس Avernus»، وبذخه الشخصي وإسرافه، فلجأ إلى البلص في إيطالية والولايات، وأنزل عقاب الموت بستة مزارعين في ولاية أفريقية كانوا يملكون نصف أراضيها الزراعية، ثم أعد مزيجاً معدنيّاً جديداً، غسّ به قطعاً جديدة من المسكوكات الفضية والذهبية، فتأفف الناس من هذا كله.

(٤-٥) دسيّة في السناطوس

وتزايد كره الشيوخ لنيرون، وتفاقم مع ازدياد نفوذ العتقاء في البلاط، ولا سيما بوصول «بلبلوس Balbillus» ناظر مصر إلى الذروة، و«فليكس Felix» محصل اليهودية، وتفجر

في السنة ٦٥، عندما تم تأمر خمسة من الشيوخ وخمسة من الفرسان بزعامة «فاينيوس روفوس Faenius Rufus» أحد نظار الحرس، على حياة نيرون نفسه، ولا نعلم بالضبط ما إذا كانوا يهدفون إلى إعادة النظام الجمهوري، أو إلى إيصال «كلبورنيوس بيسو Calpurnius Piso» أو سنكة إلى الحكم، وأفرخت بيضتهم وانكشف أمرهم، فامتلاً نيرون غيظاً، وقامت شَعَرَاتُ أنفه، فأعاد حق النظر في هذه الأمور «إلى القصر intra cubiculum»، وحكم على بيسو وسنكة و«لوكان Lucan» ابن أخيه بالانتحار، ففعلوا.⁸⁹

(٥-٥) طغيان نيرون

وارتاع نيرون واستهول الأمر، فبث العيون والأرصاء، وأحصى على كبار المواطنين أنفاسهم، فأحلَّ نقمته بكل ظنين، وجعلهم عبدة للمتبرعين، ودخل في عداد هؤلاء «أوستوريوس سكابولا Ostorius Scapula» والي بريطانية السابق، و«غايوس بترونيوس G. Petronius» والي بيثينية الأسبق، الشاعر الناثر الحكمي الهجاء، الذي شارك نيرون خلاعته ومعاصيه، واشتهر بذوقه وأناقته، فجعله نيرون المحكم في «الذوق والأناقة arbiter elegantiae»، الذي أثار حسد تغلينزوس فأبعد، فانتحر، ولكنه قبل الانتحار حطم آنية جميلة مصنوعة من «المرّة murra»؛ كي لا تقع في يد نيرون، ثم دون رسالة في معاصي نيرون، ذاكراً فيها خيليات نيرون وغلمانه، مبيئاً فيها خصائص كل منهم.⁹⁰ ولم يرض بعض الرواقيين عن سياسة نيرون وسلوكه، وأظهروا عدم الرضى، ولكنهم لم يتآمروا عليه، وكان في طليعة هؤلاء «تراسية بايتوس Thrasea Paetus» القنصل السابق، الذي بدأ منذ السنة ٦٣ يتغيب عن جلسات السناتوس، احتجاجاً على التظلم والتملق، وعلى تأليه بوبية، والذي لم يصفق لصوت نيرون الإلهي، فأمر به نيرون فانتحر في السنة ٦٦، وأمر بإبعاد صهره «هلويديوس بريسكوس Helvidius Priscus» فابتعد، ومن الرواقيين الذين لاقوا حتفهم على يد «نيرون بارية سورانوس Barea Soranus» والي آسية السابق.

وفي السنة ٦٦ أيضاً، بدت علامات السخط في الأوساط العسكرية، فاكتشفت مؤامرة حاكها صهر القائد «كوربولو Corbulu»، فخشي نيرون سوء العاقبة، ولا سيما وأنه لم يشارك الجيش أتعابه أو أفراحه، فلما زار بلاد اليونان في السنة ٦٦-٦٧ استدعى إليه كوربولو وقائد الجيش في ألمانية الشمالية والجنوبية «سكريبونيوس روفوس

Scribonius Rufus و«سكريبونيوس بروكلوس Proclus»، ولدى وصولهم أمرهم بالانتحار، ففعلوا.⁹¹

وتزايد سمو نيرون وطموحه، فتقمص لباس الآلهة، فاتحد مع هرقل وأبولون وإله الشمس، وسك النقود؛ ليظهر رسمه عليها محاطاً بالهالة الإلهية، واستبدل اسم نيسان بنيرون، وأمست رومة «نيروبوليس Neropolis»، وقيصرية فيليبي في فلسطين Neronias، وجاء تيريداتس ملك الأرمن إلى رومة ليتوج فيها، فسجد لنيرون سجوده لـ «ميثرا Mithras».

(٦-٥) نيرون واليونان

وقال نيرون بتفوق اليونانيين في مضمار الفن، وأكد أنهم وحدهم يقدرون فنه، فنهض إلى بلاد اليونان وأقام فيها حوالي سنة كاملة، واشترك في ألعابهم، وفاخر بالجوائز التي نالها وكانت كثيرة جداً، وتبنى مشروع غايوس، فحضر بمعوله الذهبي الضربة الأولى لفتح ترعة كورنثوس، ثم دعا إلى ألعاب البرزخ، فأعاد في أثناء المباراة فيها حرية اليونان التي كان قد منحها «فلامينيوس Falminius» في السنة ١٩٦ ق.م. في ظرف مماثل.⁹²

(٧-٥) العاصفة

وكان «هيليوس Helius» العتيق، الذي أقامه نيرون وكليلاً عنه في غيابه يستعجل سيده، ويحثه على العودة إلى رومة لتدبير أمورها، ولا سيما الثورة مندلعة في فلسطين، والغرب نفسه قلق مضطرب، فتلكأ نيرون وتثاقل، ثم نهض إلى رومة فوصلها في أوائل السنة ٦٨، ووجد الجماهير صاحبة لقلة الحبوب، والجيش غاضبة لمصرع قادتها، وما كاد يصل إلى العاصمة حتى غادرها إلى نابولي إلى جوها اليوناني؛ ليلقي فيها من يقدر انتصاراته في بلاد اليونان حق قدرها.

وسمع نيرون، وهو في نابولي، بثورة «يوليوس وندكس Vindex» والي ولاية «غالية اللوغدونية Gallia Lugdunensis»، أي غالية ليون «ذي التلة البراقة»، وطالب وندكس بإمبراطور جديد لائق بالمنصب، ولا نعلم ما إذا كان يهدف إلى إعادة الحكم الجمهوري، أو إلى استقلال غالية استقلالاً إدارياً واسعاً، والتف حول وندكس بعض الغالين، وعارضه آخرون، فاتصل بقيادة الجيش، فلقى تأييداً ملموساً من «سروبوس سوبيكيوس غلبة Servius Sulpisius Galba» والي «إسبانية التركونية Hispania Tarraconensis»، الذي

أعلن نفسه ممثلاً لـ «سناتوس الجمهورية الرومانية legatus Senatus Populique Romani»، وانضم إلى هذين القائدين الواليين «سلويوس أوتو Salvius Otho» حاكم «لولسيتانية Lusitania» و«كلوديوس ماكر Macer» والي أفريقية، ورأى جنود الرين وما وراءه في ثورة الغاليين خروجًا على رومة نفسها، فقاتلوا المتمردين، وكانت معركة حاسمة انتصر فيها جنود الرين، وقُتل فيها وندكس نفسه، فنادى الجند بقائدهم روفوس مواطنًا أول، فلم يرضَ، فنودي بغلبة إمبراطورًا في إسبانية، وكان الحرس لا يزال موالياً لنيرون، وكذلك جنود آخرون، ولكن نيرون تردد وتثاقل، ففر تغلينوس ورشا «نيمفيديوس سبينوس Nymphidius Sabinus» ناظر الحرس الآخر الحرس بثلاثين سيستركة لكل منهم، فنادو بغلبة إمبراطورًا، وكان نيرون قد اختبأ في فيلة عتيقه فاون، بالقرب من رومة، فلما علم بأن السناتوس اعتبره عدو الدولة أسف أن العالم «سيخسر فنانًا مكملًا qualis artifex pereo»، واستعان بعتيقه «ابفروذيتوس Epaphroditus» على الانتحار بالسيف، فمات آخر الخلفاء الأقربين في التاسع من حزيران سنة ٦٨، وله من العمر ثلاثون سنة.⁹³

هوامش

- (1) Divo Augusto honores, *CIL*, I, 244.
- (2) *Inscriptiones Graecae ad res Romanas pertinentes*, IV, 1392.
- (3) *Ibid.*, I, 1150.
- (4) TACITUS, 1:11–13; VELLEIUS, II, 124.
- (5) SÜETONIUS, *Tib.*, 22–24; DIO CASS., 57:2–3; CHARLESWORTH, M., *Tiberius*, Cam. Anc. Hist., X, 611–612.
- (6) DESSAU, *Gozo Insc.*, 121; HOHL, E., *Hermes*, 1933, 106; LANG, A., *Beitrag zur Gesch. des Kaisers Tiberius*, 5.
- (7) TACITUS, *Ann.* 1:72, 77, 2:87, 4:37.
- (8) TACITUS, *Ann.* 2:85, 3:51; SÜETONIUS, *Tib.* 35, 75; MOMMSEN, Th., *Strafrecht*, 671.
- (9) TACITUS, *Ann.* 4:43.
- (10) JOSEPHUS, *Ant.*, 18:6.

- (11) TACITUS, *Ann.*, 1:75, 2:38.
- (12) CHARLESWORTH, M., *Tiberius, Cam. Anc. Hist.*, X, 615.
- (13) SENECA, *dial.* 1:4; TACITUS, *Ann.* 4:62, 63.
- (14) SUETONIUS, 59.
- (15) JEROME, T.S., *Aspects of the Study of Roman History*, 280; MARSH, F.B., *Reign of Tiberius*, ch. VII; MARSH, *Class. Philol.*, 1926, 289 ff.; ROGERS, R.S., *Transactions of Amer. Phil. Ass.*, 1931, 141 ff.
- (16) EHRENBERO, V. and JOWES, A.H.M., *Documents illustrating the Reigns of Augustus and Tiberius*, 154 ff.
- (17) EHRENBERG and JONES, *op. cit.*, n. 320 a-b; LEWES and REINHOLD, *Roman Civ.*, II, 562; KOESTERMANN, E., *Historic*, 1958, 331 ff.
- (18) KESSLER, G., *Die Tradition über Germanicus*, (1905); FUCRS, H., *Rom. Mitt.*, 1936, 212; GELZER, M., *Real-Encyc.*, X, 435.
- (19) ROGERS, R.S., *op. cit.*, 89 ff.
- (20) TACITUS, *Ann.*, 4-6, "Partner of my Labours and Reign of Terror"; SUETONIUS, 59-67; WILLENBUCHER, H., *Tiberius und die Verschwörung des Sejan*, (1896); ROGERS, R.S., *The Conspiracy of Agrippina*, *Trans. Am. Philol. Ass.*, 1931; CHARLESWORTH, M., *op. cit.*, X, 626-642; HOMO, L., *Haut-Empire*, 222-228.
- (21) TACITUS, *Ann.* 6:50; DIO CASS., 58:28; SUETONIUS, *Tib.*, 73; JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, 18:205 ff.; CHARLESWORTH, M., *op. cit.*, X, 635-643; HOMO, L., *Haut-Emp.*, 233-235.
- (22) SUETONIUS, *Calig.* 11.
- (23) DIO CASS., 59:1; SUET., *Calig.* 14.
- (24) VOGT, J., *Die Alexandrinischen Munzen*, 22 f.; DIO CASS. 59:26; I.G.R.R. IV, 145; DESSAU, *I.L.S.* 190; DITTENBERGER, 797.
- (25) DIO CASS., 59:6, 9; SUET., *Calig.*, 15, 16.
- (26) SUET., *Calig.*, 22.
- (27) SUET., *Calig.*, 37.

- (28) DIO CASS., 59:28; SUET., *Calig.*, 42.
(29) SUET., *Calig.*, 30.
(30) SUET., *Calig.*, 32.
(31) DIO CASS., 59:19; SUET., *Calig.*, 32.
(32) SUET., *Calig.*, 32.
(33) DIO CASS., 59:20.
(34) SUET., *Calig.*, 32.
(35) DIO CASS., 59:26; SUET., *Vit.*, 2.
(36) PHILO, *Legatio ad Gaium*, 253, 367.
(37) MATTINGLY-SYDENHAM, *Roman Imperial Coinage*, 4, 112, *Journ. Rom. Studies*, 1917, 59 f.
(38) DIO CASS., 59:29; SUET., *Calig.* 16; JOSEPHUS, *Ant.* 19:96.
(39) SUET., *Claud.* 10; DIO CASS., 60:1.
(40) CASS., 60:28; SUET., *Claud.* 30; TACITUS, *Ann.* 12: 61.
(41) SUETONIUS, *Claud.*, 10; DIO CASS., 60:1.
(42) MATTINGLY-SYDENHAM, *Rom. Imp. Coin.*, I, 123.
(43) SUET., *Claud.* 29.
(44) CHARELESWORTH, M.P., *Documents Illustrating the Reigns of Claudius and Nero*, (1939), *Judicial Popynes*, 6.
(45) CHILVER, G.E.F., *Amer. Journ. Phil.*, 1949, 7 ff.; BERCHAM, D. VAN, *Les Distributions de blé et d'argent à la plèbe romaine sous l'Empire*, (1939), 301.
(46) CHARLESWORTH, M.P., *Claudius as Re-Organizer*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 685–696.
(47) DIO CASS., 31; SUET., *Claud.*, 28; TACITUS, *Ann.* 11, 12.
(48) HOMO, L., *Haut-Empire*, 254–255; CHARLESWORTH, M.P., *op. cit.*, X, 687–689.
(49) BRADFORD, J., *Ancient Landscapes*, (1957), 248 ff.; SCRAMUZZA, V.M., *The Emperor Claudius*, (1940); DIO CASS., 60:11; SUET., *Claud.* 20.

- (50) PLIN., *Hist. Nat.*, 36:122; FRONT., *De Aq.*, 4, 13, 15, 18, 20, 73, 86, 90–93, 104–105; CIL, XIV 4079–4080.
- (51) HOMO, L., *Haut-Empire*, 276–279.
- (52) SUET., *Claud.*, 26; DIO CASS., 60:14–18.
- (53) PLIN., *Nat. Hist.*, 9:117.
- (54) WALTER, G., *Nero*, (1957), 10–13; HOMO, L., *Haut-Empier*, 251–252; DIO CASS., 60:32.
- (55) TACITUS, *Ann.*, 13:2.
- (56) TACIT., 12:5–7; SUET., *Claud.* 26.
- (57) HENZEN, *Eine neue Arvaltafel*, (Hermes, I, 55).
- (58) WALTER, G., *Nero*, 32–36.
- (59) SUET., *Nero*, 52.
- (60) WALTER, G., *Nero*, 39–40.
- (61) TACIT., *Ann.*, 12:41; SUET., *Nero*, 7; Bardt, *Die Priester der vier grossen Collegien*, (1871).
- (62) SCHILLER, H., *Nero*, 79, n. 1.
- (63) SUET., *Cloud.*, 25, *Nero*, 7; TACIT., *Ann.*, 12:58; *Anthol. palat.*, IX, 178.
- (64) JULIAN Camille, *Dict. des Antiquités*, (Darewberg–Saglio), II, 1066–1073; LINKER, *Über die Wahl des praef. urb. feriarum*.
- (65) ZONARAS, *Chron.*, 11:11.
- (66) SUET., *Claud.* 20; TACIT. 12:56–57; DIO CASS. 60:33.
- (67) TACIT. *Ann.* 12:65.
- (68) TACIT. *Ann.* 12:64.
- (69) TACIT. *Ann.* 12:65; SUET., *Cloud.* 7.
- (70) PLIN. *Hist. Nat.*, 3:5, 21:2; TACIT. *Ann.* 12:66.
- (71) TACIT. *Ann.* 12:66; DIO CASS. 60:34; PLIN., *Hist. Nat.* 22:92; WALTER, G., *op. cit.*, 49–50.
- (72) TACITUS, *Ann.*, 13:5, 10–11.

- (73) TACIT., *Ann.* 13:3.
- (74) DIO CASS. 61:3.
- (75) SUET., *Nero*, 28, 34, 35.
- (76) TACIT. *Ann.* 13:13–24.
- (77) TACIT. *Ann.* 13:14–17; SUET., *Nero*, 33.
- (78) SUET., *Otho*, 3; Tacit. *Ann.* 14:3; DIO CASS., 61:12.
- (79) SUET., *Nero*, 34.
- (80) TACIT. *Ann.* 14:4.
- (81) TACIT. *Ann.* 14:4–8; WALTER, G., *Nero*, 72–97.
- (82) ANDERSON, J.G.C., *Journ. of Rom. Stud.* 1911, 173 ff.; LEPPER, F.A., *Journ. Rom. Stud.*, 1957, 95 ff.
- (83) DUFF, J.W. and A.M., *Minor Latin Poets*, (Loeb, 1935).
- (84) STEIN, *Ofonius Tigellinus Real-Encyc.*
- (85) PERKINS, J.W., *The Domus Aurea, Antiquity*, 1956, 209 ff.
- (86) TACITUS, *Ann.* 15:44; SHERWIN-WHITE, A.N., *Journ. Theol. Stud.*, 1952, 199 ff.
- (87) EUSEBIUS, *Hist. Ecc.*, 2:25; LOWE, J., *St. Peter*, (1956); TOYNBEE and WARD PERKINS, *The Shrine of St. Peter*, (1956).
- (88) WALTER, G., *op. cit.*, 144–174.
- (89) TACIT. *Ann.* 15:39–65; WILLEMS, J., *Le Senat romain en l'an 65*, *Mus. B.*, 1900, 236, 1901, 89, 1902, 100; MOMIGLIANO, A., *The Pisonian Conspiracy, Cam. Anc. Hist.*, X, 726–734.
- (90) GASELEE, S., *Petronius Arbiter, Ox. Class. Dict.*
- (91) PLIN., *Epist.* 5:5.
- (92) CHARLESWORTH, *Documents*, 32 f.; LEWIS and REINHOLD, *Rom. Civ.*, II, 394; MOMIGLIANO, A., *Journ. Rom. Stud.*, 1944, 115, *Cam. Anc. Hist.*, X, 735–737.
- (93) MOMIGLIANO, A., *op. cit.*, 737–742; HOMO, L., *Haut-Empire*, 319–321; WALTER, G., *op. cit.*, 232–252.

الفصل العاشر

الأقربون والإمبراطورية

(١) اكتظاظ لا مكالظة

وحافظ الخلفاء الأقربون على التقليد الأوغوسطي، فاتبعوا في سياستهم الخارجية — في غالب الأحيان — خطة السلم والمسالمة لا التوسع والمحاربة، فتحول الجيش الروماني في عهدهم من قوة مهاجمة مقاتلة إلى قوة مرابطة محافظة، فطيباريوس الذي تمتع بمواهب القيادة والشجاعة ومارس الحرب قبل وصوله إلى سدة الحكم لم يرغب في تحمل مسؤوليات التوسع، وخلفاؤه الثلاثة الذين شكوا من نقص في المؤهلات للحرب وقيادة الجيوش خشوا أن يجر انتصار قادتهم في ساحات الوغى نفوذًا وشهرة، يقضيان على سيادتهم الشخصية، كما أدى انتصار القادة في الحرب الأهلية إلى تحويل الدولة من جمهورية إلى إمبراطورية.

(٢) ضم موريتانية

وكان غايوس قبيل انتهاء عهده، قد جرّ المور إلى ثورة بإعداد بطليموس ملكهم لأسباب تافهة، فأخمد كلوديوس الثورة في السنة ٤١-٤٢ بمكالظة المور في جبال الأطلس، وملاحقتهم حتى حدود الصحراء الكبرى، وذلك بفضل القائد الروماني «سوتونيوس پولينوس Suetonius Paulinus»، وقسّم كلوديوس موريتانية إلى ولايتين: إلى موريتانية القيصرية وعاصمتها قيصرية، وهي شرشل الحديثة، وإلى موريتانية التنغية وعاصمتها «تنغس Tingis»، وهي طنجة الحديثة، ولكنه لم ينظم ما فتح تنظيمًا يؤدي إلى السكينة والتمدن والترقي، بل اكتفى بتعيين ناظر لكل ولاية من هاتين الولايتين وأبقى نظامهما العشائري ساري المفعول، وجل ما فعل أنه طوع بعض المور، وأدخلهم في قوى رومة المساندة.¹

(٣) حرب في أفريقية

وكان «تكفاريناس Tacfarinas» الزعيم النوميدي قد فرّ من الصفوف الرومانية، وبدأ يهاجم ولاية أفريقية على رأس قوة بدوية، معظمها من عشائر حدود الصحراء، وبعد قتال دام أربع سنوات (١٧-٢٠) طلب السناتور إلى طيباريوس أن يتولى الدفاع عن ولاية أفريقية الخاضعة لمجلس الشيوخ، فعين طيباريوس «واليًا legatus» إمبراطوريًا اسمه «بلايسوس Blaesus»؛ ليؤدّب الثائر ومن شدّ أزره، وكاد بلايسوس يقبض على تكفاريناس، ولكنه استبدل بوال آخر اسمه «كورنيليوس دولابلة Dolabella»، فسحق هذا كل مقاومة وقتل تكفاريناس (٢٤)، ونجم عن هذا الانتصار أن أبقى غايوس شئون الدفاع عن ولاية أفريقية في يد الإمبراطور، وأعاد إلى السناتوس تدبير أمورها الإدارية.

(٤) النيل والحبشة

وكان سنكة الفيلسوف الرواقي شديد العناية بالجغرافية وعلم أجناس البشر وعاداتهم، فلما خلا له الجو في عهد نيرون نظم حملة استكشافية لتتبع مجرى النيل، وتتعرف إلى واديه حتى منبعه، وتألّفت الحملة من بعض جنود الحرس الإمبراطوري، ومن تربيون وقائدي مائة، واتجهت من الإسكندرية جنوبًا في خريف السنة ٦١، ووصلت إلى مستنقعات النيل الأبيض، وعادت بمعلومات جغرافية وحيوانية وخريطة وتأكد أن مملكة الحبشة كانت في دور انحطاط واضمحلال.²

ورغب نيرون في السنة ٦٤ في زيارة مصر، وأنفذ بعد ذلك إلى الإسكندرية بعض الفرق الرومانية، فرأى بلينيوس في هذا كله استعدادًا للتوسع على حساب الحبشة،³ ويرى آخرون أن غاية نيرون كانت حماية الاتجار مع الهند من مطامع الأحباش،⁴ ومهما كان هدف نيرون، فإن حوادث فلسطين اضطرتّه إلى العدول عن أية خطة تبعد قواته عن معاقل الثورة في فلسطين.

(٥) بيلاطس واليهود

وكان أوغسطس — كما سبق وأشارنا — قد جعل اليهودية في السنة ٦٠ م. ولاية رومانية، يدبر شئونها «محصل Procurator» ذو صلاحية قضائية واسعة، وكان قد سمح باستمرار نظام التتراخية في كل من مقاطعتي فيلبوس وأنتيباس، وجاء طيباريوس

فتقيد بسياسة أوغسطس، وحارب البلص وابتزاز الأموال بإطالة مدة الولاية للولاة، فلم يعين على اليهودية سوى محصلين اثنين طوال عهده، ولكنه لم يوفق في انتقاء هؤلاء كل التوفيق، فإن «غراتوس Valerius Gratus» الذي تولى محصلية اليهودية منذ السنة ١٥ حتى السنة ٢٦ ب.م. لم يحفظ حرمة، ولم يثبت على عهد في علاقاته مع رؤساء المجمع، فاستبدل في سنواته الإحدى عشرة خمسة رؤساء، أولهم حنان، وآخرهم يوسف، الذي كان يدعى قيافا،^٥ وفي السنة ١٧ ب.م. في عهد هذا المحصل نفسه، أسس أنتيباس عاصمة جديدة لتتراخيته، أسماها طبرية، تخليدًا لذكر طيباريوس، وجعلها هلينية في نظمها وقوانينها وملاهيها، فتوجست الأوساط اليهودية المحافظة خوفًا، واستشعرت رهبة وروعًا،^٦ وأسس فيليبوس في تتراخيته قيصرية فيليبوس عند منبع الأردن ويولية على ضفة بحيرة طبرية الشمالية، وسك النقود حاملة رسوم أوغسطس أو طيباريوس، وصورة الهيكل الذي كرسه هيروُدس الكبير لأوغسطس في بانياس، مخالفًا بذلك نصوص التوراة في نظر اليهود المحافظين.^٧

وفي السنة ٢٦ ب.م.، تولى بنطس البيلاطي شئون محصلية اليهودية، وظل يدير دفة الأمور فيها حتى السنة ٣٧، ولا نعلم الشيء الكثير عن أصله وفصله، وإنما يستدل من اسمه Pontius أنه تحدر من أصل سمني، ولعل الكنية «البيلاطي Pilatus» تنبئ بأجاصة شرَّفه بها الإمبراطور، وكان «سيانوس Sejanus» مستشار طيباريوس قد قدمه إلى الإمبراطور مثنياً، فعينه هذا محصلاً على فلسطين تابعاً — كما قضى النظام — إلى «والي legatus» سورية، الذي كان آنئذٍ لوكيوس فيتاليوس.

وحكم المحصل الروماني اليهودية من مدينة قيصرية، التي أنشأها هيروُدس على ساحل فلسطين لا من أورشليم العاصمة التقليدية، وذلك لأسباب أهمها الابتعاد عن كل ما كان يثير حساسة اليهود في معتقداتهم، فقيصرية فلسطين كانت آنئذٍ مدينة هلينية في سكانها ونظمها وعاداتها، وكان بإمكان الرومانيين فيها أن يمارسوا طقوسهم وعاداتهم ونظمهم كاملة غير ناقصة، ومذ أُمست اليهودية محصلية رومانية أصبح قصرا هيروُدس في قيصرية وفي أورشليم «مقرين Praetorium» للمحصل الروماني،^٨ وكان المحصل في اليهودية يستند عند الحاجة إلى القوات الرومانية المرابطة في سورية، ولكنه كان بالإضافة إلى ذلك يجند من اليهودية نفسها قوة مساعدة مساندة، ولما كان اليهود لا يزالون مستمسكين بإعفائهم من الخدمة العسكرية حسب ترتيب يوليوس قيصر، أُمست هذه القوة المجندة محلياً مؤلفة من غير اليهود من قيصرية وسبسطية وتوابعهما، ومن حوران

ومن بعض عناصر رومانية إيطالية، وأمسى اليهود عزلاً وأمسى أخصامهم الأمميون مسلحين، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى شيء من التوتر الكامن في صدور الناس.⁹ وكان بنطس البيلاطي فارساً رومانياً شديداً عنيفاً متمسكاً بالقانون، متصلباً، وكان يرى أن عهد التحالف بين اليهود ورومة قد انقضى، وأن اليهودية أمست ولاية رومانية، ورأى اليهود غير ذلك فتكتلوا في وجهه وصمدوا، ولم يستثمر بنطس طموح كبار الكهنة للوصول إلى كرسي الرئاسة كما فعل زميله قبله، بل اكتفى بقيافا، فظل هذا رئيس المجمع وحبر اليهودية طوال مدة بنطس.

وقدّس بنطس البيلاطي شعائر الجيش وأعلام الفرق والأفواج، واعتبرها نقطة الدائرة في الحياة العسكرية والمدنية، فلما أرسل بعض الوحدات إلى أورشليم لتتولى حراسة الأمن فيها أرسل معها أعلامها وشعائرها، واتفق صدفة أن كان بين هذه الشعائر ما تضمن رسم الإمبراطور، فاحتج اليهود على ذلك، وطالبوا بإخراج هذه الشعائر من أورشليم وإعادتها إلى قيصرية.



حامل العلم.

فأصر المحصل على إبقائها مع الجنود العاملين في ظلها، فهرع إليه إلى قيصرية وفد من الأتقياء المتزمطين، يصرون على إخراج الأعلام حاملة الرسوم من المدينة المقدسة، فأبى، فأكبوا على وجوههم خارج قصره خمسة أيام متتالية، فدعاهم إلى المدرج، وأمرهم بالرجوع عن مطلبهم، مهددًا بضرب أعناقهم ... فأجابوا بمد العنق للضرب! فتراجع بنطس، وأرجع الأعلام إلى قيصرية،¹⁰ فتشوّف اليهود وتواقحوا، ثم احتجوا على تعليق لوحات من ذهب Ex Voto على جدران القصر في أورشليم، كانت تحمل اسم الإمبراطور طيباريوس، وألحوا بوجوب إنزالها وتعليقها في هيكل أوغوستوس في قيصرية، فامتنع بنطس، فكتبوا بذلك إلى طيباريوس نفسه، راجين احترام تقاليدهم الدينية، فأمر هذا الإمبراطور بتعليق اللوحات في قيصرية،¹¹ وازداد اليهود تصلبًا وتزمتًا، حينما شرع بنطس في جر المياه إلى أورشليم من خزان العروب، من نقطة كانت تبعد سبعة وثلاثين كيلومترًا عن أورشليم، وتفصيل ذلك، أن بنطس رأى في جر المياه خيرًا لليهود وغيرهم من سكان المدينة المقدسة، فأخذ من مال القربان من الهيكل ما احتاج إليه، فغضب اليهود محتجين على إنفاق مال القربان لأغراض دنيوية، وتجمعوا صاخبين، فأنفذ بنطس رجاله لتفريقهم، فكان اصطدام أسفر عن مقتل عدد من اليهود،¹² ووصل القول آنئذٍ بمسيح مخلص إلى الأوساط اليهودية المشاغبة، فقال به واستغله الغيرون أتباع يهوذا الجليلي، وأخلوا بالأمن، فأمر بنطس بهم في أثناء تقديمه صاحبة فقتل منهم عددًا غير قليل، ومن هنا قول لوقا الإنجلي (١٣: ١): «وفي ذلك الوقت عينه، أقبل قوم وأخبروه بأمر الجليليين، الذين مزج بيلاطس دماءهم بدم ذبائحهم»، وهكذا، فإنه عندما أراد اليهود التخلص من «المخلص المسيح» شكوه إلى بنطس، واتهموه قائلين: «لقد وجدنا هذا الرجل يثير أمتنا، ويمنع من أداء الجزية لقيصر، ويدعي أنه المسيح الملك» (لوقا ٢٣: ٢)، فلما قال بنطس لهم أنه لم يجد فيه علة، وأراد أن يطلقه، صاحوا قائلين: «إن أنت أطلقته فلست موالياً لقيصر؛ لأن كل من يجعل نفسه ملكًا يقاوم قيصر» (يوحنا ١٩: ١٢)، وغسل بيلاطس يديه، وقال: إنه بريء من دم هذا الإنسان، ولكن تكتيتوس المؤرخ الروماني سجّل للأجيال المقبلة المتتالية «أن المسيح أعدم على يد بنطس بيلاطس محصل اليهودية في أيام طيباريوس».¹³

(٦) هيرودس أنتيباس (٤ق.م. - ٣٩ب.م.)

هو ابن هيرودس الأول الكبير من زوجته ملتقة — كما سبق وأشرنا — وأخو أرخيلوس الأصغر، وتتراخوس الجليل، وبعض شرق الأردن Perea، وكان قد أقلع إلى رومة؛

ليعترض على وصول أرخيلوس إلى دست الملك بعد أبيه، ويحل محله ولكنه لم يفلح، وأحب البذخ والإنفاق، فشىد وبنى وأسس طبرية، وأثقل كاهل الأهلىن بالضرائب، وأحب هيرودية زوجه أخيه فيليبوس رومة، فأحبته وطمعت بما لم يكن لزوجه الشرعي من مال وجه وسطوة فألحت بالزواج، ولكن أنتيباس كان قد تزوج من بنت الحارث ملك الأنباط، فلما علمت هذه بما سيتم قريباً فرّت إلى حصن «المكاور Machaerus»، ومنه إلى بيت أبيها في البتراء، فأعلنها هذا حرباً على صهره، حفاظاً على شرفه.¹⁴

ووافق حدوث هذا كله ظهور يوحنا المعمدان، والبدء بكرازته في حوالي السنة ٢٧م.، ولمس أنتيباس نجاح يوحنا لمس اليد لما شاهد من حماس في الإصغاء إليه وقبول المعمودية على يديه، فرغب في التخلص منه قبل أن تتحول دعوته إلى حركة صاخبة بين الجماهير، وأدرك «السابق» ما أبطنه أنتيباس له، فتحاشى الكرز ضمن حدود تترارخية أنتيباس، وعمد — قبيل نهاية عمله — داخل حدود المحصلية في مياه عين فار بين قريتين عينون وساليم،¹⁵ ولكنه وقع في النهاية في يد أنتيباس، عندما دفعه الإيمان إلى تبكيك هذا التترارخوس «من أجل هيرودية امرأة أخيه، ومن أجل جميع الشرور التي كان قد فعلها» (لوقا ٣: ١٩)، فقبض عليه وزجّه في سجن في حصن المكاور، ثم طلبت هيرودية رأسه، فكان لها ذلك.¹⁶

واتسعت صلاحيات «فيتاليوس Vitellius» والي سورية (٣٥-٣٩)، فشابهت صلاحيات جرمانيكوس في أثناء تجواله في الشرق، فزار فلسطين في عيد الفصح سنة ٣٦، وخفف الضرائب، وأعاد الألبسة الحبرية من القصر إلى الهيكل، وأقام يوناتان بن حنّان كاهناً أعظم بدلاً من أخيه قيافا، وأشار بسحب بيلاطس، وأعادته إلى رومة قبل نهاية السنة ٣٦.

وفاوض فيتاليوس أرتبان ملك البرت، وتوصل إلى تفاهم ودي على جسر عبر الفرات، واشترك أنتيباس في هذه المفاوضات إلى حد ما، ولكنه ادعى بأكثر مما فعل، فكتب إلى طيباريوس متبجّحاً بما لم يكن له، فاغبر الجو بينه وبين فيتاليوس الوالي وأظلم، ومات فيليبوس التترارخوس في السنة ٣٣-٣٤ بلا عقب، فدُفن في المدفن الذي أعده لنفسه في بيت صيدا Julia، وورث تترارخيته طيباريوس قيصر فضمها إلى ولاية سورية بجولانها ولجاها وبتثنيتهما، ولكنه أمر بحفظ أموالها في صندوق خصوصي،¹⁷ وانتهز الحارث ظرف المفاوضات مع البرت فأثار مشكلة في الجولان تتعلق بحدود «جملة Gamala»، ولجأ إلى العنف ففوض أنتيباس نفسه بالدفاع وتأديب الحارث، ففر بعض جنوده، وانضموا إلى صفوف الحارث، فغلب أنتيباس، وشكا أمره إلى صديقه طيباريوس، فأمر

فيتاليوس بوجوب الاقتصاص من الحارث وإرساله إليه حياً أو ميتاً، فجيش فيتاليوس فرقتين، وأردفهما بالخيالة والقوى الخفيفة، وقام إلى عكة، وما كاد يصل إليها حتى قابله فيها وفد من اليهود، راجين عدم مرور الجنود في اليهودية بأعلامهم وشعائهم، فوافق على ذلك، ومراً بجنوده عبر الجليل الأسفل حتى شرق الأردن، فتحاشى بذلك تدنيس اليهودية، ونهض هو بنفسه إلى أورشليم في فصح السنة ٣٧، يرافقه هيرودس أنتيباس وأصدقائه، ورفع ثيوفيلوس إلى رتبة رئاسة الكهنوت، ونعى بريد رومة طيباريوس وبشر بخلافة غايوس، فتقبل ولاء الشعب للإمبراطور الجديد غايوس يوليوس قيصر جرمانيكوس المعروف بكاليغولا، وعاد بجنوده إلى الثكنات، ولم يتابع زحفه على البتراء؛ لأن نفوذ أنتيباس انتهى بنهاية عهد صديقه طيباريوس.¹⁸

(٧) هيرودس أغريية الأول

هو ابن أرسطوبولس بن هيرودس الكبير من برنيقية، أرسله جده إلى رومة ليتذهب فيها، فنشأ مع دروسوس وجرمانيكوس وكلوديوس برعاية أهم أنطونية، ولما مات دروسوس في السنة ٢٣ آثر والده طيباريوس إبعاد رفقاته عن البلاط؛ كي لا يتذكر حبيبه، فعاد أغريية إلى فلسطين مستبدلاً عظمة رومة بحقارة أدوم، والبذخ بالتقتير، فحز ذلك في صدره، ورغب في الامتناع عن الطعام ليموت جوعاً،¹⁹ فشددته زوجته قبرص، وشحذت عزمته، وكتبت إلى شقيقته هيرودية في ذلك، فاستدعته إلى طبرية، وعينته مفتشاً لأسواقها براتب محدد، وساء أغريية ما بان من التفاوت في المرتبة بينه وبين شقيقته وزوجها نسيبه، وشق ذلك عليه، وخاب رجاء أغريية، فسرى بينه وبين صهره داء الضرائر، وذر الشقاق قرنه في صور، عندما أنب أنتيباس ابن عمه أغريية في أثناء مأدبة أقيمت لهما، فهجر أغريية صهره، والتجأ إلى والي سورية «بومبونوس فلاكوس Pomponius Flaccus» القنصل السابق الذي عرفه جيداً في رومة، وقرَّبَه فلاكوس وأكرمه، ولكن حاجة أغريية للمال جعلته يستغل هذه الصداقة، فإنه عندما نشأ الخلاف بين الصيدونيين والدمشقيين حول الحدود تبنى أغريية ادعاء الدمشقيين، ودافع عنهم لقاء مبلغ كبير من المال، فلما علم فلاكوس بذلك أبعد أغريية، فاستدان هذا مبلغاً من المال في عكة والإسكندرية، وأقلع مع زوجته إلى رومة ليستعطف طيباريوس، فأصغى إليه طيباريوس، ولكنه ردَّ ادعاءه على أنتيباس، ونصح إليه أن يُعنى بحفيده طيباريوس، وآثر أغريية رفقة غايوس، وتمنى أمامه انتهاء عهد

طيباريوس ووصله هو إلى السدة، فعلم طيباريوس بذلك، وأرسله مكبلاً بالقيود إلى ثكنة الحرس الإمبراطوري.

ومات طيباريوس بعد ذلك بستة أشهر، وتولى أزمة الأمور بعده غايوس، فأطلق سراح أغريية، ودعاه إلى البلاط، وألبسه الزيادمة شارة الملك، واستبدل قيده الحديدي بسلسلة من الذهب، وأنفذ إلى اليهودية «مرولوس Marullus» محصلاً، وذلك في ربيع السنة ٣٧،²⁰ وقضى أغريية سنة في رومة، ثم استأذن بالعودة على فلسطين ليدبر شئون مملكته، ومراً في الإسكندرية يحيط به حرسه بأسلحتهم المفضضة المذهبة، فأثار غضب الوثنيين من سكانها، فهاجوا وماجوا واضطهدوا اليهود، وأقاموا تماثيل الإمبراطور في بعض هياكل هؤلاء، وهدموا غيرها، وكان «أويليوس فلاكوس Avilius Flaccus» ناظر مصر راضياً عما جرى، فشكاه أغريية إلى الإمبراطور، فصودرت مجموعاته الفنية، ونفي إلى «أندروس Andros»، ثم أُعدم في السنة ٣٩.²¹

واستوفد الحسد ضلوع هيرودية وزوجها أنتيباس، فأقلعا بدورهما إلى رومة، وما كادا يصلان إلى مقر غايوس في «بايس Baies» حتى لحق بهما «فورتونة Fourtunat» أحد عتقاء أغريية، حاملاً رسالة إلى غايوس من أغريية وهدايا، وادعى باسم أغريية؛ أن أنتيباس كان له ضلع في مؤامرة سيانوس على طيباريوس، وأنه على تفاهم مع ارتبان ملك البرت، وأنه عثر على كميات كبيرة من الأسلحة في تترارخيته تجهز سبعين ألف مقاتل، فأمر غايوس بنفي أنتيباس إلى حدود إسبانية، وألحق تترارخيته بمملكة أغريية، وذلك في السنة ٣٩.²²

(٨) اليهود وتمثال غايوس

وآله الرومانيون غايوس، وأقاموا له التماثيل في هياكل الآلهة، وأحب غايوس ذلك فكثر المتملقون، وشيّد «كبيتو Capito» مدبر مقاطعة يمنية الصغيرة القريبة من يافا في السنة ٤٠ مذبحاً لغايوس يوبيتر لمناسبة نجاحه في ألمانية، فهاج اليهود ودمروا المذبح، فكتب المدبر بذلك إلى سيده الإمبراطور، فأمر هذا بإقامة تمثال ضخم لمذهب للإمبراطور الإله في هيكل أورشليم، وكتب بذلك إلى «بترونيوس L. Petronius» خلف فيتاليوس الوالي على سورية، وأمره بصنع التمثال وبتخاذ الإجراءات اللازمة لتأمين نصبه وصيانتها في الهيكل في أورشليم، فأوصى الوالي أمهر الصناع في صيدا لإعداد تمثال من النحاس المذهب، وقام يفاوض ويمهد لتنفيذ الأمر الصادر، فاجتمع باريطوبولوس أخي أغريية وغيره من أمراء

اليهود، واتفق الطرفان أن يكتب الوالي إلى سيده يبين أسباب التأخير، فغضب الإمبراطور، وأمر بصنع تمثال في رومة، ولس أغربية نفسه هذا الغضب مباشرة، فأعد بالتعاون مع فيلون الفيلسوف اليهودي رسالة في موقف اليهود من هذا الأمر، ونهض وفد من اليهود إلى رومة يفاوض في المشكلة القائمة،²³ ولكن دون جدوى، وأمر غايوس ممثله بترونيوس بالانتحار، ولكن خنجر كاسيوس الذي قضى على حياة غايوس في مطلع السنة ٤٠ خُصّ بترونيوس واليهود.

(٩) كلوديوس وأغربية

وكان أغربية لا يزال في رومة، وشهد حوادث الاغتيال، وعمل بجد ونشاط لصالح كلوديوس، فلما استتب الأمر لهذا كافأ أغربية؛ بأن ألغى نظام المحصلية في اليهودية، وتنازل عن حقوق الإمبراطور في مقاطعتي يمنة «وأوزوتوس Azotos»، وأحى مملكة هيرودس، واعترف بأغربية ملكاً عليها، وأمر بنقش ذلك على لوحات من القلز، أي من النحاس والقصدير، وبتعليقها على جدران الكبيتول الروماني،²⁴ وأنعم في الوقت نفسه على هيرودس أخي أغربية بإمارة خلكيس مجدل عنجر، وأوصى كلوديوس الإسكندرانيين بالتسامح في موقفهم من اليهود، كما أوصى اليهود بالاعتدال والخلود إلى السكينة.²⁵

وأبقى كلوديوس القديم على قدمه في معظم الإمارات الحليفة في الشرق كله، فظل سُهيم يحكم العيطوريين من عرقه، وعاد أنطيوخوس الرابع إلى كوموجينة في آسية الصغرى، وخص مدينة صور بعطفه، فحملت اسمه Claudopolis،²⁶ وأنشأ لأبطال الفرق الرومانية المستقرة في سورية مستعمرة جديدة في «عكة Ptolemais Ace»، وامتد نفوذه وعطفه إلى تدمر نفسها، فحملت اسمه إحدى عشائرها.²⁷

(١٠) أغربية واليهود والنصارى

ورغب أغربية في إرضاء الرومانيين واليهود في آن واحد، فسك النقود في أورشليم، يهودية خالية من كل شائبة، وأصدر عن قيصرية وبانياس وطبرية نقوداً تحمل رسمه أو رسم قيصر،²⁸ ودعا نفسه على بعض المسكوكات والنقوش «محب قيصر Philokaisar»، أو «محب الروم Philoromaios»، وزين قصره في قيصرية بالتماثيل، ولا سيما تماثيل بناته برنيقة ومريم ودروسيلة، وأكرم بيروت المستعمرة الرومانية الكبرى، فشيد فيها مسرحاً

جميلًا وميدانًا وملعبًا وحمامات وأروقة، وبعد إنجازها دعا إلى تدشينها فأنفق المبالغ، وفكَّه الحضور بالمجالدات بين عدد ممن حُكم عليهم بالموت.²⁹

وجعل أغريقية أوّرشليم مقره العادي، وظهر فيها بمظهر الملك اليهودي المحافظ، فعلق السلسلة الذهبية التي زينه بها غايوس قيصر في الهيكل، وجزَّ شعر الناذرين؛ لأن لبس الذيازمة الملكية قضى بتطويل شعره، وكان يحمل على كتفه سلة البواكير؛ ليقدمها للرب في الهيكل، بينما كان المرتلون يرددون المزمور الثلاثين: «أعظمك يا رب؛ لأنك نعشتني، ولم تُشمت بي أعدائي»،³⁰ وذهب أغريقية إلى أبعد من هذا، فدافع عن اليهود وتقاليدهم خارج حدود مملكته، فإنه حينما أكره المتهلنون اليهود في دورة في داخل حدود ولاية سورية على إقامة تمثال للإمبراطور في هيكل هذه البلدة كتب أغريقية إلى بترونيوس والي سورية، مذكرًا بسياسة الإمبراطور كلوديوس، راجيًا رفع التعدي.³¹

واضطر أغريقية أن ينظر في أمر المدرسة airesis الجديدة التي أسسها يسوع الناصري لإصرار أعضائها على اعتبار يسوع مسيحًا فاديًا مخلصًا، وعلى ترجي قيامة الموتى في الدهر العتيد، ولأن بعضهم أراد أن يحطم الحواجز بين اليهود والأمم بعد دخولهم في الإيمان، وكان مجمع اليهود قد بدأ اضطهاد هؤلاء، فحكم أغريقية على يعقوب بن زبدي بالموت، وقبض على سمعان بطرس الغيور الناطق بلسانهم، وزجه في السجن.

(١١) طمع في غير مطعم

وتماذى أغريقية في إرضاء اليهود، وركب رأسه، فبدأ في السنة ٤٢ في إنشاء سور ثالث لمدينة أوّرشليم، فتدخل «ويبيوس مرسوس Vibius Marsus» والي سورية وأوقف الأعمال، ثم دعا أغريقية حلفاء رومة في الشرق في السنة ٤٣ إلى الاشتراك في تدشين الأبنية، التي شيد في بيروت وبعد ذلك إلى طبرية، فلبى الدعوة صهره هيروُدس زوج بنته برنيقة ملك خلكيس البقاع وأنطيوخوس الرابع خطيب دورسيلة وملك كوموجينة و«بوليمو Polemo» ملك البونط، و«كوتيس Cotys» ملك أرمينية الصغرى، و«شمسي Shampsiceramus» أمير حمص العربي، وكان أغريقية قد فاوض هؤلاء في الاختتان وقبول الدين اليهودي، فلما اجتمعوا في طبرية أوعز مرسوس الوالي إلى كل منهم على انفراد بالانسحاب من هذا المؤتمر ففعلوا، وعادوا إلى إماراتهم،³² فسكت أغريقية مكرها، ثم مات بعد فصح السنة ٤٤ في قيصرية، شاكيًا من ألم شديد في أحشائه.³³

(١٢) عودة إلى نظام المحصلية

وكان أغريبة الثاني بن أغريبة الأول لا يزال في السابعة عشرة من عمره يتابع دروسه في رومة، ورغب كلوديوس لأول وهلة أن ينفذه ملكاً محل والده، ثم عدل عن ذلك، وعاد إلى نظام المحصلية، ولعل السبب في ذلك أنه ذكر مطامع أغريبة وسياسته الدينية، فخشي انتشار اليهودية في الشرق، كما خشي انتشار «الدرودية» (Druidism) في الغرب، ولعل رجال بطانته طمعوا في استئثار المال، فرأوا في العودة إلى المحصلية وسيلة لإشباع مطامعهم، وظل كلوديوس عاطفاً على أغريبة الثاني، فإنه أنفذه ملكاً على خلقيس بعد وفاة عمه هيرودس في السنة ٤٨، ثم أضاف إلى ملكه وادي بردي واللجا والبتنية.³⁴

وبينما كانت ولاية سورية تنتظر وصول الوالي الجديد الفقيه الكبير «كاسيوس لونجينوس» (Cassius Longinus) (٤٥-٥٠) ووالي آسية سابقاً، أطل على قيصرية فلسطين المحصل «كسبيوس فادوس» (Cuspius Fadus) (٤٤-٤٦)، فحل المشادة بين يهود شرق الأردن وبين سكان فيلادلفية حول حصن زي القريب من السلط، واقتصر من «طولوميوس» (Tholomaïos) رئيس العصابة، الذي عاث فساداً في أدوم وبين القبائل العربية، ثم قتل «توداس» (Theudas) الذي سطا على عقول جماعة من اليهود، زاعماً أنه بإمكانه أن يشق الأردن كما شق موسى البحر الأحمر،³⁵ وحاول المحصل الجديد بعد ذلك إعادة الألبسة اليهودية الحبرية إلى القصر في أورشليم، وسانده في ذلك والي سورية لونجينوس الفقيه، فنشبت مشادة جديدة، وُرفِع الأمر إلى الإمبراطور، فحكم لليهود وأوجب إبقاء تاج الكاهن الأعظم وثيابه الحبرية في الهيكل، وأمر الإمبراطور في الوقت بأن يتولى هيرودس خلقيس شئون الهيكل في أورشليم، وتعيين الكاهن الأعظم، وظل الحال على هذا المنوال حتى السنة ٧١ ب.م.³⁶ وحل محل فادوس في السنة ٤٦ وحتى السنة ٤٨ المحصل طيباريوس ألكسندروس، وكان هذا أحد أنسباء فيلون الفيلسوف اليهودي الإسكندري، فجدد اليهودية واعتنق الوثنية، وخدم رومة بأمانة وإخلاص، فسعى لتوطيد الأمن في فلسطين، وصلب يعقوب وسمعان ابني يهوذا «الجليلي الغيور»، ولكن مجاعة السنة ٤٦ عرقلت أعماله الإصلاحية،³⁷ وجاء بعده «نتيديوس كومانوس» (Ventidius Cumanus) (٤٨-٥٢) فكان أسوأ حظاً، وتفصيل ذلك، أن بعض العناصر العسكرية السبسطية القيصرية كانت لا تزال مقيمة في اليهودية منذ وفاة أغريبة الأول، وأن هذه العناصر شاركت السامريين والوثنيين في كرههم لليهود، ولما جاء الفصح تواقع أحد هؤلاء على اليهود في أروقة الهيكل، فطالب اليهود بمعاقبته، وشتموا كومانوس

وأهانوه، فخشي هذا سوء العاقبة، واستقدم قوة جديدة، فذب الرعب إلى صفوف الشعب، واحتشدوا في الهيكل وجواره، ولجأ بعض اليهود إلى الإخلال بالأمن، فسلبوا اسطفانوس أحد أرقاء الإمبراطور جميع أمتعته في ضواحي أورشليم، وأنفذ كومانوس قوة إلى محل الحادث فأساءوا التصرف، ودنس أحدهم نسخة من التوراة، فطالب اليهود باحترام دينهم! واعترض السامريون سبيل اليهود القادمين من الجليل إلى أورشليم عند جنين ومنعهم من الدخول إلى منطقتهم، فشكا الجليليون السامريين إلى كومانوس في قيصرية، فلم يرَ رأيهم، فتجدد الإخلال بالأمن في تلال اليهودية، ومشى بعض اليهود إلى حدود السامرة فأحرقوا وذبحوا، فنهض كومانوس إلى أورشليم على رأس قوة من الجند، ولكنه تحاشى فأغضب السامريين، فقام وفد من هؤلاء إلى ولاية سورية، وشكوا أمرهم إلى الوالي «أوميدوس كوادراتوس Ummidius Quadratus» (٥٠-٦٠)، ومثل أمامه في صور وفد من اليهود يتهمون السامريين وكومانوس بالتعدي، فنهض إلى قيصرية وصلب بعض اليهود فيها، ثم قام إلى اللد، وحرَّ رقاب غيرهم، وأرسل المتداعين إلى رومة، ولدى وصولهم إليها نشبت مشادة عنيفة بين عتقاء كلوديوس من رجال البطانة وبين أغربية الثاني، فأمر كلوديوس بثلاثة من كبار الوفد السامري، ونفى كومانوس، وأنفذ التريبون «كيلر Celer» إلى فلسطين مفوض مطلق الصلاحية.³⁸

(١٣) المحصل أنطونيوس فيلكس (٥٢-٦٠)

هو عتيق أنطونية أم الإمبراطور كلوديوس، وأخو بلاس كبير عتقاء البلاط في عهد كلوديوس، وخليل أغريبيينة أم نيرون،³⁹ تولى المحصلية بفضل أغريبيينة الأصغر، وتلبية لطلب يوناثان الكاهن الأعظم (٣٧-٣٨)، الذي أمَّ رومة على رأس الوفد اليهودي المفاوض بعد الادعاء على المحصل كومانوس وجماعته، ولم ينس «فيلكس Felix» — فيما يظهر — فضل أغريبيينة، فإنه أطلق اسمها على البرج كشاف الأهلة الذي أنشئ في عجلون في قلعة الرِّبَاد.⁴⁰

وما كاد فيلكس يتسلم أزمة الحكم في اليهودية حتى ضرب بيد من حديد على عناصر الشغب، فقبض على اليعازر بن ديناى حيًّا، وأرسله إلى رومة، وصلب وقتل عددًا كبيرًا من أتباعه، ولعله استعان بـ «الأسخريوطيين Sicarii» ذوي الخناجر القصيرة للقضاء على يوناثان الكاهن الأعظم السابق،⁴¹ وزاد الطين بلة عندما استهوى دروسيلة بنت أغربية وزوجة عزيز ملك حمص العربي المتهود، فتزوج منها مخالفًا للتقليد والناموس،⁴² وقبيل

انتهاء حكمه في السنة ٦٠ نشبت مشادة عنيفة بين اليهود والأمميين في قيصرية فلسطين، فاليهود فيها طالبوا بـ «حقوق المواطن isopoliteia»، وكانوا قد كثروا واغتنوا، فأبى المواطنون — وجلهم من الأمميين المتهلنين — أن يسمحوا بذلك، فكان لجوء إلى العنف، وكان بين الأمميين والجند، فسقط عدد من اليهود وزاد التوتر، فأرسل فيليكس وفدين إلى رومة؛ ليترافعا أمام نيرون الإمبراطور، فجاء حكم الإمبراطور في صالح الأمميين، فازداد اليهود حقدًا وضغينة.⁴³

(١٤) حننيا وبولس

ويُستبعد أن يكون حننيا قد استمر في رئاسة الكهنوت منذ السنة ٤٧ حتى السنة ٥٩، ولكنه لا يُستبعد أن يكون قد ظل نافذ الكلمة، ولا سيما بعد أن عاد من رومة بريئاً مما اتُّهم به في قضية السامريين في عهد كومانوس المحصل، ويستدل من كلام يوسيفوس؛ أن هذا الكاهن الأعظم تكبر وتجبر بعد عودته من رومة، وأنه لم يترفع عن أخذ معظم لحوم التقدّمات إلى بيته، وأنه أرسل رجاله إلى البيادر، واغتصب العشر حق الكهنة العاديين من المواسم.⁴⁴

وكان بولس الرسول قد عاد من ميليتس إلى صور وعكة فقيصرية، فاليهودية فأورشليم، فقبله الأخوة بفرح، وقص عليهم ما صنع الله بين الأمم بخدمته، فمجدوا الله، ثم قالوا له: أنت ترى كم ربوة من اليهود قد آمنوا، وكلهم ذوو غيرة على الناموس، ولقد بلغهم عنك أنك ترد عن موسى، فخذ هؤلاء الرجال الأربعة الناذرين، وطهر نفسك معهم، وأنفق عليهم؛ ليحلقوا رؤوسهم، فيعرف الجميع أن ما بلغهم عنك ليس بشيء، بل إنك أنت أيضاً محافظ على الناموس، فدخل الهيكل وبين أجل أيام التطهير، ولما قرب انقضاء السبعة الأيام رآه اليهود الذين من آسية في الهيكل، فهيجوا الجمع كله، وألقوا عليه أيديهم، فهاجت المدينة كلها، وتبادر الشعب من كل ناحية، وقبضوا على بولس، وجروه إلى خارج الهيكل، وإذ كانوا يطلبون قتله بلغ الخبر قائد الفرقة «الخلييوس» كلوديوس لسياس، الذي كان يقيم في قلعة أنطونية إلى الشمال الغربي من الهيكل، فأخذ لساعته جنداً وبادر إليهم، فلما رأوه أمسكوا عن ضرب بولس، فقبض عليه، وأمر أن يوثق بالسلاسل، وذهب به إلى الثكنة، وفيما هو داخل وقف على الدرج، وخاطب الشعب بالعبرية، وروى قصته كلها، فرفع اليهود أصواتهم، وطالبوا «برفعه عن الأرض؛ لأنه ليس بخليق أن يحيا»، ومضوا يصرخون، ويحركون أريدتهم، ويذرون في الجو، وأمر القائد بجلده، فأعلم بولس

الجلادين أنه روماني، فامتنعوا عن الجلد،⁴⁵ ثم حله القائد، وأمر رؤساء الكهنة وكل المجمع أن يجتمعوا، وأنزل بولس وأقامه لديهم، فقال بولس: لقد تصرفت حتى اليوم بكل نية صالحة، فأمر حننيا رئيس الكهنة بضربه على فيه، فأجاب بولس: سيضربك الله أيها الحائط المبيض، ورأى بولس أن قسماً منهم صديقون، وقسماً فريسيون، فقال بولس: أنا فريسي على رجاء إسرائيل، وعلى قيامة الأموات أحاكم، فنشب نزاع بين الفريسيين منهم والصديقين، فاخْتُطِفَ الجند بولس من بينهم، وأعادوه إلى الثكنة، وتآمر أربعون من اليهود أن لا يأكلوا ولا يشربوا حتى يقتلوا بولس، وسمع ابن أخت بولس بالمكيدة فأخبر خاله بها، ثم قائد الألف، فأنفذ هذا محروساً إلى فيلكس المحصل في قيصرية.

(١٥) بولس وفيلكس المحصل

وانحدر حننيا نفسه إلى قيصرية، ومعه بعض الشيوخ ومحام اسمه ترتلوس، وعرضوا شكواهم على بولس، واتهموه بالفتنة وتنجيس الهيكل، وكان فيلكس «يُعرف بتدقيق ما يخص الطريقة (المدرسة) النصرانية»، فأملهم قائلاً: متى انحدر ليسيّاس أبحث في دعواكم»، وبعد أيام استحضر فيلكس بولس، وسمع منه عن الإيمان بالمسيح يسوع في حضور دروسيلة امرأته، التي كانت يهودية كما سبق وأشرنا، وإذ كان بولس يفيض في الكلام عن البر والعفاف والدينية الآتية، أجاب فيلكس مرتاعاً: اذهب الآن، ومتى حصلت على فرصة استدعيتك، وكان يأمل أن يُصيب من بولس فضة، فلذلك كان يستقدمه مراراً ويحادثه، وإذ أراد أن يرضي اليهود ترك بولس في السجن.⁴⁶

(١٦) المحصل بوركيوس فستوس (٦٠-٦٢)

وخلف فيلكس في المحصلية في منتصف السنة ٦٠ «بوركيوس فستوس Porcius Festus»، وتبع اليهود فيلكس حتى رومة، وادعوا عليه أمام نيرون، ولكنهم نسوا — أو تناسوا — أنه كان أخا بلاس، فعادوا خائبين،⁴⁷ وصعد فستوس من قيصرية إلى أورشليم، فأقبل رؤساء الكهنة وأعيان اليهود يوردون شكواهم على بولس، وألحوا باستحضاره إلى أورشليم، وقد جعلوا له كميناً في الطريق ليغتالوه، فأجاب المحصل: أن بولس في السجن في قيصرية، وأنه هو سيعود إلى هناك سريعاً، وقال: لينحدر معي المقنطرون، وليشكوا هذا الرجل، وعاد فستوس بعد عشرة أيام إلى قيصرية، وفي الغد جلس على المنبر وأمر بإحضار بولس،

فقدف اليهود عليه شكاوى كثيرة وثقيلة، ولكنهم لم يقدرُوا أن يثبتوها، ودافع بولس عن نفسه أنه ما أكرم قط تجاه ناموس اليهود، ولا تجاه الهيكل، ولا تجاه قيصر، وأصرَّ أنه واقف لدى منبر قيصر، وأنه رافع دعواه إليه، حينئذٍ فاوض فستوس مجلس شورا وقال لبولس: إلى قيصر رفعت دعواك، فإلى قيصر تذهب.

وبعد بضعة أيام أقبل أغريبة الثاني الملك وبرنيقة أخته إلى قيصرية، وسلَّما على فستوس، وقصَّ فستوس قضية بولس، فرغب أغريبة في سماع بولس، فأقبل وأخته بأبهة عظيمة ودخلا المجلس مع قواد الألوفا وأعيان قيصرية، وأحضر بولس فروى قصته أمام أغريبة، فقال أغريبة قوله الشهير: إنك بقليل ستقنعني أن أصير مسيحياً، وقال أغريبة لفستوس: إن هذا الرجل لم يأت شيئاً يستوجب الموت، ولقد كان ممكناً أن يطلق سراحه لو لم يرفع دعواه إلى قيصر، وأسلم بولس وأسرى آخرون إلى يوليوس قائد المائة في فرقة أوغسطة، وأقلع من قيصرية إلى صيدا حيث شاهد الأخوة، ومنها إلى ميرة في ليكية، ثم إلى رومة.⁴⁸

(١٧) يعقوب أخو الرب

ومات فستوس في أثناء محصليته في السنة ٦٢، فانتهاز حنان الثاني رئيس الكهنة فرصة شغور كرسي المحصلية، وركب رأسه وراح ينتقم من النصارى بعد نجاة بولس وخروجه من فلسطين، فقبض على يعقوب أخي الرب وأسقف الكنيسة في أورشليم، وعقد مجمعاً، واستدعى يعقوب، وقال له: إن الشعب يتخذون يسوع مسيحاً، فعليك أن تزيل من أذهانهم هذا الضلال، ثم أقاموه على سطح الهيكل ليسمعه الجميع، وصاح الكتبة والفريسيون: أن الشعب قد سلك سبيل الضلال باتباعه يسوع المصلوب، فقل أيها الصديق، ماذا نفعل؟ فأجاب يعقوب: إن يسوع الذي تسألونني عنه هو المسيح ابن الله، وهو جالس عن يمين الله، وسيأتي على سحاب السماء ليدين العالم بأسره، فقدفوا بيعقوب من فوق إلى الحضيض فلم يتأذ، بل جثا مصلياً قائلاً: اغفر لهم؛ لأنهم لا يدرون ما يفعلون، ثم انهالوا عليه بالحجارة، وتناول أحدهم مطرقة كبيرة وهوى بها على هامة القديس، فآتم استشهاده.⁴⁹

(١٨) ثورة اليهود (٦٦-٦٩)

ونهج «لوكيوس ألبينوس Lucceius Albinus» المحصل الجديد سياسة لين ومسالمة، فانَّهُم بالرشوة،⁵⁰ وجاء بعده «غيسوس فلوروس Gessius Flours» (٦٤-٦٦) شديداً

مؤدبًا، فإنه في آيار السنة ٦٦ صادر سبع عشرة وزنة من خزانة الهيكل؛ ليسد بها النقص في المال المفروض على اليهود، فغضب اليهود، ونزلوا إلى الشوارع متظاهرين صاخبين، ففرّقه غيسسيوس بقساوة، واستقدم من قيصرية فوجين لمساندة الحامية، وتراجع اليهود عن تطرفهم، وأظهروا ميلًا للتفاهم، ولكن الجنود تكبروا فتجدد النزاع، ونجح اليهود في قطع المواصلات بين قلعة أنطونية والهيكل، فاضطر غيسسيوس أن يخرج من أورشليم، تاركًا فيها حاميتها وفوجًا واحدًا من الجنود.

وهرع أغربية من الإسكندرية وأمّ أورشليم لردع سكانها عن موقفهم، ولكنه لم يفلح، فالجماهير طالبت بإلغاء التقدمة اليومية للإمبراطور، وتمكن بعضهم من الاستيلاء على قلعة المسدة المشرفة على ساحل البحر الميت الغربي، ثم استحوذ الجمهور على قلعة أنطونية في أورشليم، وأكرهوا حاميتها على الالتجاء إلى أبراج قصر هيرودس، واستسلم رجال أغربية وتبعهم في ذلك رجال الحامية فدُبحوا.⁵¹

وفي خريف السنة ٦٦، عمت الثورة فلسطين بكاملها، ودخل اليهود بها في حرب أهلية مع غير اليهود، فثار يهود الإسكندرية في وجه طيباريوس ألكسندروس حاكمها الروماني، وخف غير اليهود في قيصرية وبيسان وصور إلى ذبح اليهود، فقتلوا عددًا كبيرًا منهم، وكان «كستتيوس غالوس Cestius Gallus» والي سورية قد نهض على رأس الفرقة الثانية عشرة Fulminata وغيرها إلى أورشليم؛ ليخضع الثوار فيها، فما كاد يصل إليها حتى تراجع عنها خشية الاضطراب إلى الدفاع عن جانبيه ومؤخرته والهجوم على الثائرين في أورشليم في آن واحد، وقيامًا بواجب المحافظة على الأمن في ولايته، وإخماد الفتنة بين اليهود وغير اليهود فيها، وما إن بدأ بالتراجع حتى انقض عليه اليهود من كل جانب، فتحول تراجعهم إلى هزيمة، واضطر أن يتخلى لليهود الثائرين عن شيء كثير من عتاده ومثونته،⁵² وعلم الدمشقيون بذلك، فأحاطوا باليهود في بلدتهم، وذبحوا أكثر من عشرة آلاف منهم.⁵³

واضطرب المعتدلون المسلمون من اليهود أن يماشوا العناصر الثائرة، فتسلم القيادة والدفاع عن أورشليم حنان رئيس الكهنة الأسبق ويوسف بن غوريون، وقسمت البلاد إلى مناطق عسكرية، وتولى القيادة في كل منها قائد معين، وإذا جئنا نقيس خبرة القادة وحنكتهم بما نعلمه عن قائد منطقة الجليل المتاخمة لولاية سورية، التي كانت تعتبر الجبهة الرئيسية، قلنا: إن هؤلاء القادة لم يكونوا مدربين مجربين، فقائد الجليل كان يوسف بن متياس، الذي أمسى فيما بعد يوسيفوس مؤرخ اليهود الشهير، كان يوسف كاهنًا في الثلاثين من عمره، ملهمًا بالناموس والمذاهب اليهودية على أنواعها، وكان قد زهد،

واعتزل في البرية على يد بانوس ثلاث سنوات متتالية، ثم عاد إلى الاختلاط بالناس، فعُرف فريسيًا معتدلًا محبًا لرومة، فأنفذ إليها؛ ليفاوض في أمر الكهنة الذين حُجزوا فيها، وانتقاء يوسيفوس لقيادة الثورة في الجليل يدل على أن كبار الزعماء لم يرغبوا في حرب حقيقية ضد رومة، وإنما أرادوا التظاهر بالعنف؛ ليصلوا بالمفاوضة مع رومة إلى حل وسط يعيد المياه إلى مجاريها.

وتضاربت آراء اليهود في الجليل، فانقسموا أحزابًا وعصابات، فمنهم من تزمت وتطرف فطالب بالاستقلال التام، ومنهم من والى رومة واعتدل وأحب المفاوضة، ومنهم من أيد أغربية، ومنهم من عارضه، وكان زعيم المتزمتين المتطرفين يوحنا بن لاوي، الذي اعتصم في غيشالة في شمال صفد، وأراد أن يسيطر على الجليل الأعلى، ومن هؤلاء أيضًا، يسوع بن صفيا، الذي هدد كل محب لرومة، وجال في الجليل معربدًا محرقًا، وأعلنت صفورية ولاءها لرومة واستعدادها للدفاع، واثرت جملة في الجولان على أغربية، واشتهر باعتداله يوستوس ابن بيستوس، ولكنه اضطر أن يماشي يوحنا بن لاوي، وعبئًا حاول يوسيفوس توحيد الصفوف للصمود في وجه الرومان الزاحفين من سورية،⁵⁴ ولم ترضَ أورشليم عن سياسة يوسيفوس، فأنفذت إلى الجليل أربعة قواد ليحلوا محله، فامتنع يوسيفوس، وزاد امتناعه الطين بلة.⁵⁵

وكان نبرون لا يزال في بلاد اليونان مستغرقًا في أحلامه منشدًا مغنيًا، فلما علم بانتحار غالوس الوالي أمام أورشليم استفاق من غفلته، ووكّل أمور سورية وما جاورها إلى رجل عسكري قدير، كان قد أبعد؛ لأنه كان قد نام وهو يسمع غناء الإمبراطور، وكان هذا «طيطس فلاويوس وسباسيانوس Titius Flavius Vespasianus» ذا خبرة واسعة في الحرب، محبوبًا في أوساط الجنود، فمنحه نبرون «السلطة الكبرى maius imperium»، وعينه «واليًا legatus» على سورية وما جاورها، وأمره بالتوجه إليها فور تسلمه الأمر بذلك.⁵⁶

وجاء وسباسيانوس أنطاكية في آذار السنة ٦٧، وتسلم قيادة الفرقة الخامسة Macedonica والفرقة العاشرة Fretensis، وكان ابنه طيطس قد وصل إلى عكة على رأس الفرقة الخامسة عشرة Apollinaris المصرية، وضم وسباسيانوس إلى هذه الفرق القوات المحلية المساندة ورجال الملوك المحليين الحلفاء، وبينهم أغربية الثاني الملك اليهودي، وسهيم ملك حمص، ومالك الثاني ملك الأنباط، فجمع لديه حوالي خمسين أو ستين ألفًا،⁵⁷ وفي حزيران السنة نفسها، نهض إلى حدود الجليل، وأثر

اليهود حرب العصابات، فرسم وسباسيانوس خطة طويلة الأمد، كان شعاره فيها عدم تفريق الجنود، وحاول يوسيفوس أن يجمع رجاله بالقرب من صفورية عند قرية الرينة Garis، ولكنهم ذابوا ذوباناً قبل الشروع في القتال، فالتجأ يوسيفوس إلى حصن «يوتبات Jatapata» في شمال صفورية (خان جفات الحديثة)، وامتنع فيه فحصره وسباسيانوس سبعة وأربعين يوماً، وعند نهاية الحصار لجأ يوسيفوس وكبار ضباطه إلى صهريج تحت الحصن، واتفقوا على قتل بعضهم بعضاً، وفعلوا، ولما لم يبق منهم سوى يوسيفوس وضابط آخر استسلم يوسيفوس لوسباسيانوس، ونال عطفه حينما تنبأ بوصول القائد إلى منصة الإمبراطورية قريباً، فلما تم ذلك عتق وسباسيانوس أسيره يوسيفوس.⁵⁸

وفتحت طبرية أبوابها لجيش رومة، وتجزأت المقاومة في الجليل، وكادت تنحصر في «تريخية Taricheia» عند انطلاق الأردن من بحيرة الجليل، وفي غيشالة في شمال صفد، ولا سيما في جملة، وطال امتناع هذه المراكز حتى خريف السنة ٦٧، وقضى وسباسيانوس شتاء السنة ٦٧-٦٨ في قيصرية، وفي ربيع السنة ٦٨، بدأ يحصر المقاومة في اليهودية، فاحتل الساحل والسامرة بسهولة، وثبت سلطته في بيرية في شرق الأردن، وفي أدوم في جنوب الميت وأورشليم، وانحصرت مقاومة اليهود عند أول حزيران في هيرودية والمسدة والمكاور وأورشليم وتلالها، وبينما كان وسباسيانوس يستعد للزحف على أورشليم، فوجئ بانتحار نيرون، فأوقف أعماله الحربية، منتظراً تجديد مهمته من قبل الإمبراطور الجديد، فطال انتظاره سنة كاملة.

(١٩) موقف النصارى

وكان ما كان من أمر يعقوب أخي الرب، فلما تم استشهاده خلفه بوضع الأيدي نسيبه سمعان بن كليوبة في رئاسة الكنيسة في أورشليم، وأطل كستيروس غالوس والي سورية في السنة ٦٦ بجنوده ومجانيقه وعقاربه، فذكر المؤمنون قول المسيح: «إِذَا مَا رَأَيْتُمْ رَجَاسَةَ الْخَرَابِ قَائِمَةً حَيْثُ لَا يَنْبَغِي، فَالَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَةِ فليهربوا عندئذٍ إلى الجبال، والذي على السطح فلا ينزل، ولا يدخل بيته ليأخذ منه شيئاً، والذي في الحقل فلا ينظر إلى الوراء ليأخذ رداءه»، فخرجوا من أورشليم إلى «فحل Pella» المتهلة في منطقة المدن العشر، وأقاموا بها.⁵⁹

(٢٠) في داخل أورشليم

ولم يستفد اليهود من وقف القتال كثيرًا، وجل ما فعلوه، أنهم زادوا أسوار أورشليم مناعة، وأن سمعان «بن الغيورة bar Giora» احتل الخليل، وغنم منها غنائم كبيرة، وأن رجاله جالوا في التلال سالبين ناهبين، ولجأ إلى أورشليم في هذه الفترة عدد كبير ممن قاوم الرومانيين، واضطر أن يفر أمامهم، فأفادوا يوحنا بن لاوي الغشلاوي، ووصلوا به إلى مرتبة الزعامة، فضيق على المعتدلين من اليهود والمسلمين، ونكّل بهم تنكيلًا، وفي ربيع السنة ٦٩، اضطر سمعان بن الغيورة أن يلجأ بدوره إلى المدينة المقدسة، ويحتمي بأسوارها، فاستقبل فيها استقبالًا حارًا، ثم نازع يوحنا بن لاوي الزعامة، فظهر زعيم ثالث يعازر ابن سمعان.⁶⁰

(٢١) مؤتمر بيروت

وتنازع السلطة العليا في رومة في السنة ٦٨-٦٩ كل من «غلبة Galba» و«أوتو Otho» و«فيتاليوس Vitellius»، فلما تم النصر لفيتاليوس عاد وسباسيانوس إلى القتال، فدخل الخليل، وأعاد الأمن إلى تلال اليهودية، ثم فوجئ في أول تموز بمناداة فرق الإسكندرية به إمبراطورًا مناوئًا لفيتاليوس، وتبعهم في ذلك بعد ثلاثة أيام الفرق المحاربة في اليهودية، وقبل منتصف تموز كانت فرقة سورية قد أعلنت تأييدها للقائد الذي أحب جنوده وحافظ على راحتهم، وعرض نفسه للخطر في سبيل انتصارهم، وكان والي سورية «ليكينئوس ميكانيوس Licininius Micanius» قد أيد رأيهم، وقال قولهم، واندفع في سبيل وسباسيانوس، فدعاه وغيره إلى تبادل الرأي في بيروت، وأكد أن فيتاليوس لن يرضى عن بقاء وسباسيانوس في القيادة، وأن مصير هذا سيكون حتمًا كمصير كوربولو، فرضي وسباسيانوس، وأرسل الوفود إلى البرت والأرمن؛ ليضمن حيادهما، ووافق أيضًا على تسليم قيادة الجند في فلسطين إلى ابنه طيطس، وكان من مقررات بيروت أيضًا أن يقوم وسباسيانوس إلى مصر؛ ليضمن ولاءها، ويمنع حبوبها عن الوصول إلى رومة.⁶¹

(٢٢) حصار أورشليم (٧٠)

وتولى طيطس قيادة الجيش في اليهودية، وعاونه في ذلك طيباريوس ألكسندروس، الإسكندري الخبير بشئون الملة التي كان ينتمي إليها، وكانت ظروف وسباسيانوس المستجدة قد قضت بسحب بعض العناصر العسكرية من اليهودية وإنفاذها بإمرة

عصر أوغسطس قيصر وخلفائه



قوس طيطس.



غنائم طيطس كما تظهر على القوس.

موكانيوس إلى البلقان، فقلَّ عدد الفرق الثلاث الفعلي المرابطة في فلسطين، ولس وسباسيانوس هذا الضعف، فتلافاه فإنفاذ الفرقة الثانية عشرة، وتقدم طيطس برجاله إلى جبل الزيتون، وبدأ أعمال الحصار، ولدى وصوله اشتد التنافر بين الزعماء في داخل أورشليم، فهجم يوحنا غيشالة على الهيكل، وقضى على زعامة اليعازر، فخفت صوت المعتدلين، ولجئوا إلى العمل السري، فخرج المعلم الفريسي يوحنا بن زكَّا إلى المعسكر الروماني، مختبئاً في تابوت أُعد لهذه الغاية، وأدى تعاظم الخطر الروماني إلى تفاهم بين يوحنا بن لاوي وسمعان بن الغيورة، فاقترسا أعمال الدفاع، فتولى يوحنا الدفاع عن القلعة الأنطونية والهيكل، وأشرف سميان على القتال من أسوار المدينة العليا.

وتمكن الرومان في آيار السنة ٧٠ من فتح ثغرة كبيرة في السور الثالث الخارجي، وبعد أيام خمسة استولوا على السور الثاني، ثم شرعوا في دك أبراج السور الأول، وعبثاً حاول يوسيفوس إقناع الحامية اليهودية بوجوب التسليم والمسالمة، فشدد طيطس الرجال، وبنى الأبراج الخشبية، وأحاط بالمدينة بسور من التراب؛ ليمنع تسرب الطعام إلى داخلها، وفي التاسع من آب — حساباً يهودياً — أحرق الرومان باب الهيكل، وتسربوا إلى الداخل فاستولوا عليه، وذبحوا من في داخله، وفرَّ يوحنا بن لاوي، وانضم إلى سميان في المدينة العليا، فدافعا حتى أيلول ثم استسلما، فأمر طيطس بسجن يوحنا سجنًا مؤبداً، واحتفظ بسمعان لقتله عند الكبيتول في رومة، وغنم — فيما غنم — مائدة التقدمة والشمعدان المسبب، واحتفل بنصره مع والده وسباسيانوس وأخيه دوميتيانوس في السنة ٧١ في رومة، وشيد لهذه المناسبة قوس نصر لا يزال نقش من نقوشه محفوظاً حتى يومنا،⁶² أما القوس الذي يُعزى إليه اليوم، فإنه شُيد بعد وفاته.

(٢٣) النظام الجديد

وسقطت قلعة هيرودية في يد الرومان بسهولة، أما المسدة، فإنها امتنعت وقاومت حتى السنة ٧٣، ولم يدخلها الرومان إلا على جثث رجالها، الذين انتحروا بعد اليأس، وامتنع رجال حصن المكاور مدة، ثم خرجوا بشروط معينة.

وظلت اليهودية ولاية مستقلة، يحكمها محصل روماني كما كانت قبل الثورة، ولكن هذا المحصل أصبح خاضعاً لوال legatus من أعضاء السناتوس، يقود الفرقة العسكرية Eretensis المستقرة في فلسطين، وظلت قيصرية عاصمة فلسطين واليهودية، ولكنها اعتُبرت مستعمرة رومانية باسم Colonia Prima Flavia Augusta Caesarensis،

وفرقت رومة بين اليهود الموالين لها وبين العصاة، فظل أولئك مواطنين غير رومانيين كسائر سكان الولايات، أما العصاة الذين لم يُستَرَقُوا استرقاقًا، فإنهم اعتُبروا مستسلمين بدون حقوق *dedicii*.⁶³

وأُمتست أرض اليهودية أرضًا أميرية، تتصرف بها السلطات الرومانية كما تشاء، فتلزمها تلزيمًا، أو تهبها إلى أبطال الجيش، كما فعلت بأراضي عمواص القريبة من أورشليم، أو إلى غيرهم ممن نال عطف الإمبراطور، كما جرى ليوسيفوس المؤرخ الذي استغل هذا العطاء، وهو مقيم في رومة، وأبيحت جميع مدن المقاومة إلى الجند، ودُمرت وبيع أهلها أرقاء في أسواق الرقيق في الشرق والغرب.

وألغت رومة المجمع ورئاسة الكهنوت، وحرمت العبادة في هيكل أورشليم، وفي هيكل يهود مصر في Leontopolis، وحولت مال العنق الذي كان يجبى من اليهود لخزينة الهيكل إلى خزينة يوبيتر في الكابيتول، ومن هنا التعبير «مال اليهود *Fiscus Judaicus*». وبالإلغاء المجمع ورئاسة الكهنوت دخل اليهود في دور جديد من تاريخهم الطائفي، فانتهى أمر الصدوقيين وانتصر الفريسيون، فأسس أحدهم يوحنا بن زكا مدرسة يمنية القريبة من يافه، واتجهت الأنظار إليها، فكاد بعض اليهود يعتبرها مجمعًا جديدًا، ولم يحل الكنيس محل الهيكل، بل ظل هذا قبلة أنظار اليهود، ليكون لخرابه، ويسعون لإعادة بنائه، ولا يزالون.⁶⁴

(٢٤) البرت والأرمن

وفي السنة ١٧ بعد الميلاد، حوّل طيباريوس قبدوقية من مملكة حليفة إلى ولاية؛ ليقوّي بذلك الدفاع عند الفرات، وكانت قبائل طوروس الغربي لا تزال جامحة، فظهرت في السنة ٤٣ ولاية جديدة مؤلفة من ساحل ليكية وبمفيلية في جنوب آسية الصغرى.

وتبنى الأقربون خطة أوغسطس في معاملة البرت والأرمن، فاقتصدوا كل الاقتصاد في المجهود الحربي، وكادوا يهملون في بعض الأحيان الاهتمام بسير الحوادث في برتية وأرمينية، وكان — ومن حسن حظهم — أن ملوك البرت قابلوا هذا الإهمال بشيء كثير من التردد وقلة الحزم والعزم، وعند وفاة أوغسطس كانت سلطة أرتبانوس الثالث ملك البرت لا تزال غير موطدة، وكانت أرمينية قد دخلت في دور من الفوضى، ولم يحرك طيباريوس ساكنًا، حتى طلب أشراف أرمينية وزعمائها إلى أحد ملوك آسية الصغرى أن يتولى أمورهم ويدبر شئونهم، فرضي طيباريوس برضاء هؤلاء، وطلب في السنة ١٨

إلى ابن أخيه جرمانيكوس، الذي كان يتجول في الولايات الشرقية مطلعاً مفتشاً، أن يمنح التاج (الذيامة) للملك الجديد «أرتكسياس Artaxias»، ففعل، وحكم هذا الملك حتى وفاته في السنة ٣٥ حكماً هادئاً غير مضطرب، وعند وفاته طمع أرتبانوس ملك البرت في أرمينية، ولا سيما وأن طيباريوس كان قد مسّه الكبر، فدفع بأحد أبنائه ليتولى عرش أرمينية، ففاجأه شيخ رومة بانتفاضة لم يحسب لها حساباً، واضطر أن يصد هجوماً من إيبيرية، شنه متراداتس جديد، ولم يقوَ على الصمود، فخرج من أرمينية، وجلس متراداتس ملكاً عليها، وشجع طيباريوس أميراً برتياً اسمه «تيريداتس Tiridates» على احتلال ما بين النهرين والمطالبة بالعرش، فتقرط لجام أرتبانوس، وانثنى عن عزمه، ومع أنه نجح في كبح جماح تيريداتس، فإنه لم يجرؤ على التحرش بأرمينية.

والتبس على غايوس وجه الصواب، وأحب أن يرضي صديقه ورفيقه «كوتس Cotys» ملك تراقية، الذي نشأ معه في رومة، فراح يفتش عن عروش لأبناء كوتس، فجعل أحدهم ملكاً على ولاية كوموجينة، ورغب في إجلال الآخر على عرش أرمينية، فاستدعى متراداتس بدون مبرر وأبقاه في رومة، فاحتل أرتبانوس أرمينية قبل وصول مرشح رومة إليها، ومع أن كلوديوس أعاد متراداتس إلى عرشه، ولهُى «غوتارزس Gotarzes» خلف أرتبانوس بمشاكل داخلية، فإن «روداميستوس Rodamistus» نسيب متراداتس شن هجوماً موفقاً في السنة ٥٢ أو ٥٣ على أرمينية، وقتل متراداتس وحلّ محله، فتسنى لملك البرت أن يظهر بمظهر المدافع عن الأرمن، فعاونهم على التخلص من ردميستوس، ولكنه أجلس أخاه تيريداتس على العرش الأرمني (٥٣-٥٤).

ووصل نيرون إلى سدة الحكم، فعزل «يوليوس بايلينوس Paelignus» والي قبذوقية، واعتبره مسئولاً عن إخفاق رومة في أرمينية، وعين محله «كوربولو Cornelius Domitius Corbulo»، القائد الجريء الذي أثبت رجولته في وادي الرين، وأوصاه أن يفاوض على أساس الاعتراف بتيريداتس، شرط أن يقبل التاج من يد ممثل رومة (٥٦-٥٧)، فإذا رفض ذلك هجم كوربولو على أرمينية، ورأى كوربولو أن لا بد من الهجوم، ولس تقاعساً وقلة انضباط في الجنود، فراح يدرّبهم، وقضى سنة كاملة في ذلك، ثم هجم عبر سهل أرضروم المرتفع إلى وادي «الأراكسيس Araxes»، واستولى على «أرتكساتة Artaxata»، ومنها تقدم نحو «دكرانكرتة Tigranocerta»، فدخلها عنوة، وجعلها قاعدة لأعماله الحربية (٥٨-٥٩)، ثم طرأ على ملك البرت ما أشغله عن مساعدة أخيه، ففر تيريداتس من أرمينية، وتوَّج «كوربولو دكران Tigranes» أحد أمراء قبذوقية ملكاً عليها (٦٠).⁶⁵

وفي السنة التالية، تحرش دكران بملك البرت، وغزا ما بين النهرين، وكان «فولوغيسيس Vologeses» ملك البرت قد صفى مشاكله الشرقية، فحصر دكران في عاصمته، وكان كوربولو قد أصبح والياً على سورية، ورأى من المناسب ألا يثيرها حرباً، ففاوض ملك البرت على أساس سحب دكران من أرمينية وإعادة تيريداتس، شرط دخول هذا في طاعة رومة، ومع أن تيريداتس رضي بذلك، فإن نيرون نفسه لم يرض، فكان لا بد من اللجوء إلى العنف، وتسرع «كاسينيوس باييتوس Cassenius Paetus» والي قبوقية الجديد، ورغب في مضارعة كوربولو، فبدأ القتال عبر جنوب أرمينية بقوات غير كافية، فقطع البرت عليه خط الرجوع، فاستسلم ووافق على الانسحاب من أرمينية في صالح تيريداتس (٦٢-٦٣)، فأنكر نيرون على باييتوس فعله، وعين كوربولو قائداً أعلى لجميع قوات الفرات، وأمره بالهجوم، فسار القائد الأعلى في السنة ٦٤ بخمسين ألف مقاتل إلى أرمينية، ولكنه لم يجد في القتال، راجياً أن يؤدي مظهر الشدة وحده إلى اتفاق ملائم، وتحققت أمانيه، ففاوض البرت بعودة تيريداتس ودخوله في طاعة رومة، وفي السنة ٦٥ أمّ تيريداتس رومة، وتسلم تاجه من يد نيرون.⁶⁶

وفي السنة ٦٤، ضمّ نيرون مملكة البونط الشرقية إلى ولاية غلاطية، واستولى على الأسطول والملكي، وتولى أمر المحافظة على الأمن في البحر الأسود بكامله، ثم رغب في احتلال البانية لجعل بحر قزوين الحد الشرقي، ولكنه لم ينفذ شيئاً من ذلك.⁶⁷

(٢٥) البلقان والدانوب

وشملت تراقية في الأصل كل ما وقع بين البحر الأسود وبحر الأدرياتيك، فلما جاءت القبائل الأليزية احتلت غرب البلقان المطل على الأدرياتيك، وقامت مقدونية بدورها دولة قوية في قلب البلقان وجنوبه، وظلت القبائل التراقية متأخرة في سلم الحضارة تُعنى بتربية الماشية، وبالأزراعة وقطع الأخشاب وتصديرها، واضطر ولاية مقدونية الرومانيون إلى غزو القبائل التراقية من آن إلى آخر، إما لتأديبهم، وإما لتطويع بعضهم في خدمة الجيش، وكان أوغسطس قد اعترف بمملكتين تراقيتين، فلما كانت السنة ١٩، اغتال أحد هذين الملكين الآخر، فتدخلت رومة، وخلعت الجاني، وأجلست «روميالكيس الثاني Rhoemetalses» ملكاً على تراقية، وعينت مقيماً رومانياً فيها، وظل الضباط الرومانيون يتسربون عبر الحدود لاختطاف الشبان، وإكراههم على الخدمة في الجيش، فكانت ثورة

في السنة ٢٥، أخمدها «بابايوس سبينوس» Papaeus Sabinus والي مقدونية، وجاء كلوديوس في السنة ٤٦، فضم شمال تراقية إلى ولاية موسية، وجعل من الجنوب محصلية يحكمها محصل روماني.⁶⁸

وأدى تحرك القبائل الآلانية الآسيوية واتجاهها شطر روسية الجنوبية إلى حشر عشائر هذه المنطقة وقبائلها، ودفعها شطر الدانوب، فاضطرت رومة أن تنظر في أمر هؤلاء اللاجئين، وأن تتخذ الإجراءات اللازمة لحماية حوض الدانوب الأسفل، فقبل «سلوانس» Silvanus والي موسية في السنة ٦٢ مائة ألف لاجئ داقى، وأسكنهم ضفة الدانوب الجنوبية، ثم أضاف إلى ولايته قسماً من سهل ولاخية عبر الدانوب؛ ليجعل منه منطقة عسكرية، وحالف زعماء هذه المنطقة للغاية نفسها، وأنفذ إلى المدن اليونانية في ساحل روسية الجنوبي الغربي حاميات رومانية، وفعل مثل هذا لدى «أسبورغوس» Asburgus، الذي اغتصب عرش بوليمو في مملكة البوسفور.

(٢٦) ألمانية والرين

وحاول طيباريوس في السنوات الثلاث الأولى من حكمه أن يدوخ ألمانية الغربية بكاملها، وأن يثأر لـ «فاروس» Varus وجنوده في المنطقة نفسها التي سقطوا فيها، وتولى الأعمال الحربية في ألمانية ابن أخيه جرمانيكوس، ولكن أرمينيوس الزعيم الألماني تمكن من توحيد صفوف العشائر الألمانية الشمالية، فاضطر طيباريوس أن يعدل عما ذهب إليه، واستدعى ابن أخيه في السنة ١٦.

ثم جعل طيباريوس منطقة حدود الرين الشرقية منطقتين: ألمانية العليا، وألمانية السفلى، وجعل «ماينتز» Maguntiacum و«فيتيرية» Vetera عاصمتيهما، وألحق أمورهما المالية بولاية بلجيكة، واكتفى طيباريوس وخلفاؤه بسياسة دفاعية، ولم يحاولوا الدخول إلى قلب ألمانية إلا لأسباب تأديبية، ومن هذه أعمال كوربولو في السنة ٤٧، عندما نهض بقواته ليرد قرصان البحر الشمالي.⁶⁹

(٢٧) غالية

وأثقل الجباة كاهل الغاليين بالضرائب لتمويل حروب جرمانيكوس في ألمانية، وزاد المرابون الطين بلة، فدبر زعيمان من زعماء غالية ثورة، ولكن قوات الرين تمكنت من إخمادها بسهولة.⁷⁰

وعني كلوديوس بالموصلات بين إيطالية والحدود الشمالية فشق طريقين عبر الألب، واحدة عبر البرنر إلى وادي «الآين Inn»، والثانية عبر ممر البرنار إلى وادي الرون الأعلى.⁷¹

(٢٨) كلوديوس وبريطانية

وخشي كلوديوس ضياع الهيبة في الأوساط العسكرية المرابطة في الشمال، فرغب في حملة على الجزر البريطانية يؤكد بها اهتمامه بالجيش، ويعزز مكانته في قلوب أفرادها، ورجا عتيقه ويمينه «نركيسوس Narcissus» فوزًا سريعًا وربحًا كبيرًا، فأصغى إلى تذرر الزعماء البريطانيين من مطامع «كراتاكس Caratacus» الملك، وشجع سيده على العمل السريع.

وكان غايوس قد أعد العدة في السنة ٤٠ لعبور البحر واحتلال بريطانيا، ثم عدل فجأة كما فعل نبوليون في السنة ١٨٠٥، وفي السنة ٤٣، عبر القائد الروماني «بلوتايوس Plautius» البحر على رأس خمسين ألف مقاتل، ونزل في «كنت Kent»، ثم اقتحم وادي «التايمس Thames»، وبعد وصول كلوديوس نفسه إلى ميدان القتال تغلب الرومان على كراتاكوس، واحتلوا عاصمته Camulodunum كوشستر الحديثة،⁷² وعاد كلوديوس إلى رومة؛ ليسجل انتصاره، ويحتفل به،⁷³ ووصل الرومانيون في السنة ٤٩ نهر «السيفرن Severn» في الغرب، وفي السنة ٥٢ نهر «ترنت Trent» في الشمال الشرقي، ثم حاول «سوتونيوس بولينوس Suetonius Paulinus» في السنة ٥٩ إخضاع «وايلز Wales» الشمالية، ووصل في السنة ٦١ إلى «أنغليسي Anglesey»، ولكن ثورة «بوديكة Boudicca» أرملة ملك الإنكليز الشرقيين أكرهته على التراجع، وتفاقم شر هذه الثورة، فسقطت «ليندينوم Londinium» لندن الحديثة وغيرها في يد الثوار، فأحرقت حرقًا، ثم تمكن سوتونيوس من التغلب على الثوار، وماتت بوديكة، فجاء دور الرومان في النهب والسلب والقتل.⁷⁴

هوامش

(1) CARCOPINO, J., *Le Maroc Antique*, 190 ff.; HOMO, L., *Expériences Africaines*.

(2) SENECA, *Ad investigandum caput Nili*.

- (3) PLIN., *Nat. Hist.*, 6:181; LEUZE, *Or. Lit. Zeit.*, 1924, 346.
- (4) SCHUR, W., *Klio*, suppl., XV, 39 ff.
- (5) JOSEPHUS, *Ant.* 18:34 f.
- (6) JOSEPH., *Ant.* 18:35.
- (7) SCHURER, E., *Gesch. des jüdischen Volkes*, I, 430, n. 10; ABEL, F.M., *Hist. Palest.*, I, 436-437.
- (8) BEBBER, VAN, *Das Praetorium des Pilatus*, *Theol. Quartalschrift*, 1905, 184 ff.; VINCENT, H., *Rev. Bib.*, 1933, 83 ff.
- (9) ABEL, F.M., *op. cit.*, I, 426-428.
- (10) JOSEPHUS, *Ant.* 18:55-59; KRAELING, *The Episode of the Roman Standards of Jerusalem*, *Harvard, Theol. Rev.*, 1942, 263 ff.
- (11) *Leg. ad Gaium*, 133, 299-305.
- (12) JOSEPH., *Ant.*, 18:60.
- (13) TACITUS, *Ann.* 15:43.
- (14) JOSEPHUS, *Ant.*, 18:109-112.
- (15) ABEL, F.M., *Gtog.*, I, 142.
- (16) JOSEPHUS, *Ant.*, 18:116-119; KRAELING, C.H., *John the Baptist*, (1951).
- (17) JOSEPH., *Ant.*, 18:96-105.
- (18) JOSEPHUS, *Ant.*, 18:106-115, 119, 120-125.
- (19) JOSEPH., *Ant.*, 18:146; ABEL, F.M., *Geog.*, II, 180.
- (20) JOSEPHUS, *Ant.*, 18:143-169, 179-237.
- (21) PHILON, *In Flaccum*.
- (22) JOSEPH., *Ant.*, 18:240-255.
- (23) PHILON, *Legat. Ad Gaium*.
- (24) JOSEPHUS, *Ant.*, 19:237-277.
- (25) LOND L., *Greek Papyrii in the British Museum*, (1912); *Rev. Bib.*, 1925, 621, 1931, 270.
- (26) HEAD, B.V., *Historia Numorum*, 2d Ed., 793, Pl. IV; I.G.R.R., I, 132.

- (27) DE VOGUE, *Inscrip. Palm.*, 35.
- (28) SCHURER, E., *op. cit.*, I, 560 f., n. 40–42; OGIS, I, 418.
- (29) JOSEPHUS, *Ant.*, 19:335–338, 342, 353, 357; *Bell. Jud.*, 7:5.
- (30) JOSEPH., *Ant.*, 19:292–296.
- (31) JOSEPHUS, *Ant.*, 19:300–311.
- (32) JOSEPH., *Ant.*, 19:338–341.
- (33) LAKE, K., *Beginnings of Christionity*, V, 450 ff.
- (34) CHARES WORTH, M.P., *Gaius and Caludius, Cam. Anc. Hist.*, X, 680–681; ABEL., F.M., *Hist. Palest.*, I, 455.
- (35) JOSEPHUS, *Ant.*, 20:1–5.
- (36) JOSEPHUS, *Ant.*, 20:6–16.
- (37) JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, 2:220, *Ant.*, 20:100–103; REINMUTH, O.W., *Tiberius Julius Alexander, Trans. Am. Phil. Ass.*, 1934.
- (38) JOSEPHUS, *Ant.*, 20:105–136, *Bell. Jud.*, II, 224–246; TACITUS, *Ann.* 12:54
- (39) SCHURER, E., *Gesch. des jud. Volkes*, I, 571, 572, n. 19.
- (40) SCHURER, E., *Gesch. des jud. Volkes*, I, 571, 572, n. 19.
- (41) JOSEPHUS, *Ant.*, 20:160, 186.
- (42) *Ibid.*, 20:141–144.
- (43) JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, II, 266–270, *Ant.*, 20:173–178.
- (44) JOSEPHUS, *Ant.*, 20:131, 206 f.
- (45) ACT. 21, 22.
- (46) ACT. 24.
- (47) *Prosopographia Imperii Romani*, II, A. 828.
- (48) ACT. 25, 26, 27.
- (49) EUSEBIUS, *Hist. Ecc.*, 2:23; CHAINE, J., *Epétre de St. Jacques, Intred.* 30–40.
- (50) JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, 2:272 f., *Ant.*, 20:204 f.
- (51) JOSEPH., *Bell. Jud.*, 2:315–407, 408–448.

- (52) JOSEPH., *Bell. Jud.*, 2:499–555.
- (53) *Ibid.*, 2:559–561.
- (54) BAERWALD, A., *Flavius Josephus in Galilaa*, (1877); LUTHER, H., *Josephus und Justus von Tiberias*, (1910).
- (55) THACKERAY, H., *Josephus the Man and the Historian*, (1929).
- (56) SUTONIUS, *Vespasianus* 4.
- (57) JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, 3:64–69.
- (58) *Ibid.*, 3:316–408; SUT., *Vesp.* 5; DIO CASSIUS, 66:1.
- (59) MARK, 13:14–17; EUSEBIUS, *Hist. Ecc.*, 3:11.
- (60) JOSEPHUS, *Bell. Jud.*, 4:556–584.
- (61) TACITUS, *Ann.*, 4:11; SUT., *Vespas.*, 8; STEVENSON, G.H., *The Year of the Four Emperors*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 828–830.
- (62) DESSAU, 264; GRAETZ, H., *Gesch der Juden*, III; ZEITLIN, S., *La Révolution Juive*. (1930).
- (63) JUSTER, J., *Les Juifs dans l'Empire Romain*, II; BUCHER, A., *The Econ. Condition of Judata after the Destruction of the Second Temple*.
- (64) MOMMSEN, Th., *Der Religionsfrevel nach romischen Recht.*, *Ges. Schriften*, III, 416; GINSBERG, M.S., *Fiscus Judaicus*, *Jew. Quart. Rev.*, 1930, 282; ROSTOVTZEFF, *Real-Encyc.*, Cols. 2403–2405.
- (65) TACITUS, *Ann.*, 12–13; ANDERSON, J., *The Eastern Frontier*, *Cam. Anc. Hist.*, X, 754–765; GUTERBOCK, K., *Romisch-Arminien und die Romischen Satrapien*, (1900); CHRISTENSEN, A., *L'Iran sous les Sassanides*, (1936).
- (66) TACITUS, *Ann.* 15:1–17, 24–31; DIO CASS., 62:20–26, 63:1–7, SUT., *Nero*, 13.
- (67) SCHUR, K., *Klio*, suppl. vol. XV, 62 ff.; ANDERSON, J., *op. cot.*, 765–780.
- (68) CASSON, S., *Macedonia, Thrace and Illyria*, (1926).
- (69) DESSAU, H., *Gesch. der romischen kaiserzeit*, vol. II.

(70) JULIAN, *Hist. de la Gaule*, V, 155 ff.

(71) RUSHFORTH, *Latin Hist. Inscriptions*, 33; STAHELIN, F., *Die Schusiz in romischer zeit*, 232 ff.

(72) COLLINGWOOD, R.C. and MYRES, J.N.L., *Roman Britain and the English settlements*.

(73) BURN, A.R., *The Romans in Britain*, no. 1.

(74) GREEN, C., *Journ. Rom. Studies*, 1942, 39 ff.; WERSTER, G., *ibid.* 1949, 52 ff.

